الدكتور جمعه الجندى

الاستيطان الصليبى فى فلسطين



مكتبة الأنجلو المصرية


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



الاستيطان الصليبى فى فلسطين

(٤٩٢ - ٦٩٠هـ / ١٠٩٩ - ١٢٩١م)

الدكتور

جمعة محمد مصطفى الجندى

قسم التاريخ - كلية التربية - جامعة عين شمس

اسم الكتاب : **الاستيطان الصليبى فى فلسطين**

اسم المؤلف : **د. جمعه محمد مصطفى الجندى**

اسم الناشر: **مكتبة الأنجلو المصرية**

اسم الطابع: **مطبعة محمد عبد الكريم حسان**

رقم الإيداع : ١٨٧٤٧

سنة الطبع : ٢٠٠٦

الترقيم الدولي : **I.S.B.N 977 - 05 - 2162 - 0**



(بسم الله الرحمن الرحيم)

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ

صدق الله العظيم

(الحاقة : ١٢)

المحتـــوى صفحة

الخرائط والاشكال التوضيحية

مقـدمة

إن هذا الكتاب وعنوانه : « **الاستيطان الصليبى فى فلسطين** » ، يعرض لموضوع قديم جديد . قديم لأنه يعود بنا إلى عصر التوسع الصليبى ضد العالم العربى ، عندما قام الغرب الأوروبى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى بشن حملاته الاستعمارية المعروفة ضد بلدان المشرق والمغرب العربيين لبسط نفوذه وسيطرته عليها .

وهو موضوع جديد لأن الوقت الحاضر أكثر إلحاحاً لمثل هذا البحث ، ذلك أن المأساة البشرية التى مارسها الاستعمار الغربى فى فلسطين بإقامة الكيان الصهيونى الاستيطانى هناك فى نهاية النصف الأول من القرن العشرين ، وما يفعله الآن هذا الكيان فى الأراضى العربية المحتلة فى الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة ورفح، ومرتفعات الجولان السورية والجنوب اللبنانى .. تلك المأساة إنما تمثل فى الحقيقة امتداداً طبيعياً للعدوان الصليبى ، ولعله لايختلف عنه إلا فى الأسلوب الذى يتفق والأوضاع العالمية الجديدة والتيارات المتصارعة فيها .

ويثبت الواقع والتاريخ ، كما أثبتت الأحداث التى كان مسرحها العالم العربى منذ نهاية القرن الحادى عشر وحتى يومنا هذا أن كلا من الحركتين الصليبية والصيهونية فى فلسطين إنما تمثل حلقة من حلقات الاستعمار الذى تعرضت له المنطقة العربية على مر العصور .

ففى نهاية القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر نشأت فوق الأراضى العربية أول مملكة لاتينية هى «**مملكة بيت المقدس**»، كما قامت عدة مستوطنات صليبية فى الرها وأنطاكية وببعض مناطق الشاطىءاللبنانى . وكان من الضرورى للصليبيين ربط هذه المراكز الاستيطانية المتناثرة ، حتى يتمكنوا من بناء كيان صليبى محكم ، يتميز بوحدة أراضيه ، وقد تحولت سيطرة الصليبيين على بعض المدن والمراكز المتباعدة بالتدريج إلى سيادة ثابتة على أقاليم منفصلة أخذت فى التوسع والانتشار ، لأن الغزاة لم يصادفوا فى أول الأمر مقاومة فعالة أو محاولة عربية جادة للتصدى لهم بسبب تخاذل الحكام العرب ، وما هم فيه من الفرقة والتمزق السياسى الذى كان ينشب مخالبه فى المنطقة العربية حين قدمت جيوش

الصليبيين ، ولم يكن انتصار الصليبيين تعبيراً حقيقياً عن موازين القوى ، فقد كانت الجيوش العربية ، بكل مواردها الاقتصادية والبشرية إذا ما أحسن استخدامها ، تكفل هزيمة ساحقة للصليبيين ، ولكن حالة التشرذم العربى وميراث الحقد والشك والمرارة بين الحكام العرب ، جعلت انتصار جيوش الصليبيين أمراً منطقياً .

وقد أدى قيام هذه الكيانات الصليبية إلى عمليات تهجير وهجرة لأعداد هائلة من السكان العرب المسلمين ، كما حدث تفريغ إجبارى للسكان فى بعض المناطق على حين هرب سكان المناطق التى تعرضت للعدوان الصليبى إلى مناطق أخرى كانت أكثر أمنا ، وهو الأمر الذى أدى إلى تغير نسبى فى البناء السكانى للمناطق التى نالها العدوان الصليبى ، كما حدث تغير كبير فى علاقات الفئات والشرائح الاجتماعية داخل هذه المناطق، إذ تحولت الأقليات إلى أكثريات فى المناطق الصليبية ، كما ترك العدوان الصليبى ، أثره السلبى على العلاقات بين المسلمين والنصارى الشرقيين بصفة عامة ، وبعض طوائفهم بصفة خاصة.

كان على الصليبيين الذين فضلوا البقاء فى الشرق العربى ، أن يواجهوا حقائق الموقف الذى وجدوا أنفسهم تجاهه ، سواء من حيث تحمل مهام الإدارة الاستيطانية ، والتدابير العسكرية فى مواجهة المحيط السكانى من العرب والمسلمين الذين كانوا بطبيعة الحال يعادون الكيان الصليبى . ومن حيث إعادة توزيع عناصر السكان داخل أراضى العرب المحتلة ، بحيث يكون النصارى اللاتينيون هم أصحاب الكلمة العليا . ولأنهم كانوا أقل كثيرا فى عددهم من أصحاب البلاد الأصليين ، فقد حاولوا بأقصى مافى وسعهم تدعيم وجودهم بتشجيع الهجرة من أوربا إلى فلسطين. وكان التجار والجنود والحجاج والمغامرون والمهاجرون يفدون من أوروبا فى جماعات كبيرة أو صغيرة إلى المناطق التى احتلها أسلافهم الصليبيون واعتبروها وطنا ثانياً لهم.

وقد حاول بارونات الصليبيين وفرسانهم فى بداية الأمر أن يحافظوا على الأراضى التى استولوا عليها دون الاستعانة بالغرب الأوروبى ، ولكن جسداً غريباً لا يمكن أن يعيش فى منطقة معادية بغير سند يدعمه من خارج المنطقة . وهكذا كان على أوروبا أن تقوم بدور الظهير الذى يرعى الكيان الصليبى ويحميه باعتباره جزءاً من الغرب الأوروبى يعيش تحت سماء الشرق العربى . وعلى مايقرب من قرنين كانت أوروبا تبعث برجالها ونسائها وأطفالها أحيانا لدعم الكيان

الصليبى وكانوا يجيئون بعشرات الألوف : حجاجاً ، وجنودا مسلحين ، فى مجموعات صغيرة يقودها أمراء إقطاعيون ، أو على شكل جيوش ضخمة يتولى قيادتها أكبر حكام أوروبا آن ذاك ، وهو مايعنى أن الحملات السبع المعروفة لا تعبر عن واقع الحال إذ كانت موجات المهاجرين تشبه موجات عاتية أحياناً ، كما كانت أشبه بالتقاطر الهادىء المستمر أحيانا أخرى، وفى طيات هذه وتلك وفد الحجاج والمحاربون ، والقراصنة وطريدو القانون ، والتجار ، ورجال الدين ، والنبلاء ، والشرهون لامتلاك الأرض ، والحالمون ، والأفاقون ، الذين اتخذوا جميعا من الشرق ذى السحر الغامض هدفا ومقصدا . وكان لهذه الهجرات تأثيرها على البناء السكانى من خلخلته ، وتغيير ملامحه .

ولكن التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على الغرب الأوروبى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر جعلت حجم التأييد الأوروبى الفعال للكيان الصليبى يتقلص شيئا فشيئا ، كما أن إساءة استخدام البابوية لفكرة الصليبية بالقدر الذى جعلها تستخدمها لضرب خصومها السياسيين من ملوك أوروبا الكاثوليك، جعل الناس فى الغرب الأوروبى لايحفلون كثيرا بمشروعات البابوية الصليبية ، فضلا عن اهتمام ملوك أوروبا وحكامها بمشاكل الحكم والإدارة والعلاقات السياسية ، جعلهم غارقين فى تلك المشاكل .. حقيقة أن الفكرة الصليبية لم تختف ولكن وسائل تحقيقها فى نظر الأوروبيين فى القرن الثالث عشر كانت تختلف عن رؤية أسلافهم الذين دعموا الحملة الصليبية التى جرى العرف على اعتبارها الحملة الأولى وخرجوا فى صفوفها . لقد اختلفت مصالح ومفاهيم الظهير الأوروبى مع مصالح ومفاهيم الكيان الصليبى فى الشرق بالشكل الذى سار بالصليبيين فى طريق النهاية المحتومة على يد المسلمين فى المنطقة العربية ، وهذا ماتناولناه تفصيلاً فى الفصل الأول من هذا الكتاب وعنوانه «**استقرار الصليبيين فى القدس**» .

ودراستنا لأوضاع الاستيطان الصليبى فى الأراضى العربية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لابد وأن تقودنا إلى الحديث عن النظم الإقطاعية التى طبقها الصليبيون فى تلك الأراضى، ولذلك جعلنا موضوع «**نظم الحكم والإدارة**» منحى الفصل الثانى . كان ملك بيت المقدس يتربع على رأس النظام الإقطاعى ويليه أربعة من كبار الأمراء لكل واحد منهم موظفوه وإدارته فكان كل أمير منهم أشبه مايكون بالملك نفسه ، ولكن على صورة مصغرة وبعد ذلك جاءت مجموعة

الأمراء الذين حكموا بقية المدن .

وقد أكد المؤرخون المحدثون أن الحكام الصليبيين ، وعلى وجه الخصوص ملوك بيت المقدس ، لم يتمتعوا بالسلطة التامة على قواتهم العسكرية . وعلى امتداد القرن الثانى عشر جرت المبالغة فى التشديد على هذه النقطة . وقد استشهد أحد المؤرخين فى تأييده لها بعديد من المناسبات التى أخفق فيها ملوك بيت المقدس فى السيطرة على من حضر من الغرب الأوروبى من الأمراء الذين جلبوا معهم قوات للقتال فى بلاد الشام لموسم معين إلى جانب المستوطنين الصليبيين .. وأشار مؤرخ آخر هو إلى رفض الدواية التعاون مع الملك أمارى الأول فى غزوه لمصر .

والحقيقة أن هذه الأمثلة تظهر فقط أن الملوك الصليبيين كانوا يفتقرون إلى السلطة فى أحوال معينة ، فقبل كل شىء ، لم يكن الحجاج البارزون ملزمين بالخضوع لهم . أما طوائف الرهبان الفرسان ، فكانت ملزمة إلى حد ما . ولم يورد دودو أى مثال على إخفاق الحكام اللاتين فى السيطرة على أتباعهم من المقطعين فى الحرب ، وإنما كانت تحدث أحياناً مثل هذه المناسبات ، واتضح لنا بصورة جلية غياب القيادة العسكرية الفعالة خلال السنوات الخمس التى بلغت الذروة فى معركة حطين ، غير أن هذه الفترة تغلب فيها تقدم مرض الجذام على الملك بلدوين الرابع ، وخلفه على الملك طفل قاصر ، ولذلك تولت الوصاية عليه أخت بلدوين الرابع ، وهى فى الوقت ذاته أم هذا الطفل . ونشأت مشكلتان : أولاهما الوصاية ، وثانيتهما الخلافة على العرش ، وبذلك تقلصت السلطة الملكية وبالمقابلة مع خلفية الأجيال الثلاثة السابقة ، كان ما واجهه الملك جاى لوزجنان من تحد وهذا التحدى كان حالة استثنائية . وعلى وجه العموم يبدو أن ملوك بيت المقدس الستة الأوائل قد تمتعوا بقدر كامل من السلطة ، وثمة تأييد لهذا فى تحليل الأحداث السياسية فى الفصل الثانى .

واستعرضنا فى الفصل الثالث وعنوانه « **الاقتصاد والتجارة** » عدداً من النقاط الرئيسية ، من بينها الموارد الطبيعية والاقتصادية لمملكة بيت المقدس ، والنظام الاقتصادى وتركيبه ، ثم تحدثنا فى إطار ذلك عن نظم الزراعة والعلاقات بين الصليبيين وأصحاب البلاد المسلمين والعلاقات الاقتصادية والخارجية والتنظيم الاقتصادى الداخلى ، والطرق والمراكز التجارية بين الشرق والغرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، والسلع المتبادلة بين الطرفين ودور التجار الإيطاليين فى

عملية التبادل التجارى والرسوم الجمركية المفروضة على الصادرات والواردات والأسواق ووضع التجار الإيطاليين فى أحيائهم .

وقد استخدم الصليبيون الحرب وسيلة لتوطيد ملكهم والمحافظة على أنفسهم فى الأراضى المحتلة ، وكانت الحرب جزءاً أساسياً من مجمل الحياة فى الشرق الفرنجى ، فارتبطت وسائل خوض الحرب المتاحة للصليبيين والاستعمالات التى استخدمت فيها بالاعتبارات السياسية والعلاقات القانونية والاقتصادية فى نطاق المجتمع المتحول إلى النظام الإقطاعى . وتلقى دراسة الحرب ودراسة التنظيم السياسى والاجتماعى الضوء .. الواحدة على الأخرى كما تتمم إحداها الأخرى . ويهدف الفصل الرابع إلى دراسة «**القلاع والشئون الحربية**» للصليبيين.

وكل من يلتمس المعلومات حول الاستيطان الصليبى فى الأراضى العربية يواجه بتفسيرين مختلفين اختلافاً جوهرياً للحقائق ، فوفقا لأحدهما تكيف الصليبيون مع البيئة الشرقية ، ووطدوا مركزهم بين المواطنين العرب الذى تمسكوا بالبقاء فى أراضيهم المحتلة .. وكانت النتيجة ولادة شعب جديد ، امتزجت فيه – بكل مافى الكلمة من معنى – كافة عناصر السكان، ولم يكن هذا الشعب زائفاً بأى شكل من الأشكال ، وإنما كانت له حياته الخاصة .

أما التفسير الآخر ، فيعتبر الميزة الأساسية لتنظيم الكيان الصليبى فى فلسطين تمثلت فى فرض أرستقراطية ضئيلة عدداً على الأكثرية من السكان الوطنيين ، واستغلت هذه الطبقة الحاكمة الشعوب الخاضعة لها اقتصادياً بكل ما وجدته قائماً من تنظيمات اجتماعية شبيهة بما كان معهوداً لديها فى أوروبا ، وفيما عدا ذلك لم يكن لها إلا تأثير ضئيل على حياة السكان الوطنيين اليومية .

وبالنظر إلى مثل هذين الرأيين المختلفين كان لابد من استعراض الأدلة التى يقوم كل منها عليها ، إما للتوفيق بينهما أو لتقرير أيهما التفسير الأفضل للحقائق ، وهذا ما تناولناه فى الفصل الخامس والأخير من هذا الكتاب وعنوانه «**المجتمع الصليبى**» .

وقد زودنا الكتاب بخمس خرائط ، توضح إحداها الحدود التى كانت قائمة بين الكيانات الصليبية فى بلاد الشام خلال القرن الثانى عشر ، أما الخرائط الأخرى فإنها تحدد مواقع القلاع والحصون التى أقامها الصليبيون فى طول البلاد وعرضها . كما عرضنا عدداً من اللوحات تمثل بعض أدوات القتال فى تلك الفترة .

وقد ختمناه بقائمة أسماء المصادر والمراجع التى اعتمدنا عليها ..

****

وإلى جميع الذين عاونونا على هذا العمل نقدم شكرنا الخالص .. غير أننا نود أن ننوه إلى فضل أستاذنا العلامة - المرحوم بإذن الله تعالى - الأستاذ الدكتور **رأفت عبد الحميد** ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى السابق بكلية الآداب - جامعة عين شمس ، الذى لم يقف دوره فى هذا الموضوع عند حد الإشراف والتوجيه فحسب، بل تعداه إلى المراجعة والإرشاد فى روح من العطف والأمانة العلمية والذى هدانى باقتراحاته القيمة إلى كثير من التعديل فى المتن والحاشية.

كما يهمنا بصفة خاصة أن نقدم تقديرنا وعرفاننا بالجميل ، لأستاذنا العلامة الأستاذ الدكتور **قاسم عبده قاسم** ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ الأسبق بكلية الآداب - جامعة الزقازيق ، الذى مهما شكرته فلن أوفيه حقه ، فلقد شجعنى ومنحنى من علمه ووقته الكثير ، ولم يتوان عن متابعتى طيلة سنوات ثلاث خلت حتى خرج موضوع هذا الكتاب على هذه الصورة .

كما أوجه الشكر العميق لأبى وأستاذى العلامة الأستاذ الدكتور **إسحاق تاضروس عبيد** ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب - جامعة عين شمس ، على تفضله بإبداء الملاحظات القيمة عندما كنا نتبادل الرأى فى نقاط موضوع **«الاستيطان الصليبى فى فلسطين»** فى أول عهدنا باختيار هذا الموضوع . فكم أضاء لنا أستاذنا الدكتور إسحاق عبيد من الجوانب والنقاط من خلال اللقاءات والمناقشات ماجعل الرأى يستقر على اختيار هذا الموضوع الذى شعرنا عندما بدأنا فى بحثه، واسترسلنا فيه بالفائدة والمتعة .

ولايفوتنا أن نقدم عظيم شكرنا وإمتناننا لكل من ساعدنا فى ترجمة ومراجعة العديد من النصوص اللاتينية والفرنسية ، وأخص بالذكر الأستاذة الدكتورة / **عائشة أحمد محمود سليم** ، الأستاذة بقسم اللغة الفرنسية ، بكلية التربية - جامعة عين شمس .

ونقدم كل التقدير والثناء والعرفان بالجميل للأب الدكتور **جورج قنواتى** رئيس دير الآباء الدومينكان بالقاهرة ، لما قدمه لى من المساعدات الكثيرة والقيمة إبان ترددى على الدير لجمع المادة العلمية لهذا الموضوع .

كما لايفوتنا كذلك أن نقدم الشكر لكل من عاوننا من المشرفين والمشرفات

على المكتبات العامة ، ونخص بالذكر السيد / **عرفة السيد** ، أمين مكتبة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، والسيد / **عاطف على عيد** ، أمين مخزن الرصيد الإفرنجى بالمكتبة المركزية بجامعة القاهرة ، والسيدة/ **جلوريا س . أوهان كرنوك** ، أمينة مكتبة قاعة كريزويل بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .

ونود أن نشكر **مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة** – لقيامها بالإشراف على إخراج هذا الكتاب على هذا النحو الدقيق والواضح ، الذى أسعدنا أن يصبح الكتاب به فى متناول القراءة المريحة للنفس والنظر.

ويسعدنا أن نقدم الشكر والتقدير لكل من ساعدنا فى إخراج هذا الكتاب ولو بالكلمة الطيبة . وندعو الله سبحانه وتعالى أن يكون كتابنا هذا قد حقق ولو قليلاً من غرضه .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ،،،،

الدكتور

جمعة الجندى

العريش فى ٢٠٠٥/٥/٧ م

الفصل الأول
استقرار الصليبيين فى القدس

- الصراع بين العلمانيين والأكليروسيين حول من يكون له شرف الرياسة فى القدس. اختيار جودفرى البويونى ليكون زعيماً وحاكماً للمدينة.
- جهود جودفرى فى الدفاع عن القدس ومد نفوذها إلى عدد من مدن الساحل.
- جودفرى ودايمبرت .
- وفاة جودفرى وتولى أخوه بلدوين الأول مقاليد الأمور فى القدس ، بلدوين الأول والاستيطان الصليبى فى الأراضى العربية.
- زواج بلدوين الأول.
- أبعاد مشكلة نقص السكان فى القدس .
- تعميرالقدس بالسريان الأرثوذكس .
- بلدوين الثانى وإنعاش الأحوال الاقتصادية فى بيت المقدس ، الملاحظات التى سجلها فوشيه من شارتر حول تغير أسلوب معيشة الصليبيين وتعليقات المؤرخين عليها ، ظاهرة غياب الجاليات الإيطالية عن القدس.
- الصليبيون يحاولون إيجاد أسلوب للتعايش مع المسلمين .
- العلاقات بين النصارى المحليين والصليبيين .
- اعتماد الصليبيين على قلاعهم لإحكام سيطرتهم على الأراضى العربية التى احتلوها ، سقوط الرها والحملة الصليبية الثانية.
- تحول سياسة الاستيطان الصليبى من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى .
- الصليبيون والبيزنطيون .
- رينو دى شاتيون وسقوط المملكة اللاتينية الأولى .
- تحول المثال الصليبى وتحرير الأراضى العربية .

خلال حصار مدينة القدس ، وبين طنين آلات الحصار وهدم الأسوار ، وأصوات الأحجار المتطايرة وفي ظل أسوار المدينة المحاصرة ، عقد الصليبيون مجلسا لكي يقرروا من يكون له حكم القدس بعد الاستيلاء عليها . وهنا اقترح القادة العلمانيون للحملة الصليبية الأولي أن يتم في الحال اختيار حاكم علمانياً للقدس حتي يتمكن غالبية الصليبيين من العودة إلي بلادهم بعد أن يحتلوا المدينة ، ويكونوا بذلك قد أوفوا بقسمهم الذى قطعوه على أنفسهم فى بداية الحملة . والحقيقة أن هؤلاء القادة كان لهم خبرة كبيرة فى شئون الحكم والإرادة ، ولذلك كان واضحاً لهم أنهم لابد من اختيار حاكم علمانى قوى يستطيع أن يحافظ على المكاسب التى أحرزتها الحملة ، وهى المكاسب التى بذلوا فى سبيلها الكثير من الأرواح والأموال . وكانت مشكلة هؤلاء القادة تكمن فى اختيار الحاكم المناسب وليس فى شكل الحكم(١) .

غير أن القادة العلمانيين لقوا معارضة شديدة من جانب الزعماء الذين عبروا عن الأفكار العاطفية لدى عامة الصليبيين ، والذين أثاروا الشغب قبل ذلك فى مدينة أنطاكية ، بعد أن طال الجدل والنقاش بين الزعماء حول مصير المدينة ، ومن الراجح أن هؤلاء الزعماء كانوا متأثرين بفكرة الشد النصرانى في ميلاد الحركة الصليبية ، ولذلك رفضوا اختيار أو تعيين أى حاكم أياً كان ، واعتمدوا فى ذلك على تفسير غريب لإحدى النبوءات التى وردت فى الكتاب المقدس(٢) وادعوا أن المسيح (عليه السلام) على وشك الظهور ، وأن أى تكريس سيكون مصيره الزوال(٣) .

والواقع أن أولئك الذين تركوا غرب أوروبا وشعارهم أن المسيح قائدنا ، أولئك الذين قادهم المحبوب ، والذين اكتظت بهم طرقات فرنسا وألمانيا ، والذين كانوا يسألون فى كل قرية ومدينة يصلون إليها ، هل وصلوا أخيراً إلى القدس ، نظروا إلى فكرة إقامة حكومة تقليدية ذات حاكم وقوانين ، ونظم صورة طبق الأصل من تلك

(1) Prawer (J.), The Latin Kingdom of Jerusalem, European Colonialism in the Middle Ages (London, 1973), P. 34 .

(٢) تقول هذه النبوءة : **«سبعون أسبوعا قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الإثم وليؤتى بالبر الأبدى ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القدوسين»** . انظر : سفر دانيال ٩ / ٢٤ .

(3) Raimond d'Aguilers, Historia Francorum qui Ceperunt Jerusalem R.H.C., Hist., Occ. , 111, Paris, 1866, P. 296.

التى تركوها خلفهم فى أوروبا ، على أنها خيانة وإنحراف عن الفكرة الصليبية . وعندما زحف الجيش الصليبى نحو القدس حاسر الرأس حافى القدمين تائبا شعر أولئك الناس بأنهم قد تطهروا من الخطيئة ، واستعدوا لدخول مملكة السماء . وفى مثل هذه الظروف كانت فكرة إقامة حكومة من البشر تبدو شبه مستحيلة(١) .

وبجانب الفريقين السابقين تزعم بعض كبار رجال الدين فريقاً ثالثا من الصليبيين وطالبوا بأن يجرى أولا مناقشة الشئون الروحية على اعتبار أن للقيم الروحية الأسبقية على الاعتبارات الدنيوية .. ولذلك فلا بد من تعيين حاكم روحى للقدس قبل اختيار حاكم علمانى لها ، لأن الحاكم الروحى هو الذى سوف يشرف على عملية الانتخاب . ويبدو أن الإجراءات لم تكن مشكلة هذا الفريق ، وإنما كان رأيهم يتخلص فى أنه طالما أن الحملة الصليبية قد أعدتها الكنسية من أجل المسيح (عليه السلام) فلا بد من أن تكون لها السلطة العليا وخصوصاً أن الحملة الصليبية الأولى لم يشترك فيها أى ملك أوروبى (٢) ، ثم تقرر تأجيل البت فى هذا الموضوع إلى أن يتم احتلال القدس .

وبعد أن تم الغزو الصليبى المتبربر للقدس فى الخامس عشر من يوليو سنة ١٠٩٩م (٣) ، اجتمع قادة الصليبيين للنظر فى الشئون العاجلة للإدارة ، فلا بد من إخلاء الشوارع والمنازل من الجثث المتراكمة بها ، ولابد من تدبير أمر التخلص منها ، ولا بد من تعيين أحياء خاصة بالقدس لينزل بها الجند والحجاج(٤) ولا بد من توزيع الأسلاب ، ولا بد من الاستعداد لمواجهة ماسيقوم به المصريون من هجوم مضاد(٥) . وفى هذا الوقت ثار الجدل مرة أخرى حول من يكون له شرف الرياسة فى القدس . وبدأ الخلاف واضحاً هذه المرة بين رجال الدين والعلمانيين

(1) Prawer, Latin Kingdom, P. 36 .

(2) Ibid.

(3) Hagenmeyer (H.), "Chronologie de la Premiere Croisade (1094 - 1100)". R.O.L., VI, P. 477 .

(4) Runciman (S.), A History of the Crusades, (Camb.,1968), I, P. 290.

(5) Boase (T.S.R.) Kingdoms and Strongholds of the Crusaders, (London, 1971), P 22 .

الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى .. وكان كل فريق يرى أحقيته فى ترشيح من يمثله ليحكم المدينة ؛ فرجال الدين يرون اختيار رئيس روحى لها ، لأن البابوية هى التى دعت فى البدء لتخليص القدس ، وتولت زعامة الحملة الروحية ممثلة فى أسقف بوى **Buy** ، أديمار **Adhmar** ، المندوب البابوى ، بينما أصر العلمانيون على اختيار حاكم علمانى [١] ، يستطيع الدفاع عنها .

على أنه من الواضح أن قيام حكومة دينية فى القدس تخضع لإشراف الكنيسة وهيمنة رجال الدين وتوجيههم كانت فكرة غير عملية ، ولايمكن تنفيذها ، وإذ نفذت فلا يمكنها الاستمرار ، ذلك أن قيام كيان لاتينى يتألف سكانه من النصارى الغربيين فى بقعة بمثابة القلب من العالم الإسلامى ، أمر يحتاج إلى قيادة حربية علمانية للدفاع عن هذا الكيان ضد الأعداء المحيطين به ، ولذلك سرعان ما استبعد الصليبيون من حسابهم هذه الفكرة، بعد أن تبين لهم أنه من الصعب تحقيقها، وخاصة بعد وفاة أديمار[٢] ، إذ لم توجد بين صفوف الصليبيين بالشام شخصية دينية أخرى لها من المكانة والنفوذ ما يساعد على ذلك[٣] .

وهكذا قرر الصليبيون أن يتولى شخص علمانى شئون الحكم والإدارة فى القدس، وكان هناك أربعة من كبار الأمراء يصلحون لهذا الأمر وهم ريمون السانجيلى **Raymond of Sant-Giles** وجودفرى البويونى **Godrfrey of Bouillon** دوق اللورين الأدنى ، وروبرت **Robert** كونت الفلاندرز **Flanders** وروبرت دوق نورماندى **Normandy**[٤] .. غير أنه شاع بين أوساط الصليبيين أن كلا من روبرت الفلاندرز ، وروبرت النورمانى يرغب فى العودة إلى وطنه متى استقرت الأحوال فى فلسطين [٥] . وهكذا انحصر الاختيار بين جودفرى وريمون ،

---

(١) جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، فى الحرب الصليبية الأولى ، (الطبعة الثانية ، الإسكندرية ، ١٩٨٣) ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) مات فى أنطاكية أول أغسطس سنة ١٠٩٨م .

(3) Grousset (R.), Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem (Paris, 1934), I,P. 167 ; Boase, Kingdoms and Strongholds, P. 22 .

(4) Grousset, Op. Cit., P. 169 .

(5) Runciman, A History of the Crusades, I, P. 291 .

الذى رفض – كما يقال – العمل بإرادة هيئة الناخبين[١] ، وهى الهيئة المعبرة عن آراء الصليبيين . ولكن هذا القول لايمكن الأخذ به على علاته ، ذلك أن ريمون كان أول نبيل استشاره البابا أوربان الثانى فى مشروع الحملة الصليبية وأول من أعلن إقراره لها ، ولهذا السبب ولغيره من الدواعى اعتبر أنه له الحق فى القيادة العلمانية للحملة، غير أن ماحرص عليه البابا من إخضاع الحركة الصليبية للسيطرة الروحية جعله يرفض هذه الدعوى [١] . ومع ذلك فإن ريمون كان قد وضع ترتيباته الخاصة به للإقامة الدائمة فى الشرق ، على أمل أن الحاجة إلى قائد علمانى قد تشتد فيما بعد .

كانت كفة ريمون هى الراجحة ، بما له من قوة الشخصية ، وسعة النفوذ ، وكثرة الأتباع ، والخبرة العسكرية ، والمهارة السياسية ، وصلته بالبابوية . وأعتقد ريمون هو بدوره أن القدر الذى تخلى عنه من قبل مرتين ، الأولى عندما حرم من زعامة الحملة الصليبية عند خروجها من أوروبا ، وعهد بذلك إلى المندوب البابوى إديمار ، والثانية عند إنطاكية عندما آلت هذه إلى بوهيموند النورمانى .. اعتقد الرجل الآن أن القدر الذى قطب جبينه وعبس فى وجهه هكذا ، لابد وأن يبتسم له عند بيت المقدس !! .

على أن كل هذه المؤهلات التى كان يتفوق بها ريمون على منافسه جودفرى ، وقفت إلى جانب هذا الأخير ، يضاف إليها وقوف ريمون منذ أحداث أنطاكية ، مؤيداً بكل قوة لحقوق الإمبراطور البيزنطى ، بينما كان من قبل من أشد معارضيه . ولايغيب عن أذهاننا أن هؤلاء الأمراء الذين شاركوا فى هذه الحملة ، هم أمراء أوروبا الذين يعيشون في قلب النظام الإقطاعى بأهم سماته السياسية ، من تفوق السلطات المحلية ، أو سلطات الأمراء على سلطة الملوك ، أو بتعبير آخر ، يعرفون تماماً قيمة وجود سلطة مركزية ضعيفة ، أو ملك ضعيف على العرش ، إذ يمكنهم من خلال ضعفه أن يحققوا كل ما يطمحون إليه . ولما كانوا قد جاءوا إلى الشرق والأطماع تقود خطاهم ، فلا معنى إذاً لاختيار شخصية قوية تتسيد عليهم ، فتغل بالتالى أيديهم عن تحقيق مايبتغون ، ومن هنا تخوفوا من شخصية ريمون[٢] .

(1) Runciman, A History of the Crusades,I, P.159 .

(٢) رأفت عبد الحميد ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، (القاهرة ، ١٩٨٤) ، ص ١١٣ – ١١٤ .

أدرك ريمون أن اختياره لن يلقى تأييداً من غالبية الصليبيين ، وأن زملاءه لن يخضعوا فعلاً لسلطانه ، بل إن جنوده الذين حرصوا على العودة إلى بلادهم أعلنوا معارضتهم لقبوله العرش(١) . لذلك أعلن أنه لايجب أن يكون ملكا فى (٢) مدينة المسيح المقدسة، وكان يأمل من وراء ذلك ، فيما يبدو ، أنه يصير مستحيلاً على أى شخص آخر أن يكون ملكاً .

وعلى أثر هذا الرفض أجمع رجال الدين والفرسان على اختيار جودفرى ليكون زعيماً وحاكماً للقدس ، نظرا لما اشتهر به من التقوى بين صفوف الصليبيين، مما جعله قريباً من الأفكار التى كان يدعو إليها رجال الدين . إن كان اختيار جودفرى ليتولى مقاليد الأمور فى القدس ، وهو رجل علمانى فى المقام الأول يعتبر الخطوة الأولى التى مهدت لقيام النظام الملكى فيما بعد ؛ ذلك أن اتجاه هيئة الناخبين إلى استبعاد انتخاب رجل من رجال الدين ، إنما قصد به فيما يبدو قيام ملكية إقطاعية فى فلسطين منذ اللحظة الأولى ، وإن كانوا بطبيعة الحال قد وضعوا اقتراحات رجال الدين نصب أعينهم ، وهى أن يكون الرجل العلمانى المرشح لحكم القدس متدينا . وقد قبل جودفرى هذه المسئولية بعد أن أظهر شيئاً من الامتناع وعدم الارتياح(٣) . وبعد أن تم الانتخاب نظم الصليبيون احتفالاً فخما ابتهاجاً بهذا الأمير الشاب الذى أقاموه على رأس مملكتهم الجديدة(٤) .

ولم يمض وقت طويل على هذه الأحداث حتى اضطر الصليبيون إلى التصدى لأزمة خطيرة هددت وجودهم فى فلسطين فى هذه الفترة المبكرة من تاريخ استيطانهم فى بلاد الشام ، ذلك أن الفاطميين كانوا قد أرسلوا جيشاً كبيرا لتحرير القدس ، والقضاء على الصليبيين . وكان هذا الخطر كبيرا لدرجة استدعت أن تساهم كافة القوات الصليبية فى مواجهة هذا التهديد(٥) . ولم يتخلف عن

(1) Boase, Kingdoms and Strongholds, P. 23 .

(2) Bradford, (E) . The Sword and the Scimitar, the saga of the Crusades, (London, 1947), P. 90.

(3) Runciman, A History of the Crusades, I. P. 292 .

(4) Conder (C.R.), The Latin Kingdom of Jerusalem, 1099 to 1291 A.D., (London, 1897), P. 69 .

(٥) فى ٤ أغسطس ١٠٩٩ م أرسل جودفرى البويونى رسالة إلى تانكرد فى نابلس يطلب منه التوجه مباشرة إلى شاطىء البحر للتأكد من صحة الأخبار القائلة بأن حملة فاطمية وصلت من مصر إلى فلسطين . انظر:

Hagenmeyer, "Chronologie" PP. 485, 487.

الاشتراك فى هذا الجيش سوى العجزة والشيوخ الذين بقوا تحت رعاية بطرس الناسك ليقوموا بالإبتهالات للرب لنصرة الصليبيين . وفى ١٢ أغسطس ١٠٩٩م ، تقابل الجيشان بالقرب من مدينة عسقلان ، وكانت القوات الإسلامية تفوق فى عددها القوات الصليبية ، ومع ذلك فإن الصليبيين ألحقوا بهذه القوات هزيمة قاسية[١]، وإن كانوا لم يتبعوا هذا الانتصار بمهاجمة مدينة عسقلان نفسها ، ويرى المؤرخون أن هناك سببين لذلك ، فيقول البعض إن سبب ذلك كان أن حاكم عسقلان قد رشا قادة الصليبيين حتى لايتعرضوا للمدينة[٢] ، ويقال فى ذلك أيضاً أن السبب كان الخلاف الذى نشب بين جودفرى وريمون حيث إن كلا منهما قد رغب فى ضم عسقلان إلى مملكته[٣] ، ويوفق ابن القلانسي بين هذين الرأيين فيقول إن الصليبيين «**ضايقوا عسقلان إلى أن قرروا عليها .. عشرين ألف دينار تحمل إليهم وشرعوا فى جبايتها من أهل البلد ، فأتفق حدوث الخلف بين المقدمين فرحلوا ولم يقبضوا من المال شيئاً**»[٤] ، ويبدو أن الصليبيين قد اثروا العافية لأنهم لم يكونوا قد ثبتوا أقدامهم بعد فى الأراضى التى كانوا قد احتلوها.

---

(1) Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitomorum (The deeds of the Franks and the other pilgrims to Jerusalm), edited and transl. By Rosalind Hill, (Thomas Nelosn and sons, U.S.A., 1962), PP. 95 - 97 ; Hagenmeyer, P. 489 .

وانظر كذلك الرسالة التى أرسلها تانكرد فى نهاية أغسطس ١٠٩٩م إلى روجر بورصا يخبره فيها بانتصار القوات الصليبية فى عسقلان فى :

Archive de L'Orient Latin, (Publiees sous le Patronage de la Societe de L'Orient Latin Paris, 1881), I.P. 200 .

(٢) يذكر ابن الأثير (الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٩٠) : أن الصليبيين لم يتخلوا عندئذ عن عسقلان إلا بعد أن «**بذل أهلها قطيعة اثنى عشر ألف دينار ، وقيل عشرين ألف دينار ثم عادوا إلى القدس**».

(3) Albert d'Aix, Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae R.H.C., Occ., IV, P. 498; A.O.L., P. 200.

(٤) ابن القلانسى ، ص ١٢٧ .

وعلى أية حال فإن الصليبيين انسحبوا بعد القضاء على ذلك الخطر الذى هدد كيانهم . وبعد ذلك بقليل (آخر أغسطس ١٠٩٩م) [١] ، رحل ريمون السانجيلى من القدس وبصحبته عدد كبير من الصليبيين عائدين إلى بلادهم[٢] . ولما كان كل من روبرت النورمانى ، وروبرت الفلاندرز حريصاً فى ذلك الوقت على العودة إلى وطنه ، فقد أعلنا أنهما قررا الرحيل مع ريمون بعد أن أديا واجبهما وأوفيا بنذريهما. على أن جودفرى تأثر لفراقهما برغم ماوقع من الخلافات الأخيرة بينهم ، فعندما اجتمعا به لوداعه ، توسل إليهما متى بلغا أوروبا أن يعملا بكل مافى وسعهما لحث الناس على القدوم للشرق للقتال من أجل الصليب، وأن يذكراهم بالمركز الحرج الذى صار إليه أولئك الذين استوطنوا فلسطين[٣] .

والحقيقة إن عودة كثير من الصليبيين إلى غرب أوروبا فى تلك المرحلة ترك مدينة بيت المقدس فى حاجة شديدة إلى الرجال والمقاتلين فى الوقت الذى أحاط بها أعداؤها من كل جانب . وكان تنكرد الذى يعتبر أقرب مصدر لمساعدة الصليبيين فى القدس يبعد عنها بحوالى خمسة وسبعين ميلاً إلى الشمال . وإن كانت موارد تنكرد من الرجال والعتاد غير كافية ليمد بها جودفرى الذى لم يكن يمتلك قوة بحرية ، ولذلك حاصرته أساطيل المسلمين من ناحية البحر ، وهددت طرق مواصلاته إلى يافا [٤] ، ومن الواضح أن عدد الصليبيين الذين استوطنوا فى فلسطين كان لايكفى لكى يقوم جودفرى بغزو أراض جديدة ، وانتزاعها من المسلمين ، بل إن هذا العدد كان غير كاف للدفاع عن القدس نفسها فى حالة وقوع هجوم كبير من جانب المسلمين ، وقد كان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين لم يقوموا فى خريف سنة ١٠٩٩ م بهذا الهجوم . ولم يكن ذلك بسبب خوف المسلمين من الصليبيين كما يزعم بعض المؤرخين [٥] ، وإنما يرجع فى الحقيقة إلى عدم

(1) Hagenmeyer "Chronologie", P. 292 .

(2) Hill (J.H.), **"Raymond of Saint Gilles in Urban's Plan of Greek and Latin Friendship"**, Speculum XXVI, (April., 1951), P. 264.

(3) Runciman, A History of the Crusades, I.P. 298.

(4) Fink (H.S.), "The Foundation of The Latin States, (1099 - 1118)" , in Setton (ED.), A History of the Crusades, I.P. 375...

(٥) انظر : عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس الصليبية ، (الإسكندرية، ١٩٥٨) ، ص ٦٤ .

تعاون الحكام العرب وشكوكهم المتبادلة .

وهكذا عاش الصليبيون فى بيت المقدس فى تلك المرحلة على ذكرى انتصاراتهم فى أنطاكية وبيت المقدس وعسقلان ، فلم يستطيعوا أن يجعلوا احتلالهم لفلسطين احتلالاً فعلياً ، واكتفوا بوضع حاميات فى المدن الرئيسية مثل القدس وبيت لحم والخليل والرملة واللد ويافا ونابلس وبيسان وطبرية والناصرة . أما الأراضى والقرى والمزارع المحيطة بتلك المدن ، فقد ظلت فى أيدى أصحابها العرب . ويمكن تشبيه المستوطنات الصليبية فى بلاد الشام فى ذلك الوقت بالجزائر الصغيرة المتناثرة وسط محيط واسع من الأعداء الذين ظلوا يتحينون الفرصة المناسبة للانتقام واسترداد حقوقهم المغتصبة من هؤلاء النزلاء المحتلين(١) .

ولم يعد غريباً إذاً ، فى ضوء هذه التحديات أن يبذل جودفرى قصارى جهده للتغلب على المشاكل التى كانت تواجه دولته ، وعلى رأسها مشكلة قلة عدد المستوطنين فى بيت المقدس ، ولحل هذه المشكلة رأى جودفرى أنه من الضرورى أن يبدأ بتقوية الصلة بين القدس وأوروبا عن طريق البحر ، بالإستيلاء على شواطىء فلسطين المواجهة لدولته ، حتى يستطيع تأمين طريق الحجاج من ناحية ولتنشيط التجارة مع الغرب من ناحية أخرى ، مما يوفر للكيان الصليبى فى فلسطين كثيراً من أسباب القوة . وقد بذل جودفرى جهداً كبيراً فى تحصين يافا وتقوية استحكاماتها(٢) ، وقد ساعده فى هذه المهمة الأسطول البيزى . ولم تلبث يافا بعد تحصينها أن أصبحت مركزاً لنشاط تجارى وحربى كبير بعد أن صارت الميناء الرئيس للكيان الصليبى فى القدس . فقصدتها السفن التجارية من مختلف أنحاء العالم الغربى ، وبخاصة من جنوا والبندقية وبيزا ، لإحضار الحجاج من ناحية ، وإمداد القدس بما احتاجت إليه من إمدادات من ناحية أخرى (٣) .

لم يكتف جودفرى بذلك ، بل حاول أن يدعم اقتصاد دولته بفرض الإتاوات المالية والعينية على البلدان الإسلامية المجاورة . ويعتقد جروسيه أن جودفرى خطط لسياسة التعايش السلمى مع المسلمين ، ويزعم هذا المؤرخ أن الأمراء والحكام العرب قد رحبوا بذلك لأن ظروفهم السياسية قد تطلبت ذلك فى الوقت الذى كان

---

(1) Grousset, Histoire des Croisades, I, P. 181 .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣٠٤ ؛ ابن القلانسى ، ص ١٢٨ .

(3) Grousset, Op., Cit., P. 183 .

أملاكهم متداخلة مع أملاك الصليبيين . ويرى جروسيه أن النشاط الاقتصادى ، وخاصة الزراعة والتجارة ، تتطلب من المسلمين والصليبيين أن يقبلوا سياسة الوفاق ولو لفترات محددة(١) . وفى اعتقادنا أن تخاذل الأمراء والحكام العرب فى مواجهة جودفرى يعود فى المقام الأول إلى حالة التشرذم السياسى وميراث الحقد والشك والمرارة التى كانت سائدة آنذاك بين أولئك الأمراء والحكام . وإذا كان الأمركذلك ، فلم يعد غريباً إذاً أن يبعث المسلمين فى أرسوف سفارة إلى جودفرى وصلت إلى القدس فى ٢٥ مارس ١١٠٠م ، وقد حملت إليه هدية رمزية عبارة عن مفاتيح أبراج المدينة ، وعرضت عليه أن تدفع إتاوة سنوية ، فقبل جودفرى خضوعهم وإذعانهم ، وجعل لأقرب الفرسان إليه وهو روبرت من أبوليا حق تسلم الإتاوة(٢) .

ولم يلبث إن احتذى بأرسوف ، عسقلان ، وقيسارية ، وعكا ، ففى الفاتح من أبريل سنة ١١٠٠ م ، اجتمع أمراء هذه المدن سوياً وأنفذوا إلى جودفرى رسلاً يحملون الهدايا من الفواكه والزيت والجياد العربية ، وعرضوا عليه أن يؤدوا كل شهر إتاوة قدرها خمسة آلاف بيزنتا ، إذا سمح لهم جودفرى بزراعة أراضيهم فى أمن وسلام(٣) . وقد قبل جودفرى الدخول فى مفاوضات معهم ، ويقول المؤرخ عزيز سوريال عطية أن الصليبيين قد قبلوا مظاهر السلام هذه لأنها عوامل استقرار لمركز المنتصرين والمنهزمين على حد سواء ، فقد قدر عليهم أن يعيشوا معاً سنين مقبلة(٤) . ويسوق وليم الصورى فى هذا الشأن رأياً طريفاً ويفترض فيه أن الهدف الأساسى من وراء وصول هؤلاء الرسل إلى القدس هو الوقوف على قوة الصليبيين وعددهم والحصول على معلومات دقيقة عن حالة الصليبيين وليس تقديم هدايا لجودفرى(٥) .

---

(1) Grousset, I, P. 184 .

(2) Albert d'Aix, P. 515 .

(3) Runciman , A History of the Crusades, I, P. 309 .

(٤) العلاقات بين الشرق والغرب ، (ترجمة فيليب صابر ، راجعه أحمد خاكى ، القاهرة ، ١٩٧٢م)، ص ٥٠ .

(5) William of Tyre , A History of the Deeds done beyond the Sea (Translated and Annottated by E.A. Babcock and A.C. Krey, New York, 1943), I, P. 410.

وبالإضافة إلى ذلك فإن عدداً كبيراً من الشيوخ المسلمين فى سفوح التلال أعلنوا الخضوع للصليبيين . إذ أن هؤلاء الشيوخ قد اعتادوا أن يرسلوا الفائض من محصولهم إلى المدن الساحلية ، غير أن المستوطنات الصليبية اعترضت طريقهم فطلبوا أن يسمح لهم من جديد إرسال قوافلهم عبر فلسطين . فوافق جودفرى على ذلك الطلب ، إلا أنه بذل كل جهده حتى يحول أكبر قدر من هذه التجارة إلى ميناء يافا الصليبى . وفى الوقت نفسه شجع الإيطاليين على أن يمنعوا التجارة بين المدن الساحلية الإسلامية ومصر ، وعلى أن يجعلوا هذه المدن تعتمد فى تجارتها على الصليبيين ، وبذلك أخذت فلسطين كلها تندمج فى وحدة اقتصادية شاملة بما صار لها من علاقات عبر البحر مع أوروبا ، فكأن سياسة الصليبيين حققت عائداً عاجلاً من الثروة والرخاء للكيان الصليبى فى القدس(١) .

وفى غضون هذا الوقت (٢١ ديسمبر ١٠٩٩م) (٢) ، وصل إلى القدس عدد كبير من الصليبيين ، وكان على رأسهم بوهيموند **Bohemond** حاكم أنطاكية وبلدوين **Baldwin** أمير الرها ودايمبرت **Daimbert** أسقف بيزا(٣) ، وقد أحسن جودفرى استقبالهم ، لأنه كان فعلاً فى حاجة ملحة إلى الرجال ، وصار يأمل فى إقناع بعض أولئك الصليبيين بالاستيطان فى القدس بعد الحج ، ويبدو أنه نجح إلى حد كبير فى ذلك ، إذ فضل بعض الصليبيين أن يبقوا فى خدمة جودفرى عقب عودة بوهيموند وبلدوين إلى الشمال(٤) .

والحق أن وصول بوهيموند وبلدوين ودايمبرت إلى القدس أمر له الأهمية فى ذلك الوقت ، لأن هذا الحدث يشير إلى نهاية الفترة القلقة التى أعقبت وصول الصليبيين إلى الشام ، وهى الفترة التى تطلبت وضع ما استولى عليه الصليبيون فى إطار معين ثابت . يضاف إلى ذلك أن وصول أولئك الزعماء معاً أثار الشعور بوجود شيء من الترابط بينهم . هذا إلا أن وجود دايمبرت والبيازنة فى القدس كان تأكيداً لسيطرة الصليبيين على البحر المتوسط ودليلاً على أن الاتصال بين

---

(1) Albert d'Aix, P. 515 .

(2) Hagenmeyer "Chronologie", P. 498 .

(3) Fink, "Latin States", P. 337 .

(4) Runciman, A History of the Crusades, I, P. 303 .

الصليبيين فى الشام والعالم اللاتينى لم ينقطع[١] .

وفى ١٨ يوليو سنة ١١٠٠م توفى جودفرى بعد أن نال احترام مواطنيه لشجاعته وتواضعه وإيمانه . وقد تلقى الناس فى القدس نبأ وفاته بالحزن العميق وظل خمسة أيام مسجى فى الفراش ، يلقى عليه الناس نظرة الوداع ، وقد تم دفنه فى كنيسة القيامة[٢] .

بعد وفاة جودفرى تولى أخوه بلدوين مقاليد الأمور فى بيت المقدس خلفاً له . بيد أن الصليبيين فى فلسطين لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد ضبطوا أمور البلد تماماً، حتى فى مكان قريب إلى القدس ، مثل بيت لحم ، ولا أدل على ذلك من أن الرحالة دانيال الروسى يذكر أنه عندما اعتزم زيارة الجليل رافق الجيش الذى كان يعده الملك لمهاجمة دمشق ، وكان ذلك بإذن من بلدوين الأول نفسه . ويضيف هذا الرحالة إلى هذا الخبر أنه بذلك آمن بطش السكان ، إذ إنه تعرض للأخطار بين القدس وبيت لحم . ويقول دانيال إنه امتنع عن زيارة جبل لبنان لأنه كان بيد سكان البلاد [٣] .

والحقيقة أن مركز بلدوين الأول فى السنوات الأولى من حكمه كان يدعو

---

(1) Grousset, Histoire des Croisades, I, P. 193 .

(2) William of Tyre, I, P. 193.

وقد أجمعت المراجع الفرنجية على أن جودفرى توفى بالحمى ، وهذا يخالف الراوية التى ذكرها كل من ابن الأثير (الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٠٤) ابن القلانسى ، ص ١٣٨ ، وهى أنه مات مقتولاً بسهم أصابه أثناء حصار عكا هذا وقد نقش على قبر جودفرى الأبيات الآتية :

«هنا يرقد جودفرى كالنجم الساطع ، مرعب مصر ، ومشتت العرب والفرس (الترك) الملك المنتخب ، الذى لم يمنح اللقب ، ولم يتوج ، ولكنه كان عبدا للمسيح . وكان هدفه استرجاع حقوق صهيون وكنصرانى كاثوليكى كان يهدف لإتباع عقائد الحق والعدل المقدسة كان ينبغى التخلص مما حوله وتمجيد الحق ، وهكذا هو مع القديسين يستحق أن يبقى خالداً». انظر :

Fetellus, P.P.T.S, V, P. 53 .

(3) The Pilgrimage of the Russian Abbot Daniel in the Holy Land (1103 - 110), P.P.T.S., IV, P. 29 .

لليأس ، فلم يوجد لديه إلا عدد ضئيل جداً من المقاتلين . وتعرض هؤلاء بدورهم للهجوم بشكل شبه دائم ، فكان الفاطميون فى الجنوب يمتلكون عسقلان وكان من المتيسر لهم مضايقة الصليبيين . أما الرملة التى تكونت حاميتها من ١٥ فارساً ، فقد كانت المركز الصليبى الأمامى الرئيسى لمواجهة هذا الخطر . وقد استرد الفاطميون الرملة سنة ١١٠٢م ، وتمكنوا من الاحتفاظ بها مدة من الزمان[١] . وفى الشرق كانت الحدود عرضة للهجمات فى أى وقت . ولم يكن بلدوين الأول ينتظر وصول أى مساعدة من الصليبيين فى الشمال حيث إن أولئك كانوا مشغولين فى الدفاع عن ممتلكاتهم الخاصة ، ومد حدودهم، وعلى طول الساحل كانت معظم المدن الإسلامية لاتزال فى أيدى المسلمين . وكان المستوطنون فى القدس والأراضى المحيطة بها قلة . وقد ذكر المؤرخ فوشيه من شارتر أنه لم يوجد للدفاع عن القدس ويافا والرملة وحيفا إلا ٣٠٠ فارس ، وعدد مماثل من المشاة ، كما عجب كيف أن الأعداء الذين كانوا يبلغون الآلاف لم يتحدوا وقال إنهم **«كانوا يخشون مهاجمة مملكتنا الصغيرة وشعبنا قليل العدد»**[٢] .

على أية حال كانت الأنباء التى وصلت غرب أوروبا عن النجاح الذى أحرزته الحملة الصليبية الأولى ، بالإضافة إلى رسائل قادة الحملة المتتابعة للدوائر الكنسية اللاتينية طلباً للمزيد من التعزيزات العسكرية [٣] ، إلى جانب الروايات

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢١٨ .

(1) Fulcher of Chartres, A History of the expedition to Jerusalem, 1095 - 1127 (Translated by Frances Rita Ryan and edited by Harold S. Fink knoxville, 1969), P. 150 .

(٣) لدينا أكثر من رسالة تتعلق بهذا الموضوع ، نذكر منها على سبيل المثال رسالة بعثها جودفرى البويونى فى بداية أغسطس ١٠٩٩م ، إلى بعض الأمراء الصليبيين ، وهم فى طريقهم للعودة إلى الغرب ، يذكرهم فيها بنجدته ، ويخبرهم بوصول القوات المصرية . وهناك رسالة أخرى بعثها البابا باسكال الثانى فى ديسمبر ١٠٩٩م إلى رهبان وقساوسة فرنسا يخبرهم فيها بالانتصارات التى حققها الصليبيون فى بلاد الشام . ويذكر الكونت ريان أن هذه الرسالة كتبها البابا بعد أن وصله خطابان من جودفرى البويونى وأرنولف روز بطريق القدس يخبرانه فيهما بعودة كثير من الصليبيين ، ويحثانه على تجنيد متطوعين جدد ليقيموا فى الأماكن التى رحل عنها أولئك الصليبيون . انظر A.L.O., I., PP. 199, 205.

الأسطورية التى راح الحجاج العائدون من الحملة الصليبية الأولى يقصونها على العامة والخاصة عن الأراضى المقدسة والشرق . كانت كل هذه العوامل متضافرة دافعاً جديداً فى العمل على جذب كثيرين من أبناء غرب أوروبا ، لحمل علامة الصليب والزحف نحو الشرق فى حملة صليبية جديدة ليفوزوا بنصيب من الأسلاب قبل ضياع الفرصة(١) .

ولاشك أن الصليبيين فى فلسطين كانوا عندئذ فى حاجة ماسة إلى تلك المعونة البشرية لتعويض النقص فى الرجال من جهة ، واستئناف سياسة التوسع من جهة ثانية ، تم الدفاع عما احتلوه من أرض ضد أية محاولة استردادية من جانب المسلمين من جهة ثالثة(٢) وقد انضم الألوف من الرجال إلى هذه الصليبية الجديدة التى سوف تهاجم المسلمين ، وقد انضم إليها وليم التاسع كونت بواتيه كما انضم إليها فريق من الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية الأولى ، ولم يبلغوا القدس ، أمثال ستيفن Stephen أمير بلو **Blois** وهيو **Hugh** أمير فرماندوا **Vermandois**. غير أنهم لقوا هزيمة ساحقة فى آسيا الصغرى على أيدى أمراء سيواس وحلب وحران ، فى منتصف سنة ١١٠١ م ، ولم ينج منهم إلا عدد قليل . وقد وصلت فلول تلك الحملة وبعض أمرائها إلى أنطاكية ومنها إلى القدس للحج ، وبعد أن احتفل أولئك الصليبيون بإحياء عيد الفصح (سنة ١١٠٢م) شرع معظمهم فى العودة إلى أوروبا ، فى الوقت الذى كان الفاطميون يستعدون لإنفاذ حملتهم الثانية إلى فسلطين(٣) .

ولم يعد بلدوين الأول تبعاً لذلك ينتظر من الغرب من المساعدة سوى التى تأتى من قبل المدن الإيطالية ، ومن المعروف أن السفن الإيطالية توجهت منذ زمن مبكر فى أثر الصليبيين ، إذ إن سفنا لجنوة كانت بميناء عكا فى ربيع سنة ١٠٩٨م، وفى ميناء يافا سنة ١٠٩٩م . وفى سنة ١٠٩٩م قاد دايمبرت رئيس أساقفة بيزا

---

(١) إسحاق تاوضروس عبيد ، روما وبيزنطة ، من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ٨٦٩ – ١٢٠٤م ، (دار المعارف بمصر ١٩٧٠)، ص ١٢٩ .

(2) Cate (J.L.), “The Crusades of 1101, “ in Setton (ed.), A History of the Crusades, PP. 343 - 367 .

(3) William of Tyre, I, PP. 442 -3 .

أسطولاً من بيزا إلى بلاد الشام[١] . وفى سنة ١١٠٠ م قدم إلى يافا أسطول للبنادقة مؤلف من ٢٠٠ سفينة، ووعد قادته بأن تقدم البندقية كل المساعدة مقابل الإعفاء من المكوس والحصول على ثلث كل مدينة تسهم فى إحتلالها[٢] .

غير أن الجنوية الذين أسهموا فى الاستيلاء على إنطاكية والقدس ، بما قدموا من مؤن وخبرة فى الحصار ، اشتدت دعواهم عند الصليبيين ، وازداد اهتمامهم بالحصول على مستودع للتجارة الشرقية . وقد اضطر بلدوين الأول وخلفاؤه إلى قبول دعاوى جنوا وغيرها من المدن الإيطالية ، لأن الاستيطان الدائم تطلب احتلال المزيد من الأراضى العربية ، وهو الأمر الذى لم يكن يقدر عليه حكام القدس دون معاونة تلك المدن . والحقيقة أن الأرض كانت ضرورية كأساس مادى للحكم . ومع أن بلدوين الأول وخلفاءه كانت لديهم موارد على هيئة ضريبة الرؤوس ومكوس ورسوم على التجارة ، لم تكن فى ذلك الوقت متوافرة بالدرجة نفسها فى غرب أوروبا ، إلا أن قدرة حكام بيت المقدس على أداء وظائفهم الإدارية والعسكرية كانت لاتزال تتوقف لدرجة كبيرة على مساحة ما ملكوه من الأراضى ، وكانت هذه الحقيقة باعتبارها أهم من الحماس للحرب المقدسة ، أو أفكار الإثراء والنفوذ الشخصى أو حاجات التجارة ، السبب الرئيسى للحروب التى شنها بلدوين الأول وخلفاؤه على المسلمين ، وكان مايتجمع من إيرادات سنوياً لدى الملك ، يدعم من نفقاته الشخصية ونفقات الحكم الطارئة . لذا توقف إستقرار حكمه بالدرجة الأولى على ما ملكه من الأرض ، وكانت أهم مصدر لقوته . وكذلك كان ملك القدس فى حاجة إلى الأراضى ليقطعها لأتباعه المباشرين كى يخدموه فى بلاطه وجيشه ، وبذلك يوفر أساس تلك القوة المسلحة ، التى شكلت المصداق النهائى لحكم الصليبيين للشعوب المقيمة ضمن نطاق الكيان الصليبى فى فلسطين ، والوسيلة الوحيدة لمقاومة التهديد الخارجى [٣] .

---

(1) Fulcher of Chartres. P. 130 .

(2) William of Tyre, I, PP. 433-434.

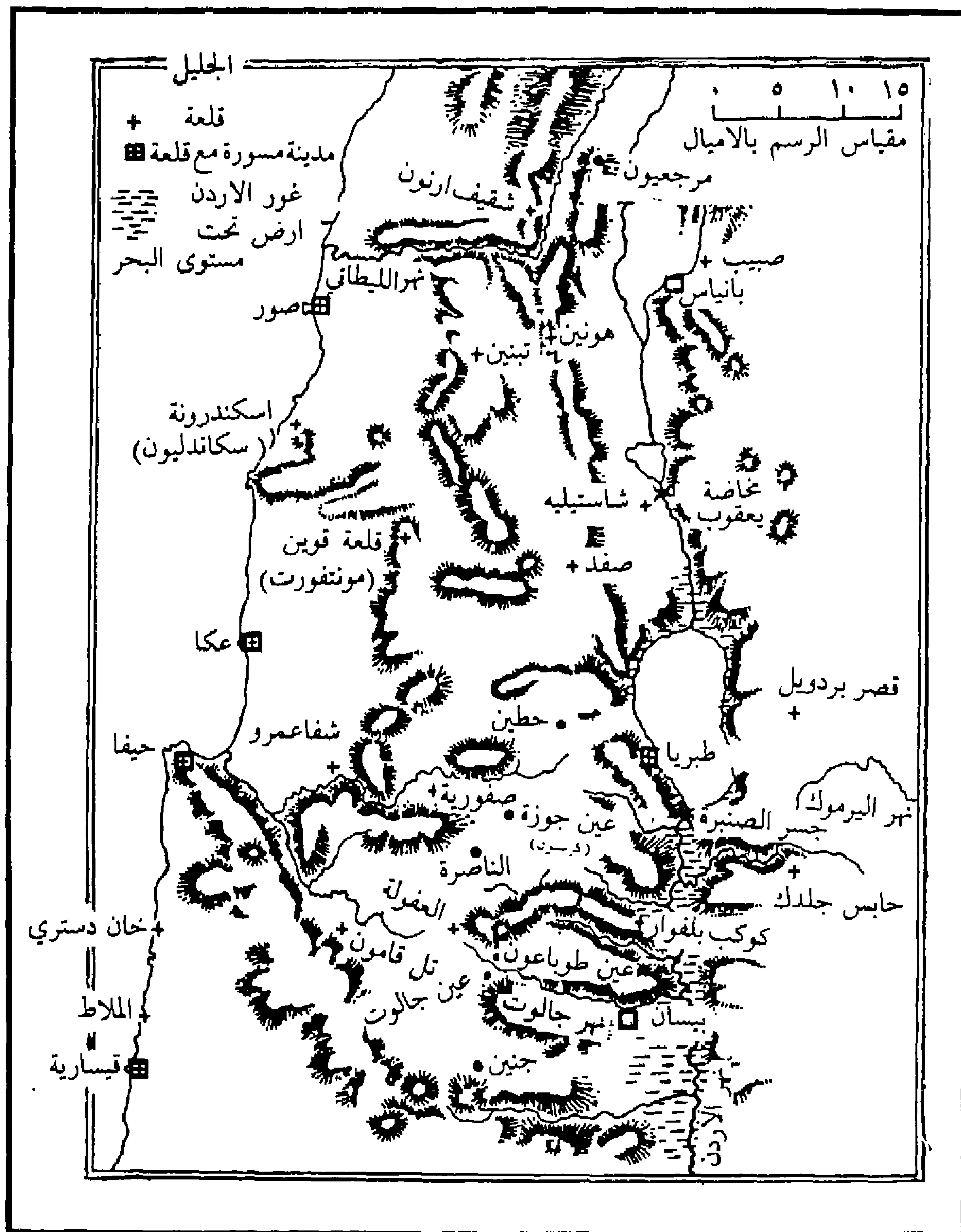
وكان هذا الأسطول قد أبحر من جنوا أول أغسطس سنة ١١٠٠ ، وأمضى الشتاء فى ميناء اللاذقية ، ووصل إلى يافا حوالى ١٦ أبريل سنة ١١٠١ ، انظر:

Hagenmeyer, “Chronologie”, PP. 416 - 419 .

(3) Smail (R.C.), Crusading Warfare, 1097 - 1193 (Cambridge, 1956) , P. 23

الجليل نقلا عن :

Smail, Crusading Warfare, p. 190



وهكذا جرى فى سنة ١١٠١م عقد محالفة بين الجنوية وبلدوين الأول ، وعد الجنوية أن يقدموا بمقتضاها المساعدة للصليبيين مقابل الحصول على ثلث ما يحوزونه من الأسلاب ، فى كل مدينة يتم الاستيلاء عليها ، وحق الإعفاء من الرسوم . وبذلك استطاع بلدوين الأول أن يحتل أرسوف وقيصرية فى ربيع عام ١١٠١م وعكا سنة ١١٠٤م ، وبيروت سنة ١١١٠م . غير أن مساعدة الجنوية جرى بذلها لغير بلدوين الأول من الأمراء ، فأستطاع ريمون بفضلها أن يستولى على جبيل سنة ١١٠٤م ، وتمكن خليفته فى الحكم برترام (برتراند) **Bertrand** من الاستيلاء على طرابلس سنة ١١٠٩م ، كما أن بلدوين الأول حصل من غير الجنوية على مساعدات أخرى . ففى سنة ١١١٠م ، استطاع أن يستولى على صيدا بفضل مساعدة ملك النرويج سيجورد **Sigurd** (١١٠٣ - ١١٣٠م) الذى قدم إلى بلاد الشام بأسطول كبير(١) .

وبنهاية عام ١١١١م كان الساحل السورى بأكمله قد وقع بأيدى الصليبيين فيما عدا ميناء صور الذى ظل يقاوم حتى سنة ١١٢٣م ، ومدينة عسقلان التى ظلت تابعة لمصر حتى سنة ١١٥٤م .

وقد صاحب هذه الاعتداءات الكثير من أعمال التخريب والقسوة ، وفى أكثر من مناسبة قام الصليبيون بقتل الأهالى المسلمين ، على الرغم من وعدهم بالأمان لمبارحة بلادهم(٢) ولم يكتف الصليبيون بذلك، بل كانوا يحرقون جثث الموتى ثم يقطعونها أملا فى الحصول على الذهب الذى كان الصليبيون يعتقدون أن هؤلاء القتلى قد بلعوه . والواقع - فيما أرجح أن الصليبيين كانوا يأملون من وراء ذلك أن يلقوا فى قلوب المسلمين الرعب ، فيبادرون إلى الفرار من بلادهم ويتركون أراضيهم ، وبذلك يتمكن الصليبيون من الاستيلاء على المزيد من الأراضى العربية اللازمة لاستيطانهم .

---

(1) William of Tyre, I, PP. 434-437 , 454-456, 476-478, 485-488;

Fulcher of Chartres, PP. 151-154, 176, 195-197, 199-2000

انظر ايضاً:

ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ صفحات ٢٠٤ ، ٢٢١ ، ٢٥٨ - ٢٦٠ ؛ ابن القلانسي، صفحات ١٣٩ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧١ .

(2) Jacques de Vitry, The History of Jerusalem, A.D. 1180, P.P.T.S., XI, P.6.

والحقيقة أن هذا التوسع الصليبى فى ذلك الوقت لم يكن راجعاً إلى قوة الصليبيين، بل إلى ضعف القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى وتفككها وانقسامها على نفسها ، وهو الأمر الذى ظهر جلياً فى أثناء الحملة الفاشلة التى قام بها الأتراك السلاجقة عام ١١١١م ، ضد الصليبيين[١] ، وإذا كانت هذه الحملة لم تحقق شيئا للجانب الإسلامى ، فإنها حققت الكثير بالنسبة للصليبيين ، ذلك أنها جمعت صفوف القوى الصليبية فى شمال الشام وجنوبها وحققت لبلدوين الأول ملك بيت المقدس نوعا من الزعامة والأولوية على بقية أمراء الصليبيين فى بلاد الشام[٢] .

على أنه إذا كانت حملة سنة ١١١١م ، التى قام بها الأتراك السلاجقة ، ضد الصليبيين ، قد باءت بالفشل وانتهت إلى لا شىء ، فإن الأتراك لم يلبثوا أن استأنفوا هجماتهم على الصليبيين سنة ١١١٣م ، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بهم عند جسر الصنبرة[٣] ، وقد قدرت خسائر الصليبيين فى تلك الموقعة بألف ومئتين من المشاة، وثلاثين من الفرسان[٤] . ومع ذلك فقد تبدل الموقف فجأة لصالح الصليبيين ، ولاسيما وأن عددا كبيراً من الحجاج الغربيين قدرتهم المصادر بستة عشر ألف وصلوا إلى عكا فى شهر أغسطس من تلك العام[٥] .

وفى هذا العام (١١١٣م) عمد بلدوين الأول إلى زواج سياسى عاد عليه بالفائدة ، وكان هذا الملك قد فقد زوجته الأولى أثناء تقدمه إلى أنطاكية وتزوج بعدها أردا Arda الأميرة الأرمينية فى الرها ليضمن ولاء الأرمن ، ولكنه لم يلبث أن أحس ، بعد أن أصبح ملكا على بيت المقدس ، أنه ليس فى حاجة إلى ولاء الأرمن ، وبالتالى فإنه لم يعد حريصاً على تلك الزيجة ، ولا سيما وأن الأميرة أردا فقيرة لم تستطع أن تشبع حاجة الملك الجديد إلى المال ، ولذلك تخلص من زواجه بعد أن طعن فى سلوك زوجته ، وتقدم بلدوين بعد ذلك للزواج من أديلايد

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ص٢٦٢ ، ص ٢٦٣ ؛ ابن القلانسى ، ص ١٧٧ – ١٧٨ .

(2) Fink, “Latin States” in Setton (ed.), A History of the Crusades, I,P. 400 - 401 .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٦٦ ؛ ابن القلانسى ، ص١٨٥ – ١٨٦ .

(4) Fulcher of Chartres,P. 206 ; William of Tyre, I, P. 494

ويقدر ابن القلانسى (ص ١٨٥) ، عدد قتلى الصليبيين معركة جسر الصنبرة بألفى فارس .

(5) Albert d’Aix, P. 696.

Adelaide، أرملة روجر الأول صاحب صقلية الذى توفى سنة ١١٠١م ، وقد استهدف بلدوين الأول من وراء تلك الزيجة تحقيق مكاسب عدة ، سياسية ومالية ، منها ضمان صداقة النورمان فى جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية ، وبخاصة الملك روجر الثانى ابن الملكة أديلايد ، ومنها أيضاً كسب الثروة الطائلة التى كانت تملكها تلك الملكة ، والتى كانت كفيلة بإنعاش خزانة مملكة بيت المقدس[١] .

وقد اتسعت مملكة بيت المقدس فى عهد بلدوين الأول فأصبحت تشمل رقعة من الأرض، امتدت على الساحل من بيروت إلى رفح الواقعة على حدود مصر . وعلى الرغم من امتداد هذا الإقليم ، فإنه لم يكن بالغ الإتساع . يحد هذا الإقليم من جهة الشمال إمارة دمشق ، ويتسع قليلاً فى الوسط حتى يتجاوز نهر الأردن ، ولم يظهر إتساعه الخفيف إلا فى الجنوب حيث جرت إضافة موضعين مهمين .. فإلى الجنوب من البحر الميت امتد لسان من الأرض حتى بلغ أيله الواقعة على رأس الذراع الشرقى للبحر الأحمر ، خليج العقبة ، وقد استولى بلدوين الأول على هذه البقعة ، على سبيل الانتقام من الفاطميين لما شنوه من هجمات على مملكته ، وفى هذا الموضع شيد بلدوين الأول سنة ١١١٦م حصن الشوبك Monreal فى منتصف الطريق بين أيلة والبحر الميت[٢] .

ومن المعروف أن هذه الإضافات التى جرت فى الجنوب والشرق إنما أملاها أيضا حافز تجارى ، إذ إنها هيأت لمملكة بيت المقدس ما جعلها تتصل بالبحر الأحمر، وما يرتبط به من نشاط تجارى ، وساعدت الصليبيين على أن يسيطروا على طريق القوافل لا سيما الممتد من دمشق إلى مصر والبحر الأحمر .

وهكذا يمكن القول أن مملكة بيت المقدس وصلت سنة ١١١٦م على يد ملكها بلدوين الأول إلى أقصى اتساع لها ، وذلك بإستثناء عسقلان وصور ، ولم يبق أمام بلدوين إلا أن يهاجم الفاطميين فى عقر دارهم ليشعرهم بقوته، بعد أن أحس هو

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن هذا الموضع انظر :

William of Tyre, I, P. 496-497, 514; Fulcher of Chartres,PP. 209-218; Runciman, A History of the Crusades; II, PP. 102 - 103 .

وانظر أيضاً : عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٣٧ .

(2) Fulcher of Chartres, P. 215; William of Tyre, I,P. 506 - 7 .

بضعفهم (١) ، وربما استهدف بلدوين من مهاجمة الفاطميين أن يضطرهم إلى الاستعانة بحامية صور وعسقلان فيستولى على هاتين المدينتين فى غير عناء(٢) .

غير أن بلدوين الأول قبل أن يقوم بهذه الحملة فكر فى تعمير القدس بجموع النصارى الشرقيين من الأرثوذكس والسريان .. وكان الذى اضطر بلدوين الأول إلى هذا التفكير التجربة القاسية التى مر بها أثناء هجوم الأتراك السلاجقة على إقليم الجليل سنة ١١١٣م ، إذ انتهز المزارعون وأهل الإقليم من المسلمين تلك الفرصة ، وخرجوا عن طاعة الصليبيين (٣) ، فى الوقت الذى هدد الفاطميون القدس ، وهى شبه خاوية لتغيب بلدوين ورجاله عنها . والحقيقة أن هذه التجربة أظهرت أن القدس كانت تعانى أكثر من غيرها من قلة عدد المستوطنين ، وهو الأمر الذى كان يهدد بزوال الاحتلال الصليبى من الأراضى العربية فى أى وقت .

ولكى نتعرف – ولو قليلاً – على أبعاد هذه المشكلة التى حلت بمدينة القدس فى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر، لابد أن نتعرف بالضرورة على الظروف والأحداث التاريخية التى أحاطت بهذه المدينة منذ بداية القرن الحادى عشر ، وبصفة خاصة ابتداء من عام ١٠٠٤م ، عندما أصدر الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله القرارات ضد النصارى الشرقيين ، واستهلها بمصادرة أملاك الكنيسة ، ثم أمر بإحراق الصلبان وبتشييد مساجد صغيرة فوق سقف الكنائس ، وقرر آخر الأمر إشعال الحرائق فيها .. ففى سنة ١٠٠٩ م أمر بتدمير كنيسة القيامة ذاتها(٤) ، لأنه

(1) Grousset, Histoire des Croisades, I, P. 283 .

(2) Archer(T.A.), Kingsford (C.) The Crusades, (London, 1894), P. 140 .

(3) William of Tyre, I, PP. 494-5 .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع ، انظر: المقريزى ، اتعاظ الحنفا (نشره وحققه وعلق حواشيه وقدم له ووضع فهارسه جمال الدين الشيال ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٨م) ص ٣٠٦، أسد رستم الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب (الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٥٦) ، جـ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٩٦ .. والحقيقة أن عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى شهد بعض الاضطرابات فى علاقة الدولة بأهل الذمة من النصارى واليهود ، ولكن هذه الفترة الطارئة لا تغير من الحقيقة القائلة بأن العصر الفاطمى كان يعتبر العصر الذهبى بالنسبة لأهل الذمة . انظر عن هذا الموضوع : قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى – دراسة وثائقية (دار المعارف ١٩٧٧) ، ص٥١ – ص ٥٦ ، وكذلك =

كان يرى أن ما يحدث فيها من احتفال النصارى بما يعرف بمعجزة النور المقدس[١]، لا بد أنها من قبيل البهتان ولا تتفق مع الدين . وفى سنة ١٠١٤م بلغ عدد ماتعرض للحريق والنهب من الكنائس نحو ثلاثين ألف كنيسة ، كما يزعم رنسيمان[٢] ، وتظاهر عدد كبير من النصارى باعتناق الإسلام للنجاة بأرواحهم ، وهذه القرارات جرى اتخاذها أيضاً ضد اليهود .. على أنه ينبغي أن يكون ملحوظاً أيضاً أن المسلمين أنفسهم تعرضوا لهذا الاضطهاد على يد الحاكم ، الذى لم ينقطع أبداً عن اتخاذ وزراء نصارى . على أن هذا الاضطهاد لم يتوقف إلا فى أواخر أيام الحاكم، وفى سنة ١٠١٧م صار للنصارى واليهود مطلق الحرية فى العقيدة، فبادر نحو ستة آلاف رجل من الذين تحولوا للإسلام حديثاً ، إلى العودة إلى النصرانية. وفى سنة ١٠٢٠م استعادت الكنائس ماجرت مصادرته من أملاكها ، وتقرر فى الوقت نفسه إلغاء القانون الذى يقضي بإرتداء ثياب مميزة . وفى سنة ١٠٢٧م عقدت معاهدة بين الدولة البيزنطية ومصر أجازت للإمبراطور قسطنطين الثامن أن يتولى عمارة كنيسة القيامة . وتجددت هذه المعاهدة سنة ١٠٣٦م ، غير أن ما جرى فعلاً من إعادة بناء الكنيسة إنما قام به الإمبراطور قسطنطين التاسع بعد عشر سنوات[٣] ، ويستدل من كلام ناصر خسرو الذى زار القدس فى سنة ١٠٤٦م إن كنيسة القيامة كانت قد شيدت على نفقة الإمبراطور ، وزينت بالرخام الملون والفسيفساء[٤] ، وللإشراف على سير العمل صار للموظفين البيزنطيين حرية السفر

= آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى الإسلام (نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ، ١٩٥٧) ، جـ ١ ص ٩٤ – ص ٩٦ .

(١) لمزيد من التفاصيل عن احتفالات سبت النور عند الصليبيين ، انظر :
Theoderich's Description of the Holy Places (Circa 1172 A.D.), P.P.T.S., V, PP. 14 - 15,
وانظر كذلك : ابن واصل ، مفرج القلوب فى أخبار بنى أيوب ، نشره وحققه وعلق حواشيه وقدم له جمال الدين الشيال ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٩٥٧م) ، الجزء الثانى، ص ٢٧١ – ٢٣٢ .

(2) Runciman, A History of the Crusades, I, P. 35.

(3) Ibid, P. 36 .

(٤) ناصرو خسرو ، سفر نامة (نقله إلى اللغة العربية وقدم له وعلق عليه يحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ – ١٩٤٥م) ، ص ٣٦ .

إلى القدس ، حيث أضحى للنصارى فيما يبدو من السيطرة ما أثار امتعاض المسلمين من سكان المدينة والرحالة ؛ إذ بلغ من كان يشهدهم الناس فى شوارع القدس من البيزنطيين من الكثرة ، أن ذاع بين المسلمين شائعة أن الإمبراطور البيزنطى قد قام بالرحلة إليها[١] . واستقرت فى القدس جالية من تجار أمالفى إشتهرت بالرخاء وحظيت بحماية الخليفة .

وفى عام ١٠٣٦م وقع زلزال حطم جانبًا من أسوار القدس ، فأمر الخليفة الفاطمى بإعادة بنائه ، وقد شارك النصارى فى تعمير أسوار حيهم ، ولأنهم افتقدوا المال اللازم لذلك.. فإنهم بعثوا فى طلب المعونة من الدولة البيزنطية ، وقد وافق الإمبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع على تخصيص مبلغ من المال لإصلاح أسوار الحى النصرانى ، بشرط موافقة السلطات الإسلامية على أن يسكنه النصارى فقط[٢] . وقد تمكن النصارى فى عام ١٠٦٣م من إنجاز العمل المطلوب منهم. وحتى ذلك التاريخ كان المسلمون والنصارى يعيشون معاً فى سلام . إلا أن حاكم القدس كما يزعم وليم الصورى قد أجبر المسلمين على أن يرحلوا من الحى النصرانى إلى أجزاء أخرى من القدس تاركين الحى الذى خصص للنصارى دون نقاش[٣] ، ويضيف وليم الصورى إلى زعمه السابق أن حالة النصارى المادية بعد هذا الإجراء قد تحسنت ، لأنهم أقاموا بمفردهم دون قلق ، وجرت حياتهم فى هدوء.

وكان أى خلاف ينشأ بينهم يرفعونه إلى الكنيسة وهناك يفصل فيها البطريرك[٤] . وربما كان هذا التوظيف يبدو إحدى إجراءات الأمن لوقاية السكان النصارى فى القدس ، إلا أن الحى النصرانى أصبح كما يقول براور منعزلاً وعرضة للعبودية والإذلال[٥].

وبالإضافة إلى السكان النصارى المحليين ، كان هناك اليهود الذين كانوا

(1) Runciman, A History of the Crusades, I, P. 36 ..

(2) Prawer, **"The settlement of the Latins in Jerusalem"**, Speculum, XXVII,(1952), P. 491 .

(3) William of Tyre, I,P. 407 .

(4) Prawer, "The settlement of the Latins", P. 491 .

(5) Ibid, P. 492 .

يتركزون فى الحى الشمالى الشرقى من القدس ، وهو الحى الذى عرف فى القرن الثانى عشر باسم **«الحى اليهودى»** (Juiverie)[١] .. وقد كان اليهود دباغين وصباغين وصيارفة. وبطبيعة الحال شغل السكان المسلمون بقية المناطق فى القدس وبصفة خاصة الأحياء الجنوبية من المدينة .

وفى خلال الفترة الممتدة من وقت هذه التغيرات الطبوغرافية إلى قبيل الاحتلال الصليبى للقدس ، عانت المدينة لدرجة كبيرة من الزلازل ، وغارات النهب والسلب التى قامت بها القبائل العربية والتركية . ومع ذلك فإن سكانها كانوا قد وصلوا إلى عدد كبير يقدر بحوالى ثلاثين ألف نسمة . وهذه الأحداث رغم أنها قد أثرت فى كافة عناصر السكان ، إلا أن براور يعتقد أنها كانت أكثر أثراً على النصارى واليهود[٢] .

وقد حاول وليم الصورى أن ينال من المسلمين بقوله إنهم بدأوا قبيل الإحتلال الصليبى للقدس فى إساءة معاملة النصارى ، ولم يتوانوا فى قتل كل من دارت حوله الشبهات منهم ، مما أدى إلى هروب بعض النصارى من المدينة[٢]. ويظن وليم الصورى أن المسلمين أقدموا على ذلك لاعتقادهم بأن الصليبيين لم يزحفوا على القدس إلا بإيعاز من النصارى المحليين[٣]. ولم يقف وليم الصورى عند حد هذا الزعم، وإنما تعداه إلى القول بأن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا قد قرروا قتل النصارى من سكان المدينة ، وتدمير كنيسة القيامة ، إلا أنهم تراجعوا عن تنفيذ هذا القرار بعد ذلك ، واكتفوا بانتزاع كل الأموال والأمتعة التى كان يمتلكها السكان النصارى ، وطلبوا منهم دفع جزية تقدر بحوالى أربعة عشر ألف قطعة ذهبية ، تولى بطريرك القدس عملية جمعها من النصارى ثم تسليمها إلى السلطات الإسلامية بصفته راعى كنيسة القيامة والأديرة القريبة منها[٤] . ويضيف وليم الصورى إلى ذلك أن المسلمين بعد أن استولوا على كافة ما كان يمتلكه النصارى طردوهم من

(1) Prawer, “The settlement of the Latins”, p. 491.

(2) Ibid.

(3) William of Tyre, I,P. 507 .

(4) Ibid.

القدس جميعاً ماعدا كبار السن من الرجال والمرضى والنساء والأطفال(١) .

ويشارك وليم الصورى فى هذا الزعم كثير من المؤرخين المحدثين من الغرب والشرق على حد سواء ، وفى هذا الشأن يقول رنسيمان أن افتخار الدولة حاكم القدس من قبل الوزير الأفضل لما ترامى إليه نبأ اقتراب الصليبيين أمر كل النصارى من سكان المدينة بالإنسحاب خارج أسوارها . أما اليهود فسمح لهم بالبقاء(٢) . ويعتبر رنسيمان أن ذلك كان إجراء سديداً . ففى القرن العاشر - كما يعتقد رنسيمان - كان عدد النصارى بالمدينة يفوق عدد المسلمين . وعلى الرغم من أن اضطهادات الحاكم بأمر الله أدت إلى تناقص عدد النصارى وأن عدداً كبيراً من بينهم معظم رجال الدين الأرثوذكس ارتحل مع البطريرك فى أثناء الأوقات العصيبة التى تلت وفاة أرتق فلا يزال فى القدس ألوف من النصارى ، غير أنه لايرجى منهم فائدة فى القتال نظراً لما تقرر من منعهم من حمل السلاح ، فلا يصح الركون إليهم والوثوق فيها إذا دارت معركة ضد إخوانهم النصارى الغربيين(٣) .

ويقول الدكتور سعيد عاشور فى هذا الصدد أن القدس وغيرها من مدن الشام كانت زاخرة بأعداد كبيرة من النصارى المحليين ، عند وصول الصليبيين إلى الشرق ، ولكن مافعله أولئك النصارى المحليون من الترحيب بالصليبيين ومساعدتهم وبخاصة فى أنطاكية والرها جعل المسلمين لايطمأنون إليهم ويطردونهم من بقية المدن التى كانت لاتزال تحت سيطرة المسلمين وبخاصة القدس(٤) . وهذا الكلام لايختلف كثيراً عما يذكره كل من الدكتور حسن حبشى والدكتور اسحاق عبيد(٥) .

وقد رجعنا إلى ما أتيح لنا من المصادر العربية المتعلقة ببهده الفترة لنتحقق من ذلك ، إلا أننا لم نعثر على شيء يؤكد أو ينفى ماذهب إليه وليم الصورى ،

(1) William of Tyre, I, p. 507.

(2) Runciman, A History of the Crusades, I, P. 281 .

(3) Ibid .

(٤) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٤١ ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

(٥) حبشى ، الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٧٤ ؛ إسحاق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص ١٢٥ .

ومن يرى رأيه من المؤرخين المحدثين، وإن كانت هذه المصادر قد ذكرت حالة مشابهة لما زعمه وليم الصورى وقعت فى أنطاكية وليس فى القدس(١).

وعلى أية حال.. فمن الثابت أن النصارى الشرقيين عاشوا عدة قرون فى ظل الحكم الإسلامي المتسامح على وجه العموم ، وكانوا يشكلون من حيث الزمان والمكان جزءاً من العالم الإسلامى ، وكانوا يرتبطون بالمسلمين بروابط التاريخ واللغة والعادات ، فضلاً عن دخول كثير منهم فى وظائف الحكومة . وعلى ذلك – فيما أرجح – أن ما زعمه وليم الصورى فى هذا الشأن من سوء أحوال النصارى فى القدس ، ثم طردهم منها إنما يقصد به تسويغ سياسة الصليبيين البربرية التى إتبعوها مع أصحاب البلاد من المسلمين فى الفترة الأولى من قدومهم إلى الشرق .

فمن المعروف أن الصليبيين بعد أن احتلوا مدينة القدس، قتلوا عددا كبيرا من سكانها . وفى هذا الشأن يقول مؤلف الـ «**جستا فرانكورم**» وكان شاهد عيان لهذا العمل الإجرامى : «**لقد سار رجالنا وأخذوا يقتلون ويذبحون إلى أن وصلوا إلى هيكل**

---

(١) كانت غالبية أهل أنطاكية فى ذلك الوقت من السريان واليونان والأرثوذكس والأرمن واليعاقبة. وعندما علم ياغيسيان صاحب أنطاكية باقتراب الصليبيين «**خاف من النصارى الذين بها**» ولذلك أخرجهم بحجة حفر خندق يحمى المدينة ، ولما أرادوا دخول أنطاكية عند العصر توجس، منهم وتركهم يشتركون مع الصليبيين فى حصارهم ، فى حين تحفظ هو على أهلهم «**وكف الأيدى المتطرقة إليهم**» .. هذه هى راوية ابن الأثير (الكامل ، جـ٨ ، ص١٨٦) عن موقف أهل أنطاكية ، والحقيقة أن ابن الأثير لم يكن دقيقاً فى تحديده أى الجماعات النصرانية هذه التى يشير إليها .. أما الرواية اللاتينية فتختلف تماما لأنها تقول أن الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة دأبوا على مغادرتها كل يوم متظاهرين بالفرار والمجيء إلينا ، بينما بقيت نساؤهم فى المدينة ، وكانت عادتهم أن يتقصوا حالة وخبر موقفنا ، ثم يحملون كل شيء إلى أولئك المحصورين الذين أغلقت عليهم منافذ المدينة ومساكنها (Gesta Francorum, P. 29) .. وهكذا أحاطت الشبهات من الجانبين حول موقف أهل أنطاكية من النصارى. وقد يكون من الطبيعى أن يتسرب الخوف إلى نفس ياغيسيان من هؤلاء النصارى ولذلك شرع فى اتخاذ تدابير شديدة .. فألقى فى السجن البطريرك الذى يعتبر رأس أهم جالية فى أنطاكية .. وتقرر طرد عدد كبير من الزعماء النصارى من المدينة ولاذ آخرون بالفرار .. انظر :

Runciman, A History of the Crusades, I, PP. 214-215.

سليمان حيث كانت المذابح من الفظاعة بحيث أغرقت الدماء أقدامهم»(١) . ويسمى وليم الصورى الاستيلاء على القدس باسم نهاية الحج ، ويقول : **«لم تكن فيها وحدها مناظر الجثث بلا رؤوس والأطراف المتناثرة فى جميع الاتجاهات، والتى أثارت الانزعاج فى نفوس كل من نظر إليها ، بل كان مما يثير الرعب الفظيع النظر إلى المنتصرين أنفسهم، وهم غارقون فى الدماء من قمة الرأس إلى أخمص القدمين»**(٢) .

ولا نريد هنا أن نخوض فى الحديث أكثر من ذلك عن حمام الدم الذى إقامه الصليبيون لسكان المدينة ، ويكفينا أن نذكر أن ذلك قد أدى إلى إبادة معظم المسلمين واليهود فى المدينة ، أما الذين استطاعوا الهروب من هذه المذبحة البشعة فقد بيعوا فى أسواق النخاسة(٣) . ولم يقدر النجاة فى ذلك الوقت العصيب إلا لقلة من المقاتلين المسلمين كانوا قد اعتصموا بمحراب داود وقاتلوا فيه ثلاثة أيام ، ثم ألقوا سلاحهم بعد أن بذل لهم الصليبيون الأمان وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان(٤) .

وهكذا صارت القدس تشكوا فراغاً ضخما بعد أن فقدت معظم سكانها . وإذا كان الأمر كذلك فيحق لنا أن نسأل كيف بدأ الصليبيون حياتهم فى القدس ؟ ومن كان سكانها ؟ وكيف جعل الصليبيون القدس مكاناً صالحاً للاستيطان؟ .

نستطيع أن نبحث عن نواة سكان القدس الجدد فى بقايا الجيش الصليبى الغازى . وإن كنا فى الحقيقة لانستطيع فى الوقت الحالى أن نتحقق من الكم الحقيقى لهذا الجيش ، لأن مؤرخى الحملة الصليبية الأولى قد بالغوا دون شك فى تقدير عدد القوات الصليبية . ولعل السر فى ذلك يعود إلى المؤرخ فى العصور الوسطى، الذى لم يسعه عند رؤية أعداد ضخمة من الرجال إلا أن يقدر ذلك بمئات الألوف ؛ ذلك أن مؤرخى الحملة الصليبية الأولى جعلوا قوتها تتراوح بين ٣٠٠ ألف وبين ٦٠٠ ألف محارب ، على حين أنها لم تزد عن ستين ألف صليبى فى

---

(1) Gesta Francorum, P. 91 .

(2) William of Tyre, I, P. 273 .

(3) Prawer, "The Settlement of the Latins" , P. 492.

(4) Gesta Francorum, P. 92.

تقدير المؤرخين المحدثين[1] ، على أن عددا كبيرا من هذه القوات هلك فى المعارك الحربية ورجع عدد غير قليل منهم إلى بلادهم ، بعد أن أوفوا بعهودهم ونذورهم وأدوا واجبهم الدينى ، وهكذا لم يبق لحماية الكيان الصليبى فى فلسطين سوى قوة صغيرة . ويشير وليم الصورى إلى أن جيش الصليبيين فى معركة عسقلان سنة ١٠٩٩م ، أى قبل أن يعود كثير منهم إلى أوروبا ، لم يتجاوز ١٢٠٠ فارس ، ٩٠ ألف راجل[2] ، ولم يكن مع بلدوين الأول سنة ١١٠١م سوى ٣٠٠ فارس ، ومن الأجناد السرجندارية إلا نحو ٧٠٠ ، فتألف من هؤلاء وأولئك الحاميات الصليبية فى المدن الرئيسية [3] .

ومن الراجح أن المدن الساحلية ، وبصفة خاصة يافا وعكا وصور وبيروت قد استطاعت أن تغرى كثيراً من الصليبيين بالهجرة إليها والاستيطان فيها ، لما توافر فيها من إمكانيات كسب العيش . هذا بينما ظلت القدس مكاناً مقدسا مباركا فى نظر الصليبيين يتوجهون إليها فى بعض الأوقات ليؤدوا شعائرهم الدينية . غير أن رحلة الحج إلى القدس كانت رحلة مرهقة ومحفوفة بالأخطار ، وكان الحجاج يبادرون بالعودة إلى مناطق استيطانهم بمجرد أن ينتهوا من أداء طقوسهم الدينية[4] .

أما الذين استوطنوا فى القدس ، فقد أقاموا فى الحى الشمالى الغربى من المدينة ، وبصفة خاصة حول كنيسة القيامة . وبذلك حلوا محل السكان النصارى السوريين الذين كانوا قد تركوا القدس قبل أن يحتلها الصليبيون . وحتى أولئك

---

(1) Prawer, "The Settlement of the Latins" P. 493, La Monte (J..L.), Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100 to 1291, (Cambridge, Mass, 1932), P. 138 .

(2) Runciman, A History of the Grusades, I, PP. 336-41.; William of Tyre, I, P. 369 .

(3) Fulcher of Chartres, PP. 137, 150.

هذا ويقدر وليم الصورى عدد الصليبيين الذين رافقوا بلدوين الأول فى رحلته إلى القدس فى ٢ أكتوبر ١١٠٠م بحوالى ٢٠٠ فارس و ٨٠٠ راجل ، فى حين أن ابن الأثير (الكامل جـ ٨ ، ص ٢٠٠٤) يقدرهم بحوالى ٥٠٠ فارس .

(4) Prawer , "The Settlement of the Latins" , P. 493.

النصارى المحليون الذين ظلوا فى القدس أخذوا يخططون للرحيل لأن الصليبيين ارتابوا فيهم واعتقدوا أنهم على اتصال بالمسلمين [١] . وهكذا أصبح الحى الذى كان يقطنه النصارى السوريون حيا أوروبيا خالصا . وقد امتدت مساحة هذا الحى فيما بعد حتى تضمن المنطقة المجاورة لبرج داود ، ووصل إلى جنوب المنطقة التى تعرف باسم جبل صهيون ، وهى المنطقة التى استقر فيها جماعة من أنصار ريمون السانجيلى. كما تركز استيطان الصليبيين كذلك فى منطقة المعبد، الذى كان مقرا للملك الصليبى، ثم أصبح فيما بعد المقر الرئيسى لفرسان المعبد[٢].

وقد منع الصليبيون كلا من المسلمين واليهود من العودة والاستقرار فى القدس . وقد تم ذلك بمقتضى مرسوم رسمى ، لأن الغزاة المنتصرين اعتبروا أن سكنى أولئك الذين رفضوا المسيح (عليه السلام) فى المكان الذى شهد معاناته وصلبه - كما يقولون - تدنيس للمدينة المقدسة ، وانتهاك لحرمتها[٣] . وإذا وجدنا فيما بعد - يهوداً أو مسلمين فى القدس فإنهم كانوا عادة من الحجاج ، أو من الأفراد الذين كانوا يحصلون على إذن خاص للإقامة لبعض الوقت لأغراض تجارية ، وبطبيعة الحال دفعوا فى مقابل ذلك ضرائب خاصة[٤].

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن سكان القدس من الصليبيين لم يزد عددهم كثيرا ، بل على العكس من ذلك فإن هناك دلالات واضحة على أن كثيرا منهم قد تركوها إلى المدن الأخرى فى الشام أو إلى أوروبا على أقل تقدير . ويرجع ذلك إلى أن الحياة فى القدس فى ذلك الوقت كانت صعبة ومحفوفة بالمخاطر . صحيح أن القدس كانت عاصمة الشرق الإفرنجى ، ويوجد بها مقر الإدارة العلمانية

(1) Matthieu d'Edesse, I, PP. 54-55 .

(2) Prawer , "The Settlement of the Latins" , P. 494.

(3) William of Tyre, I, P. 507.

وانظر أيضاً : مونروند ، تاريخ الحروب المقدسة المدعوة حرب الصليب ، (نقلة إلى العربية كيريوكيريو مكسيموس مظلوم ، أورشليم ، ١٨٦٥م ، جـ١، ص ١٥٨ .

(٤) يقدر الحاخام بنيامين عدد اليهود فى القدس عندما زارها ، ١١٦٥ - ١١٧٣م ، بأربعة أنفس ، انظر :

The Itinerary of Rabi Benjamin of Tudela (Trans, and Ed. By Asher, London and Berlin, 1840), P. 69 .

والكرسى الأسقفى ، إلا أنها - بصرف النظر عن تجارة الحجاج - لاتملك أى حوافز اقتصادية يمكن أن تغرى الصليبيين بالاستيطان بها[١] . فقد كانت الحقول والمزارع والأرض التى بالقرب من المدينة المشهور خصبها القديم لم تكن آنذاك سوى أرضا قاحلة عقيمة ، فيما عدا بعض أماكن كانت تحتوى على أشجار زيتون مختنقة فيما بين الشوك والقرطب[٢] . ومن الراجح أن يكون السبب فى ذلك أن المسلمين كانوا يرفضون زراعة الحقول حتى يعانى الصليبيون من الجوع .

ويقول وليم الصورى تعليقاً على ذلك: أن المسلمين كانوا يفضلون أن يعانوا هم أنفسهم مشقة الجوع على تقديم أى شىء للصليبيين الذين كانوا يعتبرونهم أعداء[٣]. ويضيف وليم الصورى إلى ذلك: أن هولاء المسلمين كانوا أشد خطرا ووطأة على الصليبيين من دون سائر المسلمين نظرا لإقامتهم فى مناطق قريبة من أماكن الاستيطان الصليبى[٤].

أضف إلى ذلك أن الأمن فى القدس لم يكن فى ذلك الوقت مستتباً . وعلى ذلك فإن أى صليبى كان يسير بمفرده عرضة للقتل بأيدى المسلمين أو يستسلم لهم كأسير .. ولم يقتصر الشعور بعدم الأمان فى الطرق فقط ، بل إنه داخل المدن وفى داخل البيوت ، لم يكن هناك مكان آمن تماماً ، لأن المستوطنين الصليبيين كانوا قلة، كما أن الأسوار كانت قد دمرت بحيث لم يعد هناك مكان آمن من هجمات المسلمين . فضلا عن أن اللصوص كانوا ينسابون فى الطرقات أثناء الليل . وقد أدى ذلك إلى أن يتسرب بعض الصليبيين خلسة عائدين إلى بلادهم ، وعلى حين أعلن آخرون علانية عزمهم على الرحيل ، لأنهم كانوا يخشون أن يتغلب المسلمون عليهم ذات يوم .

وعلى ذلك فلم يكن أمام بلدوين الأول غير اتخاذ بعض الإجراءات الخاصة

---

(1) Mayer (H.) The Crusades, (Transl . From the German by J. Gillingham, Oxford University Press, 1977), P. 150 .

(٢) مونروند ، تاريخ الحروب المقدسة ، جـ ١ ، ص ٥٦ .

(3) William of Tyre, I, PP. 408 - 9.

(4) Ibid, P. 408 .

(5) Ibid, PP. 408 - 9.

لينهض بأعباء إعادة تأهيل القدس بالسكان ، فلم يبلغ عدد سكان المدينة فى ذلك الوقت إلى حد كاف لتنفيذ المشروعات الضرورية فى المملكة . وفى البداية حاول بلدوين أن يمنع فرار الصليبيين من القدس ، بإصدار قانون الحق التقادمى ، وهو القانون الذى أعطى الحق لكل صليبى أن يمتلك أراضيه إذا أقام فيها لمدة لا تقل عن عام ويوم(١) . ويذكر وليم الصورى أن هذا القانون صدر لمعاقبة أولئك الذين تركوا ممتلكاتهم فى وقت الشدة ، ثم حاولوا العودة بعد ذلك حينما شعروا بشىء من الأمان(٢) . بيد أن هذا القانون لم يكن فعالاً بدرجة كبيرة ، لأنه أفتقد قوة الإجبار أو الإقناع . كما أن الذين كان عندهم شىء فى أوروبا وخافوا أن يفقدوه غادروا فلسطين إلى بلادهم(٣) .

كان لابد من إيجاد سكان ليقيموا فى القدس ، ولابد من تدبير وسائل معيشتهم ، وإذا كان النصارى الغربيون آنذاك لايفضلوا الاستيطان فى القدس ، فلا بد من البحث عن مستوطنين فى مكان آخر . ولما كان من المستحيل أن يفكر بلدوين الأول فى الاعتماد على المسلمين فى هذا الشأن، فإنه لم يبق أمامه سوى النصارى الشرقيين ، وبخاصة المشتتين منهم شرقى نهر الأردن . ويبدو أن بلدوين التقى بهم فى أثناء حملته سنة ١١١٥م ، وقرر أن يحول هؤلاء الفلاحين والقرويين إلى سكان مدن(٤) . ولذلك نظم بلدوين خطة للهجرة على نطاق واسع ، ولم يمض وقت طويل حتى اندفع أولئك النصارى إلى القدس بصحبة نسائهم وأطفالهم وقطعانهم وماشيتهم ، وكل ما استطاعوا حمله من متاعهم(٥). ويعتقد وليم الصورى أن هؤلاء المستوطنين الجدد كانت لديهم أسباب قوية دفعتهم إلى الهجرة للقدس والتعاون مع الصليبيين . فقد كان استيطانهم فى الأرض التى يحتلها الصليبيون

---

(١) لمزيد من التفاصيل من هذا القانون ، انظر :

Prawer , **"The Assise de Tensure and the Assise de Vente : A Study of Landed Property in the Latin Kingdom"**, E.H.R., Second Series, III, (1950-1951), PP. 77-87.

(2) William of Tyre, I, P. 408.

(3) Prawer , "The Settlement of the Latins" , P. 495.

(4) Ibid, P. 496.

(5) William of Tyre, I, P. 508.

يعنى أولا وقبل أى شىء آخر – على حد زعم وليم الصورى – الهروب من تهديد المسلمين لهم . ويضيف إلى ذلك أن الاستيطان بجوار الأماكن المقدسة كان له أقوى الأثر فى نفوسهم (١) . وقد تلقى أولئك المهاجرون بعض الامتيازات من بلدوين الأول ، نذكر منها على سبيل المثال ، المنازل وبعض الأراضى الزراعية المجاورة للمدينة، وقد استوطن هؤلاء المهاجرون على ما يبدو الحى الذى كان يقطنه اليهود فى القدس قبل مذبحة عام ١٠٩٩م(٢) .

هذا ويقول مونروند أن أخبار الانتصارات التى أحرزها الصليبيون بامتلاكهم القدس قد انتشرت بسرعة فى الجهات القريبة إليها ، ومنها إلى بلاد الشرق الأخرى . وهكذا شوهد النصارى الشرقيون متقاطرين جموعاً غفيرة إلى القدس من أنطاكية ومن الرها ومن طرسوس ومن كبادوكيا ومن قيليقية ومن بين النهرين ومن سائر أقاليم سوريا ، فالبعض من هؤلاء النصارى قد وطدوا سكناهم الدائم فى القدس ومايحوطها ، وغيرهم كانوا يزورون الأماكن المقدسة ويعودون إلى بلادهم (٣) .

وقد استطاع بلدوين الأول أن يوفق بين سكان القدس من النصارى الغربيين الكاثوليك من جهة والنصارى الشرقيين من جهة أخرى، رغم اختلاف مذاهبهم لينهضوا بأعباء النشاط العمرانى فى فلسطين . ولتحقيق التفاهم بين هؤلاء السكان ، شجع بلدوين الأول التزاوج بين النصارى الغربيين والنصارى الشرقيين . وإذا كان قليل من الأمراء الغربيين ، قد أقبلوا على الزواج من النصرانيات الشرقيات، فإن جمهرة الفرسان الصليبيين وصغار جندهم لم يجدوا غضاضة فى ذلك (٤) .

وبالإضافة إلى ذلك ، بذل بلدوين الأول هبات ضخمة من الإقطاعيات

---

(1) William of Tyre, I.P.508 .

(2) Prawer , "The Settlement of the Latins" , P. 496.

(٣) مونروند ، تاريخ الحروب المقدسة ، جـ ١ ، ص ١٨٠ .

(4) Runciman, A History of the Crusades, I, P. 209.

وعن نتائج هذه الزيجات ، انظر :

Thompson, (J.WW.), Economic and Social History of the Middle Ages (New York, 1959), I, P. 398.

للكنيسة والأديرة فى فلسطين ، لأنه أراد أن يظهر بمظهر يليق بمركزه فى الدولة ، وأن يتبع فى الوقت نفسه عادة الملوك فى الغرب ، وهى العادة التى كانت تضطر الملوك إلى وقف الأموال ومنح الهبات الضخمة إلى الكنائس والأديرة حتى ينالوا فى مقابل ذلك تأييد رجال الدين لسياستهم . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى كان بلدوين الأول يرمى من وراء ذلك إلى تشجيع رجال الدين فى الأديرة والكنائس على أن يشاركوا فى عملية الاستيطان الصليبى فى الأراضى المحتلة . ومن أمثلة ذلك أن بلدوين بذل فى سنة ١١٠٨م هبات ضخمة من الأراضى تقع فى وادى يوشفاط Josaphat(١) إلى دير نوتردام Notre-Dame . وفى عامى ١١٠٩م ، ١١١٤م عاد بلدوين الأول ، مرة أخرى ، وأكد هبته السابقة(٢) .

وعندما تولى بلدوين الثانى (١١١٨ - ١١٣١م) مقاليد الأمور فى القدس ، فإنه واصل سياسة الملك السابق ، ولذلك نراه فى عامى ١١٢٢م ، ١١٣٠م يبذل المزيد من الأراضى إلى دير نوتردام . ولم يكتف بلدوين الثانى بذلك بل أعلن أنه من تسول له نفسه الاعتداء على أملاك هذا الدير فإنه سيتعرض للعقاب البدنى ، بالإضافة إلى دفع غرامة مالية قدرها ١٠٠٠ دينار بيزنطى(٣) .

وقد حرص بلدوين الثانى على إنعاش الأحوال الاقتصادية فى مملكته ، فأصدر قرارا سنة ١١٢٠م بإلغاء كافة الضرائب التى كانت قد فرضت على نقل البضائع من المملكة وإليها . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا لم يجبر أى صليبى على دفع أى نوع من الضرائب مقابل ذلك(٤) ، علاوة على ذلك أجاز بلدوين الثانى للسريان واليونانيين والأرمن والمسلمين ، أن يجلبوا إلى القدس أى كميات من الحبوب والشعير والبقول ، وأعفاهم من كافة الضرائب المقررة على هذه السلع (٥) . والواقع أن هذا الإجراء الأخير إنما يرجع - فيما يقال - إلى طلب مقدم من جرموند Germond بطريرك القدس (١١١٨ - ١١٢٨م) إلى بلدوين الثانى أثناء زيارة

---

(١) هو وادى يوسف .

(2) Kohler, Ch. (ed.), "Chartes de L'Abbaye de Notre-Dam de la Vallée de Josaphat en Terrs-Sainte (1106-1291), R.O.L., VII, PP. 112-114, 116 .

(3) Ibid.

(4) William of Tyre, I, P. 537.

(5) Ibid .

الأخـيـر له. وإذا كـان الأمـر كـذلك ، فـإن هذا الإجـراء عـاد - بلا شك - على البطريرك بمبالـغ مالية كبيرة ، لأنه كان يتولى احتكار أفران القدس [١] . وهكذا استطاع بلدوين الثانى أن يستـميل سكان القـدس إلى جـانبـه، وأن ينال رضـاهم وتأييـدهم له . والحق أن بلدوين الثانى بدا فى نظر مواطنيه مثـال الحـاكم الصـالح الذى يعمل كل ما فى وسعه لإسعاد من يتولى أمرهم[٢] .

والحـقيقة أن الصليبيين وجدوا فى المناطق التى استقروا بها فى ذلك الوقت ميدانا صـالحا لنشاطهم وتحـقيق أطماعهم المادية والسياسيـة . إلا أنهم اضطروا إلى التـخلى عن كـثيـر من أصـولهـم ، بعد أن استـهـوتهم الحـيـاة الجـديـدة التى أخـذوا يحيونها[٣] . بل لقد وجدوا لذة وفخرا فى التشبه بالمجتمع الأرقى الذى عـاشوا فى وسطه [٤] . وتكشف المصادر اللاتينية ولا سيما مؤلف فوشيه من شارتر [٥] وكذلك

---

(1) Mayer The Crusades, P. 537 .

(2) William of Tyre, I, P. 537.

(٣) جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص ٨٣ .

(٤) عاشور ، «**المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية**» فى كتاب تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر ، وهو سجل كامل لأعمال المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام المنعقد فى الجامعة الأردنية (الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٤) ، ص ٤٢ .

(٥) بعد انقضاء الربع الأول من القرن الثانى عشر أى قبل أن يمر خمسون عاما على استيطان الصليبيين فى بلاد الشام، سجل فوشيه الشارترى ملاحظاته حول مثل هذه التغيرات فى فقرة جعلها الاستشهاد المتكرر بها شهيرة ، يقول فوشيه: «**... ها نحن قد تحولنا إلى شرقيين فمن كان منا رومانياً أو فرنجياً فى الأمس ، قد أصبح اليوم فى وطنه الجديد جليلياً أو فلسطينياً . وكـذلك تحـول ابن مـدينة شـارتر إلى صـورى أو أنطاكى ، فقد نسى كل منا وطنه الأول ، فلم يعد أحد يتنكره ، بل لـم يعد أحد يتكلم عنه . وقد غدا الواحد منا يملك بيتا وحشـما وهـو مطمئن حتى كأنه قد ورث ذلك بحق قـديم له فى البـلاد ، كمـا أن البـعض قـد تزوجـوا لا بـالمواطنات الإفـرنجـيـات ، بل بالسوريات أو الأرمينيات . وهكذا أصبح كل منا يعيش فى وسط أسرة وطنية جميلة، وإنا لنستعمل من آن لآخر اللغات المحلية المختلفة ، وقد أصبح ابن البلد والمهاجر منا، من متعددى اللغات وقد شد التضـامن بين أكثر الأجناس منا تباعدا حتى صدقت فينا**

آية التوراة القائلة : «الذئب والحمل يرعيان معا ، والأسد يأكل التبن كالبقرة» =

مذكرات الرحالة العرب الذين زاروا المناطق العربية المحتلة عن ذلك التطور الذى طرأ على المستوطنين الصليبيين . فقد اختلطوا بالشرقيين وأخذوا من طباعهم وعادتهم بنصيب ، وتزوج الكثيرون منهم وأنجبوا الأولاد وأعدوا أنفسهم للإقامة الدائمة فى الشرق ، ولم يعودوا يفكرون فى العودة إلى أوطانهم .

ومن المؤكد ، كما أنه من الطبيعى أن الصليبيين اتخذوا أساليب معيشة السوريين وعاداتهم (١) ، إلا أن الدكتور سعيد عاشور يصف الملاحظات التى سجلها فوشيه من شارتر حول تغير أسلوب معيشة الصليبيين بأنها نوع من الاستياء من الوضع عند بعض الكتاب اللاتين(٢) . أما الدكتور جوزيف نسيم فقد اعتبرها دعوة صريحة إلى الاستعمار الاستيطانى ، بالعمل على تهجير الغربيين إلى الشرق ، وتوطينهم فيه بصفة دائمة دون العودة إلى أوطانهم(٣) . ويرى الدكتور قاسم عبده قاسم أن ما قاله فوشيه من شارتر ما هو إلا تعبير عن الغربة الحضارية التى كان يعانى منها الفرنج فى الشرق(٤) .

غير أن المؤرخ الألمانى ماير اتخذ ملاحظات فوشيه من شارتر سابقة الذكر دليلا على أنها شعور من الصليبيين بالانتماء إلى هذا الوطن الجديد(٥) . ويضيف صاحب هذا الرأى أن وليم الصورى قد صاغ هذا الشعور ، فيما بعد ، فى تعبير بليغ

=(أشعياء:٢٦/٢٥) ، ويكاد الواحد منا يكون قد تبلد ، والمهاجر قد تمثل بالمقيم . وفى كل يوم يغدو علينا الأقرباء والأصدقاء فيفضلون أن يتركوا كل ممتلكاتهم هناك لينضموا إلينا ، إذ أصبح الفقير منا غنيا ، بنعمة الله ، ومن كان لايمتلك سوى القليل من المال ، أصبح ينعم هنا بثروة طائلة ، حتى أن من لم يكن يملك قرية غدا هنا سيداً لمدينة بكاملها ، فلم العودة إلى الغرب طالما الشرق يحقق لنا الرغبات» انظر :

Fulcher of Chartres, P. 271-72.

(1) Smail, Crusading Warfare, P. 43 .

(٢) عاشور ، المجتمع الإسلامى ، ص ٢٤٠ .

(٣) جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص ٨٣ .

(٤) تفضل الأستاذ الدكتور والعلامة الكبير قاسم عبده قاسم – أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ الأسبق بكلية الآداب جامعة الزقازيق – بإبداء هذا الرأى عندما كنا نستعرض الآراء المختلفة فى هذا الموضوع .

(5) Mayer, The Crusades, P. 153 .

فى مقدمة تاريخ (١١٨٤م) حين يحدثنا عن الظروف التى جعلته يقدم على تدوين تاريخ مملكة القدس .

وقد يكون من الملائم هنا أن نذكر ما استشهد به ماير ، وماقاله وليم أسقف صور الذى كان معاصرا للأحداث التى يتكلم عنها[١] . وفى هذا الصدد يقول وليم الصورى : **«بالنظر إلى التعقيدات المحفوفة بالمخاطر والمآزق التى لايسهل إدراكها المصاحبة لهذه المهمة ، ربما يكون من الأفضل إذا بقيت صامتا فقد كان على أن التزم السكينة ، وأن أجبر قلمي على الاسترخاء ، غير أن حبى الشديد لبلدى دفعنى بقوة إلى المضى إلى الأمام باعتبارى رجلا مخلصًا ذا مواهب طبيعية مستعدا للتضحية بنفسه من أجلها ، إذا دعت الضرورة إلى ذلك . وأكرر مرة أخرى لقد حفزتنى على العمل بذلك الحق الذى يتعلق بحاجياتها الضرورية ، ذلك أن الأشياء التى أنجزتها على مدار قرن من الزمان يجب ألا تتوارى فى سكون وتنزوى فى ظلال النسيان المهين ، بل دفعتنى أن أحمى هذا التراث لصالح الأجيال القادمة باستعمال قلمى الذى لايكل»**[٢] .

ويرى بابكوك Babcock وكرى Krey اللذان قاما بترجمة كتاب وليم الصورى إلى الإنجليزية ، أن ماذكره وليم فى الفقرة السابقة يعطينا الأمثلة الأكثر سبقاً ووضوحا لتعبير الوطنية [٣] . وترى الدكتورة بيريل سمالى Bery Smalley التى تعتبر من علماء تاريخ العصور الوسطى البارزين ، أنه من الغريب أن تتبلور الوطنية فى الأراضى المقدسة بسكانها المختلطين ، وحكومتها المترهلة ، ومستقبلها غير المأمون . وتستطرد صاحبة هذا الرأى قائلة أنه ربما تكون ظروف الأراضى المقدسة القاسية هى التى أزكت حاسة الامتلاك لدى النزلاء الصليبيين[٤] . ويقول الدكتور كوبلاند Coopland أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة ليفربول بإنجلترا أنه لم يوجد فى العهد الإقطاعي دولة ذات بناء محكم ، ولم تكن هناك أمة أو قومية، أو ما إلى ذلك من لزوميات الأمة بالمعنى الحديث كاللغة الواحدة ، والآداب

(1) Atiya (A.S.) The Crusade historiography and bibliogaphy, P. 29.

(2) William of Tyre, I, P. 55.

(3) Ibid, P. 55, N.1.

(٤) سمالى ، المؤرخون في العصور الوسطى (ترجمة قاسم عبده قاسم ، القاهرة ، ١٩٧٩م) ، ص ١٨٣ .

والتقاليد والتراث القومى (١) .

والواقع أن فكرة الوطنية بمعناها الحديث لم تكن مألوفة فى القرن الثانى عشر عندما كان الولاء الإقطاعى إلى شخص واحد لايزال يسود فى كل مكان على وجه التقريب ، ولاشك فى أن عهد الإقطاع كان يناقض الوطنية ، فلا بد من تطور هذا العهد قبل شعور الإنسان بوطنه فى نطاق واسع ومصالحه المتشابكة ، لأن انتماء الناس إلى إقطاعات متعددة فى قطر واحد يربطهم بضروب شتى من الولاء للسادة المتعددين الذين يسيطرون عليها ، ويعدهم ضروبا من المخالفات والمخاصمات تتغلب فيها الزمرة أو الطائفة على الأمة أو الدولة نفسها فى بعض الأمور (٢) . ولا ننسى هنا أن ننوه إلى أن الكنيسة هى الوحيدة التى نادت إلى مثل هذا الولاء المجرد (٣) .

ومهما يكن من شىء ، فالحقيقة المهمة التى لايمكن إغفالها أن هذا الشعور ، إذا سلمنا بوجوده فى نفوس الصليبيين فى بداية استيطانهم الأراضى العربية التى احتلوها عنوة ، قد اختفى فى القرن الثالث عشر ، كما يذكر ماير (٤) ، وذلك عندما استقرت جاليات كبيرة من التجار الإيطاليين والبروفانسيين على سواحل بلاد الشام، ووضعت - كما سنرى ذلك بالتفصيل فيما بعد - مصالحها الاقتصادية فوق أى اعتبار آخر .

والحق أن تلك الجاليات كان لها أهمية كبرى فى استيطان المدن الفلسطينية فى هذه الفترة، وإن كان غيابهم من القدس ظاهرة تدعو للتساؤل . فمن المعروف أن تلك الجاليات قد حصلت على امتيازات فى مدينة القدس تضاهى فى قيمتها تلك الامتيازات التى حصلوا عليها فى جميع المدن الأخرى . وحتى إذا تصورنا أن الامتيازات العامة التى حصلت عليها الجاليات قد منحتهم حقوق فى كل مدن المملكة بما فيها القدس ، فإن هناك امتيازات خاصة تشير إلى القدس على نحو

---

(١) كوبلاند وفينوجرادوف ، الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ، (ترجمة محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٨م) ، ص ٢٥ .

(٢) العقاد ، أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ، (دار المعارف بمصر ، الطبعة الثامنة، ١٩٧٣م) ، ص ١٥٠ - ص ١٥١ .

(3) William of Tyre, I,P. 55, N.6.

وانظر كذلك العدوى ، المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى (دار المعرفة ، الطبعة الأولى، أكتوبر ١٩٦١م) ، ص ١٤٣ .

(4) Mayer, The Crusades, P. 153 .

واضح. ومن ذلك فإن البنادقة حصلوا فى عام ١١٢٣م على امتياز يمنحهم حياً فى القدس[١]. وفى أواخر عام ١١٠٤م تسلم الجنوية حيًّا فى القدس ، وتلقى قومون مرسيليا فى عام ١١٥٢م حيا وكنيسة فى القدس ، ولم يستثن من ذلك سوى البيازنة الذى لم يتمتعوا فيما يبدو بمثل هذه الامتيازات فى القدس[٢].

وحتى إذا أخذنا فى الاعتبار عدم أهمية القدس اقتصاديا بالنسبة للجاليات الإيطالية ، فإن غياب أحياء القومونات بالكامل من المدينة تظل لغزا على حد تعبير براور الذى يقترح هنا تفسيرا لهذه الظاهرة ، وهو أن تجار إيطاليا كانوا بصفة عامة تجار جملة ، ولذلك لم تكن لهم أعمال تجارية هامة فى القدس[٣]. ومن الثابت أنهم لم يستقروا أبدا فى أى مدينة داخلية ، وفضلوا الإقامة فى المدن الساحلية . ولم يكن أولئك التجار يشتغلون بتجارة الذخائر الدينية . أضف إلى ذلك أن بضائعهم وسلعهم يمكن شراؤها أو بيعها بسهولة فى موانىء نشاطهم . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى، فإن تجار التجزئة فى المدن الداخلية يستطيعون بسهولة شراء بضائعهم المتعددة من تلك الموانى التى كانت بمثابة مراكز لتبادل المنتجات الشرقية والغربية[٤].

وإذا حاولنا الآن أن نتعرف على نتائج المحاولات التى بذلها كل من بلدوين الأول وبلدوين الثانى فى سبيل زيادة عدد السكان فى مملكة بيت المقدس نجد أن السكان الصليبيين كانوا لايزالون أقلية بالمقارنة مع المسلمين الذين كانوا يؤلفون غالبية السكان فى الأراضى المحتلة . فبعد الغزو الصليبى مباشرة والمذابح الشاملة وعمليات طرد السكان الأصليين فى المدن، عاد المسلمون ثانية ليستقروا فى المدن . وكانت القدس هى الاستثناء الوحيد ، لأن الصليبيين أصدروا قراراً بمنعهم من ذلك[٥] . وكان الريف كله مسلما ، فقد استمرت المجتمعات القروية الإسلامية تعمل تحت الحكم الصليبى . وظلت الخلايا الاجتماعية الأساسية كما هى ، على الرغم

(1) William of Tyre, I, P. 553.

(2) Prawer, "The Settlement of the Latins", P. 498.

(3) Ibid.

(4) Ibid.

(5) William of Tyre, I, P. 507.

من أن الدولة الإسلامية فقدت سيادتها وسلطتها . وتركزت الحياة الدينية فى القرى حول المساجد واستمر القضاة والعلماء المسلمون يباشرون خدماتهم لأنه لم يكن ممكنا الاستغناء عنهم فى المسائل الشرعية . وقد نجت بعض المساجد حتى فى المدن الكبيرة من التحويل إلى كنائس وظلت بأيدى المسلمين (١) .

وبالإضافة إلى ذلك اعترف الصليبيون بالسلطة التقليدية للشيوخ ومنح الرئيس وهو شيخ القرية نوعاً من السلطة ، وكان هو الذى يمثل القرية فى تعاملها مع الحاكم الصليبى . وفى حالة عدم وجود وكيل للخراج للإشراف على ضرائب الدخل ، كان شيخ القرية يتحمل هذه المسئولية بتفويض من الصليبيين(٢) .

ومن الراجح أن إيجاد أسلوب للتعايش مع المسلمين كان أحد الضرورات الأولى للاستيطان الصليبى فى الأراضى المحتلة . فقد كانت هناك أسباب جعلت من غير الممكن تحديد العلاقات بين الصليبيين المستوطنين والمسلمين أصحاب البلاد ، وفقا لروح الحرب المقدسة . فالاضطهاد سياسة عملية تتطلب إدارة مؤلفة من عدد وافر من الأشخاص ، بينما كان عدد المستوطنين ضئيلاً وكان استغلال الفلاحين المسلمين ضرورة اقتصادية بالنسبة لمالكى الأراضى الإقطاعيين، وفى كثير من الأحيان كانت الحرب الهجومية والدفاعية ضد الدول الإسلامية المجاورة تتطلب كل ماتحت تصرف الصليبيين من قوة ، ولم يكن لديهم ما يكرسونه لاضطهاد رعاياهم الخاضعين . لذلك ترك الصليبيون للمسلمين حقوقاً مهمة تتعلق بالإدارة الذاتية والتمتع بعاداتهم الخاصة شأنه فى ذلك شأن النصارى السوريين (٣) .

كما أن الصليبيين سعوا إلى أن تقوم بينهم وبين المسلمين المجاورين لهم وأهالى البلاد المحتلة علاقات صداقة قدر الاستطاعة . وحاولوا جهد استطاعتهم إيجاد صلات حسنة مع التجار المسلمين ضمانا لتصريف منتجاتهم وتنشيط الحركة الاقتصادية تحقيقا لمصالحهم فحسب(٤) . وقد أورد ابن جبير فى

---

(١) براور ، عالم الصليبيين (ترجمة وتقديم وتعقيب قاسم عبده قاسم ، محمد خليفة حسن، دار المعارف ، ١٩٨١) ، ص ٩٨ .

(٢) نفسه ، ص ٩٩ .

(3) Smail, Crusading Warfare, PP. 53 - 54 .

(٤) جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص ٨١ .

رحلته [١] ، وأسامة بن منقذ ، فى كتاب الاعتبار ، عديداً من الأمثلة التى تكشف عن العلاقات القائمة بين الصليبيين والمسلمين زمن الحروب الصليبية[٢] .

ولم يكن اصطناع الصليبيين هذه السياسة عن رغبة صادقة أو نوايا طيبة ، وإنما كان هدفهم هو إشاعة الازدهار والثراء فى الأراضى التى أغتصبوها من أهالى البلاد الأصليين ، حتى يضمنوا عدم ثورة هؤلاء الأهالى عليهم فى الوقت الذى كانت فيه دولتهم فى طور التكوين . وكانت عبارة عن شريط ساحلى ضيق على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، بينما ظلت البلاد الداخلية والمحيطة بهم من كل جانب فى أيدى المسلمين[٣] .

غير أن هذه السياسة الماكرة لم تؤت ثمارها المرجوة ولم يكن ينتظر لمثل هذا التفاهم أو الاندماج أن يتم أو يسير إلى نهايته . ذلك أن الصليبيين هم الذين بدأوا بالعدوان ، وهم الذين اغتصبوا البلاد عنوة من أصحابها ، وفرضوا حكمهم فيها بقوة السلاح وحدة السيف . ولهذا كانت العدواة قائمة بينهم وبين المسلمين الذين لم تفلح معهم سياسة الدهاء واللين التى استنها خصومهم ولم يثقوا فى نواياهم وفى عهودهم ، وهم يعرفون تماماً حقيقة نوايا الصليبيين وزيف وعودهم التى كانوا على أتم استعداد لنقضها والتخلى عنها[٤] .

وفى الوقت الذى كان على الصليبيين أن يواجهوا فيه عداوة المسلمين ، فإن النصارى السوريين[٥] لم يوفروا الأساس الراسخ للحكم الصليبى فى الأراضى العربية

(١) ابن جبير ، تذكرة بالأخبار عن إتفاقات الأسفار فى مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية عصر الحروب الصليبية (تحقيق حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٥٥م) ، صفحات ٢٧٦ - ٢٧٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠، ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٢) ابن منقذ ، كتاب الاعتبار ، حرره فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠م .

(٣) جوزيف نسيم يوسف ،العرب والروم واللاتين ، ص ٨٢ .

(٤) نفسه : المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

(٥) لمزيد من التفاصيل عن جماعات النصارى الشرقيين ، انظر :
Anonymous Pilgrims, P.P.T.S., VI, PP. 28-29 ; Smail Crusading Warfare, P.50.

المحتلة . كما أن العلاقات بين الطرفين لم تتسم أبداً بالصداقة والثقة المتبادلتين[١]. ذلك لأنه منذ وصول الصليبيين لأول مرة إلى بلاد الشام كان العديد منهم يميلون إلى اعتبار كل النصارى الشرقيين مهرطقين . وطيلة القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانت هناك أدلة كثيرة على الكراهية المتبادلة ، التى كان ثمة مجال لوجودها بين النصارى الشرقيين والنصارى الغربيين . وتفاقمت هذه الكراهية بسبب المشاكل السياسية التى امتدت جذورها إلى العلاقات التى كانت قائمة بين البيزنطيين وأوائل الصليبيين ، وإلى النزاع المرير حول الحقوق البيزنطية فى إمارة أنطاكية [٢] .

غير أن السبب الثابت الباقى إلى حد بعيد لاستياء النصارى الشرقيين كان يمكن فى مجرد حقيقة أنهم اعتبروا جزءا غير منفصل عن المؤسسة الكنسية اللاتينية . ولذلك لم يسمح لرجال الدين الأرثوذكس بالانضمام إلى الصفوف العليا من السلطة . فالبطريرك اليونانى فى أنطاكية ، الذى أعيد إلى مركزه فى سنة ١٠٩٨م، أفسح المجال فى سنة ١١٠٠م لخليفته اللاتينى ، برنارد الفلينسى Bernard of Valence ولم تشهد القدس أثناء الاحتلال الصليبى لها بطريركا يونانيا أبدا .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأرثوذكس اضطروا إلى تقديم الطاعة وضريبة العشر إلى رجال الكنيسة الأعلى مركزا والمنتمين إلى جنس دخيل، والممارسين طقوساً مختلفة وقبل كل شيء كانوا قد تمتعوا بحماية الإمبراطور البيزنطى فى أيام الحكم الإسلامى ، ولذلك كان لديهم دافع ضئيل للمساعدة فى المحافظة على سيطرة الصليبيين[٣].. ولذا فلا عجب إذا ما علما أنه عندما كان السلطان صلاح الدين الأيوبى يحاصر القدس فى سنة ١١٨٧م ، وعدت الطائفة الأرثوذكسية الموجودة داخل أسوار المدينة بتقديم المساعدة له ، وأنه تلقى تهانى الإمبراطور البيزنطى إسحاق إنجيلوس عند تحريره المدينة[٤].

وكانت قد حدثت أحداث مماثلة عندما استولى عماد الدين زنكى على الرها فى سنة ١١٤٤م إذ لم يظهر رحمة تجاه الصليبيين ، ولكنه عامل النصارى المحليين برأفة واضحة . ومما يلفت النظر الموقف الذى عرضه مؤرخ سورى مجهول ترك وصفا لهذه الأحداث . فبالنسبة للغرب اللاتينى كان عماد الدين زنكى

(1) Smail, Crusading Warfare, P. 50.

(2) Grousset, Historie des Croisades, I, P. 110 .

(3) Smail, Crusading Warfare, P. 51.

(4) Runciman, History of the Crusades, II, PP. 467-8.

وحشا متعطشا للدماء ، وكان استيلاؤه على الرها مأساة تكفى لإثارة حرب صليبية جديدة . أما المؤرخ السورى المجهول فكان باستطاعته أن يحتفظ بنظرة تعتبر بالمقارنة محايدة ، فهو لم يصف فقط رفق زنكى بالنصارى المحليين، وإنما بذل جهدا كبيرا في تسجيل زياراته إلى كنائسهم وعلاقته الودية مع المطران اليعقوبى[١] . وأسلوب مثل هذا المؤرخ له قيمته كدليل على أسلوب تفكير الشعب الذى ينتمى إليه . فالمؤرخ السورى المجهول كتب فقرات تشهد على أن اللغة المشتركة والجنس المشترك اللذين اشترك فيهما مع كثير من المسلمين أمكن أن يشكلا رابطاً أقوى من العقيدة النصرانية التى اشترك فيها مع الصليبيين [٢] .

وكان النصارى الشرقيون قد عاشوا عدة قرون تحت حكم الخلفاء الإسلامى المتسامح على وجه العموم . وخلال الاحتلال الصليبى كانت هناك جماعات من الدين نفسه فى البلاد التابعة للمسلمين ، كما فى البلاد التابعة للصليبيين . وكانت تلك الجماعات تشكل من حيث الزمان والمكان جزءاً من العالم الإسلامى ، كما كانت تشكل جزءاً من العالم الصليبى . وبينهما وبين حكامها اللاتين ، كان هناك رابطة الدين المشترك ، ولكنها كانت ترتبط كذلك بالمسلمين بروابط التاريخ واللغة والعادات[٣] . ولم تسبب أى مشكلات للصليبيين، ولكن أمكن أن تنظر إلى إمكانة ازدهار الحكم الإسلامى باتزان ورأى فيها ليس فقط ملوك القدس ، بل وأيضا الحكام الزنكيون ، والأيوبيون ، رعايا أمكن ضمان ولائهم بالمعاملة الحسنة .

وبالإضافة إلى أن النصارى السوريين لم يوفروا الأساس الراسخ للحكم الصليبى فى بلاد الشام ، فإنهم زادوا من مشكلات الصليبيين العسكرية أكثر مما خففوا منها [٤] . على أن المؤرخ شارل ديل يذكر أن هؤلاء النصارى خدموا فى جيوش الأمراء اللاتين[٥]، والحقيقة أن النصارى السوريين ساعدوا ريمون السانجيلى

(1) Anonymous Syriac Chronicle, The First and Second Crusades, translated by A.A. Tritton, with notes by H.A.R. Gibb, J.R.A.S., 1933, PP. 285, 289, 291.

(2) Ibid, PP. 276, 278, 293 .

(3) Jacques de Vitry, P. 76 .

(4) Smail, Crusading Warfare, P. 52.

(5) Diehl (ch.), “Les Monuments De L’Orient Latin”, R.O.L., V, P. 298.

فى حصاره لطرابلس [١] ، كما أنهم اشتركوا مع الصليبيين فى إحباط إحدى الهجمات التى قامت بها حامية عسقلان على القدس ، عندما كان جيش مملكة بيت المقدس يحاصر صور فى سنة ١١٢٤م [٢] . أضف إلى ذلك أن النصارى السوريين كانوا قد اشتركوا فى الهجوم الفاشل، الذى قام به الصليبيون على معرة النعمان فى سنة ١٠٩٨م[٣] على أنه من المؤكد أن عدد السوريين النصارى العاملين فى الجيوش الصليبية كان عادة ضئيلاً بالنسبة إلى حجم المجتمع السورى بكامله وينبغى إضفاء الأهمية الملائمة على شهادة كل من وليم الصورى ويعقوب الفيترى، فكلاهما قد عرف السوريين ، بأنهم شعب غير مولع بالحرب[٤] . بيد أن الأدلة تثبت أنه كان بينهم أفراد من ذوى الشجاعة والعزم التحقوا بصفوف القوات الصليبية . ومن المحتمل أن هؤلاء الأفراد كانوا من طائفة الموارنة ، وحسب رأى وليم الصورى ، امتازوا بصفاتهم الحربية [٥] ، فى حين أثنى يعقوب الفيترى على مهارتهم فى الرمى بالسهام[٦] . ومن المحتمل أن يكون النصارى السوريون المقيمون فى القدس قد حملوا السلاح فى الأزمات غير أنهم لم يكونوا مصدر للمساعدة العسكرية كجماعة . ولا كانت فائدتهم فى الحرب تتناسب مع حجم تلك الجماعة .

وهكذا كان على الصليبيين فى الشرق أن يظلوا أقلية فى حالة حرب دائمة مع المسلمين . وكانت الطبقة الحاكمة عند الصليبيين عبارة عن أرستقراطية عسكرية يشبه وضعها فى بلاد الشام فى نواح متعددة ، وضع النورمان فى إنجلترا فى الجيل الأول بعد سنة ١٠٦٦م ، وإحدى نقاط التشابه بينهما هى اعتماد كل منهما على قلاعه للمحافظة على المناطق التى استولى عليها بالغزو[٧] . ويلقى هذا

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢١١ .

(2) Fulcher of Chartres, P. 265.

(3) Gesta Francorum, P. 73 .

(4) William of Tyre, II, P. 471; Jacques de Vitry, P. 67 .

(5) William of Tyre, II, P. 450.

(6) Jacques de Vitry, P. 79 .

(7) Smail, Crusading Warfare, P. 60; Johns (C.N.), **"The Attempt to Colonize Palestine and Syria in the Twelfth and Thirteenth Centuries"** J.R.C.A.S., (1934), XX, P. 291 .

الاعتماد مزيداً من الضوء على طبيعة الاستيطان فى الأراضى العربية. والحقيقة أن المنطق والحذر أمليا على الصليبيين أن يتمركزوا فى مواقع قليلة محصنة . وصارت هذه هى الصفة المميزة لمملكة بيت المقدس .

ومن هذه المراكز الحصينة ، التى كانت مدنا فى العادة ، كان الصليبيون يحكمون الأراضى المحتلة ، ولكى يكون وجودهم محسوسا وسيادتهم فعالة ، فإنهم رصعوا جميع الطرق الرئيسية والممرات بالحصون الصغيرة والممرات التى كانت تشبه نقاط المراقبة أو نقاط الشرطة . وصارت شبكة التحصينات الواسعة التى لم تشهدها المنطقة من قبل هى الشبكة الحاكمة لمملكة بيت المقدس . فطالما كانت القلاع والحصون والاستحكامات مصونة ، ظل الصليبيون يحكمون الأرض التى كانوا قد استولوا عليها [١] . وقد استخدمت الحصون والقلاع فى توطيد السيطرة اللاتينية على المناطق ذات الأهمية الإستراتيجية فى شرقى الأردن وجنوب فلسطين كما أصبحت هذه القلاع - فيما بعد - مركزا للاستعمار والتنمية الاقتصادية، وأفادت كمساكن ومراكز إدارية وثكنات ومخافر للشرطة[٢] .

والحقيقة أن بلدوين الأول هو الذى بدأ سياسة بناء القلاع والحصون . ففى سنة ١١١٥م شيد حصن الشوبك ليكون مركزاً يمكن الصليبيين من السيطرة على وادى عربة بأجمعه[٣] . وفى العالم التالى (١١١٦م) بنى بلدوين الأول فى آيلة قلعة حصينة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام ، كما شيد قلعة أخرى فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة آيلة فى خليج العقبة . وعندما تولى فولك الأنجوى **Fulk of Anjou** حكم مملكة بيت المقدس لجأ إلى تأمين طريق الحجاج بين يافا والقدس ، وحمايتهم من هجمات المسلمين الذين كثيرا ما كانوا يخرجون من عسقلان لتهديدهم . لذلك شيد الصليبيون فى أواخر سنة ١١٣٢م ، وأوائل سنة ١١٣٣م حصن بيت نوبا فى منتصف الطريق بين اللد والقدس[٤] . وفى سنة ١١٤٠م بنى فولك قلعة صفد جنوبى دمشق على جبل مرتفع .

وإذا كان فولك قد استطاع بعد بناء قلعة صفد أن يحمى إقليم الجليل من

---

(١) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٧ .

(2) Smail, Crusading Warfare, P. 60.

(3) Runciman, A History of the Crusades, II, PP. 97-98.

(4) William of Tyre, II, P. 450.

ناحيـة الشمـال ، فإنه لم يلبث أن شرع فـى إقامةعدة حـصون فى جنوب مملكته ليـحـمـيهـا من نـاحـيـة مـصـر . ومن أهم هذه القـلاع قلعـة يبنى على الطريق بين عسقلان من جهـة، واللد والرملة من جهة أخرى [1] . ثم قلعة تل الصافى بين بيت لحم وعسقلان ، وقلعة بيت جبرين جنوبى القلعة السابقة ، وتشرف على الطريق بين غزة وعسقلان من ناحية والخليل من ناحية أخرى . وقد عهد فولك بحماية هذه القلعة الأخيرة إلى الاستبارية[2] .

وفى الوقت الذى أبدى فولك فيه الاهتمام بالجبهة الجنوبية الغربية لمملكة بيت المقدس ، اهتم أيضاً ، بالجبهة الجنوبية الشرقية فحصن مواقع الصليبيين فى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، وحرص على أن يحتفظ بسيطرة الصليبيين على طرق القوافل بين مصر والشام وشبه الجزيرة العربية ، وشيد حصن الكرك سنة ١١٤٢م. ولا شك فى أن حصن الكرك هذا – بالإضافة إلى حصن الشوبك – مكنا الصليبيين من بسط سيطرتهم على المناطق وطرق التجارة والقوافل الواقعة جنوبى البحر الميت وشرقية ؛ مما اضطر البدو فى تلك الجهات إلى الخضوع للصليبيين ودفع إتاوات ثابتة لهم[3] .

وكـان من المتـوقع أن تكون هذه القـلاع والحـصـون والأراضـى الزراعـيـة المجاورة لها مناطق جذب تغرى الصليبيين على القدوم والاستقرار فيها . وهذا ما حدث بالفعل، فقد اندفعت أعداد غير قليلة من الصليبيين للإستيطان هناك ، ولحق بهم بعد قليل عدد من رجال الدين لإقامة الطقوس الدينية ، مما أدى إلى ظهور بعض التجمعات السكانية على هيئة قرى صغيرة قام سكانها بزراعة الأرض حول تلك القـلاع والحصـون ودفـعوا فى مـقـابل ذلك ضـرائب إلى سـادتهـا الذين تولوا حـمـايتـهم من هجـمـات المسلمين، على أسـاس أن هؤلاء السـادة آقتنوا قـلاعـهم وحصونهم كإقطاعات من ملك القدس[4] .

(1) william of Tyre, II, PP. 81-82 .

(2) King (.J,), The Kinghts Hospitallers in the Holy Land, (London, 1941) , P. 34 .

(3) Stevenson (W.B.), The Crusades in the East, (Cambridge, 1907), P. 146 .

(4) Mayer, The Crusades, P. 151 .

وبينما كان الصليبيون يواصلون نشاطهم الاستيطاني فى المنطقة العربية، أخذت فكرة الجهاد تنمو شيئا فشيئاً فى نفوس المسلمين ، إلى أن تمكنوا بقيادة عماد الدين زنكى من تحرير الرها فى ٢٣ نوفمبر سنة ١١٤٤م(١) . وبسقوط الرها فى يده باتت مملكة بيت المقدس ذاتها مهددة بالخطر .

غير أنه كان لسقوط الرها فى يد المسلمين ، رد فعل عنيف فى الغرب الأوروبى ليس بسبب المكانة الدينية التى تتمتع بها هذه المدينة فى تاريخ النصرانية فحسب ، بل لأنها كانت أيضا أول إمارة أسسها الصليبيون فى الشرق ، فجاء سقوطها إيذاناً بترنح الكيان الصليبي الذى نجحت الحملة الصليبية الأولى فى إقامته بالشرق ، وكذلك أدرك الغرب الأوروبى أنه إن لم يسرع إلى ترميم ذلك البناء وسنده ، فإنه لن يلبث أن ينهار(٢) .

لذلك كان من المتوقع أن تجيء الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق لتثبيت الكيانات الصليبية واسترداد الرها والحد من نفوذ المسلمين الذى تزايد على يد زنكى وولديه نور الدين محمود وقطب الدين مودود . إلا أن الأمراء الصليبيين فى الشام طمعوا فى استغلال هذه الحملة فى تحقيق مكاسب خاصة ؛ إذ رأى ريمون دى بواتيه أمير أنطاكية فى تلك الحملة أداة طيبة تمكنه من استرداد أراضيه المفقودة شرق نهر العاصى والقضاء على قوة نور الدين فى حلب(٣) . أما جوسلين الثانى فاعتقد أن سقوط الرها هو المحرك الأول لتلك الحملة ، وعلى ذلك يجب أن يتوجه الصليبيون أولا نحو الرها لاستردادها من المسلمين . أما ريمون أمير أنطاكية فأراد أن يسخر الحملة فى استرداد قلعة بعرين ، من المسلمين ، بل إن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس طمع فى أن يستغل تلك القوة الجديدة فى الاستيلاء على دمشق ذاتها(٤). وهكذا انحرفت الحملة الصليبية الثانية عن هدفها الأساسى ، الذى أتت من أجله إلى الشرق وجنحت نحو مساعدة مملكة بيت المقدس التى كانت فى حقيقة أمرها أقل الكيانات الصليبية فى بلاد الشام تعرضا لضغوط المسلمين فى ذلك الوقت(٥).

---

(1) William of Tyre, II, PP. 140-3.

(2) C.M.H., V, P. 307 .

(3) William of Tyre, II, P. 179-180.

(4) Berry (V.G., "The Second Crusade" in Setton (ed.), A. History of the Crusades, I, P. 505 .

(5) Cambell, (G.A.), The Kinghts Templars, their rise and fall, (AMS Press, New York, 1980), P. 4.

كان لفشل الحملة الصليبية الثانية نتائج خطيرة فى تاريخ الشام ، ويتعلق أخطر هذه النتائج بالتأثير على العلاقات بين مملكة بيت المقدس وغرب أوروبا ، إذ إن الإختلاط بين المستوطنين الصليبيين والمحاربين الذين جاءوا من غرب أوروبا مع الحملة الثانية ، قد أدى إلى قيام علاقات سيئة بين الطرفين . كان الصليبيون الذين استوطنوا فى الشرق العربى يعتبرون أن موطنهم هناك وليس فى الغرب، وقد نظروا إلى الصليبيين الجدد كعناصر دخيلة وتشككوا فى نواياهم ، خاصة وأنه قد وجد بين أولئك من أرادوا الاستقرار بالشام ، وتأسيس كيانات لهم هناك ، وقد أدى ذلك إلى الخلاف بين الطرفين . ولا عجب إذاً أن كتب كونراد الثالث متهماً الصليبيين بالشام بالخيانة . وقد زاد خطورة الأمر رجوع هؤلاء الصليبيين الجدد إلى الغرب، وقولهم بأن فشل حملتهم إنما يرجع لخيانة الصليبيين المستوطنين ، وعلى ذلك ظهر فى غرب أوروبا شعور كراهية لهؤلاء الصليبيين . ذلك فى الوقت الذى أخذ فيه غرب أوروبا ينشغل يوما بعد يوم بمشاكله المحلية الخاصة مثل الصراع بين البابوية والقوى العلمانية وخاصة الإمبراطورية(١) . وقد نتج عن هذا أن طلبات النجدة التى كثيراً أرسلها الصليبيون فى الشام إلى الغرب لم تجد هناك الاستجابة التى كانت تجدها قبل هذه الحملة ، وقل عدد الحجاج الذين جاءوا لزيارة الأراضي المقدسة . وهكذا كان على الصليبيين فى بلاد الشام أن يواجهوا قوات أعدائهم المسلمين المتزايدة معتمدين على مواردهم المحلية ، وعلى مساعدة البيزنطيين ، تلك المساعدة التى كانوا يخافون منها بقدر ما كانوا يحتاجون إليها (٢) .

وفى ذلك الوقت حدث تحول فى سياسة الاستيطان الصليبى فى بلاد الشام . فقد كان الاتجاه الطبيعى لتوسع الصليبيين فى الربع الأول من القرن الثانى عشر هو الشمال الشرقى ، حيث لم توجد قوة إسلامية كبيرة عند أطراف الفرات تحول دون ذلك التوسع . ولكن ظهور قوة الزنكيين فى شمال العراق والشام ونجاحهم فى تحقيق الوحدة بين حلب وحماة وحمص ودمشق أغلق الباب أمام الصليبيين للقيام بأى توسع في الاتجاه الشمالى الشرقى . ولذلك اتخذت حركة التوسع الصليبى منذ منتصف ذلك القرن اتجاهاً آخر هو الاتجاه الجنوبى الغربى، أى على حساب مصر والفاطميين بعد أن أدرك الصليبيون أن الدولة الفاطمية في تلك الفترة بدأت فى

---

(١) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٥٩ .

(٢) نفسه ، ص ١٦٠ .

التدهور والاضمحلال .

على أن غزو مصر كان لا بد له من التمهيد بالاستيلاء على عسقلان ، وهى القاعدة الوحيدة التى بقيت للفاطميين فى فلسطين . وهذا ماقام به الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس بعد أن تم تتويجه وأخذ يفكر فى القيام بعمل حربى مهم يضفى عليه وعلى حكمه هالة من الأهمية فى نظر معاصريه[١] . وقد مهد بلدوين الأول لغزو عسقلان بعدة ترتيبات حربية . ففى أواخر سنة ١١٤٩م وأوائل سنة ١١٥٠٠م بإعادة تحصين غزة[٢] ، وهدم أسوارها القديمة وبنى لها سورا جديدا، كما شيد بها قلعة قوية عهد بحراستها إلى الداوية[٣] .

وباستيلاء الصليبيين على عسقلان (١٩ أغسطس ١١٥٢م) ، يكونون قد أتموا بسط سيطرتهم على ساحل الشام بأكمله من إسكندرونة في الشمال حتى غزة فى الجنوب ، وهو الأمر الذى حرم المسلمين من قاعدة بحرية طالما استغلوها فى مهاجمة الممتلكات الصليبية فى فلسطين[٤] . ويؤكد ابن الأثير أن الصليبيين أصبحوا بعد الاستيلاء على عسقلان على جانب كبير من البأس[٥] .

على أن حركة التوسع الصليبى فى الاتجاه الجنوبى الغربى اتخذت طابعاً عمليا واسع النطاق على يد أمارى الأول Amaric I ، الذى كان يرمى من وراء ذلك إلى وقف الخطر المصرى إما بغزو مصر وضمها لأملاكه ، وإما بعقد معاهدة مع المصريين لتحييدهم ضماناً لتفتيت الجبهة الإسلامية . وهنا أدرك نور الدين محمود ، خليفة زنكى ووريثه ، أنه لن يستطيع توحيد الجبهة الإسلامية دون مصر، وأن ضمها هو السبيل لتحقيق انتصار كامل على الصليبيين . وهكذا طمع كل من أمارى الأول ونور الدين فى الاستيلاء عليها ، وأصبح هناك تنافس شديد بين هذين الرجلين على ضم مصر . ولذلك قاد أمارى الأول خمس حملات على مصر فيما بين سبتمر عام ١١٦٣م ، وديسمبر عام ١١٩٦م ، وكانت الحملة الأخيرة بمعونة

---

(1) Baldwin, "The Latin States under Baldwin III and Amarlic I, 1143-1174" in Setton (ed.), A History of the Crusades, I. PP. 536-563.

(٢) ابن منقذ ، ص ١٠ .

(3) William of Tyre, I, P. 202.

(٤) عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٦٥٥ .

(٥) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٠٦ .

عسكرية بيزنطية[١] وفى هذه الأثناء غزا قائد جيوش نور الدين وهو شيركوه البلاد ثلاث مرات[٢] .

غير أن أمارى الأول فشل فى تحقيق أطماعه فى مصر ، وكانت المشكلة الكبرى أمام أمارى والصليبيين هى قلة الموارد البشرية بعد أن قتل وأسر كثيراً من الصليبيين بالشام ، وتناقصت أعداد الحجاج الوافدين من الغرب . ولم يجد أمارى الأول فى ذلك الوقت معينا سوى طوائف الرهبان الفرسان ، فأخذ يتوسع منذ سنة ١١٦٧م فى منحهم كثيراً من القلاع والمدن للدفاع عنها . وهكذا سيطر الداوية على أنطرطوس ومعظم الأجزاء الشمالية من إمارة طرابلس ، فى حين عهد إلى الاسبتارية بحماية البقاع وحصن الأكراد[٣] .

أما فى مملكة بيت المقدس نفسها فقط أعطى الداوية قلعة صفد فى الشمال بالإضافة إلى قلعة غزة التى كانت بأيديهم فى الجنوب ، فى حين أخذ الاسبتارية قلعة كوكب . وسرعان ما حذا بوهيموند الثالث أمير أنطاكية حذو ملك بيت المقدس فتوسع فى إعطاء الداوية كثيرا من المناطق حول بغراس، فى حين منح الاسبتارية أجزاء واسعة فى جنوب المدينة . وهكذا أخذ فرسان الداوية الاسبتارية يبدون عندئذ فى صورة القوة الكبرى، التى نهضت بعبء حراسة الأراضى والممتلكات[٤] .

وقد أدت الحملات الصليبية الفاشلة ضد مصر إلى تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس ، فضلاً عن تغير الخريطة السياسية فى الشرق الأوسط لصالح القوى الإسلامية بعد نجاح نور الدين فى ضم مصر إلى دولته . وهو الأمر الذى خلق فى محيط الصليبيين فى الشام جوا جديدا من القلق والرعب ، بعد أن أحسوا أنهم وقعوا بين شقى الرحى ، وأن القوات الإسلامية أحاطت بمملكة بيت

---

(1) William of Tyre, II, P. 361 - 368.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، صفحات ٨٤ – ٨٦ ، ٩٤ – ٩٦ ، ٩٩ – ١٠١ ؛ أبو المحاسن جـ ٨ ، ص ٦ ؛ ابن شداد ، ص ٣٦ – ٤٠ ؛ الأصفهانى ، البرق الشامى ، ص ١٩ – ٢١ ، ص ٣٩ – ٤١ .

(3) King, The Knights Hospitallers, P. 93.

(4) Runicman, A History of the Crusades, II, P. 367 - 770 .

المقدس من الشمال الشرقى والجنوب الغربى(١) . هذا إلا أن سيطرة نور الدين وقائده صلاح الدين الأيوبى على القواعد البحرية فى شمال مصر من شأنها أن تسلب الصليبيين سيادتهم البحرية، وتجعل هذه السيادة للمسلمين فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط (٢) .

ولمواجهة هذا الموقف أرسل أمارى الأول سفارة إلى غرب أوروبا لتطلب من فريدريش بربروسا إمبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا ووليم الثانى ملك صقلية وغيرهم من كبار الأمراء ، الإسراع بالقيام بحملة صليبية جديدة لإنقاذ إخوانهم الصليبيين فى الشرق (٣) . على أن الأوضاع السياسية فى غرب أوروبا فى ذلك الوقت ، لا سيما ما يتعلق منها بالنزاع بين البابوية والإمبراطورية حالت دون تحقيق أمنية أمارى الأول(٤) .

وبذلك لم يبق أمام الصليبيين بالشام سوى الاتجاه إلى الدولة البيزنطية وطرق أبواب القسطنطينية طالبين مساعدتها . وقد أبرمت معاهدة بين الطرفين (١١٧١م) تعهد فيها الإمبراطور البيزنطى عمانويل كومنين بمساعدة أمارى الأول ضد نور الدين وصلاح الدين(٥) .

وفى عام ١١٧٤م اتفق وليم الثانى ملك صقلية مع أمارى الأول على عقد قيادة حملة مشتركة بينهما ضد مصر . ولما علم عمانويل كومنين بأمر هذا الاتفاق رأى فيه خرقاً للمعاهدة المبرمة بينه وبين أمارى الأول فى عام ١١٧١م . ولذا فقد أبلغ الإمبراطور البيزنطى صلاح الدين الأيوبى بأنباء تحركات الحملة النورمانية أولا بأول . وفى ١١ يوليو ١١٧٤م توفى أمارى الأول تاركا النورمان ليمضوا فى حملتهم بمفردهم(٦) . وعندما تولى بلدوين الرابع مقاليد الأمور فى بيت المقدس خلفا لأمارى الأول جدد معاهدة سنة ١١٧١م مع بيزنطة ، كما اتفق مع عمانويل

(١) ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ ؛ ابن واصل ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .

(2) Grousset, Histore des Croisades, II, P. 539 .

(3) William of Tyre, II, P. 377 .

انظر كذلك : ابـن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٤٣ ؛ ابن واصل جـ ١ ، ص ١٨ .

(4) William of Tyre, II, PP. 379.

(5) Ibid, P. 399- 400.

(٦) إسحاق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص ٢٣٤ .

كومنين على قيادة حملة مشتركة ضد مصر . ولكن هذه الحملة لم تتم بسبب تعثر المحادثات بين الطرفين[١] .

على أية حال ، كان واضحاً أن ميزان القوى فى هذه الفترة قد انقلبت ضد مملكة بيت المقدس [٢] .

ومن المعروف أن الصليبيين فى بلاد الشام كانوا قد بعثوا إلى السلطات الغربية يطلبون النجدة من قبل عندما ضيق صلاح الدين عليهم الخناق . ففى أثناء انعقاد المجلس اللاتيرانى الثالث سنة ١١٧٩م ، وفى مجلس فيرونا عام ١١٨٤م، وصل أساقفة ومبعوثون من الكيانات الصليبية فى الشرق يحثون المؤتمرين على المسارعة فى إنقاذ ما تبقى من نفوذ صليبى فى الشام . وقد حمل البابا اسكندر الثالث وخليفته لوسيوس الثالث هؤلاء المبعوثين رسائل إلى أمراء وملوك غرب أوروبا ، وعلى رأسهم فيليب أغسطس ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك إنجلترا لمساعدة هؤلاء السفراء فى تهيئة أذهان المواطنين فى بلديهما للقيام بحملة صليبية جديدة على الشرق العربى الإسلامى ، إلا أن الرأى العام لم يبد اهتماماً يذكر لهذه النداءات[٣] .

وفى خلال ذلك دأب رينو دى شاتيون **Renaud de Chatillon** أمير الكرك على مهاجمة قوافل الحجاج المسلمين وهم فى طريقهم إلى الحرمين الشريفين ، ولم يكتف رينو بذلك ، بل إنه فى سنة ١١٨٣م وضع مشروعا لاقتحام البحر الأحمر ، وغزو مكة والمدينة والتحكم فى حركة التجارة الدولية بين آسيا ومصر ، والتى تمر عن طريق هذا البحر من خلال باب المندب . ومن الواضح أن هذا المشروع الضخم كان لايمكن تحقيقه بنجاح فى ظل الأوضاع التى غدت فيها مملكة بيت المقدس فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر، عندما اختلت أمورها الداخلية ووافق ملكها بلدوين الرابع على وضع مملكته تحت الوصاية . وبذلك وضع رينو دى شاتيون الصليبيين فى مأزق خطير وسبب لهم أزمة كانوا فى غنى عنها . ذلك أن موقف رينو دى شاتيون أثار المسلمين جميعهم فى مشارق الأرض ومغاربها ضد الصليبيين، فضلاً عن أن القوى الإسلامية التى فكرت فى محالفة الصليبيين مثل

---

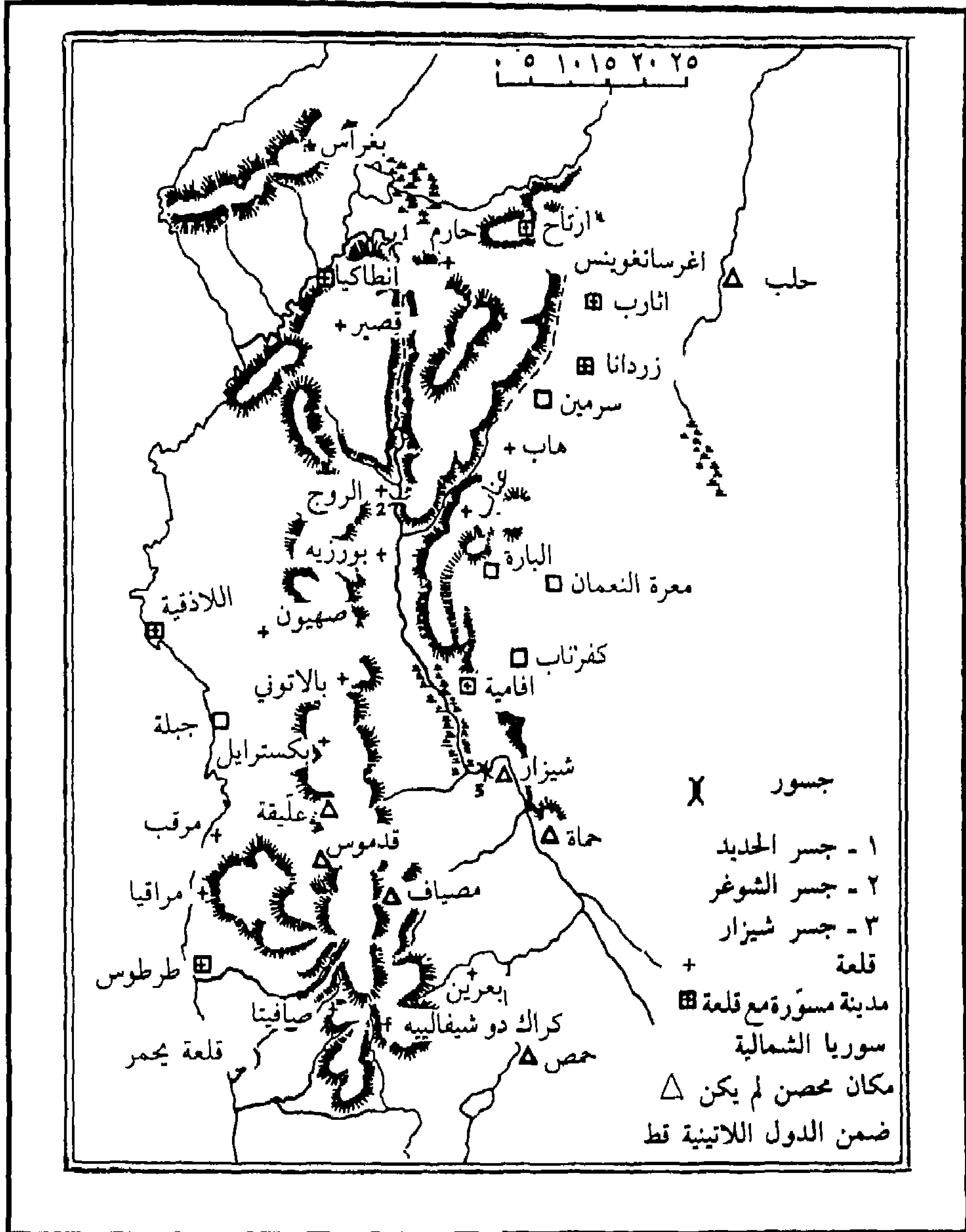
(1) William of Tyre, II, P. 420 - 33.

(٢) عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٦٤ .

(٣) إسحاق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص ٢٨٦ .

شمال سوريا نقلاً عن :

Smail, Crusading warfare, p. 144



أتابك الموصل استنكروا ذلك الوضع، وعز عليهم أن يحالفوا أناسًا يعتدون على الحرمين الشريفين(١) .

وقد تمكن المصريون من إحباط المشروع ، إلا أن استمرار رينو دى شاتيون فى مهاجمة القوافل الإسلامية كان بداية النهاية ، إذ إن صلاح الدين هجم فى بداية يوليو ١١٨٧م على الصليبيين ، ومناهم بهزيمة فادحة عند حطين التى كانت بشيرا بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية شهدها العالم فى العصور الوسطى . ذلك أن معركة حطين لم ينتج عنها أسر جاى لوزجنان ملك بيت المقدس ، وضياع هيبة مملكته وسلطتها الفعلية إلى الأبد فحسب ، وإنما نتج عنها أيضا نقص ملموس فى الفرسان المحاربين، بعد أن سقط زهرة فرسان الصليبيين ، وغالبية جيش مملكة بيت المقدس بين قتلى وأسرى(٢) .

وليس بخاف علينا أن الكيانات الصليبية التى خلقت خلقا ضعيفا فى أواخر القرن الحادى عشر ، وظلت منذ ذلك الوقت تعانى نقصا شديدا فى المحاربين والسكان اللاتين ، كانت لاتستطيع أن تتحمل الضربة القوية التى نزلت بها فى حطين . حقيقة أنها استطاعت – بعد ذلك – الصمود قرابة قرن من الزمان ، ولكن بقاءها طوال تلك المدة لم يكن وليد قوتها بقدر ما كان نتيجة لضعف القوى الإسلامية وتفككها فى منطقة الشرق العربى وبخاصة فى مصر والشام(٣) .

وهكذا غدت المستوطنات الصليبية فى بلاد الشام غداة موقعة حطين تحت رحمة صلاح الدين فشرع يحرر المدن التى كان قد احتلها الصليبيون واحدة بعد أخرى تحريرا سريعا متواصلا . وقد اختار صلاح الدين أن يبدأ أولا بالاستيلاء على المدن الساحلية ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالعالم الخارجى وبخاصة الغرب الأوروبى ، فيمسوا محصورين داخل بلاد الشام ، وبعد ذلك تتساقط فى يده المستوطنات الصليبية في الداخل بعد أن ينقطع الشريان الذى يربطها بقلب الحركة الصليبية وهو الغرب الأوروبى ، هذا فضلا عن أن استيلاء صلاح الدين على عكا وغيرها من موانى الشام المحتلة سيمكنه من تحقيق الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته فى مصر والشام(٤).

(1) Runicman, A History of the Crusades, II, P. 437 .

(٢) أبو شامة ، جـ٢ ، ص ٧٨ ؛ ابن واصل ، جـ٢ ، ص ١٩٣ .

(3) Stevenson, The Crusaders, PP. 284 - 285 .

(4) Ibid, PP. 249 .

والحقيقة أن المدن والحصون الصليبية أخذت بعد هزيمة الصليبيين فى حطين، تفتح أبوابها أمام جيوش صلاح الدين ، وفى أكتوبر من سنة ١١٨٧م ، أى بعد ثمانية وثمانين عاماً من الاحتلال الصليبى، عادت القدس مدينة إسلامية مرة أخرى . وقد عمل صلاح الدين على ترحيل الصليبيين إلى الأراضى التى كان الصليبيون لايزالون يحتلونها فى صور وطرابلس [١]. وهنا يجب أن نشير إلى اعتدال صلاح الدين وبعده عن التطرف وتمسكه بمبادىء الأخلاق والرحمة والتسامح ، وهذا الأمر الذى أكسبه إعجاب كافة المؤرخين فى الشرق والغرب على السواء[٢]. وكان هذا الموقف المتسامح الكريم مخالفا تماما للصورة الرهيبة التى دخل بها الصليبيون القدس فى عام ١٠٩٩م.

كان لسقوط القدس فى أيدى المسلمين وضياع معظم الممتلكات الصليبية فى الشرق رد فعل عنيف فى غرب أوروبا . فنادت البابوية بحملة صليبية جديدة . وطلبت من الملوك والحكام العلمانيين أن يوقفوا تنازعهم وقتالهم ويشتركوا فى هذه الحملة .

وعلى الرغم من قوة الحملة الصليبية التى تمثلت فى اشتراك أكبر ملوك غرب أوروبا فى هذه الفترة ، فقد فشلت هذه الحملة فى تحقيق أهدافها أو إرجاع المملكة إلى سالف قوتها ؛ لأن هذه القوات الغربية كان ينقصها تنسيق جهودها والتفاهم والاهتمام بالغرض الذى قامت من أجله الحملة . هذا إلا أن أحوال الشرق العربى الإسلامى كانت تختلف عما كانت عليه أيام الحملة الصليبية الأولى ، وفى العهود الأولى من تاريخ إقامة الصليبيين فى الشرق .

صحيح أن الصليبيين تمكنوا من الاحتفاظ بمراكزهم فى الشام حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى . كما أنهم قد أبقوا على استعمال لقب ملك بيت المقدس

---

(١) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٨٢٥ .

(٢) لعل أبلغ ثناء لصلاح الدين فى هذه المناسبة هو ما أورده المؤرخ لين بول حين قال : «**إذا كان فتح بيت المقدس والمعاملة الطيبة التى أبداها صلاح الدين لسكانها هى الحسنة الوحيدة التى فعلها لكفاه بذلك أن يكون أعظم الفاتحين وأرقهم قلبا فى عصره بل وربما فى كل العصور**»،انظر :

Lane-Pool (S.), Saladin and The Fall of The Kingdom of Jerusalem, (Beirut, 1964), P. 234.

فى الشام لأكثر من مائة سنة بعد هزيمتهم الكبرى فى حطين . بل إن هذا اللقب أصبح موضع النزاع بين المطالبين به لمدة قرون بعد ضياع آخر مركز صليبى فى فلسطين . إلا أن تاريخ الصليبيين هناك قد أصبح يختلف عن تاريخهم قبل سقوط مملكة بيت المقدس سنة ١١٨٧م . وأن عهد قوة الصليبيين فى الشرق كان قد ولى. كما أن الضربة التى أنزلها صلاح الدين بقوات هذه المملكة وسقوط الكيانات الصليبية الأخرى فى الشمال كانت ضربة حاسمة . ولم تصل للصليبيين فى الشرق العربى مساعدات كافية من غرب أوروبا تمكنهم من إعادة بناء قوتهم وتدعيم مركزهم على نحو ما كانوا عليه من قبل .

ولعل من الواضح أن مملكة بيت المقدس لم تعد فى وضعها الجديد إلا مملكة عكا ، وأن احتفاظها باسمها القديم وحرصها على ربط نفسها بالقدس لا يغير من حقيقة أمرها وهى أنها ارتبطت بعكا لا بالقدس ، ولا شك أن هذه الصفة الجديدة للمملكة الصليبية بالشام . وعدم ارتباطها بالقدس بالذات جعلها تفقد كثيرا من هيبتها الأولى ، فضلا عن افتقارها فى عهدها الجديد إلى صفة الدولة المنظمة(١) .

أضف إلى ذلك أن مملكة بيت المقدس اتخذت صفة بحرية بحتة ، بعد أن فقدت كل ما لها من نفوذ داخل فلسطين ، وأصبحت لا تضم إلا أراضٍ ومدن ساحلية ، الأمر الذى جعلها أكثر ارتباطا بالغرب الأوروبى وأكثر اعتمادا على الأساطيل الإيطالية فى الدفاع عن كيانها . ولعل هذه الحصانة الطبيعية التى تمتعت بها مملكة بيت المقدس فى عهدها الجديد هى التى جعلت المملكة فى عكا أطول عمرا منها فى القدس ، فبينما عاشت المملكة التى أسسها بلدوين الأول فى بيت المقدس سبعا وثمانين عام (١١٠٠ - ١١٨٧م) ، إذا بالمملكة الجديدة التى أحياها ريتشارد قلب الأسد فى عكا تعيش قرنا كاملا (١١٩١ - ١٢٩١م)(٢).

وليس معنى ذلك أن مملكة بيت المقدس فى عهدها الجديد فى عكا كانت أقوى جانبا وأصلب عودا مما كانت عليه فى عهدها القديم ؛ إذ لايخفى علينا أن تلك المملكة غدت منذ إحيائها فى عكا فى نهاية القرن الثانى عشر لاتتمتع بقسط وافر من الاستقلال الذاتى والحرية فى العمل ، كما كان الحال من قبل ، بسبب

---

(1) C.M.H., V, P. 312 .

(2) Grousset, Histoire des Croisades , III, P. 124 .

اعتمادها على الغرب فى الدفاع عن كيانها ، مما جعل القوى الغربية ، وبخاصة الجمهوريات الإيطالية تستغل معونتها فى فرض نوع من الحماية عليها والتدخل فى شئونها . هذا فضلًا عن عوامل الانشقاق والفرقة والبغضاء بين عناصر الصليبيين فى الشام ، وهى العوامل التى ظهرت بوضوح بين الفرنسيين والإنجليز أثناء الحملة الصليبية الثالثة والتى استمرت قائمة فى الشام عقب رحيل ملك إنجلترا إلى بلاده حتى تركت أثراً سيئاً فى إضعاف مركز الصليبيين فى القرن الثالث عشر(١) . وإذا كانت عوامل الضعف هذه لم تعمل عملها بسرعة ، مما مكن مملكة بيت المقدس من أن تعيش فى عكا قرنا كاملا ، فإن السبب فى ذلك إنما يرجع إلى الظروف التى أحاطت بالقوى الإسلامية فى الشرق الأدنى(٢) .

كان واضحاً أن قوات الصليبيين فى ذلك الوقت لم تكن ندا للمسلمين، ومن ثم انعقد أمل مملكة بيت المقدس على قدوم حملة جديدة من أوروبا تفتح لهم مجالا للتوسع . وإذ خيبت الحملة الصليبية الرابعة آمال المستوطنين اللاتين فى الشرق العربى باتجاهها إلى القسطنطينية ، توجهت مجموعة ضئيلة من جنود هذه الحملة إلى فلسطين لتنضم إلى سكان ماتبقى من الكيان الصليبى(٣).

والحقيقة أن الحملة الصليبية الرابعة تعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الحروب الصليبية إذ فترت بعدها الحماسة الصليبية ، واتضح أن المصالح الاقتصادية والتجارية أخذت تحتل المكانة الأولى فى تفكير المعاصرين . ثم إن الحملة الصليبية الرابعة زادت من البغضاء والعداء بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وحرمت الصليبيين بالشام من مساعدة الدولة البيزنطية فى وقت الشدة، وجعلت الطريق البرى إلى الشام أصعب منالا وأشد خطورة على الصليبيين من ذى قبل (٤) . هذا

---

(1) Archer, The Crusades, PP. 347-348.

(2) Stevnson, The Crusadess, PP. 293-294.

(٣) قاسم عبده قاسم ، رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية (القاهرة ، ١٩٨٣م) ، ص ٢٩ .

(٤) عن أحداث الحملة الصليبية الرابعة ، انظر : روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، (ترجمها عن الفرنسية القديمة وقدم لها حسن حبشى ، القاهرة، ١٩٦٤م).

إلا أن قيام إمبراطورية لاتينية فى القسطنطينية والبلقان ترك أثر خطيرا فى حياة الصليبيين بالشام ، لأن الإمبراطورية الجديدة بدأت تجتذب كثيرا من المغامرين الغربيين الذين فكروا فى النزوح إلى الشرق، والذين أدركوا أن الحياة فى القسطنطينية أنفع وأهدأ بكثير من تلك الحياة القلقة المهددة المليئة بالمتاعب ، التى كان يحياها الصليبيون بالشام ، بل إن الإمبراطورية اللاتينية التى قامت سنة ١٢٠٤م لم تلبث أن استهوت كثيرين من فرسان الصليبيين فى بلاد الشام ذاتها فتركوا الممتلكات الصليبية فى الشام تنعى من أقامها وتسللوا سرا وعلانية إما إلى قبرص وإما إلى البلقان لينعموا بقسط من الحياة الهادئة بعيدا عن تهديد المسلمين ومتاعبهم(١) . وهكذا أدت الحملة الصليبية الرابعة إلى إضعاف مركز الصليبيين فى الشام وخراب ديارهم وإقفار بلادهم من المقاتلين ، وهى الحملة التى كان مفروضا فيها أن تنجد الصليبيين بالشام وتخفف عنهم وتدعم مركزهم، وتعينهم على مقاومة الضغط الإسلامى عليهم .

وفى خلال ذلك أدرك الصليبيون أن الخطر الحقيقى الذى هدد بقاءهم واعترض وجودهم وعرقل مشاريعهم فى بلاد الشام إنما ينبع من مصر ، ووصلوا إلى نتيجة حاسمة وهى أن مفاتيح القدس توجد فى القاهرة ، وأن عليهم البدء بمصر أولا بوصفها الطريق الطبيعى للوصول بهم إلى القدس . وقد كان الإيمان بهذه الفكرة سبباً لتغير مهم وخطير طرأ على اتجاه الحركة الصليبية ، إذ أُخذت مصر منذ بداية القرن الثالث عشر تستأثر بجهود الصليبيين ووضعت الخطط الخاصة لجميع الحملات الصليبية ، ماعدا القليل منها – منذ بداية القرن الثالث عشر على أساس الاتجاه ضد مصر(٢) .

وإذا كانت الحملة الصليبية الرابعة قد خرجت عن الخطة الموضوعة لها واتجهت إلى القسطنطينية بدلا من مصر ، فإن الحملة الخامسة التزمت الطريق المرسوم واتخذت مصر ميدانا لها . وكان الصليبيون يريدون من وراء هذه الحملة القضاء على مصر أو تحييدها على الأقل ، ضمانا للوجود الاستعمارى الاستيطانى فى بلاد الشام . وبالإضافة إلى ذلك رغبت المدن الإيطالية التجارية فى السيطرة على السوق التجارية الرئيسية فى حوض البحر المتوسط وضرب المنافسة المصرية

---

(1) King, The Knight Hospitallers, P. 176.

(٢) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٩٦١ – ص ٩٦٣ .

القوية إلا أن هذه الحملة انتهت بالفشل ، واضطر اللاتين إلى التخلى عن أحلامهم ثمنا لحريتهم[١] .

ولم يمض وقت طويل على هذه الأحداث حتى تجمعت حملة جديدة بقيادة الإمبراطور الألمانى فريدريش الثانى الذى كان يحمل أيضاً لقب ملك بيت المقدس بعد زواجه من إيزابيلا ابنة حنا برين ، وقد نجح الإمبراطور بفضل المشكلات التى كان السلطان الكامل الأيوبى يواجهها فى مصر والشام – فى عقد اتفاقية مع هذا السلطان (صلح يافا سنة ١٢٢٩م) ، كان من أهم شروطها عودة القدس للصليبيين [٢] .

والحقيقة أن الإمبراطور فريدريش الثانى نجح فى استرداد القدس من المسلمين بمقتضى صلح يافا ، إلا أن مدينة القدس فى ذلك الوقت ، لم تتمتع بشىء من أهميتها السابقة التى كانت لها فى المجتمع الصليبى قبل أن يحررها صلاح الدين الأيوبى ؛ ذلك أن مدينة القدس ظلت منذ استيلاء الصليبيين عليها سنة ١٢٢٩م مدينة مفتوحة غير محصنة من حق الصليبيين أن يدخلوها ، ويشرفوا على مؤسساتهم الدينية داخلها ، والواقع أن بقاء القدس على ذلك الوضع قسمة بين النفوذين الإسلامى والصليبى جعل كل جانب يخشى النزوح إليها والمتاجرة معها والاستقرار فيها ، حتى غدت القدس فى ذلك الوقت مدينة فقيرة تشكو قلة السكان من المسلمين والصليبيين على السواء . ولم يبق لها سوى مكانتها الدينية لاغير . وهذا هو السر فيما يبدو فى أن حكومة مملكة بيت المقدس لم تنزح إلى القدس عقب صلح يافا سنة ١٢٢٩م واستمرت تلك الحكومة تتخذ عكا قاعدة لها[٣] .

ومن حسن حظ الصليبيين فى تلك الفترة أن تمزقت الجبهة الإسلامية من جديد . وفى الوقت نفسه أخذت جحافل التتار تطوى بلدان العالم الإسلامى فى الشرق ، فى وقت تحالف فيه الصليبيون والأيوبيون فى دمشق ضد الأيوبيين فى مصر . ولذلك استعان المصريون بالخوارزمية، وفى المعركة التى دارت رحاها

(١) قاسم عبده قاسم ، رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية ، ص ٣٠ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٣٧٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ق٢ ص ٢٣٠ .

(3) King , The Knight Hospitallers, P. 209.

بالقرب من غزة لقى اللاتين هزيمة قاسية على أيدى المصريين والخوارزمية ، وبذلك استعاد السلطان نجم الدين أيوب مدينة القدس سنة ١٢٤٤م لتظل مدينة إسلامية، ولم يقدر لجيش نصرانى أن يقترب منها بعد ذلك حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

وقد دفع سقوط القدس للمرة الثانية لويس التاسع Louis IX (١٢٢٦ - ١٢٧٠م) ملك فرنسا إلى بدء حرب صليبية جديدة على مصر سنة ١٢٤٨م، انتهت بهزيمة كبرى راح ضحيتها الجيش الصليبى عن بكرة أبيه ، وتم أسر الملك لويس نفسه فى دار ابن لقمان بالمنصورة[١] . واضطرت شراذم الصليبيين إلى الرحيل لقاء فدية كبيرة لملكهم وأسراهم العديدين بلغت حوالى مليون قطعة ذهبية . ومنذ ذلك الحين أصمت أوروبا آذانها أمام كل نداء جاءها من الصليبيين فى الشرق طلبا للمساعدة .

والحقيقة أن القرن الثالث عشر شهد تغيراً جذرياً فى معنى الصليبية وروحها. فغزو القسطنطينية عام ١٢٠٤م ، والحرب الصليبية الالبيجنسية عام ١٢٠٨م، والحملات الأوروبية المتعددة ضد أصحاب المذاهب الكنسية المنشقة أولا ثم ضد النصارى الغربيين المتمردين على البابوات كل هذه العناصر اشتركت فى تغير المفهوم الأساسى لمثالية الصليبية [٢] .

وبالإضافة إلى ذلك أدت النهضة الأوروبية الوسيطة بالناس والمجتمع الغربى إلى التفكير فى مثل وآمال وأهداف جديدة ؛ الأمر الذى جعل المعاصرين يتجهون بنشاطهم نحو آفاق، تتفق مع ما آمنوا به من مثل وآمال وأهداف[٣] .

---

(١) عن أحداث هذه الحملة انظر : مذكرات جوانفيل ، القدس لويس ، حياته وحملاته الأولى على مصر والشام (ترجمة وتعليق حسن حبشي ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٦٨م).

(٢) عن تحول المثال الصليبى ، انظر :

Cantor (N.F.) Medieval History, The Life and Death of Civilization, Second edition (London, 1969), PP. 330 - 331 .

وانظر أيضاً : عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٧٨ .

(٣) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ١٠٥١ .

كما كان من الصعب فى عهد شهد نمو المدن وتضخم نشاطها الاقتصادى ونمو الملكيات وازدياد نفوذ الملوك على حساب أمراء الإقطاع ، ونشأة الجامعات وما ارتبط بها من علوم حديثة ، وظهور الآراء والمذاهب التى انتقدت الكنيسة واستهدفت الحد من سطوتها ، كان من الصعب فى عصر شهد كل هذه التطورات أن يظل الناس عبيداً للكنيسة ورجالها ، وأن يستنفذوا كل طاقاتهم وإمكاناتهم فى حروب ضد المسلمين أثبتت التجارب عدم جداوها وقلة نفعها(١).

علاوة على ذلك فإن هناك أسبابا كثيرة جعلت أهل الغرب ينصرفون عن الفكرة الصليبية ، ولعل أهمها أن الناس كانوا يفضلون التمتع بالحياة فى ديارهم عن المخاطرة بحياتهم فى حرب صليبية قد تكون فيها نهايتهم . كما أعطى الكثيرون فى الغرب ظهورهم للحرب الصليبية بسبب ارتباطهم بعائلاتهم وذويهم . ولقد عارضت الإفرنجيات فكرة الحروب الصليبية معارضة تامة ، ولم يبدين أى اهتمام بها لأنها تتسبب فى الفصل بينهن وبين أزواجهن ، وثمة كثيرون أخذوا يتعللون بعدم إمكانهم الاشتراك فى حرب صليبية خارج بلادهم لسبب أو لآخر ، ويبدو أن السبب الرئيسى الذى حال بين الغربيين وبين الاشتراك فى مغامرة صليبية جديدة، هو عدم الإيمان أصلا بالفكرة الصليبية؛ خاصة بعد أن تأكدت أبعادها الخطيرة وما جلبته عليهم من كوارث ونكبات(٢).

كما أن الغربيين لم يلقوا من الصليبيين المستوطنين بالشرق إلا المناوءة وسوء الظن . والواقع أن ما حل من الكوارث بمملكة بيت المقدس جعل نزلاءها لايرحبون بالإمدادات التى جاءت لمساعدتهم ، والتى تألفت فى معظمها من المجرمين الذين جاءوا من الغرب من أجل التوبة . أضف إلى ذلك أن البارونات فى مملكة بيت المقدس ساورهم الشك فى أن أولئك القامين الجدد بأنهم إنما جاءوا لتحقيق أطماع خفية ، وأنهم رتبوا خطتهم على أن يقيموا لنفسهم إمارات جديدة(٣).

وفضلاًعن ذلك.. فإن المستوطنين من الصليبيين الذين درجوا على أن يجرى بينهم وبين المسلمين علاقات تجارية ومفاوضات سياسية ، لم يكن فى

(١) عاشور ، *الحركة الصليبية* ، ص ١٠٥٢ .

(٢) جوزيف نسيم يوسف ، دراسات تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، فى العصور الوسطى ، (الإسكندرية ، ١٩٨٦٣م) ، ص ٤٧ - ٥٠ .

(٣) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٨٥ .

وسعهم أن يسهموا فى الشهوة الجامحة التى اندفع بها الصليبيون الجدد لمهاجمة المسلمين ، وماحدث للبارونات حدث للمشتغلين بالتجارة ، إذ أنهم جنوا من الأرباح الوفيرة الناتجة عن اتصالهم بالمسلمين مايمنعهم من التخلى عن سبيل المتاجرة الهادئة وأنهم لأشد استعدادا لمنع كل مغامرة حربية لا لمساندتها(١) .

ولعل ما يدعم هذا القول مايذكره بوركهارد الراهب الدومنيكانى الألمانى الذى كتب عن الأراضى المقدسة سنة ١٢٨٣م ، من أن الصليبيين كانوا يتقاعسون عن العمل لاسترجاعها من أيدى المسلمين (٢) . وقد حملهم بوركهارد مسئولية تأخر مصالح الأوروبيين فى الشرق ، واعتبرهم أسوأ من كافة سكان فلسطين لأنهم ينهبون الحجاج بعد إيوائهم فى بيوتهم(٣).

حدث كل هذا والمسلمون يجمعون القوات ويستردون الأراضى ، فحينما انتهى الحكم الأيوبى بمقتل توران شاه عام ١٢٥٠م أصبح ورثتهم سلالة السلاطين المماليك الذين تمكنوا من هزيمة المغول فى موقعة عين جالوت عام ١٢٦٠م . وبعد القضاء على الخطر المغولى فى بلاد الشام أحاط المصريون ببقايا المستوطنات الصليبية فى بلاد الشام من كل اتجاه، ولم يعد بوسع أوروبا أن تقدم شيئاً لمساعدة المستوطنين الصليبيين فى المنطقة العربية(٤).

وفى هذا الوقت بدأ بيبرس الذى خلف قطز على عرش مصر (١٢٦٠ - ١٢٧٧م) بتقوية مركزه سياسيا ضد الصليبيين ، بإبرام سلسلة من المعاملات والاتفاقات الودية مع الملوك فى الغرب والشرق على السواء (٥) . ومن الواضح أن

---

(١) باركر ، الحروب الصليبية ، ٨٥ .

(2) Burchard of Mount Sion, A Description of the Holy Land, (A.D. 1280), P.P.T.S., XII, P. 3.

(3) Ibid, PP. 102 - 103 .

(٤) عزيز سوريال عطية ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٧٨ .

(٥) مثل الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس ، وبركه خان زعيم مغول القفجاق وسلاطين سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، ومانفرد هوهنشتاوفن ملك صقلية ومملكة بيت المقدس وصاحب الإمبراطورية الرومانية الغربية . انظر :

Amari (M.), Bibloteca Arabo Sicula (Lipsia 1842), III, PP. 420 - 421;

Runciman, A History of the Crusades, III, P. 291, (R.H.C.H.Or, III, P. 216);

انظر أيضا العينى ، منتخبات من عقد الجمان فى (R.H.C.H.Or, III, P. 216); =

الغرض من هذه المعاملات والاتفاقات كان إحكام الحصار حول الصليبيين بالشام ، وحرمانهم من أية معونة يمكن أن تصلهم من الشرق أو الغرب.

وتعتبر السنوات العشر الواقعة بين عامى ١٢٦١ - ١٢٧١ م ، ، فترة الجهاد البيبرسى الحاسم ضد الصليبيين بدأها بسلسلة من الهجمات التمهيدية لاستنزاف قوى الصليبيين حتى أوائل سنة ١٢٦٥م ، ثم بدأ فى تحرير الأراضى العربية . ففى أواسط هذه السنة استرد بيبرس قيسارية وعثليث وحيفا وأرسوف من الصليبيين ، وبعد أن دمر حصونها جميعا عاد إلى مصر ليتفقد حصون الإسكندرية ، وليدعم جيوشها بقوات جديدة [١] . وفى السنة التالية (١٢٦٦م) استرد صفد [٢] . وفى سنة ١٢٦٧ م قاد حملة سريعة إلى مملكة أرمينيا الصغرى لمعاقبة ملكها هيثوم على تحالفه مع هولاكو ضد المسلمين . وفى بداية العام التالى (١٢٦٨م) ، عاد إلى الشام فاسترد يافا وشقيف أرنون[٣] ، ثم تحول إلى محاصرة مدينة أنطاكية ، وهى أمنع وأقوى الكيانات الصليبية الباقية ببلاد الشام . ولا شك أن استيلاء بيبرس على هذه المدينة كان نصراً عظيما اهتز له المسلمون طربا ، على حين ارتجفت البقايا الصليبية فى بلاد الشام من هذه الضربة العنيفة .

وفى سنة ١٢٧٠م ، بدأ بيبرس فى الإستيلاء على قلاع طائفة الحشيشية بالشام ، لأنها كانت تقف عقبة فى سبيل مشروعاته ضد الصليبيين . وفى خلال هذا الوقت قام لويس التاسع ملك فرنسا بحملة صليبية على تونس ، وهى الحملة المعروفة ، بالثامنة - فعاد بيبرس إلى القاهرة ليراقب ما ستتمخض عنه هذه الحملة، ويفكر فى الوسيلة التى يساعد بها مسلمو تونس ضد الصليبيين . غير أن هذه الحملة انهارت بوفاة لويس التاسع فى تونس ، فرجع بيبرس إلى الشام لمعاودة الهجوم على قلاع الحشيشية فضلا عن صافتيا وحصن الأكراد وعكا وبقية المدن

= والمقريزى ، السلوك ، جـ١ قسم ٢ ، ص ص ٤٦٣ - ٤٦٥ .

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، قسم ٢ ، ص ٥٤٣ .

(٢) اليونينى ، ذيل مرآة الزمان (حيدر أباد الدكن) مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤م) ، جـ ٢ ، ص ٣٣٨ - ص ٣٤٣ ؛ أبو المحاسن ، جـ٧ ، ص ١٣٨ .

(٣) أبو المحاسن ، المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

التى استولى عليها كذلك من الصليبيين [١] .

وحين اعتلى الملك المنصور سيف الدين قلاوون عرش السلطنة المملوكية المصرية السورية عام ١٢٧٩م ، كانت القوى الصليبية الباقية بالشام وفلسطين أربعاً هى : طائفة الاسبتارية فى حصن المرقب ، والنورمان فى إمارة طرابلس ، وطائفة الداوية فى طرطوسة ، ومملكة بيت المقدس فى عكا ، وصاحبها بيت لوزجنان المتقلد عرش جزيرة قبرص . وقد اقتفى قلاوون سياسة سلفه بيبرس فى معالجة مشكلاته مع الصليبيين . ورغم مسعاه إلى مهادنتهم فإن شروطه معهم كانت فى صالحه، ودلت على مدى الضعف الذى وصلوا إليه ، فبدلاً من مهادنتهم جبهة واحدة متماسكة كما كان شأنهم فى سالف مفاوضاتهم ، فإنه هادن كلا من تلك القوى الأربع على حدة .

وفى الوقت نفسه احتاط قلاوون لخطر تحالف الصليبيين مع المغول أو استعانتهم بالغرب الأوروبى فجدد الاتفاقيات والمعاهدات السابقة مع مغول القفجاق والإمبراطورية البيزنطية وقشتالة وصقلية وجنوا فضلا عن الإمبراطور رودلف هابيسبورج[٢] .

وبعد زوال الخطر المغولى اتجه قلاوون إلى مهاجمة القوى الصليبية فى الشام، فأنقض أولا على حصن المرقب ، واستسلم له الاسبتارية سنة ١٢٨٥م، وخاف بوهيموند السابع أمير طرابلس أن يحيق به ماحاق بإمارة أنطاكية من تهديد وتخريب على يد بيبرس ، فسالم قلاوون ، وتنازل له عن بعض الحصون[٣] . وكذلك أسرعت مارجريت صاحبة صور إلى مسالمته ومناصفة دخل الإمارة معه ، وعقد قلاوون معهما معاهدة مشروطة[٤] ، وفعل مثل ذلك مع ملك أرمينية

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب (القاهرة ، ١٩٣٨م) ، جـ٢٨ ، ص ٢٥٤ – ص ٢٥٥، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٥٨٦ – ٦٠٨ .

(2) Lane-Poole (S.), A History of Egypt in the Middle Ages, (London, 1901), P. 281.

(٣) انظر ابن الفرات ، تاريخه ، (تحقيق أسد رستم ، وقسطنطين زريق ، ونجلاء عز الدين ، بيروت ، المطبعة الأمريكية ، ١٤٩٢) جـ٢ ، ص ٢٠٥ – ص ٢٠٦ .

(٤) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٠٣ – ١١٠ .

الصغرى(١) .

وعمل قلاوون على محالفة الدول الأوروبية ليضمن عدم مجيء حملة صليبية من أوروبا إلى مصر ، وليضمن حياد ملوك أوروبا ، إذا بدأ مهاجمة القوى الصليبية بالشام . وحدث من التغيير فى السياسة الأوروبية ما مكنه من عقد تلك المحالفات ولذلك عقد قلاوون معاهدة تجارية مربحة مع جنوا .

وبعد أن عقد قلاوون تلك السلسلة من الاتفاقيات والمعاهدات السياسية والاقتصادية مع الغرب ، هاجم اللاذقية واستولى عنوة على مدينة طرابلس سنة ١٢٨٩م ، ولم تبق إلا مدينة عكا وحدها ، وهى المدينة التى استولى عليها الأشرف خليل (١٢٩١ - ١٢٩٣م) ، فى عام ١٢٩١م، بعد وفاة والده قلاوون . وما أن حل عام ١٢٩٢م حتى كانت جميع مراكز الصليبيين فى بلاد الشام ومن بينها صور وصيدا وبيروت قد سلمت ، وقذف بتاج القدس من عكا فى عرض البحر إلى جزيرة قبرص.

(1) Stevenson, The Crusaders, P. 348 .

الفصل الثانى
نظم الحكم والإدارة

- حامى القبر المقدس.
- رحيل بلدوين وبوهيموند إلى القدس لتأدية الحج.
- تنصيب دايمبرت بطريركا .
- بوهيموند وبلدوين يعودان إلى الشام .
- العلاقة بين جودفرى ودايمبرت .
- وفاة جودفرى .
- رحيل بلدوين إلى القدس.
- استنجاد دايمبرت ببوهيموند.
- تنصيب بلدوين ملكا .
- العلاقة بين بلدوين الأول وتنكرد .
- سياسة بلدوين الأول الدينية .
- تنظيم الحكومة على أسس إقطاعية .
- سلطة الملك - المحكمة العليا - إزدياد مكانة البارونات .
- أمارى الأول والبارونات .
- قومون عكا .
- تداعى السلطة الملكية ونهاية المملكة الصليبية الأولى .
- الهيئات القضائية : (المحاكم البورجوازية - محاكم المدن - محاكم السلسلة - محاكم الجاليات الإيطالية) .
- الجهاز الإدارى : (الصنجيل - الكنداسطبل - المارشال - الياور - الساقى - النائب - المحتسب - كبير كتاب الإنشاء).

بعد أن تم الغزو الصليبي المتبربر لمدينة القدس ، اختير جودفري البويوني ليكون حاكما علي المدينة(١) . بيد أن غيرة منافسيه ومطالب الكنيسة حرمته من أن يتخذ لنفسه لقب ملك . وإن كان اسم العاصمة المهيب في حد ذاته يضفي على حاكمها هذا اللقب(٢) . ويشير فوشيه من شارتر إلى جودفري بوصفه أمير للملكة Regni Principem(٣) ، ويذكر المؤرخ المجهول أنه لم يجر انتخاب جودفرى أميراً للمدينة Principem Civitatus ، إلا من أجل قتال المسلمين(٤) . أما وليم الصورى فيطلق عليه عادة لقب **«دوق»** وأحيانا لقب **« أمير »** أو **« سيد »** (٥) ويجمع المؤرخون على أن جودفرى هو الذى طلب إعفاءه من أن يتخذ لقب ملك ، وأراد أن يعرف باسم Advocatus Sancti Sepulchri الذى يترجم عادة بـ **«حامى القبر المقدس»**(٦) .

والحقيقة أن لقب الـ Advocate كان له معنى محدد بالنسبة لنبلاء فرنسا وألمانيا المعاصرين . وحامل هذا اللقب كان عادة نبيلا يمثل مؤسسة دينية لإنجاز واجباتها العامة كسيد إقطاعى . وفى الوقت نفسه كان على حامل هذا اللقب أن

---

(١) فى نهاية يوليو سنة ١٠٩٩م ، ببعث جودفرى البويونى برسالة إلى بوهيموند أمير أنطاكية يخبره فيها باستيلاء الصليبيين على القدس ، وانتخابه حاكما عليها . انظر : AOL , Tom, I, P. 197, ويطلق المؤرخون المسلمون على جودفوى اسم كندفراى ملك الفرنج ، وكذلك صاحب بيت المقدس (٢٢ يوليو ١٠٩٩ – ١٨ يوليو ١١٠٠م) ، انظر : ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٠٤ ، ابن القلانسى ، ص ١٣٨ . ولمزيد من التفاصيل على الكيفية التى تولى بها جودفرى حكم بيت المقدس ، راجع ماقبله ، ص ١٧ – ٢١ .

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٠ .

(3) Fulcher of Chartres, P. 124, N. 1.

(4) Gesta Francorum, P. 23.

(5) William of Tyre, I, P. 57 .

(٦) من بين هؤلاء المؤرخين نذكر على سبيل المثال :

Archer, The Crusades, P. 95; C.M.H., V. P. 300; Dury, The History of The Middel Ages, (New York, 1904), P. 27; Tompson, The Middle Ages, 300-1500 (London 1931), I, P. 572; Duggan, The story of the Crusades, 1097 - 1291, (London 1963), P. 79; Bradford, The Sword and the Scimitar, P. 90.

يؤدى يمين الطاعة والولاء لرئيس المؤسسة الدينية الذى تسلم منه الأرض كإقطاع ، وبالتالى كان عليه أن يدافع عن هذه المؤسسة ، وربما كان لقب جودفرى هذا يقصد به أنه اعترف بشيء ما من السيادة الكنسية عليه(١) .

ويبدو أن لقب **«حامى القبر المقدس»** كان يأتلف من نظرية الكنيسة التى لا تجيز انتخاب ملك ليحكم البلاد التى تألم فيها المسيح – عليه السلام – وعانى الشدائد وتوج فيها بتاج من الشوك كما يقولون(٢) . وهى على مايبدو حجة واهية اتخذها رجال الدين ذريعة لتعزيز مركزهم فى القدس على حساب العلمانيين(٣) . ويبدو أن البابوية التى كانت فى خضم صراعها ضد الإمبراطورية بشأن التقليد العلماني قد بذلت جهودها لتحول دون تفوق السلطة العلمانية فى القدس على السلطة الدينية ؛ بخاصة وأن الحروب الصليبية كانت مشروعا خاصا بها وقامت تحت رعايتها .

وعلى أية حال ، فإن اختيار جودفرى لهذا اللقب جاء اعترافا منه بأن الدولة الجديدة التى أقامها الصليبييون فى فلسطين ليست لها الصفة العلمانية البحتة وأن لها صفتها الدينية كذلك ، التى تجعل للكنيسة نوعا من الإشراف عليها (٤) . ومع ذلك لا نعتقد أن هذا قد فصل فى المسألة الخطيرة ، ألا وهى العلاقة بين الحاكم العلمانى والكنيسة فى القدس ، لأن لقب حامى القبر المقدس كان يحمل فى طياته حقوقاً محددة للحاكم على أرض الكنيسة . وكيفما كان الأمر ، فإن اتخاذ جودفرى لهذا اللقب قد جنبه الصدام مع رجال الدين فى ذلك الوقت . ويمكن القول بأن حكم جودفرى فى القدس كان بمثابة حل وسط بين النظامين العلماني والدينى ، وفيه ترضية إلى حد ما لمطامع الأمراء ورجال الدين على السواء (٥) . وإن كان ذلك قد أدى فى الحقيقة إلى تأخير قيام دولة قوية؛ تستطيع القدس فى ظلها أن تعيش وسط الأخطار المحدقة بها(٦) .

---

(1) Prawer, Latin Kingdom, P. 37 .

(٢) عن هذا الموضوع ، انظر : أناجيل متى ٢٧ / ٢٦ –٥٠ ؛ مرقص ١٥ / ١٥ – ٢٧ ، لوقا ٢٣ / ١٣٣ – ٤٦ ؛ يوحنا ١٩ / ١ – ٣٠ . وقارن سورة *النساء* آية ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٣) جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص ٧٦ .

(4) Grousset, Histoire des Croisads, I. P.171 .

(5) Stevenson , The Crusades, P. 42 .

(6) Grousset, Loc. Cit.

غير أن مركز جودفرى فى القدس تعرض لتحد خطير عندما وصل إلى هناك (٢١ ديسمبر ١٠٩٩م) ثلاثة من كبار الشخصيات الصليبية ، وهم بوهيموند حاكم أنطاكية ، وبلدوين أمير الرها ودايمبرت أسقف بيزا [١] ، فقد أثار هؤلاء الزعماء الثلاثة مسألة بطريرك القدس . وكان أرنول دى روز Arnoul de Rohes كاهن الدوق روبرت النورمانى قد اختير بطريركا فى أول أغسطس ١٠٩٩م[٢] بإيعاز من بعض الأمراء المقربين إلى جودفرى ، دون الالتفات إلى اعتراضات رجال الدين ، الذين أرادوا أن تكون للبطريرك الكلمة العليا في القدس ، ويعاونه فى حكمها الحاكم العلمانى ، فى حين أن أرنول رحب بأن يكون تابعا لجودفرى ، ولذلك أمر كل من دايمبرت وبوهيموند بعزل أرنول من منصبه على أساس أن انتخابه لم يتفق مع القانون الكنسى ، ومن المحتمل أن دايمبرت كان قد اتفق مع بوهيموند على ذلك أثناء الطريق من أنطاكية إلى القدس ، فإتفقا على الضغط على جودفرى الذى كان محتاجا إلى معونة البيازنة البحرية من ناحية ، وإلى مساعدة بعض الفرسان الذين يمكن أن يمده بهم بوهيموند من ناحية أخرى [٣] . وهكذا عزل أرنول من منصبه ، وبناء على تحريض بوهيموند جرى انتخاب دايمبرت بطريركا لبيت المقدس مكانه . ولعل ما بذله دايمبرت من الهدايا لبوهيموند وجودفرى ، قد يسر له هذا الأمر[٤] .

وبعد ارتقاء دايمبرت كرس البطريركية (٢٦ – ٣١ ديسمبر ١٠٩٩م)[٥] ركع أمامه جودفرى وبوهيموند وتلقيا منه تقليدا بأراضي بيت المقدس وأنطاكية[٦] .

---

(١) Hagenmeyer, “Chronolgie”, P. 498. كان البابا أوربان الثانى ، قد عين قبيل وفاته مندوبا عنه فى فلسطين عوضا عن أدهيمار الذى توفى فى أنطاكية ، فوقع اختياره على دايمبرت رئيس أساقفة بيزا ، على الرغم مما أحاط بدايمبرت من شائعات عن عدم استقامته وانحراف مسلكه . انظر :

Runciman, A History of the Crusades, I, P. 299.

(2) Hagenmeyer, Op. Cit, P. 484 .

(3) Fink, “Latin States” , P. 377 .

(4) Runciman, A History of the Crusades, I, P. 305.

(5) Hagenmeyer, “Chronologie”, P. 500.

(6) Albert d’Aix, P. 511; William of Tyre, I, P. 403 .

ومعنى ذلك أن بطريرك القدس من الناحية النظرية أصبح السيد الأعلى فى الأراضى المقدسة وممثل المسيح- عليه السلام - فيها، بوصفه بطريركا على تلك المدينة من ناحية ومندوبا بابويا اختاره البابا ، وهو خليفة القديس بطرس[١] ، لينوب عنه فى الأراضى المقدسة من ناحية أخرى . وبذلك صار على بقية الأمراء العلمانيين أن يدينوا له بالطاعة والاحترام وأن يتسلموا منه تقاليدهم الخاصة فى حكم إماراتهم[٢].

والحقيقة أن جودفرى كان يأمل فى أن اعترافه بسيادة الكنيسة يجعل مركزه يستند إلى أساس أخلاقى سليم ، وسوف يحملها على المساندة التامة لحكومة البلاد العلمانية . أما بوهيموند فيبدو أن اعترافه بسيادة دايمبرت لايكلفه شيئا ، لأن دايمبرت سوف يكون بعيدا عنه بالقدر الذى يمنعه من التدخل فى شئون أنطاكية، وفى الوقت نفسه فإن هذا الاعتراف سوف يمكن بوهيموند من إغفال حقوق بطريرك أنطاكية اليونانى، الذى كان يشك فيه ويعتبره من عملاء بيزنطة . كما ضمن تأييد بطريرك القدس فى حالة تعرضه لهجوم من جانب الإمبراطور البيزنطى وعلى أساس هذا التأييد اتخذ بوهيموند لنفسه لقب أمير أنطاكية ، وأتخذ ابن أخيه تنكرد لقب أمير الجليل ، ولانعتقد أنه دل بذلك على أن سيده الأعلى ليس جودفرى وإنما البطريرك كما يذكر رنسيمان[٣] ، لأن بوهيموند وتنكرد لم يكونا متدينين .

وليس ثمة من الأدلة ما يثبت أن بلدوين أدى يمين الولاء لدايمبرت ، وتقلد منه الرها بمقتضى ذلك . وليس معروفا ما إذا كان بلدوين قد رفض الطلب الموجه إليه للاعتراف بالبطريرك ، أو أن مسألة الاعتراف لم تجر إثارتها على الإطلاق ، والواضح من سياق الأحداث التى جرت فيما بعد أن دايمبرت لم يثق به ، كما أن العلاقة بينهما لم تكن ودية[٤] .

ولما انتهى الإحتفال بتنصيب دايمبرت بطريركا للقدس، توجه فى أول السنة الجديدة (١ يناير ١١٠٠م) إلى أملاكه كل من بوهيموند وبلدوين[٥] ، وعاد معهما

(١) إنجيل متى ، ١٦ / ١٣ - ١٩ ؛ انظر ما بعده ، ص ١٠١ ، هـ ١ .

(٢) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٢٧٣ .

(3) Runciman, A History of the Crusades, I, P. 306

(4) Ibid, P. 307, N. 2.

(5) Hagenmeyer, "Chronologie", P. 502.

معظم رجالهما وأتباعهما . غير أنه تخلف وراءهما عدد من هؤلاء الأتباع فمنحهم جودفرى إقطاعات فى فلسطين .

ولم تمض بضعة أسابيع على هذه الأحداث حتى كشف دايمبرت عن حقيقته؛ إذ إنه لم يقنع بأن تكون سيادته فى القدس مجرد سيادة اسمية ونظرية ، وإنما أراد أن تستند إلى قوة حقيقية . ونظرا لما اشتهر به جودفرى دائما من الضعف أمام الكنيسة ، ولخوفه من ضياع مساعدة البيازنة ، لم يشأ أن يرفض طلبات دايمبرت ، ففى عيد الشموع (٢ فبراير ١١٠٠م) يذكر وليم الصورى أن جودفرى تنازل لبطريركية القدس عن ربع مدينة يافا ، ثم طالب دايمبرت بأنه لاينبغى ألا تكون له السيطرة فحسب على كل مدينة يافا ، بل على القدس ذاتها وقلعتها برج داود . فأذعن جودفرى أيضا، غير أنه أصر على إرجاء ذلك . وفى احتفال دينى جرى يوم عيد القيامة (أول أبريل ١١٠٠م) منح جودفرى البطريركية مدينة يافا والقدس، غير أنه صرح أنه سوف يبقى حائزاً لهما حتى وفاته أو حتى ينتزع من المسلمين مدينتين كبيرتين[١] .

ولم يكن ذلك حلا مقبولا ، لأنه ليس من السهل أن يقيم جودفرى دولة منظمة حول عاصمة طارئة . ولم يكن لدى جودفرى – فيما يبدو – جهاز حكومى سوى موظفى بلاطه ، ولم يأمل أيضا فى أن يجد هذا الجهاز وقتذاك فى القدس . غير أن محاولة دايمبرت التى اتسمت بقصر النظر ، والتى قضت بأن يطرد من العاصمة المدافعين العلمانيين ، الذين لا بد أن تعتمد عليهم سلامة الكيان الصليبى فى فلسطين ، يعتبر أمرا بالغ الخطورة ، بل إن ما أحرزه جودفرى من فترة هدوء وراحة إنما زادت فى متاعب المستقبل[٢] .

وعلى كل حال استطاع دايمبرت أن يفرض نفسه قيِّماً على القدس فى ذلك الوقت ، ويبدو أنه يأمل فى أن يتمكن جودفرى – فيما بعد – من تأسيس إمارة له خارج حدود فلسطين مثلما فعل بلدوين وبوهيموند[٣] . وفى خطاب وجهه دايمبرت فى أول أبريل سنة ١١٠٠م إلى كافة النصارى فى ألمانيا طلبا للمساعدة، لم يهتم

(1) William of Tyre, I, P. 404 .

(2) Runciman, A History of the Crusades, I, P. 307.

(٣) عن أطماع بلدوين وبوهيموند ، انظر : =

البطريك بذكر جودفرى ، وتكلم عن الصعوبات التى واجهته فى الحصول على عدد كاف من الرجال للدفاع عن القدس وبيت لحم ويافا وطبرية والرملة وغيرها من المدن والقلاع التى كانت بأيدى الصليبيين(١) .

غير أن نفوذ دايمبرت فى القدس أخذ فى التدهور والاضمحلال نتيجة لإقلاع الأسطول البيزى بعد الانتهاء من احتفالات عيد الفصح ، ووصول بلدوين(٢). شقيق جودفرى فى خريف عام ١١٠٠م إلى القدس بعد أن علم بوفاة أخيه .

ولاشك أن وفاة جودفرى (١٨ يوليو ١١٠٠م) كانت إشارة البدء فى ذلك الصراع المتوقع بين العلمانيين ورجال الدين حول الوضع المقبل فى القدس ، وكيف يكون الحكم فيها(٣) . ومن ذلك أن ريمون أبدى رغبته الملحة فى أن يخلف جودفرى في الحكم بلقب حامى القبر المقدس(٤) . ويذكر البعض أن جودفرى كان قد أوصى لأخيه بلدوين أمير الرها بأن يرثه فى حكم القدس(٥) . على حين أن

Fulcher of Chartres, PP. 90 - 91 ; William of Tyre, I, PP. 189-194, 298-313;= Gesta Francorum, PP. 74-82; Hagenmeyer, "Chronologie", PP. 532 - 533' Matthieu d'Edesse, PP. 217 - 218 .

(1) Fink, "Latin States", P. 379 .

(٢) عرفه العرب باسم القمص بغدوين ، صاحب الرها (١٠٩٨ - ١١٠٠م) وملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨م) ، انظر ابن القلانسى ، صفحات ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥، ١٥١، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧ - ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣ - ١٨٥ ، ١٨٨، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، وكذلك ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، صفحات ، ٢٣٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٠ .

(3) Stevenosn, The Crusaders, P. 42 .

(٤) إسحاق عبيد ، روما وبيزنطة ، ص ١٢٩ .

(5) C.M.H., V. P. 304; Stevenson, Loc, Cit.,

هذا ويذكر المؤرخ لامب ، أن جودفرى وهو على فراش المرض دعا كل من دايمبرت وأرنول للاجتماع به وقال لهما :

«لقد طلبتكما للاجتماع ، وأنا على قيد الحياة ، لنختار الشخص الذى سوف يحكم القدس بعد وفاتى » . فرد دايمبرت عليه قائلاً : « نقول إن هذا من اختصاصك» ، فقال=

وليم الصورى يذكر لنا أن هناك خطابا أرسله دايمبرت إلى بوهيموند، يؤكد فيه أن جودفرى البويونى ، وهو على فراش المرض ، جدد له العهد الذى كان قد قطعه على نفسه فى عيد القيامة ، وهو العهد الذى كان يقضي بأن يتولى دايمبرت مقاليد الأمور فى القدس فى حالة وفاة جودفرى ، دون أن يكون له وريث ذكر(١)، ولكن هناك من الأسباب مايدعو للشك فى مدى صحة محتويات هذا الخطاب ، فإن هذا الخطاب عبارة عن إدعاءات دايمبرت ، كما أنه كتب بعد وفاة جودفرى. وبالإضافة إلى ذلك فإنه من الواضح- كما يقرر بابكوك وكرى - أن الأسلوب الذى كتب به هذا الخطاب لايختلف كثيرا عن طريقة وليم الصورى فى الكتابة(٢) . وإذا سلمنا بوجود هذا الخطاب المنسوب إلى دايمبرت ، فإن قلم وليم الصورى قد أضاف إليه الكثير من العبارات والأفكار(٣) .

وكيفما كان الأمر ، فإن تنفيذ ذلك التعهد ، إن صح ، كان يعنى تحويل حكومة بيت المقدس إلى حكومة دينية ، وهو ماسعى إليه دايمبرت منذ زمن طويل على أن قيام مثل هذه الحكومة فى القدس ، واستبعاد كل فكرة تهدف إلى قيام نظام ملكى وراثى كان أمرا صعب التحقيق(٤) . ذلك أن الفترة التى تولى فيها جودفرى البويونى حكم القدس كانت كافية ، برغم قصرها ، لتجعل الصليبيين يؤمنون بضرورة قيام حكومة علمانية عسكرية الطابع ، وهو ما يتفق مع طبيعة الوجود العدوانى الاستيطانى للصليبيين فى فلسطين .

أضف إلى ذلك أن أرنول البطريريك السابق للقدس والذى خلفه دايمبرت كان له أنصاره من رجال الدين الذين شايعوا فكرة قيام ملكية علمانية وراثية فى القدس لا لشىء سوى التشفى فى دايمبرت ، والوقوف فى وجه أطماعه(٥). ووجه

= جودفرى : «إذا كان من الضرورى أن تسوى هذه المسألة بمعرفتى.. فإننى أعتقد أن أخى بلدوين جدير بحمل هذه المسئولية»، انظر :

Lamb(H.), The Crusades, Iron Men & Saints, (London, 1934), P. 225.

(1) William of Tyre, I, P. 404 .

(2) Ibid, P. 418, N.10.

(3) Hagenmeyer, "Chronologie", P. 447.

(٤) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ .

(٥) نفسه ، المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

الأهمية فى موقف أرنول وأنصاره هو أن المؤمنين بنظام الحكومة العلمانية اتجهوا جميعا بأفكارهم نحو بيت بوايون وأرادوا أن تكون الملكية محصورة فى ذلك البيت بالذات، ولذلك بادروا إلى إرسال أسقف **الرملة** ، وبصحبته فارسان إلى الرها ليخطروا بلدوين بوفاة أخيه وليستدعوه للقدوم ليتولى أمر مملكة بيت المقدس(١) .

وهكذا لم يأمل دايمبرت فى أن تتحقق دعاويه دون أن يظفر بمساعدة ، فكان لا بد له من التحالف مع تنكرد ، لأن إمارته امتدت وقت ذاك من شرق الجليل إلى البحر المتوسط فقطعت بذلك طريق الاتصال بين بيت المقدس والشمال، والمعروف أن تنكرد نفسه كان يكن الكراهية لبلدوين منذ أن نشبت بينهما المنازعات فى قيليقية ، منذ ثلاث سنوات(٢) ، وبتأييد من تنكرد عزم دايمبرت على أن يعرض حكومة بيت المقدس على بوهيموند ، فأمر أمين سره ، موريللوس ، أن يتوجه مباشرة إلى أنطاكية برسالة منه إلى بوهيموند .

بدأ دايمبرت رسالته باستعادة ماحدث من مساعدة بوهيموند له فى انتخابه بطريركا على كنيسة القدس ، التى وصفها دون أن يكترث بدعاوى روما ، بأنها أم الكنائس ، وسيدة الأمم ، ثم أخبره بما انتزعه من جودفرى البويونى من امتيازات وحقوق ، ونعى محاولات حاشية جودفرى لمنعها عنه وردد شروط التسوية التى تمت يوم عيد الميلاد ، وأكد أنه بمقتضى هذه التسوية لا بد من انتقال حكم بيت المقدس إليه عند وفاة جودفرى ، غير أن وارنر جراى ارتكب خطأ كبيرا بالاستيلاء

---

(1) Runciman, A History of the Crusades, I, P. 315.

وفي هذا الشأن تقول أنه كومنين أن اللاتين فى القدس أرسلوا فى طلب رايموند من طرابلس وأبلغوه رغبتهم فى أن يتولى مقاليد الأمور فى القدس ، ولكنه رفض التوجه إلى هناك آن ذاك، وسارع بالسفر إلى القسطنطينية - ربما ليستشير الإمبراطور البيزنطى فى هذا العرض - وتضيف آنه كومنين أن اللاتين فى القدس أدركوا مما حدث أن رايموند كان لايزال على موقفه السابق من الحكم ، ولذلك أرسلوا فى طلب بلدوين الذى كان يوم ذاك فى الرها واختاروه ملكا على القدس . انظر :

Anna Comnena, The Alexiad, (Transl, From The Greek by E.R.A. Sewter, Penguin Books, 1979), P. 155 .

(٢) عن هذا الموضوع انظر :

Hagenmeyer, "Chronologie", P. 505 ; William of Tyre, I, PP. 178-186 ; Gesta Francorum, PP. 24 - 25 .

على برج داود ، وبأن بذل لبلدوين إرث جـودفـرى(١) . وعندئذ دعـا دايمبـرت بوهيموند للنهوض لمساعدته ، مثلما قدم والد بوهيموند لمساعدة البابا جريجورى السابع ، حينما تعرض لظلم الأباطرة الألمان(٢) . على أن هذه الذكرى ليست فى صالح الكنيسة على عكس مايعتقد دايمبرت ؛ إذ كان لزاما على بوهيموند أن يكتب إلى بلدوين يمنعه من القدوم إلى فلسطين ، إلا بعد الحصول على إذن وتصريح من البطريرك ، فإذا عصى بلدوين طلبه ، وجب على بوهيموند أن يستخدم القوة لمنعه. والخلاصة أن أمير أنطاكية كان لابد له أن يعلن الحرب على كونت الرها ، حتى يتيسر للبطريرك أن يحكم فلسطين ، دون موافقة الفرسان ، الذين يتوقف عليهم الدفاع عن البلاد .

ليس معروفا ما بعث به بوهيموند من رد على رسالة دايمبرت وليس من الراجح أن بلغت به الرعونة أن يغامر بقتال بلدوين . وعلى أية حال فإن هذه الرسالة لم تصله (٣) ، وبذلك انقطع رجاء دايمبرت وأمله . وفى الوقت نفسه جنب

---

(1) William of Tyre, I, P. 420 .

(٢) عن العلاقات بين البابا جريجورى السابع وهينريش الرابع ، انظر :

Tout (T.F.) & D. Litt (M.A.) , The Empire and the Papacy, 918 - 1273, (9ed., London, 1924), PP. 120 - 136 .

والحقيقة أن روبرت جوبسكار – والد بوهيموند – عندما تقدم فى سنة ١٠٨٤م نحو أسوار روما لم تكن تدفعه إلى ذلك رغبته فى مساعدة البابا، بقدر ما كان يدفعه الخوف منا ازدياد نفوذ هينريش الرابع فى إيطاليا ، الأمر الذى كان يهدد النورمان ، ويقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق مطامعهم فى جنوب إيطاليا .

(٣) فى الوقت الذى توفى فيه جودفرى كان بوهيموند فى طريقه إلى ملطية ليقدم النجدة لأسيرها الأرمنى ضد الأتراك من أتباع غازى كمشتكين بن الدانشمند صاحب سيواس فوقع بوهيموند أسيرا فى قبضة كمشتكين ، ولم تفلح الجهود التى بذلها الصليبيون لإنقاذه . عن هذا الموضوع انظر :

Albert d'Aix, PP. 524-525, Fulcher of Chartres, P. 137 ; William of Tyre, I, P. 411.

وانظر كذلك : ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨، ص ١٩٥ ؛ ابن القلانسى ، ص ١٣٧ ، ص ١٣٨ . وطبقا لما أورده ألبرت من دكس فإن حامل خطاب دايمبرت قد وقع فى قبضة أتباع ريمون التولوزى بالقرب من اللاذقية . ولما عرفوا بمحتويات الرسالة منعوا وصلوها إلى بوهيموند واحتجزوا حاملها . انظر :

Albert d'Aix, Loc, Cit.

الصليبيون حربا على الأراضى المقدسة .

وفى ٢ أكتوبر ١١٠٠م ، ارتحل إلى القدس ، بلدوين مع أهل بيته وأتباعه وحرسه المؤلف من ٢٠٠ فارس من الرجالة ، ولم يحزن إلا قليلا لوفاة أخيه جودفرى ، على حد قول قسيسه فوشيه من شارتر ، على حين أنه تهلل فرحا وسرورا لما أصابه من الإرث والملك . ولما اقترب بلدوين من المدينة خرج السكان للترحيب به بأشد مظاهر الفرح والسرور ، وتفرق خصومه(١) .

وفى اليوم الرابع من وصوله إلى القدس استدعى بلدوين أتباع جودفرى إلى اجتماع عام ؛ ليقدموا له بيانا عن أسلحتهم ومصادر دخولهم ومقاطعاتهم بما فيها المقاطعات المالية ، ثم انتزع منهم يمين الولاء والطاعة(٢) .

وفى يوم عيد الميلاد (٢٦ ديسمبر ١١٠٠م) أقيمت حفلة تتويج فخمة فى كنيسة العذراء ببيت لحم ، حيث وضع دايمبرت التاج على رأس بلدوين الأول ليكون بذلك أول ملوك القدس من الصليبيين . وفى الخطاب الذى ألقاه بعد ارتقائه العرش ، أعلن الملك بلدوين الأول أنه سوف يتبع سياسة جودفرى ، وأنه سيعمل على إقامة العدل واستتباب أمن مملكته(٣) .

ويبدو أن بلدوين رأى فى لقب الملك تمكينا للدولة العلمانية ، فى القدس ، إذ أن هذا اللقب يضفى الهيبة والعظمة على صاحبه ، ويلقى الرعب فى قلوب أعدائه، ومن المحتمل أن اتخاذ بلدوين لهذا اللقب قد تم بموافقة الجميع وعن طيب خاطرهم(٤) . وهكذا تبددت جميع آمال دايمبرت وزالت نهائيا فكرة إقامة حكومة دينية فى القدس .

ومع ذلك فالحقيقة المهمة ، التى لا يمكن إغفالها أن مراسم تتويج بلدوين الأول قد تمت على أيدى دايمبرت بطريرك القدس ومندوب البابا فى الأراضى المقدسة . ومعنى ذلك أن البابا باعتباره ممثل الله على الأرض وخليفة القديس بطرس فى شئون الدين والدنيا وقد مارس حقه – عن طريق مندوبه – فى منح تاج

(١) لمزيد من التفصيلات عن رحيل بلدوين إلى القدس ، انظر :

Fulcher of Chartres, PP. 137 - 173; William of Tyre, I, PP. 423-4 .

(2) Fink, “Latin States” , P. 381 .

(3) Conder, Jerusalem, P. 80 .

(4) Fettellus, P. 53; William of Tyre, I, PP. 427 - 28 .

بيت المقدس إلى بلدوين الأول لينوب عنه فى حكمها ، وهو مايتفق مع المفاهيم السياسية السائدة آن ذاك فى الغرب الأوروبى ، ونقصد بها نظرية السمو البابوى التى ترجع إلى أيام البابا جريجورى الأول (٥٩٠ - ٦٠٤)(١) .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن تلك المراسم أقيمت فى بيت لحم وليس فى القدس ويبدو أن دايمبرت الذى كان يعتبر نفسه سيدا على القدس بصفتها دولة دينية ، لم يرغب فى تتويج بلدوين الأول فيها ، لأنه توقع ، فيما يبدو ، أن يكون بلدوين ملكا فى أى مكان ماعدا القدس ، ولا يعتقد أن بلدوين هو الذى رفض أن يتخذ التاج فى القدس مثلما فعل أخوه جودفرى البويونى ، أو أنه قبل أن يكون تابعا لدايمبرت ومن المحتمل أن بلدوين كان قد وافق على أن يتوج خارج القدس حتى لايعطى الفرصة لادعاءات الكنيسة(٢) . وإن كان هناك من يرى أنه لابد من النظر إلى ذلك على أنه حل وسط بين وجهات النظر المختلفة(٣) .

كانت أولى خطوات بلدوين الأول لتوطيد السلطة الملكية فى بيت المقدس هى التخلص من تنكرد الذى كان أكثر صلابة وضراوة من ديمبرات . ويبدو أنه كان من الصعب على تنكرد أن يصبح تابعا لبلدوين ، وأن يعلن ولاءه له بعد ما أظهره نحوه من ألوان العداء والخصومة الشديدة ، بل إنه رفض الحضور لمقابلة الملك الجديد عندما استدعاه أكثر من مرة لمقابلته سنة ١١٠١م(٤) . وفى وسط تلك الأزمة بين بلدوين الأول وتنكرد تلقى الأخير رسالة (مارس ١١٠١م) من الصليبيين فى أنطاكية يطلبون منه الحضور إليهم للقيام بالوصاية على إمارتهم أثناء أسر خاله بوهيموند(٥) . ولاشك أن ذلك قد هيأ لتنكرد مجالا جديدا بالغ الاتساع، يحتمى فيه من بلدوين . أما بلدوين فقد كان بالغ السرور لأن يتخلص من متاعب تابع لا يثق فيه ولا يحبه . ولم يلبث أن تم الصلح بين الطرفين ، وبمقتضى ذلك تنازل تنكرد لبلدوين عن الجليل وطبرية وحيفا ، وعلى أن يستردها مرة أخرى ، إذا

(١) للمزيد من التفاصيل عن نظرية السمو البابوى ، راجع :

Ullmann (W.), The Groth of Papal Government, in the Middle Ages, (London, 1974); Bryce (J.); The Holy Roman Empire, (London, 1950).

(2) Prawer, Latin Kingdom, P. 38 .

(3) William of Tyre, I, P. 427, N. 20 .

(4) Runciman, A History of the Crusades, I. P. 326.

(5) William of Tyre, Op. Cit., P. 428.

عاد قبل انقضاء ثلاثة سنوات وثلاثة أشهر من رحيله[١] ، ولكنه لم يعد أبدا.

وبعد أن أنهى بلدوين الأول خلافاته مع تنكرد، اتجه نحو خصمه الآخر دايمبرت بطريرك القدس[٢] . وما جرى بين الطرفين يوضح لنا طبيعة العلاقات بين الدولة والكنيسة في مملكة بيت المقدس في ذلك الوقت . وعلى الرغم من أن شخصية بلدوين الأول ليس لها الطابع الديني القوى الذى اعتادت الأساطير المعاصرة أن تلصقه بأخيه جودفرى البويوني [٣] ، إلا أنه من الثابت أن بلدوين كان حريصا على أن يجعل سيطرته على الكنيسة حقيقة واقعة[٤] . ولذلك لم يلبث أن تجدد النزاع بين الطرفين في مارس سنة ١١٠٠م .

ويوقفنا وليم الصورى على أسباب تجدد النزاع بين البطريرك والملك فيقول: أن أرنول بطريرك بيت المقدس السابق هو المسئول عن إفساد العلاقات بين الطرفين[٥]. وهناك شيء لا نظنه عن الحقيقة بعيد ، وهو أن بلدوين الأول كان لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يغفر لدايمبرت محاولاته السابقة للحيلولة دون وصوله إلى حكم بيت المقدس ، وحرمانه بالتالى من أن يرث أخاه جودفرى ويخلفه فى الحكم ، بالإضافة إلى مؤمرات دايمبرت لإعطاء ملك بيت المقدس إلى بيت بوهيموند الأنطاكى [٦] . وعلى أية حال أراد بلدوين أن يتخلص من دايمبرت بطريرك القدس الذى توجه مكرها ، والذى أحاطت الشبهات تصرفاته وسلوكه(٧) . وقد أرسل البابا باسكال الثانى **Baschall II** (١٠٩٩ - ١١١٨م) مندوبا إلى القدس للتحقيق فى ذلك الموضوع ، وعندئذ أوضح بلدوين للمندوب البابوى سوء تصرفات دايمبرت وتآمره ضد الملك وجشعه . وجاءت هذه الاتهامات مقرونة بالأدلة الدامغة ، مما جعل المندوب البابوى يصدر حكمه بإعفاء دايمبرت من منصبه فغادر دايمبرت القدس إلى أنطاكية ، حيث عهد إليه تنكرد برعاية كنيسة القديس جورج

---

(1) Albert d'Aix, P. 538.

(2) Fink, "Latin States" , P. 382 .

(3) C.M.H., V, P. 304 .

(4) Runciman, A History of the Crusades, II, P. 84.

(5) William of Tyre, I, P. 452 .

(6) Albert d'Aix, P. 538.

(7) Conder, Jerusalem, P. 84 .

فى المدينة سنة ١١٠٢م[١] . وفى الوقت ذاته اختير إبرمار **Evremar** بطريركاً للقدس . وقد أيد بلدوين هذا الاختيار لما لمسه فى البطريرك الجديد من ورع وتقوى ورغبة تامة فى الابتعاد عن الاشتغال بالمسائل السياسية ، وهذا كل ما كان يبتغيه بلدوين فى الشخص الذى يتولى بطريركية القدس [٢] .

غير أن إبرمار لم يستمر طويلا فى منصبه ، إذ إن دايمبرت ذهب إلى إيطاليا سنة ١١٠٤م حيث حاول أن يحصل على تأييد البابوية لإعادته لكرسى بيت المقدس ، فأرسل البابا باسكال الثانى مندوبا اسمه جبلين **Gibelin** للتحقيق مرة أخرى فى هذا الموضوع[٣] . ولم يلبث أن توفى دايمبرت فى ١٥ يوليو ١١٠٥م[٤]، وانتهى الأمر باختيار جبلين نفسه بطريركا على القدس سنة ١١٠٨م . وكان جبلين متقدما فى السن ، فلم يلبث أن توفى فى أبريل سنة ١١١٢م، فاختير بعده أرنول بطريركا من جديد على القدس[٥] .

وهكذا تمكن بلدوين الأول من الاحتفاظ لنفسه بالسلطان الأعلى فى حكومة القدس ، وجنب فى الوقت ذاته المملكة من الصراع بين السلطتين الدينية والعلمانية. كما أن إخلاص أرنول لبلدوين الأول لم يمكن الملك من إحكام قبضته على كنيسة القدس فحسب ، بل ضمن أيضا لتلك المملكة نظاما وراثيا فى بيته، مما أتاح لها فرصة الاستقرار والثبات ، وجنبها النزاع والقلاقل إلى حين .

ولا شك أن بطريرك القدس كان قد ضعف مركزه وقلت هيبته أمام الملك ، وبصفة خاصة بعد الفشل الذريع الذى منيت به محاولات دايمبرت لإقامة سلطانه الكنسى الواسع فى بيت المقدس . وكان سلطان الملك على الكنيسة يبدو جليا عندما يخلو منصب البطريرك . ففى هذه الحالة كانت هيئة من رجال الدين فى كنيسة القيامة يرشحون اثنين لهذا المنصب ، وينتظرون بعد ذلك موافقة الملك على أحدهما. وإن كان الملك فى الواقع يستطيع أن يرفض اختيار كل من المرشحين، وفى هذه الحالة تضطر الهيئة إلى ترشيح اثنين آخرين[٦] ، على أن المسائل الدينية

(1) Runciman, A History of the Crusades, II, PP. 81 - 82.

(2) Albert d'Aix, P. 622.

(3) William of Tyre, I, P. 468 .

(4) Hagenmeyer, "Chronologie", P. 312 .

(5) William of Tyre, Op. Cit., P. 489.

(6) Mayer, the Crusades, P. 155 .

الأخرى داخل الكنيسة كانت من اختصاص بطريرك القدس [١] ، الذى خضع لسلطانه الدينى رؤساء الأساقفة الأربعة فى صور وقيسارية والناصرة ومآب. فضلا عن تسعة أساقفة وتسعة من رؤساء الأديرة ، وخمسة مقدمي أديرة ، غير أن من الأديرة ما استندت مباشرة إلى البابوية، وكذا شأن طوائف الرهبان الفرسان[٢].

وقد حاول بلدوين الأول أن يساند كنيسة القدس ، وأن يوسع اختصاصها الدينى ، وزيادة نفوذها على حساب كنيسة أنطاكية عندما نشب نزاع بين بطريرك القدس وبطريرك إنطاكية حول أسقفية بيروت ، بعد أن استولى بلدوين على هذه المدينة الأخيرة من الفاطميين سنة ١١١٠م ؛ ذلك أن تنظيم الكنيسة البيزنطية كان يقضي بأن يتبع أسقف بيروت رئيس أساقفة صور ، وهذا الأخير يتبع بطريرك أنطاكية . ولكن ذلك الوضع صار غير ذى موضوع سنة ١١١٠م عندما كانت بيروت فى أيدى الصليبيين ، فى حين ظلت صور نفسها فى قبضة المسلمين . لذلك طالبت بطريركية القدس بأن أسقفية بيروت تابعة لها ، فى حين تمسك بطريرك أنطاكية بتبعية تلك الأسقفية له .

وعندما اشتد الخلاف ، عرض بلدوين الأول الأمر على البابوية فأفتى البابا باسكال الثانى سنة ١١١١م بأن الفتح الإسلامى غير الأوضاع القديمة التى كان معمولا بها فى الدولة البيزنطية ، وبناء على ذلك فإن البابوية ترى أن تكون الكنائس فى جميع البلاد التى استولى عليها بلدوين الأول تابعة لبطريرك بيت المقدس[٣] . ويبدو أن ما حققه بلدوين الأول لنفسه من سيادة على أمراء أنطاكية

---

(١) كانت للكنيسة محاكمها المستقلة ، مثلما كان حادثا فى الغرب . غير أن دائرة نفوذها ، ربما كانت فى مملكة بيت المقدس أوسع من أى جهة أخرى . وتختص هذه المحاكم فى الفصل فيما يقع بين رجال الدين أنفسهم من خلافات ، وكذلك قضايا الهرطقة ، وقضايا السحر، وقضايا الأحوال الشخصية مثل الطلاق والزنا والوصاية . وجرت هذه المحاكم على اللوائح والإجراءات التى التزمت بها محاكم الكنيسة فى الغرب . والواقع أن محاكم الكنيسة لم يكن من اختصاصها قضايا الحنث بالإيمان ، وشهادة الزور ، وهى القضايا التى كانت تدخل ضمن اختصاصات المحكمة العليا . انظر :

Runciman, A History of the Crusades, II. P. 311.

(2) Ibid, P. 310.

(3) William of Tyre, I, PP. 481 - 483 .

والرها وطرابلس جعله يتمسك بأن تكون بطريركية القدس من جانبها لها الأولوية على بطريركية أنطاكية . وهكذا انتهى الأمر عند منتصف القرن الثانى عشر بأن ظلت أسقفيات إمارة طرابلس تابعة لبطريك أنطاكية ، ما عدا بيروت وصور وصيدا وعكا وبانياس فقد أصبحت تابعة لبطريركية القدس(١) .

ومما سبق يتضح لنا أن البابوية على الرغم من تمسكها بحرية الكنيسة فى بيت المقدس ، فإنها فى الوقت ذاته اعترفت بالسلطة العلمانية القوية التى كان بإمكانها التصدى لهجمات المسلمين فى فلسطين . والواضح أن البابوية لا تقر فيما يبدو أن يكون فى بيت المقدس بطريركية بالغة القوة، تستطيع بفضل مالها من مركز خاص وثرواتها المتزايدة أن تجعل من نفسها ندا فى الشرق لروما فى الغرب حسبما كان يأمل دايمبرت(٢) ، فلم تكن البابوية راغبة فى إثارة كوامن النزاع القديم الذى استشرى فى القرن الخامس بين الكراسى الرسولية حول الزعامة الكنسية، وظهر فيها حرص هذه الكنائس جميعها - رغم تناحرها - على أن تجعل كنيسةالقدس فى ذيل القائمة لتحتل المركز الخامس(٣). ولعل هذه المخاوف هى التى جعلت البابوية لا تؤيد دايمبرت فى خلافه مع بلدوين الأول ، ولا تشجع بأى حال من الأحوال قيام حكومة دينية في الأراضى المقدسة . وبذلك تيسر للملك أن يوقع بين البابوية والبطريرك(٤) .

وإذا كان لزاما على الملك من الناحية التقليدية أن يحلف عند تتويجه يمين الولاء للبطريرك ، إلا أنه سعى فى الوقت ذاته للحصول من البابوية على التصديق على ولايته الحكم. ولم تكن التبعية أكثر من تبعية إسمية ، غير أنها كانت بالغة النفع لمملكة بيت المقدس ، لأن البابوية اعتبرت نفسها مسئولة عن أن توفر للأراضى المقدسة ما يلزمها من الإمداد من الرجال والأموال ، وعن بذل كل مساعدة دبلوماسية عند الحاجة إليها . ويصح الإفادة أيضا من البابوية فى الحد من سلطة البطريركية ، وفى ممارسة بعض السيطرة على طوائف الفرسان الرهبان(٥)،

(1) Grousset, Histoire des Croisades, I, P. 312 .

(2) Runciman, A History of the Crusades, II. P. 301.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن الكنائس الرسولية فى القرن الخامس ، راجع : رأفت عبدالحميد، الدولة والكنيسة ، الجزء الخامس ، دار المعارف ، ١٩٨٣ م .

(4) Runciman, Loc. Cit.

(5) Ibid .

وهكذا لم تعارض البابوية سلطة الملك على كنيسة القيامة .

وقد طبق الصليبيون فى مملكة بيت المقدس كثيرا من النظم الإقطاعية التى خبروها وعاشوا فى ظلها فى الغرب الأوروبى ، قبل حضورهم إلى الشرق [١]،وإن كانت الخطوط العريضة لتلك النظم لم تتضح وتصبح ثابتة ومستقرة إلا قبيل نهاية النصف الأول من القرن الثانى عشر[٢] ، حيث تم تعديل هذا النظام بعض الشيء لمواجهة الظروف المحلية فى الشرق والتحديات الخاصة واحتياجات البلاد المحتلة[٣] .

كانت نتيجة تنظيم الحكومة على أسس إقطاعية أن قسمت مملكة بيت المقدس إلى عدد من إقطاعات الأمراء والضياع التى تدين بالولاء للملك الذى كان يقف على قمة البناء الاجتماعى فى المملكة [٤] . وكانت الأملاك الملكية فى البداية أوسع ، ومن المؤكد أنها كانت أكثر ثراء من أكبر الإقطاعيات ، وربما من جميع الإقطاعيات مجتمعة فى المملكة . فقد كانت منطقة الضفة الغربية كلها تقريبا فيما بين الخليل فى الجنوب ونابلس فى الشمال داخلة فى نطاق الأملاك الملكية[٥]، وفى الوقت ذاته تألفت أملاك الملك الخاصة ، وهو مايعرف فى مصطلح ذلك العصر باسم «**الدومين**» ، من المدن البحرية الرئيسية الثلاث فى المملكة ، وهى يافا وعكا وصور ، فضلا عن العاصمة القدس[٦] . ثم أضيف إليها الداروم [٧] بعد ذلك[٨].

كان يلى ملك بيت المقدس أربعة من كبار البارونات وهم بارونات يافا وعسقلان ومقاطعة الكرك ومنتريال ، وإمارة الجليل ، ومقاطعة صيدا. ولكل واحد من هؤلاء الأربعة موظفوه وإدارته الخاصة أشبه بالملك نفسه ، وإن كان ذلك على

---

(1) Archer, the Crusades, P. 122.

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٣٠ .

(٣) نفسه ، ص ١٢٩ .

(4) Mayer, the Crusade, P. 154 .

(٥) براور ، المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(6) Jacques de Vitry, P. 26 .

(٧) هى مدينة دير البلح حالياً ، وتقع جنوب قطاع غزة .

(8) Runciman , A History of the Crusades, II, P. 297

مقياس أصغر [١] . وبالإضافة إلى هذه البارونيات الكبرى، وجد فى مملكة بيت المقدس اثنتا عشرة مقاطعة صغيرة[٢] ، وهى الخليل وارسوف وقيسارية ونابلس وبيسان وحيفا وتبنين وقيمون وبنياس وإسكندرونة واللد وبيروت . وكان أهم بارونات هذه المقاطعات بارونات قيسارية وتبنين اللذين لعبا دورا كبيرا فى تاريخ مملكة بيت المقدس[٣] .

وبينما كان أمراء أنطاكية وأمراء طرابلس يتوارثون الحكم فى الأراضى التى احتلوها ، إذا بالملكية فى القدس تظل انتخابية من حيث المبدأ[٤] ، وفقا للتراث السياسى الجرمانى الذى ظل تقليدا سياسيا قويا فى العصور الوسطى على مدى عدة قرون ؛ خاصة فى الدول التى ظلت فيها النظم الجرمانية ذات نفوذ . وكان استمرار مبدأ الانتخاب إلى حد كبير بسبب تأييد الكنيسة له ، حيث إنها كانت تجد فى مبدأ استحقاق العرش وسيلة لممارسة حقها فى الاعتراض على اعتلائه من قبل ملك لا ترغب فى اتجاهاته أو فى سياسته[٥] .

ومع أن الصليبيين فى بيت المقدس طبقوا هذا التقليد الجرمانى الذى يقضى بانتخاب الملك فى الفترة الأولى من استيطانهم فى فلسطين ، إلا أنهم أخذوا بعد ذلك بالمبدأ الوراثى كما حدث عند تولية بلدوين الرابع ملكا سنة ١١٧٤م، وهو فى الثالثة عشر من عمره بعد وفاة أبيه [٦]. ويرى باركر أن فكرة المساواة ، بين الملك والنبلاء التى سادت فى القدس آنذاك ، قد أدت بمرور الوقت إلى هذا التغيير[٧]. فإذا كان الملك قد حاز مملكته على أنها إقطاع شأنه فى ذلك شأن النبلاء، فإن مايسرى على الإقطاع من قوانين التنازل يجرى أيضاً على المملكة ، وهذه القوانين قضت بوراثة الإقطاع[٨] . وفى هذا الشأن لم يفرق الصليبيون بين الذكور والإناث .

(1) Archer, The Crusades, P. 116 .

(2) Conder, Jerusalem, P. 162 .

(3) Painter , Middle Ages, P. 208 .

(4) C.M.H., V, P. 302 .

(٥) كانتور ، التاريخ الوسيط ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ؛ على الغمراوى ، ملحمة البطولة الجرمانية ، (القاهرة ١٩٧٢م) ، ص ٥ .

(6) Grousset, Histoire des Croisades, II, P. 609 .

(٧) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٦ .

(٨) نفسه ، ص ٦٧ .

غير أن فكرة المملكة على أنها إقطاع انطوت على نتيجة من أخطر النتائج ذلك أن المملكة يصح أن تنتقل ، شأنها فى ذلك شأن سائر الإقطاعات من وريثتها إلى زوجها[١] ، حيث كان غياب القانون الذى يحرم على المرأة تولى العرش فى المملكة متفقا مع عدم وجود ورثة من الذكور ، وهو الأمر الذى أدى إلى إنتقال العرش إلى أسر جديدة . ومن أمثلة ذلك أن بلدوين الثانى الذى لم ينجب سوى أربعة إناث ، بعث سفارة إلى فرنسا سنة ١١٢٧م لاختيار أحد الأمراء المعروفين بشجاعتهم ومقدرتهم ليتولى الحكم من بعده فى بيت المقدس ، فرشح لويس السادس ملك فرنسا لتلك المهمة فولك الخامس الأنجوى[٢] . وكان أن حضر الأمير فولك إلى مملكة بيت المقدس فى ربيع عام ١١٢٩م ، وبعد قليل تزوج من مليزاند ابنة الملك بلدوين الثانى الكبرى ، ثم أقطع الملك زوج ابنته مدينتى صور وعكا . وهكذا أصبح فولك الأنجوى ، بحكم زواجه من وريثة بلدوين الثانى ، هو ملك بيت المقدس المقبل[٣]. وعندما توفى بلدوين الثانى ، (٢١ أغسطس ١١٣١م) خلفه فولك الأنجوى فى حكم بيت المقدس . وقد احتفل بتتويجه ملكا بكنيسة القيامة فى ١٤ سبتمبر ١١٣١م[٤] ، وبذلك انتقل العرش إلى بيت أنجو .

ولاشك أن تشريع الوراثة الذى أقره الصليبيون فى مملكة بيت المقدس كان يحمل فى ثناياه كثيرا من عوامل ضعف المملكة ، إذ بلغ الأمر من فوضى ذلك التشريع أن الوريثة للعرش كانت تختار زوجها رغم عدم توافر الصفات التى تجعله جديراً بالعرش الملكى ، وترفض أشخاصا يمتازون بالمقدرة والحنكة السياسية ، مما عرض الملكية للفوضى ، وقضى على هيبتها ، وكثرت بالتالى المشاحنات بين الطامعين والطالبين للعرش[٥] . ومن الطبيعى أن تتدخل المحكمة العليا التى تفصل فى كل مايتعلق بالتنازل من مشكلات إذا حدثت - وجرى ذلك فعلا - مشكلة ترتبط بوراثة الحكم فى المملكة ، وبذلك صار للبارونات الحق فى الفصل بين سائر المتنازعين على الحكم ، كما صار لهم الحق كذلك فى أن يوافقوا رسمياً على كل

---

(١) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٧ .

(2) Rey (E.) , “Les Seigneurs De Beirut”, R.O.L., IV, (1896), P. 13.

(3) William of Tyre, II, P. 38 .

(٤) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٥٣٥ .

(٥) كلارى ، فتح القسطنطينية ، ص ٧١ - ٧٢ .

من يلى الحكم من الورثة(١).

ومع ذلك لا يمكننا أن نأخذ بالرأى القائل بأن الصليبيين أقاموا فى فلسطين ، فى القرن الثانى عشر الميلادى ، دولة إقطاعية مثالية ذات طبقة قوية من النبلاء وحكومة ملكية ضعيفة . وإن كان هذا الرأى يلقى تأييدا من معظم المؤرخين . ومن أنصار هذا الرأى المؤرخ الأمريكى سيدنى بينتر Painter الذى يرى أن ملك بيت المقدس لم يتمتع بأى سلطات ، ما عدا تلك التى خولها له العرف الإقطاعى باعتباره سيدا إقطاعيا أعلى (٢) . وفى مجموعة كمبردج يقول المؤرخ الإنجليزى كنجسفورد : أن الملك ظل مكبلا دائما بالقيود التى فرضها عليه البارونات منذ البداية(٣) . ويرى بروك أن الملك انتخب بوصفه الأول بين أقرانه Primus Inter Pares وليس سيدا مسيطرا(٤) . ويستطرد صاحب هذا الرأى قائلا : وحتى فى مملكة بيت المقدس ، فإن الملك لم تكن له سلطة الملك الحقيقية ، لأن المملكة قامت على أساس دولة إقطاعية بارونية ضخمة على النمط الفرنسى (٥) . وفى هذا الشأن يقول وليم لانجر : أن حكومة بيت المقدس كانت إقطاعية بأدق ما لهذا اللفظ من معنى ، إذ غدا الملك سيدا إقطاعيا لا ملكا ، وسيطر كبار الإقطاعيين على المملكة سيطرة تامة(٦). أما باركر فيقول : إن ملك بيت المقدس لم يكن له من حقوق السلطان مثلما كان لملوك النورمان بإنجلترا من الحقوق التى ورثوها عن أسلافهم الإنجليز السكسون، أو ما كان لملوك كابيه فى فرنسا من الحقوق التى ورثوها عن الكارولنجيين ؛ ولذا لم يكن فى استطاعة ملك بيت المقدس أن يكون له بمقتضى حقوق السيادة من الاتصال المباشر برعاياه مثلما كان لوليم الأول بمقتضى يمين سالسبورى(١٠٨٦م)(٧) .

(١) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٨ .

(2) Painter, Middle Ages, P. 208 .

(3) C.M.H., V, P. 303 .

(4) Brooke, A History of Europe; 911 - 1198 (2nd ed ., London, 1947), P. 317 .

(5) Brook, Op. Cit., P. 317 .

(٦) وليم لانجر ، موسوعة تاريخ العالم ، (أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٩) ، ج٢ ص ٧٠٠ .

(٧) باركر ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

وإذا كانت الأرستقراطية فى بيت المقدس قد تفوقت على الملكية ، فإن السبب فى ذلك على حد تعليل باركر راجع إلى أن الاستقراطية هى التى استقرت أولا فى بيت المقدس ، ثم جاءت بعد ذلك الملكية . وقد أورد باركر مقارنة بين الملكية النورمانية فى إنجلترا والملكية فى بيت المقدس ، وكيف أن وليم الفاتح هو الذى قام بضم البلاد أولا ثم قام بتوزيع الإقطاعات على اتباعه ، وهذا حق ، ومن هنا كانت السيدة للملكية فى إنجلترا . وأما العكس فهو الذى حدث فى بيت المقدس ، مما أدى إلى أن تكون السيادة للطبقة الأرستقراطية فى بيت المقدس لا للملكية(١).

وهناك بطبيعة الحال وجهات نظر وردود تعارض هذا الرأى . ومن أنصار هذا الاتجاه المؤرخ الألمانى ماير الذى يرى أن هذا الرأى استمد من النظرية القانونية والعرف السائد فى القرن الثالث عشر (٢) . وفى رأى ماير فضلا عن ذلك فإن تطبيق النظام الإقطاعى فى فلسطين قد سار ببطء فى الأيام الأولى من استقرار الصليبيين فى بيت المقدس . وفى هذه الفترة كان لملك بيت المقدس اليد العليا فى كل شيء ، وإن لم يكن بطبيعة الحال ملكا استبداديا(٣) .

ويرى براور أن النظام الإقطاعى الذى أقامه الصليبيون فى فلسطين لم يؤد مباشرة إلى حدوث أى ضعف ملحوظ للسلطة المركزية ، فقد كان الاعتماد على الحاكم ومكانته باعتباره قائدا أعلى للجيوش كبيرا بدرجة كبحت الاتجاهات المتباعدة عن مركز الحكم الرئيسى، وهى اتجاهات متوارثة فى النظام الإقطاعى(٤) .

على أن هذه الآراء لا يمكن قبولها هكذا على علاتها أو التسليم بها دون مناقشة . وإن كنا فى الحقيقة نميل إلى الأخذ برأى كل من ماير وبراور . ويزيد اعتقادنا بذلك أن الفرسان الذين كانوا ينتمون إلى الأسرات الكبيرة بغرب أوروبا ، غادروا الأراضى المقدسة بعد الاستيلاء على القدس مباشرة . أما الفرسان الذين قرروا الاستيطان فى فلسطين فلم يكونوا ينتمون إلى تلك الأسرات ، وإنما كانوا فى الغالب من الفرسان الأدنى فى مراتبهم عن بيوتات السادة الإقطاعيين . والواضح

---

(١) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٧ .

(2) Mayer, The Crusades, P. 155 .

(3) Ibid .

(٤) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٨ .

أن معظم هؤلاء الفرسان ينتمون إما إلى أتباع بيت بوايون فى الغرب ، وإما أنهم دخلوا فى خدمة هذه الأسرة أثناء الحملة الصليبية الأولى (١) . وقد سهل هذا من مهمة الحكم ، إذ لم يكن ملك بيت المقدس يجابه أى معارضة قوية من النبلاء خلال الجيل الأول من قيام المملكة (٢) .

ثم أخذت هذه النواة الصغيرة من الفرسان فى النمو وازداد عددها بكثرة من قدم من المهاجرين . وليس معروفًا على وجه الدقة عدد هذه الفئة الجديدة من المهاجرين ، على أنه من الراجح أن عدداً غير قليل من سادة الغرب قدموا إلى الشرق ، ولم يبق منهم بالبلاد إلا عدد قليل ؛ إذ عاد معظمهم إلى أوطانهم بعد تأدية فريضة الحج ، وبعد أن قاموا بعدة مناوشات ضد المسلمين . وقد حاول ملوك بيت المقدس ، أن يفيدوا من هؤلاء المهاجرين فى استكمال احتلال البلاد ، ولذا أبقوا فى خدمتهم بعض هؤلاء الفرسان على أنهم أتباع الملك(٣) .

ومع أن ملوك بيت المقدس كانوا يمنحون الإقطاعات والضياع والقرى لأتباعهم عادة ، لكى يضمنوا لهؤلاء الأتباع دخلا يمكنهم من القيام بواجباتهم العسكرية ، ويساعدهم فى الوقت نفسه على أن يحيوا حياة تتناسب مع مكانتهم الجديدة فى المجتمع . إلا أن هذه الإقطاعات كانت فى الحقيقة قليلة فى بادىء الأمر؛ إذ لم يكن ممكنا ضمان ولاء الأتباع الإقطاعيين إما عن طريق إقطاعات الأراضى، وإما من خلال الدخل الذى كان يتيحه النظام المالى المتطور فى الشرق الأدنى . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن تردد ملوك بيت المقدس فى خلق قوى إقطاعية منافسة قد أدى فى الواقع إلى الحد من توزيع الإقطاعات . وكانت أولى الإقطاعات هى الأملاك الأميرية التى كانت تشتمل على الأراضى المحتلة حديثا ، وإن كانت الإقطاعات قد برزت أخيرا إلى الوجود ، كما قامت الملكيات التى ارتبطت بالأسر المحلية الحاكمة(٤) .

---

(١) السيد الباز العرينى ، **«نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس ، فى القرن الثانى عشر الميلادى»** ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مج ٢٠ ، العدد الثانى ، ديسمبر ١٩٥٨، ص ٣٨ .

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٩ .

(٣) العرينى ، المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٤) براور ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

وهكذا فضل ملوك بيت المقدس فى بداية الأمر أن يحتفظوا بالأرض تحت إشرافهم الخاص ، واستطاعوا أن يسيطروا على النبلاء والفرسان عن طريق المقاطعات النقدية Fief de Soudee[١] ، وكان هذا يعنى أن النبيل أو الفارس قد منح دخلا ماليا محددا مما يجرى تحصيله من بعض المدن والبلاد والموانى والأسواق من ضرائب ورسوم[٢] ، وفى مقابل ذلك عليه أن يقدم جنوداً عندما يحتاجهم الملك. وهذا النوع من الإقطاعات كان أكثر شيوعًا فى مدن مملكة بيت المقدس الساحلية لا فى داخل البلاد . ويبدو أن توافر الموارد الاقتصادية فى تلك المدن قد ساعد على ظهور نظام الإقطاع النقدى بها . ومع ذلك فقد ظهر هذا النظام فى بعض المدن الداخلية التى نشطت فيها الحركة التجارية ، نذكر منها على سبيل المثال طبرية فى إقليم الجليل ، ونابلس فى السامرة .. ولم تكن تلك المدن من ممتلكات المقطع ، بيد أنه يستطيع أن يأخذ جزءاً من ضرائبها .

---

(1) Keer , The Crusades , P. 36 .

(٢) من أمثلة ذلك أن الملك فولك منح سنة ١١٣٦م الجالية المارسيلية ٤٠٠ بيزنط مما يتحصل من المكوس فى يافا ، وجعلت الملكة مليسند لطائفة الاسبتارية سنة ١١٣٩م جانبا مما ينتج من الزيت بنابلس ، وصدق بلدوين الثالث فى سنة ١١٦٠م على وثيقة حصل بمقتضاها رينو فالكوناريوس Renaud Falconarius على خمس أرباح العسل المستخرج من القصب الذى ينبت على ضفتى أحد الأنهار بالقرب من عكا . وبذل بلدوين الرابع إقطاعات نقدية عديدة . ففى سنة ١١٧٨م منح بطرس كرسك Peter de Cresque ثلاثين قنطارا من النبيذ المستخرج من كروم بيت لحم والرملة ، وفى مارس سنة ١١٨٣م جعل لجوسلين كورتنيه Joscelin de Courtney ألف بيزنط من مكوس عكا . وتضمنت منحة بلدوين لجوسلين فى نوفمبر سنة ١١٨٣م أموراً لها أهميتها ودلالتها ؛ إذ جعل لجوسلين خراجا قدره ١٠٠٠ بيزنط من المكوس المتحصلة من عكا والتى يمتلك منفعتها فيليب روفوس Philip Rufus مدى الحياة، فأضحى لجوسلين هذا الحق حتى يدفع له ما إقترضه منه من مال ، وقدره ٢٠٠٠ بيزنط بضمان هذا الخراج ، كما أصبح من المقرر أن يؤدى جوسلين الخدمة المفروضة على هذا الخراج ، والتى كان يؤديها فيليب من قبل وتقدر بفارسين ، فإذا مات فيليب قبل أن يؤدى ماعليه من دين ، أخذ جوسلين من الملك ما له من مال على فيليب وتنازل للملك عن الرسوم والمكوس المتحصلة من عكا ؛ لأن خراج عكا كان إقطاعا لفيليب مدى الحياة . انظر :

La Monte, Feudal Monarchy, PP. 144 - 140 .

وهذه الإقطاعات النقدية يجوز منحها مدى الحياة ، ويصح توارثها ويكاد يكون مستحيلا على الملك أن يلغيها . وكان كل ما يأمله الملك ، مثلما يحدث في إقطاعات الأرض ، هو أن يموت المقطع دون أن يترك ورثة ، أو على الأقل لم يترك سوى ابنة ، إذ كان للملك الحق في هذه الحالة أن يختار لها زوجاً ، أو أن يصر على أن يقع الاختيار على واحد من بين ثلاثة يرشحهم للزواج منها(١). وفي الحقيقة أن هذه الإقطاعات كانت تكفل لهم العيش بالكاد ، وبذلك كان اعتمادهم على الملك اعتمادا كبيرا جدا(٢) .

وعلى الرغم من أن طبقة أرستقراطية تكونت تدريجيا في مملكة بيت المقدس خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن الثاني عشر ، إلا أن هذه الطبقات ظلت غير قادرة على الاستقرار في الإقطاعات **العامة** في المملكة ، لأن الملك كان يستطيع أن ينقل ملكية الأراضي من عائلة إلى أخرى في أي وقت(٣) . ويحدث أحيانا أن ينشأ التغيير في السادة المقطعين ، نتيجة لما يقع من منازعات مع الملك ، مثلما حدث لسيد يافا هيو الثاني **Hugues II** من أسرة بويزيه **Puiset** وسيد منتريال رومانوس **Romanus** من أسرة بوي Puy(٤) .

على أنه جرى في بعض الأحوال أن اشتد رسوخ واستقرار بعض الأسرات في مدينة من المدن ، مثال ذلك أسرة جونيه **Gaunier** ، التي ظهرت حوالي سنة ١١٠٨م ، استقرت في قيسارية وصيدا ، واستمرت بها نحو مائة وخمسين عاما دون أن تنقرض سلالتها(٥) . وكذلك أسرة بريسبار **Brisebare** التي استطاعت أن تستقر في بيروت في بداية الربع الأخير من القرن الثاني عشر(٦) .

ويمكن أن تكون الحروب ، وما أدت إليه من القتل والأسر من أسباب هذا التغيير ، كما لا ينبغي أن نغفل عامل الهجرة المستمر إلى أوروبا .

---

(1) Runciman , A History of the Crusades , II. P. 298 .

(2) Keer, The Crusades , PP. 36-37 .

(3) Mayer , The Crusades , P. 155.

(4) Rey (E.), **"Les Seigneurs de Mont - Real de la Terre d'Outre le Jourdain"**, R.O.L., Iv, (Paris, 1896), P. 19 .

(5) La Monte, **"The Lords of Sidon"**, Byzantion, XVII, (1944-1945).

(6) Rey (E.), "Les Seigneurs de Beirut" R.O.L., Iv, (Paris, 1896), P. 13.

وفى بداية النصف الثانى من القرن الثانى عشر كان ملك بيت المقدس لايزال يمارس السلطان القضائى فى كل مكان من المملكة . فكان له سلطة النظر فى الدعاوى والفصل فيها . ووفقا لأحد القوانين الصادرة عن الملك بلدوين (Establisecement dou roi Baulduin) كان من حق الملك أن يصادر أى إقطاع دون دعوى قضائية ، وذلك فى اثنتى عشرة حالة عرفت بدقة . وهذا يخالف بشدة من كان سائدا فى الغرب الأوروبى آن ذاك. وهذا القانون لايشمل الجرائم الإقطاعية فقط ، وإنما الجرائم ضد الدولة كذلك ، وهى الجرائم التى تؤدى إلى حرمان الملك من الدخل الحكومى ، مثل جرائم تزييف النقود أو سك العملة ، وانتهاك حرمة الميناء ، وحقوق الطريق العام . واحتوت القائمة كذلك على الجرائم المعتادة ضد السلطة مثل الخيانة العظمى والارتداد عن العقيدة وماشابه ذلك(١) .

كذلك خضعت طوائف الرهبان الفرسان لسلطة الملك ، بسبب ضعف تلك الطوائف كقوة إقطاعية عسكرية من ناحية ، ونتيجة قوة الملكية فى هذه الفترة من ناحية أخرى (٢) .

وفضلا عن ذلك كان للملك وحده حق عقد المعاهدات مع المدن البحرية الإيطالية ، والدولة البيزنطية ، وكذلك مع المسلمين . أضف إلى ذلك حق ضرب العملة وفرض الرسوم الجمركية . وحتى نهاية القرن الثانى عشر استمر الملك فى تعيين بطريرك بيت المقدس (٣) .

ولما كانت مراسم تتويج ملك بيت المقدس قد تمت على أيدى دامبرت ، وهو مندوب البابا الذى كان يعتبر نفسه خليفة بطرس ، أى نائبا للمسيح على

(1) Mayer , The Crusades , P. 155.

(٢) عندما قامت طائفة الداوية بتسليم قلعة **Lagrotte** لأسد الدين شيركوه سنة ١١٦٧م، أمر الملك أمارى الأول بإعدام اثني عشر من فرسان هذه الطائفة بتهمة الإهمال فى الدفاع عن تلك القلعة ، انظر : **Michaud, Histoire des Croisades,** II, P. 261. وعندما قتل أحد أفراد الداوية رسول الباطنية عام ١١٧٣ م ، ألقى أمارى الأول القبض على القاتل وزج به فى السجن رغم معارضة مقدم الداوية الذى أراد محاكمة القاتل بنفسه أو إرساله إلى روما ليحاكم هناك ، انظر :

William of Tyre, II, P. 394.

(3) Mayer, Loc., Cit.

الأرض[١]، فقد أضحت للملك مكانة وكرامة ، فإلحاق الأذى به يعتبر خيانة عظمى [٢] فكانت أى مخالفة أو عصيان لأوامره يعاقب صاحبها بالإعدام . كما اعتبر القدح فى أعمال الملوك وتصرفاتهم عملا هو أقرب مايكون إلى التجديف فى المقدسات والمروق عن جادة الدين . ومع ذلك لانعتقد أن مفهوم الصليبيين عن السلطة الملكية فى بيت المقدس كان على نمط المفهوم الذى كان سائدا فى الدولة البيزنطية ، ونقصد بذلك نظرية «**القيصرية البابوية**» Caesaropapism ، التى أصبح الإمبراطور البيزنطى بمقتضاها وبحكم منصبه الأسقف الأعلى [٣] ، وهى النظرية التى تأثرت فيما بعد بمفهوم الدولة المقدسة الذى ساد الحياة السياسية فى الشرق القديم . وكان كبار النبلاء فى المملكة يملكون إقطاعاتهم بفضل من الله وعنايته ثم بفضل من الملك وكرمه ، ولكن الملك كان يستمد سلطانه مباشرة من الله . وهذا فى اعتقادنا قد يعبر عن اعتناق ملوك الصليبيين لما يعرف بنظرية الحق الملكى المقدس ، وهى النظرية التى كانت سائدة فى عهد آل ساسان والتى سادت أوروبا بعد ذلك فى العصر الحديث .

ويعتبر الملك القائد الأعلى للجيوش فى زمن الحروب وباذل العطاء زمن

---

(١) «ولما جاء يسوع إلى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلا من يقول الناس أنى أنا ابن الإنسان ، فقالوا : قوم يوحنا المعمدان وآخرون إيليا وآخرون أرميا أو واحد من الأنبياء . قال لهم وأنتم تقولون إنى أنا . فأجاب سمعان بطرس وقالت أنت هو المسيح ابن الله الحى . فأجاب يسوع وقال له طوبى لك ياسمعان بن يونا أن لحما ودما لم يعلن لك لكن أبى الذى فى السموات . وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات . فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات . وكل ماتحله على الأرض يكون محلولا فى السموات» ، انظر : إنجيل متى ١٦ ، ١٣ - ١٩ .

(2) Runsiman, A History of The Crusades, II. P. 300 .

(٣) لمزيد من التفاصيل عن مركز الإمبراطور البيزنطى ، راجع : هسى (ج.م) ، العالم البيزنطى (ترجمة وتقديم وتعليق رأفت عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٧٧) ، ص ٢٣١ - ص ٢٥٢ . وعن القيصرية البابوية انظر : رأفت عبد الحميد ، «**السمو البابوى بين النظرية والتطبيق**» ، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، مج ٣ ، سنة ١٩٨٥ م ، ص ١٥٨- ١٦٥ .

السلام(١) . ولم يتسرب الضعف لسلطته في وقت من الأوقات ، إذ ملك الموانى الكبيرة وحصل من التجارة على رسوم وضرائب وفيرة ، فضلا عما تحصل له من خراج على الأرض الشاسعة التى يمتلكها فصار الملك يتحكم في الأرض والموارد ، فضلا عن الإقطاعات التى كانت تؤول إليه عادة عند انقراض كل أسرة إقطاعية . يضاف إلى ذلك أن ما له من حق الوصاية الإقطاعية على أرباب الإقطاعات أثناء حداثتهم ، ولاسيما رعاية الأرامل ، هيأ له من الوسائل ما يكفل الإنفاق على الأتباع، مقابل الحصول على خدماتهم ، وما كان للسيدات الشريفات، من الحرية فى اختيار أزواج لهن ، وهى القاعدة التى جرت بعد احتلال فلسطين مباشرة ، لم تلبث أن تغيرت وحل مكانها القاعدة التى بمقتضاها صار الملك يفرض على الأرامل الزواج بمن يرشحه لهن من الفرسان(٢) .

وبالإضافة إلى ذلك تولى ملك القدس رئاسة ماتعرف باسم المحكمة العليا **Haute Court**(٣) ، وفى حالة غيابه كان واحد من كبار الموظفين ينوب عنه فى رئاستها(٤) . وعلى الرغم من أن هذه المحكمة كانت تضاهى فى تكوينها المجلس الملكى **Curia Regis** ، إلا أنها كانت مجلسا للأتباع **Curia Baronum**(٥) ، تحققت فيها نظرية محكمة الأقران **Judicum Parium** ، فإذا تولى الملك رئاسة المحكمة، فإن ماتهدف إليه المحكمة لم يكن سوى المحافظة على حقوق النبلاء لا اتساع حقوق الملك ، كما هو حادث فى إنجلترا(٦) .

وفى المحكمة العليا كان الملك يقابل كبار الإقطاعيين الذين تلقوا إقطاعاتهم منه مباشرة(٧) . وكانت المحكمة العليا شأنها شأن أى محكمة أخرى فى أوروبا

(١) على سبيل المثال انظر :

A.O.L., I., P. 410-11, 123, 124, 128, 130, 135, 140, 144, 145 .

وانظر كذلك :

Kohler, "Charte de L'Abbaye de Noter Dam", R.O.L., VIII, PP. 112-114, 116, 118, 128 .

(٢) العرينى ، «**نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين**» ، ص ٤٤ .

(3) Runciman , A History of the Crusades , II. P. 300 .

(4) Archer, The Crusades, P. 125 .

(5) Brooke, A History of Europe, P. 317.

(٦) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٣ .

(7) Prawer, Latin Kingdom, P. 114 .

محكمة قانونية فى المقام الأول، مهمتها إرساء العدالة بين الملك ومعالجة المشاكل الخاصة بإقطاعاتهم وبراءات الملكية . والأهم من ذلك أن هذه المحكمة كانت هى المجلس الأعلى للحكم . ومع أنها مجلس استشارى أصلا ، فقد تحولت تدريجيا لتصبح العامل السياسى الحاسم في المملكة . وعلى الرغم من أن الملك كان يستطيع اختيار موضوع المناقشة ، فإن أمور السياسة الخارجية ، وإعلان الحرب والسلام ، وإصدار أوامر التعبئة ، وفرض الضرائب الاستثنائية ، كانت كلها أمورا خاضعة لمداولة المحكمة(١) . ومع هذا يمكن القول بأن رأى الملك كان حاسما طالما كانت قوته كبيرة(٢) .

ولم يقتصر نفوذ ملك بيت المقدس على حدود فلسطين بل تعداها إلى الكيانات الصليبية الأخرى فى الشرق ، ونقصد بها الرها وإنطاكية وطرابلس . فقد أدعى الملك لنفسه السيادة على سائر تلك الكيانات ، على اعتبار أن المسيح - عليه السلام - قد رسمه ملكاً عليها(٣) . والحقيقة أنه على الرغم مما أدعاه كل واحد من أمراء تلك الكيانات من إستقلال وسيادة إلا أن المملكة تمتعت بلا شك بأولوية ظاهرة ، بحكم أوضاعها الدينية والتاريخية ، ويكفى أن النصارى جميعاً نظروا إليها على أنها مدينة المسيح - عليه السلام - وبها كنيسة القيامة ، مما جعلها مقصد الحجاج من جميع أنحاء العالم النصرانى (٤) . وقد أدى ذلك إلى أن يكون لملوكها نوع من الأفضلية والامتياز ، بل وزعامة بقية الكيانات الصليبية فى الشرق باعتبارها إقطاعيات تابعة للملكة(٥) .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس ، كانوا يدينون من الناحية النظرية بالولاء والطاعة لملك بيت المقدس بصفته سيدهم الإقطاعى

(١) يذكر ابن منقذ (ص ٦٥) أن الفرسان كانوا يعتزلون مجلس الملك ، ليتشاوروا فى الموضوع فيما بينهم ، وعندما يتفقون على قرار واحد يعودون إلى مجلس الملك ، ويبلغونه بالقرار . وهنا يأمر الملك بتنفيذ ما أشار به الفرسان ، ويعلق ابن منقذ على ذلك بقوله : **«وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان مايقدر ، ولا أحد من مقدمى الإفرنج أن يغيره ولاينقضه»** . والسبب فى ذلك يعود كما يرى ابن منقذ إلى أن لـ **«فارس أمراً عظيماً عندهم»**.

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

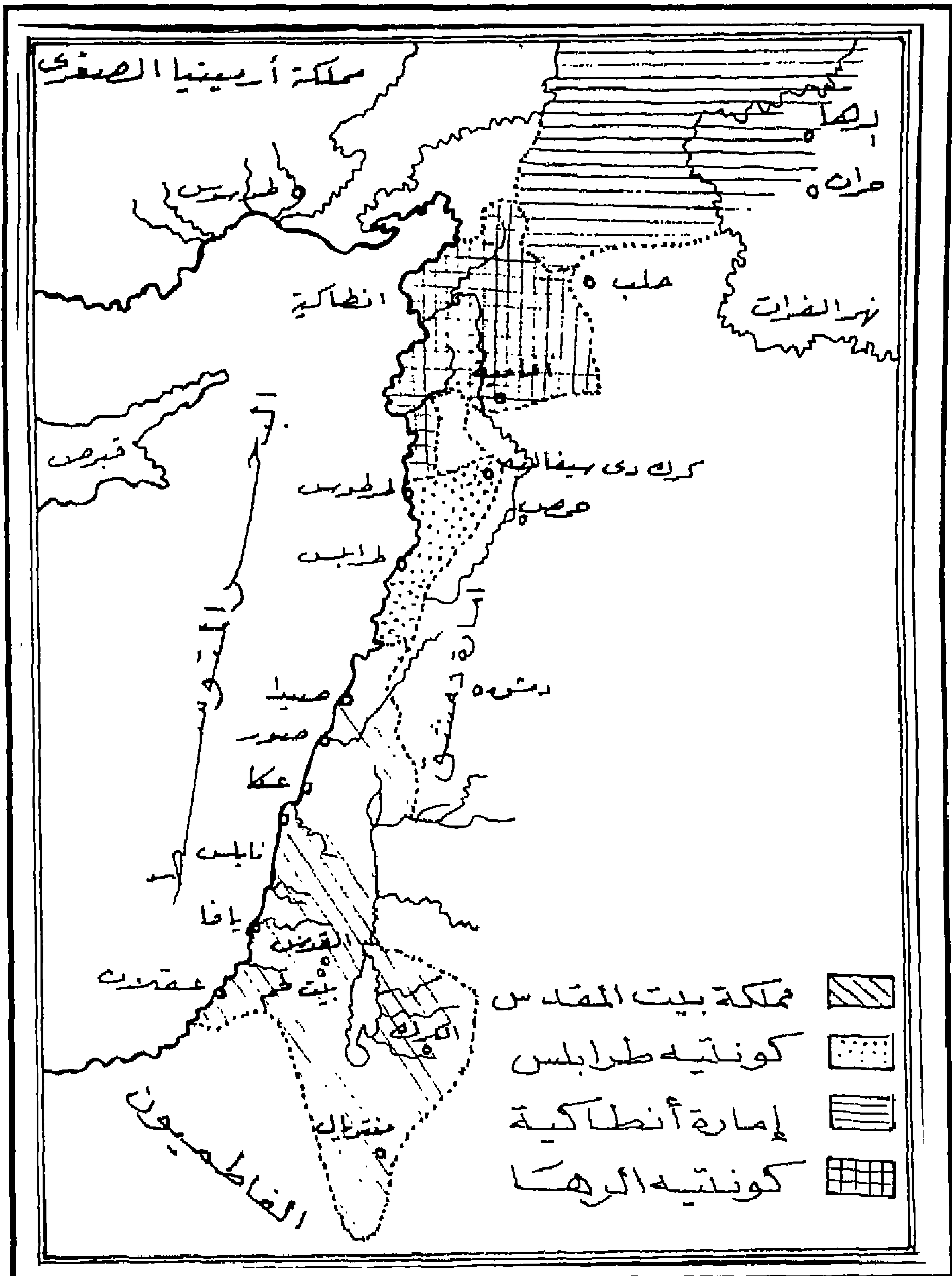
(3) Runciman , A History of the Crusades , I. P. 299 .

(٤) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٤٧٨ .

(٥) نيقولا زيادة ، الرحالة ، ص ١٨ .

الكيانات الصليبية في بلاد الشام خلال القرن الثاني عشر الميلادي نقلاً عن :

Atlas of World History, published by Hammond incoporated, U.S.A (1980) p. 13



الأعلى[١] . وعلى هذا كان على الملك أن يقدم لها الحماية والرعاية إذا تعرضوا لأى هجوم من جانب المسلمين أو تمرد عليهم أتباعهم[٢] . ومن أمثلة ذلك أن الملك بلدوين الأول بادر إلى معاونة بلدوين كونت الرها فى صد هجمات الأتراك فى سنة ١١١٠م ، ولم يتردد تنكرد أمير أنطاكية فى طلب النجدة من الملك بلدوين الثانى، عندما اشتد عليه ضغط اليغازى سنة ١١١٩م[٣] .

وبالإضافة إلى ذلك تولى بلدوين الثانى الوصاية مرتين فى أنطاكية سنة ١١١٩م ، ١١٣٠م [٤] ، وتولى فولك الوصاية على كونستانز بعد وفاة أبيها بوهيموند الثانى [٥] ، وإن كان ملوك بيت المقدس اعتبروا حق الوصاية هذا عبئا ثقيلا لا امتيازاً كبيرا [٦] .

وما جرى من المنازعات على طرابلس بين وليم جوردان ابن أخى ريمون الصنجيلى وخليفته فى الحكم ، وبين برترام الابن الأكبر لريمون أدى إلى أن يتدخل بلدوين الأول ملك القدس لتسوية هذه المنازعات[٧] . ومن المعروف أن الاستيلاء على طرابلس لم يتم إلا بمساعدة الملك [٨] ، وبذلك خضعت كونتيسة طرابلس منذ زمن مبكر لتأثير مملكة بيت المقدس ونفوذها .

كما اضطر ملك القدس إلى التدخل لحل الخلافات بين أمراء الكيانات الصليبية فى الشرق ، مثل الخلاف الذى وقع فى سنة ١١٠٩ م بين برترام كونت طرابلس ، وتنكرد أمير أنطاكية[٩] . وفى العام التالى (١١١٠م) تدخل الملك أيضا

(1) C.M.H., V, P. 302 .

(2) Ganshof, Feudalism, P. 94 .

(3) C.M.H., Loc. Cit.

(٤) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٦ .

(5) Runsiman, A History of The Crusades, II. P. 305 .

(6) C.M.H., Loc. Cit.

(7) Stevenson , The Crusaders, P. 57 .

(٨) عن هذا الموضوع ، انظر :
William of Tyre, I, P. 477; Grousset, Histoire des Croisades, I. P. 358.
وانظر كذلك : أبو المحاسن ، النجوم الزهراء ، جـ ٥ ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ، ابن الأثير، الكامل، جـ ٨ ص ص ٢٥٨ - ٢٥٩ . .

(9) C.M.H., Loc. Cit.

ليحل الخلاف الذى نشب بين أنطاكية والرها(١) .

وعلى ذلك نعتقد أننا لا نبالغ إذا قلنا إن ملوك بيت المقدس كانت لهم اليد العليا فى كل مكان من المملكة خلال الجيل الأول من قيامها فى فلسطين ، كما أن نفوذ هؤلاء الملوك امتد ، كما سبق أن ذكرنا ، إلى سائر الكيانات الصليبية الأخرى فى الشرق .

غير أن الأحداث التي وقعت بعد ذلك أدت فى الحقيقة إلى ازدياد اعتماد الملك على اتباعه ، وهو الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ضعف الحكومة الملكية أمام طبقة الفرسان والنبلاء التى كانت تزداد قوة ونفوذا بمرور الوقت . ويمكن أن نلاحظ نمو قوة هذه الطبقة خلال فترة الانتقال بين قوة السلطة الملكية وتداعيها ، وهى الفترة الممتدة ما بين سنتى ١١٣٠م ، ١١٦٠م(٢) . ففى بداية هذه الفترة نستطيع أن نلمح أولى علامات المقاومة ضد السلطة الملكية ، ذلك أنه حدث عقب تولية فولك العرش ، أن نشبت ثورتان كبيرتان : ثورة هيو دى بويزيه **Hugues du Puiset** كونت يافا ، وثورة رومانوس دى لى بوى **Romanus de le Puy** أمير الأردن(٣) .

وكذلك حدث فى تلك الفترة أن رسخت أقدام الأسرات الأرستقراطية فى إقطاعاتها ، ولم يكن ذلك معروفا فى المرحلة السابقة ، إذ أضحى توارث هذه الإقطاعات منتظما وثابتا إلى حد ما ، فصارت أنساب تلك الأسرات معروفة ومتصلة . ويعتبر هذا دليلا على استقرار الأسرات الأرستقراطية فى إقطاعاتها ، فلم يحدث أن انتقل اقطاع كبير إلى ضياع الملك ، غير أن ماجرى عوضاً عن ذلك أن انتقل الاقطاع إلى أسرة تمت بصلة القرابة إلى الأسرة صاحبة الإقطاع ، عند اختفاء وريث من الذكور ، أو فى حالة الزواج(٤) .

أضف إلى ذلك أن عدد الأسرات الأرستقراطية قد إزداد بفضل إنشاء إقطاعات جديدة فى فلسطين . وبذا ضاقت على طبقة الفرسان رقعة الأرض والاستقلال . ولإقرار الفرسان بهذه الأرض لابد من توفير أسباب المعيشة لهم ،

---

(١) ابن القلانسى ، ص ١٦٢ .

(2) Mayer, The Crusades, P. 155.

(3) William of Tyre, II, PP. 70 - 71 .

(٤) العرينى ، «**نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين**» ، ص ٤٦ .

وتوافرت هذه الأسباب بإعطاء الفرسان أجزاء كثيرة من الضياع الملكية . على أن هذا الإجراء توقف زمن أمارى الأول . ولما أضحى من العسير على القادمين الجدد أن يجدوا لأنفسهم موضعًا فى النظام الإقطاعى ، فلم يكن لدى الملك من وسيلة لإلحاق هؤلاء المستجدين بطبقة النبلاء إلا أن يوزع عليهم أجزاء من ضياعه الخاصة ، برغم ضيق رقعتها . وأحرز الملك فى بعض الحالات قدرا من النجاح فى تدبير أملاك إضافية . هذه التجزئة التى أصابت ضياع الملك ، دلت على ما تعرضت له الملكية من الضعف ، فلم تستطع أن توطد مركزها إزاء كبار السادة إلا بالحصول على أتباع جدد ، وهو أمر لا سبيل إلى تحقيقه إلا بالمضى فى تقسيم الضياع الملكية وتجزئتها ، وما اتخذه الملك من إجراءات لم تؤد إلا إلى زيادة ضعف الملكية (١) .

وقد حاول الملك أمارى الأول بمقتضي قانون التبعية **Assise Sur La Ligece** (حوالى ١١٦٢م) أن يحكم سيطرته على أتباع أتباعه، فأعطى لكل تابع من هؤلاء الأتباع الحق فى أن يلجأ إلى الملك باعتباره السيد الأعلى عند تجريده من إقطاعه دون الرجوع إلى محكمة البارون وموافقتها ، ويطلب منه أن يلزم سيده المباشر ، بأن ينصفه ، أو يقر الحكم الذى أصدرته المحكمة ، فإذا رفض السيد الإقطاعى المثول أمام المحكمة العليا ، وأعلن عصيانه ، صار لأتباعه الحق فى أن يجعلوا أنفسهم فى خدمة الملك . وبالإضافة إلى ذلك أعلن الملك ، بموافقة المحكمة العليا أن على كل ملاك الإقطاعات سواء أكانوا من كبار الإقطاعيين أم من أتباع الأتباع أن يؤدوا يمين الطاعة والولاء إلى الملك ، وأن يدينوا بالالتزام المباشر إليه(٢) . وبناء على ذلك فإنه فى حالة عصيان البارون للملك وامتناعه عن خدمته، كان من واجب أتباع الأتباع فى هذه الحالة أن يقنعوا البارون بضرورة طاعة الملك ، وإن لم يفعل ذلك كان عليهم التخلى عن سيدهم المباشر والانضمام إلى جانب الملك وضد البارون (٣).

ويبدو أن أمارى الأول حاول بذلك القانون أن يرفع من شأن أتباع الأتباع

---

(١) العرينى ، «**نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين**» ، ص ٤٧ .

(2) Riley-Smith (J.) The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, 1174-1277, (London, 1973, P. 13) .

(3) Painter, Middle Ages, P. 208 .

ليكونوا على مستوى النظراء لجماعة البارونات ، وكان يهدف من وراء ذلك أن يحظى بتأييد هؤلاء الأتباع ضد طبقة الفرسان والنبلاء ، بيد أن هذه المحاولة لم تلق إلا الفشل الذريع(١) ، لأنه صار لهؤلاء الأتباع الذين يتخلون عن سيدهم ، وينحازون للملك الحق فى أن يحصلوا على تعويض يساوى فى القيمة ما فقدوه من دخل على أن يؤدى لهم فى خلال أربعين يوماً ، فإذا لم يحصلوا على هذا التعويض جاز لهم أن يعودوا إلى سيدهم ، وبذلك يفقد الملك تأييدهم . والراجح أن الديوان فى المملكة كان دائماً خاوياً فى القرن الثالث عشر . ولذا كان عسيرا على الملك أن يخضع تابعه المتمرد فى خلال المدة المحددة ، ولم يعد فى إمكانه الاعتماد على تأييد أتباع الأتباع ومعونتهم(٢)، كما أن الاحتكام للقانون كان دائما ضد مصلحة الملك ، فإن أتباع الأتباع صاروا نظراء بالنسبة إلى الملك فقط . أما فى نطاق البارونية ، فقد ظلوا خاضعين لسلطة البارون . كما أن البارونات استغلوا قانون التبعية للتنصل من طاعتهم للملك ، طالما وجدوا سبباً قانونيا لمثل هذه الخطوة(٣) .

على أن واجبات الملك نحو مقطعيه وردت بوضوح فى قوانين بيت المقدس **Assises de Jeruslem** التى بنيت على أساس نوع من الاتفاق ، تم التوصل إليه بعد أن اختير جودفرى ليكون حامياً للقبر المقدس . ووفقا لهذا الاتفاق يلتزم الملك باحترام حقوق أتباعه والمحافظة عليها ، ولهذه الحقوق من الأهمية ما للواجبات المفروضة عليهم، فإذا أحس المقطعون بأن الملك لم يحافظ على الاتفاق الذى وافق عليه قبل ذلك، فلهم شرعا وقانونا الحق فى أن يرفضوا ما هو مطلوب منهم من خدمة عسكرية ، وأن يقوموا ضده بثورة تعتبر مشروعة ، وهو الحق الذى عرف فى ذلك العصر باسم **Diffidatio**(٤) .

غير أن قوانين مملكة بيت المقدس فطنت إلى ذلك فعينت تعيينا دقيقاً الحالات، التى يستطيع فيها التابع الإقطاعى قانونا أن ينكر واجبات تبعيته لسيده المباشر، على أن تنتقل هذه الواجبات منطقيا إلى السيد الأعلى للسيد الذى أوجبت

---

(1) Mayer, The Crusades, P. 119.

(٢) العرينى ، «**نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين**» ، ص ٦٠ .

(3) Mayer, Op. Cit. P. 150.

(4) Ganshof, Feudalism, (trans. By Philip Grierson, 3rd ed., Longman, 1970), P. 99 .

سوء معاملته عملية الإنكار (١) ، وقد استمد مبدأ الإنكارمن نظرية قانونية ، وهى أن للتابع الإقطاعى حقوقا واضحة المعالم إزاء سيده[٢] . وعلى أساس هذه النظرية القائلة بحق الإنكار فى حالة الإخلال بالعقد الإقطاعى كان للإقطاعيين فى مملكة بيت المقدس ، وهـم من الناحية الإقطـاعية أقران أسوياء لملوك بيت المقدس ، أن يرفضـوا الطاعة بل أن يقوموا بالعصيان والمقاومة فى حالة التعدى على حقوقهم[٣] .

ومن الحـالات المشهـورة ، ما جرى من التنازع بين فريدريش الثانى هوهنشتاوفن **Friedrick II Hohenstaufen** إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة (١٢١١-١٢٥٠م) ، وملك القدس (١٢٢٥ - ١٢٥٠م) ، وحنا ابلين **Jean d'Ibelin** سيد بيروت ، إذ إن الإمبراطور نزع من ابلين إقطاعه دون أن تجرى محاكمته ، وأيد حنا ابلين ملك قبرص وسائر بارونات مملكة قبرص وبيت المقدس، نظرا لأنه بمقتضى قانون من أهم قوانين المملكة لايجوز تجريد رجل حر من إقطاعه إلا بعد أن يصدر أسوياؤه الحكم ضده ، وإمتنع البارونات عن خدمة الإمبراطور ، وهذا الإجراء يتفق مع القانون[٤] .

وقد أدت حركة العصيان التى قادها حنا ابلين ضد فريدريش الثانى إلى قيام هيئة جديدة حلت محل المحكمة العليا ، واضطلعت بوظائفها لمدة تقرب من اثنى عشر عاماً ، وقد عرفت هذه الهيئة باسم قومون[٥] عكا ، وهو عبارة عن تنظيم

---

(١) كوبلاند وفينوجرادوف ، الإقطاع والعصور الوسطى ، ص ٦٨ .

(2) Ganshof, Feudalism, PP. 98 - 99 .

(٣) كوبلاند وفينوجرادوف ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٤) العرينى ، «**نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين**» ، ص ٥٩ .

(٥) هذا اللفظ ترجمة حرفية لكلمة Commune . وقد نشأت القومونات فى بداية الأمر فى شمال إيطاليا من ضعف النظام الإقطاعى وانهياره ، وهو ذلك النظام الذى دخل شمال إيطاليا وجزءا من وسطها على أيدى الفاتحين الفرنجة . وكان مما شجع على قيامها الازدياد التام فى الثروة ، وتقدم الصناعة ، وتجمع السكان فى مراكز معينة فى أثناء القرن الحادى عشر .. وقد بدأ القومون بتأليف اتحادات اختيارية ارتبط أعضاؤها بعضهم ببعض بيمين أقسموها . ويبدو أن غالبية هـذه الاتحـادات قد بدأت قبل نهاية القرن العاشر ، وإن=

اجتمع فيه ممثلون لكافة السكان فى مملكة بيت المقدس . وقد أختار أعضاء القومون القديس أندرو St. Andrew ليكون حاميا لهم . ولكى يضمن لنفسه تأييدا شعبياً قويا ، فإن قومون عكا فتح أبوابه أمام الفرسان والنبلاء والبورجوازيين(١) ، وقد

= تجلت واضحة فى القرن الحادى عشر . وكانت فى بداية أمرها صراعاً بين النبلاء والإقطاعيين وكبار أتباع الإمبراطورية ، ثم انضم التجار إلى هذا الصراع بعد ذلك شيئاً فشيئاً . وبعد أن تكونت هذه المنظمة تدريجياً من اتحاد جماعات من المواطنين ، ومن ورائها الجمعية العمومية تسندها وتشد من أزرها ، اجتذبت إليها مختلف الطبقات الاجتماعية التى فى المدينة ، ثم استولت شيئاً فشيئاً على السلطة وعلى التوجيه ،اللذين كانا حتى ذلك الوقت فى أيدى الكونت أو الأسقف . وكان نظام الحكم البدائى فى القومون يجرى فى الجملة على نمط واحد عام ، فكان على رأس هذا النظام القناصل ، ويليهم المجلس المعروف باسم كريدنزا Credenza ، ولما ازداد عدده فى القرن الثانى عشر انقسم إلى قسمين : المجلس الخاص ، والمجلس الأكبر للقومون وأخيرا يجىء عند نهاية الهرم ، الجمعية العمومية لسكان المدينة وتسمى الأرانجو Aringam أو البرلامنتو .

(١) كان لابد أن تظهر آثار الاستيطان الصليبى على المجتمع الفرنجى فى مملكة بيت المقدس. ففى العقد الثالث من القرن الثانى عشر ظهرت هناك طائفة من الرجال الأحرار الذين يعرفون فى المراجع التاريخية باسم البورجوازيين Bourgeoisie . على أنه من المناسب هنا أن نقول إن هذه الطائفة لاتناظر الطبقة البورجوازية فى وقتنا الحالى بأى شكل من الأشكال . ولا شك أنه كانت فى المدن طبقة اجتماعية بورجوازية بالمعنى الحديث - تألفت غالبيتها من السوريين النصارى ، غير أن مصطلح البورجوازية فى الكيانات الصليبية كان يعنى شيئاً مختلفًا تماماً . فقد كان يقصد بهذا المصطلح شريحة اجتماعية من الرجال الأحرار لاينتمون إلى النبلاء أو رجال الدين أو الأقنان . والراجح أن هذا المصطلح نقل من أوروبا ليستخدم فى المدن الصليبية بالشرق للدلالة على سكان مدن الغرب الذين استقروا فى الشرق . وينبغى هنا أن أشير إلى أن الطبقة البورجوازية لم تكن تضم بين صفوفها التجار الإيطاليين ، وتجار جنوب فرنسا ؛ لأن هؤلاء التجار كانوا ينتمون إلى جالياتهم الخاصة . وقد وصف أحد الفرنج أسامة بن منقذ بأنه رجل «برجاسى» ولعله يقصد بذلك كلمة بورجوازى، انظر :

Runciman, A History of the Crusades, II, P. 301; Mayer, the Crusades, P. 170;

وانظر أيضاً : ابن منقذ ، ص ١٤٠ ؛ براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٥٦ .

تعاهد الجميع على أن يتعاونوا فى الدفاع عن أنفسهم[١] .

غير أن هذه التجربة لم يقدر لها البقاء طويلاً ، فبعد اختفاء خطر الهوهنشتاوفن حل القومون ، واستعادت المحكمة العليا مركزها السابق[٢] . وإن كان هذا الحدث قد ترك آثارا ملموسة على النظم القضائية فى مملكة بيت المقدس فقد جرت محاولة لتغيير الإجراءات القضائية فى المحكمة العليا ، بعمل دليل كتابى لها. والراجح أن هذه المحاولة قد جرت فى أثناء إقامة الملك لويس التاسع فى الأراضى المقدسة ، وتم إقرارها فى مؤتمر عام ضم المحكمة العليا والمحكمة البورجوازية . ومع أن اقتراح الإصلاح هذا قد فشل ، إلا أن إجراءات المداولات العامة فى حد ذاتها لافتة للنظر . ومع أن المحكمتين العليا والبورجوازية لم تجتمعا بعد ذلك ، إلا أن جلسات المحكمة العليا تغيرت بطريقة فردية[٣] . وفى وقت مبكر من القرن الثانى عشر كان رؤساء الطوائف الدينية العسكرية يحضرون اجتماعات المحكمة العليا ، على الرغم من أنهم ليسوا أتباعا إقطاعيين للملك بالمعنى المعروف للكلمة . والراجح أن السبب الرئيسى لتمثيلهم فى المحكمة العليا يرجع إلى كونهم أكبر سند عسكرى للملكة . أما حضور رجال الدين فى المحكمة العليا ، فيمكن تفسيره على أنهم ملاك أراض، وإن كان ذلك يعكس فى الحقيقة مركزهم التقليدى فى المجتمع[٤] .

وقد انضم إلى تلك العناصر الجاليات الإيطالية التى كانت تتمتع باستقلال ذاتى ، ويمكن اعتبارهم مثل كبار الإقطاعيين فى المملكة ، إلا أن قوة أسطولهم وثروتهم ضمنت لهم مكانا مرموقاً فى المحكمة العليا . وهكذا كان للبنادقة والجنوية والبيازنة مندوبون يحضرون جلسات المحكمة العليا . وبعد منتصف القرن الثالث عشر لحق بهم رؤساء الجمعيات البرجوازية ، واشتركوا فى مداولات المحكمة العليا[٥] . وإن كانت هذه العناصر قد حضرت جلسات المحكمة بوصفهم مراقبين، أى لا يحق لهم التصويت على قراراتها[٦] .

---

(1) Prawer, Latin Kingdom, P. 116 .

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Ibid.

(5) Ibid .

(6) Runciman, A History of the Crusades, II, P. 300.

وهذا التغيير فى تشكيل المحكمة العليا صاحبه بلا شك ، تحول فى اختصاصاتها . وقد شاركت المحكمة العليا بفاعلية فى كل من سلطات الملك. أضف إلى ذلك أن المحكمة العليا بالتعاون مع كبار الموظفين فى مملكة بيت المقدس هى القناة الشرعية التى مارس من خلالها الملك اختصاصاته بوصفه زعيما رسميا للهرم الإقطاعى . وباعتبار الملك رئيسا للدولة ، وقائد للجيش فإنه كان يقرر أمور السياسة بما فيها العلاقات الدولية والمعاهدات ، وإعلان الحرب والسلام . وعلى الرغم من أن الملك كان يطلب نصيحة المحكمة ، إلا أن قراراته كانت مطلقة[١] .

بيد أن اختصاص المحكمة العليا فى النصف الأول من القرن الثانى عشر تجاوز إلى حد كبير وظيفة الهيئة الاستشارية . فقد قامت المحكمة العليا فى هذا القرن وأثناء القرن الثالث عشر بدور مهم فى شئون الوراثة الملكية والصراع القائم من حولها[٢] . فقد كان من حق أعضاء المحكمة العليا انتخاب الملك أو تعيين الوصى على الحكم[٣] . كما صار لهم الحق كذلك فى أن يوافقوا رسميا على كل من يلى الحكم من الورثة[٤] . وآية ذلك أن المحكمة العليا استدعت بلدوين الأول من الرها ليخلف أخاه جودفرى على الرغم من معارضة تنكرد والبطريرك دايمبرت . أضف إلى ذلك أن المحكمة العليا اختارت بلدوين دى بورج أمير الرها ليتولى عرش مملكة بيت المقدس باسم بلدوين الثانى بعد وفاة ملكها وابن عمه بلدوين الأول ، على الرغم من أن الأمير يوستاس البولونى **Eustace of Boulogne** شقيق بلدوين الأول كان لايزال على قيد الحياة[٥] .

ومع ذلك استطاع الملك المجذوم بلدوين الرابع[٦] فى عام ١١٧٦م ، أن

---

(1) Prawer, Latin Kingdom, P. 116.

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٣٢ .

(3) Mayer, The Crusades, P. 156 .

(٤) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٨ .

(٥) حول هذا الموضوع ، انظر :

William of Tyre, I, PP.529 - 521

(٦) أصيب بلدوين الرابع فى صغره بمرض الجذام مما أعطاه فى التاريخ لقب بلدوين المجذوب. عن ذلك انظر : **William of Tyre, II, P. 398** وكذلك **Jacques de Vitrys, P. 98.**

وأيضا ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١١ ، ص ١٨٤ ، وراجع أيضاً ابن الأثير ،=

يتجاهل اعتراضات البارونات فى المحكمة العليا ، وأن يوافق على زواج أخته الكبرى ووريثته الشرعية سيبيل Sibylla من وليم لونجسورد William Longsword ماركيز مونتفرات Montferrat(١)، الذى توفى العام التالى (١١٧٧م) وترك أرملته حاملاً فى طفل ، وهو الذى أصبح بلدوين الخامس فيما بعد . وقد وافق بلدوين الرابع على زوج أخته مرة أخرى فى عام ١١٨٠م من جاى لوزجنان Guy de Lusignan .

ولكن الوضع كان مختلفاً فى شئون الحرب والسلام والاتفاقات الدولية . ومع أن رأى الملك كان حاسما فى هذه الأمور ، إلا أن المصلحة العليا للبلاد تطلبت من الملك أن يتعاون مع الفرسان والنبلاء ، ويضع رأيهم موضع الاعتبار . وفى وقت الأزمات عملت المحكمة العليا بحيوية ، ففى الاتفاق الذى عقده جرموند بطريرك القدس مع البنادقة فى عام ١١٢٣م(٢) ، أثناء أسر بلدوين الثانى(٣)، تعهد البطريرك على أن يجبر الملك نفسه ، إذا أطلق سراحه على أن يلتزم بهذا الاتفاق كلية . وإذا لم يطلق سراح بلدوين الثانى وجاء ملك آخر ، فإن البطريرك سيجبره هو الآخر على الموافقة على الاتفاق بينه وبين البنادقة ، قبل أن يتولى شئون الحكم فى بيت المقدس ، وقد شمل هذا التعهد أيضا إجبار خلفاء البارونات أو أى بارونات

= الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٧٤ . هذا وقد وصفه عماد الدين الكاتب (الفتح القسى ، ص ١٤) بأنه كان **«ولدا مجذوما ومن الوجود معدوما ، قد أعضل داؤه وأيس شفاؤه وسقطت أعضاؤه، وطال بلاؤه»** . ويقول ابن جبير (ص ٢١٥) عن بلدوين الرابع **«وهذا الخنزير صاحب علة – المسمى عندهم بالملك – محجوب لا يظهر : قد ابتلاه الله بالجذام ، فعجل له سوء الانتقام . قد شغلته بلواه فى صباه عن نعيم دنياه فهو فيها يشقى ولعذاب الآخرة أشد وأبقى»**.

(1) William of Tyre, II, P. 15.

ويرى دوقان أن هذا الزواج كان عبارة عن تحالف سياسي بين الملك والماركيز . انظر : Duggan, The Story of the Crusades, P. 140.

(2) William of Tyre, II, P. 555 .

(٣) يذكر ابن الأثير (الكامل ، جـ ٨ ، ص ٣١٢) فى حوادث سنة ٥١٧ هـ ، أنه عندما سمع الصليبيون فى الشام خبر حصار بلك بن بهرام بن أرتق صاحب قلعة كركر ، وهى تقارب خرتبرت ، سار بغدوين ملك الفرنج فى مجموعة إليه ليرحله عنها خوفا أن يفوز بملكها . فلما سمع بلك بقربه منه رحل إليه والتقيا فى صفر واقتتلا ، فانهزم الفرنج وأسر ملكهم ومعه جماعة من أعيان فرسانهم وسجنهم بقلعة خرتبرت .

آخرين فى المستقبل على أن يقروا الاتفاق نفسه عند إطلاق سراحه ، وفى حالة رفض الملك فإنهم لن يعترفوا به كسيدهم الأعلى(١) . ومع ذلك فإن بلدوين الرابع لم يوافق فيما بعد على الشرط الأخير من الاتفاق، وهو الشرط الذى يجعل مملكة بيت المقدس وتجارتها حكرا على البنادقة(٢).

ومن الصعب أن نقرر ما إذا كانت هناك اختصاصات أخرى يمارسها الملك فى مملكة بيت المقدس . ويمكن أن نعتبر مداولات البارونات فى زواج الأميرات الملكيات ناتجا عن واجبهم كأتباع للملك عليهم أن يقدموا النصيحة له . ومثل هذه الإجراءات كانت مألوفة فى كافة المحاكم الإقطاعية ، حيث كان الأتباع يناقشون الشئون العائلية لسيدهم الأعلى ، لأن الزواج داخل العائلة الملكية ينطوى على أمر أكثر من كونه موضوعا شخصيًا ، فقد تؤدى حالات الزواج إلى تحالف سياسى أو تكون لها آثار اقتصادية أو عسكرية . وهنا كان يجب على المحكمة العليا أن تناقش السياسة الخارجية للمملكة(٣) .

كما أن فرض الضرائب الاستثنائية ، وهى الضرائب غير الإقطاعية ، يمكن اعتباره من اختصاصات الملك . هذا ومن المعروف أن الدخل الملكى فى بيت المقدس كان يستمد من المصادر الإقطاعية المعتادة فى ذلك العصر ، فلم تكن هناك حاجة إذاً إلى فرض ضرائب استثنائية، طالما أن البارونات فى مملكة بيت المقدس ملتزمون باتباع النظام الإقطاعى المألوف لديهم. ومع ذلك ففى خريف عام ١١٦٦م، وقبل إحدى حملاته على مصر دعا الملك أمارى الأول المحكمة العليا للانعقاد فى نابلس ، حيث تقرر فرض ضريبة العشور على كل المنقولات فى المملكة(٤) .

وهناك ضريبة غير إقطاعية فرضتها المحكمة العليا فى اجتماعها فى القدس (١١٨٣م) على العقارات والمنقولات التى تخص كل مواطن فى البلد دون التفرقة بين جنس أو دين ، غير أن الصفة الاستثنائية لهذه الضرائب استلزمت اتفاق أولئك الذين يخصهم الأمر(٥) .

(1) Prawer, Latin Kingdom, P. 119 .

(٢) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص٥٢ .

(3) Prawer, Op. Cit., P. 118 .

(4) William of Tyre, II, P. 314 .

(5) Prawer, Op. Cit., P. 120.

والحقيقة أن المشكلات المالية التي واجهت مملكة بيت المقدس منذ بداية النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، قد أدت إلى ضعف مركز ملوكها أمام طبقة النبلاء والفرسان . فعندما تولى أمارى عرش المملكة كانت خزائنها شبه خاوية ، ولذلك اضطر إلى أن يقترض الأموال بفوائد باهظة ليدفع نفقات جنده من المرتزقة كما تضاءل الدومين الملكى فى أثناء حكم الملك بلدوين الرابع(١) .

وبالإضافة إلى ذلك .. فإن مملكة بيت المقدس دخلت فى بداية الربع الأخير من القرن الثانى عشر فى حلقة من المشاكل أخذت شيئا فشيئا تضيق عليها الخناق وأصبح عدم الاستقرار السياسى موضوع الحياة اليومية(٢) . وفى تلك الأوقات الحرجة التى ألمت بالصليبيين ، عندما أخذ صلاح الدين الأيوبى يضيق الخناق على ممتلكاتهم فى الشام اشتد المرض على بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، حتى بلغ به حد العجز عن الحركة فى فراشه ، مما أوجب ضرورة اتخاذ إجراء سريع لحماية مصالح المملكة ، ولذلك عقد مجلسا فى مدينة الناصرة ، وفى هذا المجلس فوض الملك صهره جاى لوزجنان فى الوصاية على المملكة ، أي ينوب عنه فى تدبير شئونه(٣) .

والواقع أن هذا الاختيار لم يكن موفقا ، وآية ذلك أن أوضاع مملكة بيت المقدس ، فى الفترة التى قضاها جاى فى منصب الوصى ، تدهورت إلى حالة سيئة ، مما دفع بلدوين الرابع إلى أن يبادر باسترداد كافة السلطات التى كان قد سبق أن أعطاها لجاى(٤) . ثم أعلن ابن أخت الملك الكبرى من زوجها الأول وليم دى مونتفرات شريكا فى حكم المملكة ، ووريثًا لبلدوين الرابع باسم بلدوين الخامس. وبما أن هذا الوريث كان لايزال طفلاً لم يتجاوز الخامسة من عمره ، فقد وضع تحت وصاية ريمون الثالث أمير طرابلس (٢٠ نوفمبر ١١٨٣م)(٥) .

وفى عام ١١٨٥م توفى بلدوين الرابع ، فخلفه بلدوين الخامس ، إلا أنه لم

---

(1) Mayer , The Crusades, P. 156 .

(2) Bladwin (W.), “The Decline and Fall of Jerusalem, 1174 - 1189", In Setton (ed.), I, PP. 590 - 621 .

(3) William of Tyre, II, P. 492 .

(4) Ibid.

(5) Ibid, PP. 501 - 502 .

يلبث أن توفى فى عكا بعد بضعة شهور من توليه العرش (أواخر أغسطس ١١٨٦م). وقد كانت وفاة بلدوين الخامس إيذانا بصراع حاد بين الأمراء الصليبيين حول الفوز بعرش مملكة بيت المقدس . فقد أعلنت سيبيل أخت بلدوين الرابع وزوجة جاى ملكة على بيت المقدس ، إلا أن ريمون وكثيراً من الأمراء رفضوا الاعتراف بذلك الواقع ، لأنه لا يتفق مع وصية بلدوين الرابع ، ولا من التعهدات التى تعهد بها الأمراء للملك الراحل [١] .

وهكذا دب انشقاق داخلى خطير فى صفوف الصليبيين، الذين انقسموا على أنفسهم بين مؤيد لريمون ومؤيد لجاى[٢] . ولم يلبث جاى أن توج ملكا على القدس. وقد جاء ذلك مخيباً لآمال ريمون ومطامعه ، فلم يجد فى تلك الأزمة مفرا من التقرب إلى صلاح الدين[٣] .

ويوقفنا ابن الأثير على سبب آخر للتصرف الذى أقدم عليه ريمون ، كونت طرابلس ، فيقول إن الكونت طولب بعد تتويج جاى بحساب ما جبى من الأموال مدة ولاية الصبى ، فادعى أنه أنفقه عليه[٤]. ويقول المؤرخ ابن الأثير تعليقا على هذا الطلب أن ذلك : **«زاده نفورا فجاهر بالمشاققة والمباينة، وراسل صلاح الدين وانتهى إليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعى له فى كل ما يريد، وضمن له أن يجعله ملكا مستقبلا للفرنج قاطبة»**[٥] . وقد أشار أبو شامة وابن واصل إلى ما دار بين ريمون كونت طرابلس وصلاح الدين من اتصالات فى ذلك الوقت فذكرا أنه : **«قويت مناصحته للمسلمين وباين أهل ملته ، وبث السرايا فى بلادهم»**[٦]. ولاشك فى أن ذلك الانشقاق بين صفوف الصليبيين جاء عظيم الفائدة بالنسبة لصلاح الدين،حتى اعتبره المؤرخ ابن الأثير **«من أعظم الأسباب الموجبة**

(1) Bladwin, "Jreusalem", PP. 604 - 5.

(2) Mayer , The Crusades, P. 130 .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٩٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ص ١٧٤ .

(٤) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

(٥) نفسه : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

(٦) ابن واصل ، جـ ٢ ، ص ١٨٥ ؛ أبو شامة ، جـ ٢ ، ص ٧٤ – ص ٧٥ .

لفتح بلادهم واستنقاذ بيت المقدس »[١] . ولم يكن ريمون الثالث أمير طرابلس هو وحده الذى راسل صلاح الدين وانتمى إليه ، وإنما حذا حذوه بوهيموند الثالث أمير أنطاكية ، فجدد الهدنة المعقودة بينه وبين صلاح الدين[٢] .

ونستطيع أن نقول إن مملكة بيت المقدس قد انحلت فى ذلك الوقت واضطربت أمورها الداخلية ، وإن جاى كان عاجزا عن إدارة شئون المملكة ، مما ترتب عليه ازدياد نفوذ النبلاء واستخفافهم بملك بيت المقدس وأوامره وآية ذلك أن رينو دى شاتيون الذى عرفه العرب باسم «**أرناط**» استطاع أن يجرؤ على مخالفة أوامر الملك وهو أمر كان لايمكن أن يحدث فى عهد ملوك بيت المقدس الأوائل أمثال بلدوين الأول والثانى وفولك وأمارى . وقد حدث ذلك عندما أمره الملك بأن يرد كل ماسلبه من أموال المسلمين وأسراهم فى الغارة التى كان قد قام بها فى أواخر سنة ١١٨٦م وأوائل سنة ١١٨٧م ، على صحراء العرب[٣] . وكان أن أخبر جاى صلاح الدين بعجزه عن إخضاع تابعه وإلزامه باحترام الهدنة المعقودة مع المسلمين. وهكذا ساءت أحوال مملكة بيت المقدس ، وتلاشى ما كان لملكها من نفوذ وهيبة ، ووجد جاى نفسه وحيداً بين عصيان أرناط من ناحية وتمرد ريمون الثالث من ناحية أخرى [٤] .

وكان ذلك فى الوقت الذى ازدادت الأحوال السياسية سوءاً ، إذ أن صلاح الدين ضيق الخناق على الصليبيين، ولم يتهيأ للملك من الأحوال ما يجعله يسترد سلطانه . ولم تلبث معركة حطين التى وقعت فى ٤ يونيو سنة ١١٨٧م[٥]، وأن أودت بالمملكة اللاتينية الأولى [٦] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٧٤ .

(2) Grousset, Histoire des Crosades, II, P. 778 .

(٣) عن هذه الغارة ، انظر :

William of Tyre, II, P. 499

وانظر كذلك ابن واصل ، جـ٢ ، ص ١٨٥ ، الأصفهانى ؛ البرق الشامى ، ص ٢٨٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ٩ ، ص ١٧٤ .

(٤) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٨٩٩ .

(٥) عن هذه المعركة الحاسمة فى تاريخ المواجهة ضد الصليبيين ، انظر : الأصفهانى، البرق الشامى ، ص ٢٩٥ – ص ٢٩٨ ؛ ابن واصل ، جـ٢ ، ص ١٨٨ – ص ١٩٤ ؛ أبو شامة كتاب الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٧٦ – ص ٨٣ .

(٦) العرينى : «**نمو طبقة الملاك الإقطاعيين**» ، ص ٦١ .

وقد أدت فتوحات صلاح الدين والمنح المفرطة التى بذلها جاى إلى أولئك الرجال الذين كانوا قد ساندوا مطالبته بالعرش إلى هلاك الجزء الأكبر من الدومين الملكى . وفى بداية القرن الثالث عشر حاول الملك أمارى الثانى أن يلغى هذه العملية ، إلا أن هذه المحاولة كان نصيبها الفشل الذريع ، فى حين أن قوة ونفوذ الفرسان والنبلاء ازدادت عن ذى قبل[١] .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر عقد البارونات معاهدات السلام مع المسلمين ، وإن كان الملك فى هذه الفترة يعيش فى قبرص . وإلى حد ما كان هذا نتيجة محتومة لأن الملوك ابتداء من عام ١٢٢٥م فصاعداً كانوا غرباء ، ولايأتون إلى الأراضى المقدسة إلا بين الفينة والفينة ، وحكموا بصفة عامة عن طريق الأوصياء على العرش **Bailis**[٢] . وقد أدى ذلك إلى أن تحل المحكمة العليا محل سلطة الملك ، وصارت أكبر محكمة للعدل فى كل القضايا التى تخص النبلاء، وكانت كذلك عبارة عن جمعية تشريعية وسلطة تنفيذية فى الوقت نفسه .

وبالإضافة إلى المحكمة العليا التى اختصت بالتشريع والسياسة العليا للمملكة والمنازعات والمخالفات بين النبلاء بعضهم وبعض ، وجدت محاكم أخرى فى مملكة بيت المقدس تعددت اختصاصاتها وتنوع نشاطها . من هذه المحاكم مثلا تلك التى أُطلق عليها اسم المحاكم البورجوازية **Cours de Bourgeois** وهى خاصة بالصليبيين من غير النبلاء على أن يكونوا من الأحرار[٣] . وقد قامت هذه المحاكم البورجوازية ، على ما يبدو فى عهد أمارى الأول[٤] ، فى كل مدينة من المدن الصليبية الكبرى [٥] .

واختصت المحاكم البورجوازية بمهام الفصل فى القضايا الجنائية والمدنية التى يكون طرفاها من المواطنين الأحرار . وإن كان المتقاضون أمام هذه المحاكم لايحق لهم استئناف أحكامها أمام أى محكمة أخرى[٦]. وقد أجيزت المبارزات

(1) Mayer , The Crusades, P. 157 .

(2) Ibid.

(3) Runciman, A History of the Crusades, II, P. 301.

(4) C.M.H., V, P. 304 .

(5) Brooke, A History of Europe, P. 317 .

(6) Mayer,Op. Cit., P. 171.

القانونيـة للمواطنين الأحرار كوسيلة إثبات أمام المحاكم البورجوازية ، إلا أن هذا الحق اقتصر استعماله فيما بين المواطنين الأحرار أنفسهم وليس ضد القضاة كما هو الحال فى المحكمة العليا . كما كان على المواطنين الأحرار استعمال الهروات لا السيوف كما هو متبع فى مبارزات النبلاء[١] . وقد سمح الصليبيون للسكان المحليين الخاضعين لهم أن يخوضوا مبارزات قانونية أمام المحاكم البورجوازية إذا اتهموا فى جرائم قتل . وبصفة عامة مارست المحاكم البورجوازية عدالة سفك الدماء على كافة السكان من غير الصليبيين[٢] . ولأن البراءة أو الإدانة كانت تتقرر وفقاً لقوة الخصم ، فإن المحاكم عن طريق النزال لم تقدم الحل الكافى لمسألة العدل المقدس . فقد كان بوسع الرجل الثرى أن يستأجر أضخم الرجال فى البلاد وبذلك يستطيع أن يتخلص من أعدائه بتلفيق التهم لهم[٣] . وبالإضافة إلى هذا النزال أقرت المحاكم

(١) وفى هذا الصدد يقول ابن منقذ (ص ١٣٨ - ص ١٣٩) شاهد العيان **«وشهدت يوماً بنابلس ، وقد أحضروا اثنين للمبارزة . وكان سبب ذلك أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس ، فاتهموا بها رجلا من الفلاحين، وقالوا : «هو الذى دل الحرامية على الضيعة» فهرب . فنفذ الملك فقبض على أولاده ، فعاد إليه وقال : «أنصفنى .. أنا أبارز الذى قال عنى أنى دللت الحرامية على القرية» . فقال الملك لصاحب القرية المقطع «أحضر من يبارزه» فمضى إلى قريته وفيها رجل حداد فأخذه وقال له : «تبارز» إشفاقا من المقطع على فلاحيه لايقتل منهم واحدا فتخرب فلاحته . فشاهدت هذا الحداد وهو شاب قوى ، إلا أنه انقطع ، ليمشى ويجلس يطلب مايشربه ، وذلك الآخر الذى طلب البراز شيخ إلا أنه قوى النفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة ، فجاء البسكند وهو شحنة البلد، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس ، وجعل الناس حوله حلقة . والتقيا فكان الشيخ يلز ذلك الحداد وهو يتأخر حتى يلجئه إلى الحلقة ، ثم يعود إلى الوسط . وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم ، فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة ، ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة ، ذلك الشيخ ، فضربه الحداد فوقع ، ووقعت عصاه تحت ظهره . فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه فى عينيه ولايتمكن من كثرة الدم من عينيه ثم قام عنه وضرب رأسه بالعصا حتى قتله . فطرحوا رقبته فى الوقت حبلا وجروه وشنقوه ، وجاء صاحب الحداد أعطاه غفارته وأركبه خلفه وانصرف»** . وقد عبر ابن منقذ عن هذه الحالة أحسن تعبير بقوله : **«هذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله»**.

(2) Mayer, The Crusades, P. 171.

(٣) كانتور ، التاريخ الوسيط ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

البورجوازية المحاكمة عن طريق الماء والنار(١) .

وبالإضافة إلى ذلك قامت المحاكم البورجوازية بمهام الشهر العقارى فى وقتنا الحالى ، حيث كان من اختصاصها تسجيل كل صفقات العقارات الخاصة بالمواطنين الأحرار قبل البيع أو التأجير والرهونات العقارية وأراضى المدينة والحدائق والآبار وغيره(٢) . أضف إلى ذلك أنه كان من حق المحاكم البورجوازية قبول طلبات الاستئناف من المتضررين من أحكام محاكم السكان الوطنيين ، ومحاكم الجاليات الإيطالية . وقد كان للمحاكم البورجوازية سجل خاص بها منذ بداية النصف الثانى من القرن الثالث عشر(٣) . كما كان لهذه المحاكم ما للمحكمة

---

(١) فى المحاكمة عن طريق الماء البارد ، كان يلقى بالمتهم فى الماء وهو مقيد اليدين والقدمين، فإذا غاص كان بريئا ، وإذا طفا على سطح الماء يكون مذنباً على أساس أنهم يعتبرون الماء عنصرا مقدسا يرفض قبول الشخص المذنب . ويساعد على فهم مانحن بصدده أن نذكر هنا فقرة لابن منقذ (الاعتبار ، ص ١٣٩ – ص ١٤٠) فى وصف المحاكمة عن طريق الماء ونصها : **«ومضيت مرة أخرى مع الأمير معين الدين رحمه الله إلى القدس ، فنزلنا نابلس. فخرج إلى عنده رجل أعمى ، وهو شاب عليه ملبوس جيد مسلم وحمل له فاكهة وسأله في أن يأذن له فى الوصول إلى خدمته إلى دمشق ففعل . وسألت عنه فخبرت أن أمه كانت مزوجة لرجل أفرنجى فقتله . وكان ابنها يحتال على حجاجهم ويتعاون هو وأمه على قتلهم فاتهموه بذلك وعملوا له حكم الإفرنج : جلسوا بتية عظيمة وملاؤها ماء وعرضوا عليها دف خشب ، وكتفوا ذلك المتهم وربطوا فى كتافه حبلا ورموه فى البتية . فإن كان بريئا غاص فى الماء فرفعوه بذلك الحبل لايموت فى الماء وإن كان له الذنب مايغوص فى الماء فحرص ذلك لما رموه فى الماء أن يغوص فما قدر . فوجب عليه حكمهم ، لعنهم الله».** أما المحاكمة بوسيلة الحديد المحمى كان يفرض على المتهم أن يمسك بقطعة من المعدن الملتهب ، ثم تضمده يده فإذا شفيت الحروق بعد أيام ثلاثة ثبتت براءته وإلا كان مذنبا ، وهناك طريق أخرى وهى أن يفرض على المتهم أن يضع يده فى وعاء يغلى ، ويرفع حجرا من قاع الوعاء ، ثم تضمد ذراعه وتفحص بعد ثلاثة أيام لتقرير ما إذا كان مذنبا أو بريئا . انظر : كانتور ، التاريخ الوسيط ، جـ١ ، ص ١٨٣ .

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٣٦ .

(3) Mayer, The Crusades, P. 171.

العليا من مجموعة قوانين ويقصد بها النظم العرفية، وهى النظم التى نشأت بصورة تلقائية واكتسبت مع الزمن قوة ملزمة بسبب جريان عادة الناس بها وشعورهم بضرورة عدم الخروج عليها(١) .

وهكذا صارت المحاكم البورجوازية مصدراً للسلطة فى مدن مملكة بيت المقدس، وتمتع محلفوها بأهمية كبرى باعتبارهم الشريحة العليا بين المواطنين الأحرار . ومع ظهور كفاءات هذه المحاكم ارتفعت مكانتها بسرعة . وأصبحت المحاكم البورجوازية بمثابة فرع للنظام التشريعي . وبمرور الوقت وجد سادة المدن أنه من الأفضل والأكثر فائدة أن يقتسموا اختصاصاتهم الواسعة مع هذه المحاكم . فكانت المحاكم البورجوازية تقرر قوانين حظر التجوال والأسعار ونظافة الشوارع ثم يقوم منادى المدينة بارتقاء حجر خاص ليعلن هذه القوانين على المواطنين . وقد أدى المثول أمام المحاكم البورجوازية إلى ظهور فئة كبيرة من المحامين من البورجوازيين ، كما حدث بين النبلاء الصليبيين ، ونظرا لمعرفتهم القانونية التى لم يكن أحد يشك فيها ، علت مكانتهم لدرجة أن النبلاء المتكبرين كانوا يطلبون نصحيتهم ، بل وكانوا أحياناً يدعونهم إلى المحاكم الإقطاعية(٢) .

وفى القرن الثالث عشر كان هناك ثلاثة وثلاثون محكمة من المحاكم البورجوازية(٣) ، وكانت هذه المحاكم تعقد ثلاث مرات فى الأسبوع ، أيام الاثنين والأربعاء والجمعة فيما عدا المواسم والأعياد(٤) . وقد خضعت كل محكمة منها

---

(١) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٤ – ص ٧٥ .

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٣٥ – ص ١٣٦ ، هذا وقد كان لكل واحد من السادة الإقطاعيين محكمته الإقطاعية الخاصة ، إذ كان لهم مقطعون ثانويون وأتباع لأولئك الثانويين . ومن حق هذه المحاكم الإقطاعية الخاصة أن تنظر فى جميع القضايا المتعلقة بتوزيع أرض السيد بين أتباعه ، وفى قضايا أتباع الأتباع كذلك إلى حد كبير . وكان السيد الإقطاعى أو وكيله هو القاضى الوحيد ، ولم يكن لمن ترى المحكمة استدعاءه لمسألة من المسائل سوى سلطة استشارية . غير أن أحكام المحكمة وجبت أن تكون فى نظر الناس معبرة عن العرف القانونى . انظر : كوبلاند ، الإقطاع ، ص ٩١ – ٩٤ .

(3) Mayer, The Crusades, P. 171.

(4) Runciman, A History of the Crusades, II, P. 302.

لرئاسة النائب Viscount(١)، الذى كان يختار من العائلات النبيلة(٢) ، حيث جمع بين يديه، كالنواب Sheriffs فى إنجلترا النورمانية ، اختصاصات مالية وأخرى قضائية(٣) . هذا وقد حرص الصليبيون فى مملكة بيت المقدس شأنهم فى ذلك شأن النورمان فى إنجلترا على ألا تصبح هذه المناصب وراثية(٤) .

وكان يساعد النائب فى القيام بمهامه اثنا عشر محلفا Jurati يتألفون من المستوطنين الصليبيين الذين ولدوا أحراراً(٥) . ويؤدون أعمال القضاء على الرغم من أنه يمكن لأحد الخصوم أن يتخذ منهم مدافعاً عنه . وفى هذه الحالة ليس لهذا المحلف الذى يتولى الدفاع عن الخصم أن يشترك فى إصدار الحكم . ومن واجبات المحلفين كذلك أن يشهدوا على كل ما يجرى بالمحاكم البورجوازية من عقود ووثائق(٦) .

أما المدن التى كان للتجار الإيطاليين أحياء بها، فقد ظهر بها نوع آخر من المحاكم ذات الطابع التجارى . ومن هذه المحاكم تلك التى أطلق عليها محاكم المدن Cours de la Fondo ، التى قامت فى عهد أمارى الأول كذلك(٧) . وكان من اختصاص هذه المحاكم الفصل فى المنازعات التجارية(٨) . وتعتبر محاكم المدن إدارة مالية لجباية الضرائب على المعاملات التجارية ، ويجوز استئناف أحكامها ، كما سبق أن ذكرنا ، أمام المحاكم البورجوازية التى نقلت إليها جميع

---

(١) هو الفيكونت ، ويسميه المؤرخون المسلمون باسم البسكند ، ويصفه أسامة ابن منقذ (الاعتبار ، ص ١٣٩) بأنه شحنة البلد . والشحنة والجمع شحان وشحن وهو رئيس الشرطة ، والموكل بالأمن فى بلد من البلاد ، والشحنكية هى وظيفة رياسة الشرطة . انظر: المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، قسم ١ ، ص ١٣٥ . انظر كذلك لنفس المؤلف : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٨٩ ، حاشية ١ .

(2) Archer, The Crusades, P. 126 .

(3) C.M.H., V, P. 304 .

(4) Runciman, A History of the Crusades, II, P. 302.

(5) Painter, Middle Ages, P. 201; Tierney (B.) Painter (S.), Western Europe, P. 236 .

(6) Runciman, Loc. Cit.

(7) C.M.H., Loc. Cit.

(٨) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٨ .

إجراءاتها العامة . ولم يكن يدخل فى اختصاص محاكم المدن قضايا العقارات وكذلك القضايا التجارية التى كانت قيمة البضائع المتنازع عليها تساوى فيها أكثر من مارك من الفضة ، فهذه القضايا ترفع أمام المحاكم البورجوازية التى تألفت من الصليبيين على وجه الحصر [1] . وبما أن جميع الأطراف فى مثل هذه الخلافات كانوا غالباً من النصارى من غير الصليبيين بالإضافة إلى الصليبيين أنفسهم . فقد تألفت محاكم المدن من ستة أعضاء فيهم أربعة من السوريين واثنان من الصليبيين[2] ، ويرأسهم موظف فرنجى يعرف بالنائب **Bailil** يعينه السيد المحلى[3].

ولما كان معظم ما تنظره محاكم المدن من القضايا يتعلق بالسكان الوطنيين فإن دائرة نشاطها اتسعت فيما بعد لتشمل مايقع فى دوائرها من المحاكم الوطنية . وقد راعى الصليبيون بطبيعة الحال ديانات الأهالى فيما يتعلق بحلف اليمين فى محاكم المدن ، فكان المسلمون يقسمون على القرآن الكريم واليهود على التوراة ، والأرمن والسريان واليونان على الصليب [4] . وعلاوة على ذلك كان يسمح للمسلم أن يبريء نفسه بحلف اليمين ، إذا فشل الطرف الآخر فى إثبات الأدلة على إدانته حتى لو كان هذا الطرف من الصليبيين . وفى القضايا بين أفراد من أجناس مختلفة أو أديان مختلفة، لم يكن المتهم يدان إلا إذا شهد شهود إثبات من نفس جنس المتهم. وهكذا فإن الفرنجى إذا قدم شكوى ضد أحد السوريين فلا بد له من إحضار شهود سوريين . ولم تكن المبارزات تستخدم فى هذه المحاكم كطريقة إثبات[5] . وقد شهد المسلمون بعدالة القضاء الفرنجى ، فإن أسامة بن منقذ ذكر أنه رفع قضية ضد أحد النبلاء الصليبيين ، وأنه حكم فيها لصالحه[6] .

---

(1) Mayer, The Crusades, P. 171.

(2) Smail, Crusades, Warfare, P. 50.

(3) Runciman, A History of the Crusades, II, P. 302.

(4) Ibid.

(5) Mayer, Loc. Cit.

(٦) يقول ابن منقذ (ص ٦٤ – ص ٦٥) : **«قد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس** (رينيه Renier) **من العشراء وبيننا وبينهم صلح وأنا إذ ذاك بدمشق ، فقلت للملك فُلك** (فولك الأنجوى) : **هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا وهو وقت ولادة الغنم ، فولدت وماتت أولادها وردها علينا بعد أن أتلفها . فقال الملك لستة من الفرسان «قوموا أعملوا له =**

هذا ، وقد قام فى الموانىء البحرية نوع من المحاكم يعرف باسم محاكم السلسلة Cours de la Chaine ، وتولى رئاستها جميعا القناصل أو وكلاؤهم(١) . وكان لها الولاية القضائية فى القضايا المتعلقة بالبحرية(٢) . ويختار محلفوها من بين التجار . وتعتبر محاكم السلسلة سجلا لما يتحصل من رسوم من الجمرك ورسوم رسو السفن(٣) . وبعد أن توضح المحكمة القضية تبلغ نتائجها إلى محكمة المدينة للحكم والتنفيذ(٤) ، ويبدو أن اسم هذه المحاكم قد استمد من السلسلة التى كانت تغلق مداخل الموانى فى العصور الوسطى .

واختلف عن كل هذه المحاكم ، وإنما أشبهها فى دائرة عملها ، محكمة إختص بها الحي الإيطالى فى كل مدينة يرأس كل منها القنصل ، وهى محكمة امتازت بأنها لا تنظر إلا فى القضايا الخطيرة مثل السرقة والتزوير (٥) . أما الجرائم التى يعاقب مرتكبوها بالموت كالقتل والاغتصاب فكانت تنظر أمام المحاكم البورجوازية (٦) . ولم يكن قانون محاكم الجاليات الإيطالية هو القانون المطبق نفسه فى مملكة بيت المقدس ، وإنما كان هو القانون السائد فى المدينة الإيطالية الأم . وكانت الإجراءات القانونية فيها تتم بلغة الجالية الوطنية ، كما كانت إجراءات تنفيذ الأحكام معروفة من الوطن الأم . فضلاً عن أن هذه الأحكام كانت تتم بواسطة أقرانهم الذين كانوا يجلسون للحكم فى القضايا التى تخص مواطنيهم، وقد يصدرون أحكامهم فى بعض القضايا على الآخرين من سكان الحى(٧) .

هذا عن المحاكم.. أما الجهاز الإدارى فى مملكة بيت المقدس ، فكانت

= حكما» فخرجوا من مجلسه واعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كله على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك ، فقالوا : «قد حكمنا على صاحب بنياس عليه غرامة ما أتلف من غنم». «فأمر الملك بالغرامة ، فتوسل إليّ وثقل عليه وسألنى حتى أخذت منه أربع مائة دينار» .

(1) Runciman, A History of the Crusades, II, P. 302.

(2) C.M.H., V, P. 304 .

(3) Runciman, Loc. Cit.

(٤) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٣٧ .

(٥) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٩ .

(6) Mayer, The Crusades, P. 173.

(٧) براور، المرجع السابق ، ص ١٦١ .

تشرف عليه مجموعة من كبار موظفى البلاط الذين يختارهم الملك من بين كبار المقطعين بالمملكة . وأسبق هؤلاء الموظفين فى الرتبة هو **«القهرمان»** Seneschal(١) ، المعروف في المصادر العربية باسم الصنجيل ، الذى يشرف على المواكب والاحتفالات . وبهذه الصفة يحمل الصولجان فى يوم تتويج الملك ويتقدمه فى الموكب . وهو من أعضاء المحكمة العليا ، وأحيانا يتولى رئاستها فى أثناء غياب الملك(٢) . وبصفته كبير موظفى العدالة، كان للقهرمان السيادة على كافة حجاب المحاكم فى مملكة بيت المقدس . ومن مهامه كذلك الاعتناء بدخل الملك ، والإشراف على جباية الإيجارات، وله النظر فى شئون الحصون والقلاع ونقل حامياتها من قلعة إلى أخرى. وكان من حقه أن يعين أو يصرف مستحفظيها Castellanus(٣) من الخدمة . وإذا تغيب الملك كان القهرمان ينوب عنه فى الإشراف على شئون الجيش والحرب(٤)، فإذا انتهت المعركة حصل على نصيب الملك في الغنيمة ، وتولى المحافظة عليه . ويشرف القهرمان كذلك على ديوان الجند ويأمر بصرف أرزاقهم .

ويلى القهرمان فى المكانة المقدم العسكرى **«الكونستابل»** Constable(٥) الذى يعرف فى المصادر العربية باسم الكنداسطبل(٦) . وقد أدى الصراع الذى كان قائماً بين المسلمين والصليبيين إلى أن تفوق سلطاته سلطة القهرمان ؛ إذ كان الكونستابل قائداً للجيش تحت رئاسة الملك العليا ، ويشرف على كل مايتعلق بتنظيماته وإمداداته(٧) . وفى حالة غياب الملك كان الكونستابل يتولى قيادة الجيش (٨). وفى حفل التتويج كان الكونستابل يحمل لواء الملك ويمسك بلجام حصانه(٩) . وإن كان

(1) Keer, the Crusades, P. 38 .

(2) Prawer, Latin Kingdom, P. 123 .

(٣) هو القسطلان ، ويقابله فى الفرنسية Chatelain، انظر: ابن واصل ، جـ٢ ، ص ٧٦ ، هـ٣ .

(4) Archer, The Crusades, P. 124 .

(٥) مأخوذ من كلمة Comes Stabuli (Master of the Stable) . انظر : Prawer, Op. Cit, P. 98 .

(٦) ابن القلانسى ، ص ١٩٧ .

(7) Keer, Loc. Cit.

(8) Ibid .

(9) Archer, Loc. Cit.

ذلك من الأعمال الإضافية التى يتقاضى عنها أجرا . وفى الحملات كان الكونستابل قاضيا عسكريا ، يفصل فى قضايا الفرسان والطبقة الوسطى ، وينظر فى شئون الجند المأجورة ، وفى القضايا الخاصة بالأرزاق . وفى الأزمات كان الكونستابل يتولى الوصاية على مملكة بيت المقدس ، ويعقد الاتفاقيات بالنيابة عن الملك . ومثال ذلك فإن الكونستابل وليم دى بور بصفته وصيا على المملكة لعب دوراً مهماً فى الاتفاق، الذى عقدته المملكة مع البنادقة فى عام ١١٢٣(١) .

وكان قيم المراسم «**المارشال**» **Marshal** ، وهو من كبار القادة العسكريين بمملكة بيت المقدس ، يلى الكونستابل ويدين له بالطاعة ، بعد أن يحلف يمين الولاء للملك والسادة الذين يحصل منهم على إقطاعات(٢) . وينظر المارشال فى شئون الجند المأجورة ويتلقى منهم يمين الولاء ، ويفصل فيما يقع بينهم من خصومات ومنازعات . وهو المسئول عن جميع مايقع فى أيدى الجند من خيول الأعداء أثناء القتال ، إذ يفيد منها فى تعويض ما هلك أو أصيب من خيل الجند فى المعركة(٣) .

وبعد ذلك يأتى «**الياور**» **Chamberlain** ، وهو أقرب إلى الملك من سائر الموظفين . وأعماله تتعلق بأحوال الملك الشخصية ، فيساعد الملك فى ارتداء الملابس عند الظهور فى الاحتفالات ، ويحمل سيف الملك ، ويسير على رأس الموكب، وفى الكنيسة يتسلم من الموظفين شعائر الملك من التاج والصولجان وغيرهما ، ويقدمهما للملك ، وهو الذى يتولى تقديم الشراب للملك أثناء المآدب . ويؤدى الأتباع يمين الولاء للملك فى حضرته ، ويقدم الأتباع للياور الهدايا ، فهذه الوظيفة من الوظائف المدرة للمال ، وارتبطت وظيفة الياور فى بيت المقدس بإقطاع يشمل خمس قرى بالقرب من عكا(٤) . ويبدو أن وظيفة الياور قد ازدادت مكانتها فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر ، فعندما اشتد المرض على الملك بلدوين

---

(1) William of Tyre,II, P. 550.

(2) Mayer, The Crusades, P. 161.

(3) Ibid.

(4) Keer, the Crusades, P. 38 ; Archer, The Crusades, P. 124 ; Runciman, A History of the Crusades, II, P. 303- 304; Prawer, Latin Kingdom, P. 1124 .

الرابع، تولى الياور الإشراف على شئون مملكة بيت المقدس، ووصفه ابن جبير بأنه: «صاحب المجبى ، وإليه ترتفع الأموال ، والمشرف على الجميع بالمكانة والوجاهة وكبر الشأن فى الأفرنجية العيئة القومس[١] اللعين صاحب طرابلس وطبرية، وهو ذو قدر ومنزلة عند الإفرنج ، وهو المؤهل للملك والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر»[٢] .

وكان هناك الساقى الملكى Butler (Buticularius) إلا أن اختصاصاته لم تكن معروفة [٣] ، والراجح أن واجباته ارتبطت فحسب بالاحتفالات[٤] . وإن كان وليم الصورى يذكر أن Eudes de Saint-Amand الساقى الملكى كان عضواً فى إحدى السفارات الناجحة التى أرسلت فى خريف عام ١١٦٥م إلى القسطنطينية[٥] .

وبالإضافة إلى ذلك كان فى كل مدينة من مدن مملكة بيت المقدس نائب «فيكونت»، ذو الواجبات الإدارية والقضائية، وهو يشبه إلى حد كبير النواب فى إنجلترا على عهد النورمان[٦] . ويعتبر النائب من أهم موظفى الإدارة المحلية لأنه يمثل الملك فى المدن فى إقطاعاته ، ويمثل السيد الإقطاعى فى مدن بارونيته، ويتولى جباية الضرائب المحلية ، ثم يرسلها بعد ذلك إلى الديوان بعد أن يستقطع منها ما يحتاج إليه لنفقات الإدارة المحلية . وكان النائب مسئولاً أيضاً عن المحاكم البورجوازية، وعن استتباب الأمن ، وحفظ النظام بمعاونة المحتسب[٧] ورجال الشرطة ، ويختار النائب عادة من أسرة نبيلة إلا أن وظيفته غير وراثية[٨] .

---

(١) هو ريمون الثالث أمير طرابلس . والقومص تعريب حرفى للفظة اللاتينية Comes أى الأمير ومعناها الأصلى فى اللاتينية « الرفيق» لأنه كان فى بادىء الأمر يرافق الملك فى حروبه وتنقلاته ، ثم سمى بالأمير ، راجع ابن واصل ، جـ١ ، ص ٧٣ ، هـ ١

(٢) جبير ، ص ٢٩٩ .

(3) Prawer, Latin Kingdom, P. 1124 .

(4) Mayer, The Crusades, P. 161.

(5) William of Tyre, II, P. 344 .

(6) Keer, The Crusades, P. 38.

(7) Smail, The Crusades in Syria, P. 45.

(٨) منصب المحتسب هذا عربى إسلامى وجده الفرنج فى فلسطين فعملوا به وفضلوا إيكال هذا المنصب إلى رجل مسلم ، علما منهم بأن ذلك أقرب إلى طبيعة الأمور فى =

ومن الوظائف المعروفة فى مملكة بيت المقدس وظيفة كنسية يعرف صاحبها باسم كبير كتاب الإنشاء Chancellor ، الذى كان يختار من بين رجال الدين ، على الرغم من أنه لم يكن كاهن الملك مثلما جرى عليه العرف فى أوروبا . هذا وقد كان لبعض المستشارين مثل وليم الصورى أثر هائل على صنع السياسة فى المملكة. وقد ترأس المستشار السكرتارية التى تخصصت فى كتابة المستندات الرسمية على أعلى مستوى (١) . وباعتباره رئيس ديوان الإنشاء، كان من اختصاص المستشار أن يحرر الوثائق ويسجلها ، وأن يضع عليها خاتم الملك . هذا وقد ظل ديوان الرسائل ديوانا للمحفوظات . وعلى الرغم من الاهتمام بالمحافظة على سجلات هذا الديوان فإنه لم يبق فيها إلا القليل ، وكانت اللاتينية هى لغة ديوان الرسائل فى القرن الثانى عشر . وجرى تاريخ الوثائق بالتاريخ الميلادى والدورات الرومانية ، وفى بعض الحالات تجرى إضافة السنة التى استهل فيها الملك حكمه أو السنة التى سقطت فيها القدس بأيدى العرب ، وتستهل السنة بعيد الميلاد ، ويحسب الملوك بالعدد لا بالأسماء ابتداء من بلدوين الأول (٢) . وكان بهذا الديوان وظيفة الكتابة زودت بكتاب لصياغة البراءات ويتقلدها المظفون من الصليبيين .. إلا أنه كان يطلب منهم إتقان اللغة العربية قراءة وكتابة ورئيسهم يعرف بالصاحب(٣) .

وهكذا تعدد الموظفون فى مملكة بيت المقدس بتعدد الاختصاصات، واتساع

=بلد شرقى إسلامى . (انظر : حسن حبشى ، نور الدين والصليبيين ، القاهرة ١٩٤٨) ومن الأمور المنوطة بمراقبة المحتسب : الطرقات والأسواق، والموازين والمكاييل ، تجار الحبوب والدقيق ، الخبازون والجزارون ، بائعة اللحم المشوى ، بائعة السمك المقلى ، بائعو الزيت والسمن ، بائعو الشربات ، معلمو الصبيان ، الأطباء والمجبرون ، وأطباء العيون . انظر : (Conder, Jerusaalem, P. 173) ، وكتب الحسبة تفصل القول فى واجبات المحتسب ، ومن هذه الكتب : محمد بن القرشى ، كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة (نشر Reuden Levy كمبردج ١٩٣٨) ، عبد الرحمن بن نصر الشيزرى ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة (نشره السيد الباز العرينى ، القاهرة ، ١٩٤٦) ، أحمد بن تيمية ، الحسبة فى الإسلام (القاهرة ١٣١٩هـ) ، أبو عبد الله السقطى ، آداب الحسبة (باريس ١٩٣١).

(1) Runciman, A History of the Crusades, II, P. 304.

(2) Ibid .

(٣) ابن جبير ، ص ٢١١ .

النشاط الإدارى ، والحقيقة أن الإدارة المركزية فى المملكة كانت انعكاسًا للتراث الأوروبى الذى يمتد بجذوره إلى عهد شارلمان، حين كان موظفو البلاط الملكى موظفين أيضاً فى الدولة . وقد استمر هذا الإطار الأوروبى قائماً على مدى قرنين من الزمان دون تغيير ملحوظ ، إلا أن الأمر نفسه يشهد على عدم أهمية هذه الوظائف ، كما يشهد على الروح المحافظة للمملكة . وعلى أية حال لم تكن هذه الوظائف محل صراع ، ذلك أن الملك قد عين من تولاها من بين كبار النبلاء ، كما لو كانت الخدمة فى هذه الوظائف جزءاً من تربيتهم فى الحياة السياسية .

الفصل الثالث
الاقتصاد والتجارة

- الأوصاف الجغرافية والطبيعية لفلسطين.
- أهمية الزراعة .
- أهم المحاصيل الزراعية : (القمح - الزيتون - الكروم - الشعير - البقوليات- الأعشاب الطبية والعطرية - الفاكهة - اللوز - النخيل - قصب السكر - الموز - التين - الرمان - الجميز - التوت - القطن - السامان - الخروب - الزهور).
- العلاقات بين الصليبيين والفلاحين المسلمين .
- العلاقات الاقتصادية الخارجية .
- التنظيم الاقتصادى الداخلى .
- الطرق والمراكز التجارية بين الشرق والغرب .
- السلع المتبادلة بين الشرق والغرب (التوابل - المنسوجات - الأدوية الشرقية الطبيعية - مواد الصباغة - خيوط النسيج - المعادن - الأسلحة) .
- الرسوم الجمركية المفروضة على الصادرات والواردات - وضع التجار الإيطاليين فى أحيائهم ودورهم في عملية التبادل التجاري .
- النظام النقدى .

ساهمت الظروف الطبيعية والجغرافية بنصيب كبير فى الحياة الاقتصادية فى الأراضى العربية المحتلة . ويستفاد مما ذكره الرحالة والكتاب الذين زاروا فلسطين خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر أن سكانها كانوا يعتمدون على مياه الأمطار بصفة عامة لرى محاصيلهم الزراعية وسد حاجاتهم من مياه الشرب . ويظهر ذلك واضحاً فى المناطق الداخلية من البلاد وبخاصة القدس والمناطق المحيطة بها . وفى هذا الشأن يقول الرحالة دانيال الروسى الذى زار مدينة بيت المقدس فى بداية القرن الثانى عشر (١١٠٦ - ١١٠٧م) (١) ، : أن المدينة محاطة بوديان جافة كثيرة وجبال صخرية وهى : **«مكان خال تماماً من الماء» فالإنسان لا يمكن أن يرى فيها أنهاراً أو ينابيع أو آبار ماء ما عدا بركة سليمان ، ولذا فإن سكان المدينة والماشية كانوا يعتمدون على ماء المطر»** (٢) .

ولعل ما يدعم هذا القول مايذكره الرحالة الربى بنيامين التطيلى الذى قام برحلته إلى فلسطين فى حدود سنتى ١١٦٥ ، ١١٧٣م ، من أن غالب أهل القدس يشربون ماء المطر بعد أن **«يجمعوه فى صهاريج معدة لهذا الغرض فى البيوت»**(٣) .

أما القزوينى الذى كتب فى أواخر القرن الثالث عشر ، فقد عبر عن ذلك بأحسن تعبير بقوله إن : **«أرض وضياع بيت المقدس كلها جبال شاهقة وليس بقربها أرض طيبة وزروعها على أطراف الجبال ... وأرضها كلها حجر .. وشرب أهلها من ماء المطر ، وليس فيها دار إلا وفيها صهريج ، ومياهها تجتمع من الدروب ، ودروبها حجرية ليست كثيرة الدنس .. ولكن مياهها رديئة ، وفيها ثلاث برك : بركة بنى إسرائيل ، وبركة سليمان ، وبركة عياض..»**(٤) .

ومع ذلك ، فإن الزراعة كانت تشكل مورد الإنتاج الرئيسى فى الجزء الأكبر من فلسطين . ولا ننسى هنا أن ننوه إلى أن آيات الكتاب المقدس تتواتر لتثبت لنا

---

(١) بوغوليوبسكى ، **«رحلة السائح الروسى دانيال إلى الأراضى المقدسة فى أول عهد الصليبيين»** ، المشرق ، السنة الرابعة والعشرون ، العدد ٩ ، أيلول ، ١٩٢٦ ، ص ٦٤١ - ٦٤٧ .

(2) Daniel, P. 25 ,

(٣) بنيامين التطيلى ، ص ١٠٢ ، والحقيقة أن هذه العادة لاتزال متبعة حتى الآن فى بعض بيوت مدينتي القدس والعريش والمناطق المحيطة بهما .

(٤) القزوينى ، آثار البلاد وأخبار العباد ، (بيروت ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م) ، ص ١٦٠ .

أن الزراعة كانت موردا أساسيا ومرموقا فى الوقت نفسه بين الموارد الاقتصادية للأراضى المقدسة بأكملها . وقد عبرت تلك الآيات عن ذلك بأكثر من طريقة ، فمن جهة ، نجد أن الكتاب المقدس يصف أرض فلسطين بأنها **«جيدة»**(١) ، و**«واسعة»**(٢) ، و **«تفيض لبنا وعسلا»**(٣) ، وفيها **«أنهار من عيون وغمار ، تنبع فى البقاع والجبال»**(٤) . كذلك يشير بوجه عام إلى الزرع واختلاف أنواعه، ثم يعدد بشكل مفصل بعض هذه الأنواع مثل الحنطة والشعير والزيتون والرمان والتين والكروم وعدد من الفواكه الأخرى (٥) .

وفى هذا الشأن يقول المقدسى شاهد العيان، الذى زار القدس فى القرن العاشر أن الله قد جمع فيها : **«فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز»**(٦) .

أما ناصر خسرو الذى زار فلسطين فى أواخر القرن الحادى عشر، فيؤكد فى كتابه أن : **«سواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها ، والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها دون ماء والخيرات بها كثيرة ورخيصة »**(٧) .

ويؤكد الرحالة دانيال أن الحنطة كانت تنمو بسهولة فى تلك الأرض الصخرية التى افتقرت إلى ماء المطر(٨) . ويذكر هذا الرحالة أن محصول القمح ومحصول الشعير كانا من الدرجة الأولى ، وكان المكيال من البذور يغل على صاحبه نحو تسعين أو مائة مثل(٩) . وهو يعزو ذلك ، بطبيعة الحال ، إلى الإرادة الإلهية(١٠) ، ويقرر دانيال أن الأراضي المجاورة للقدس يوجد بها كثير من الكروم

---

(١) سفر الخروج ، ٣ : ٨ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، ٣٣ .

(٤) سفر التثنية ، ٨ : ٧ .

(٥) نفسه ، ٨ : ٨ .

(٦) المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (طبع ليدن بمطبعة بريل سنة ١٩٦٩)، ص ١٦٦٠ .

(٧) ناصر خسرو ، ص ٢٠ .

(8) Daniel, P. 26 .

(9) Ibid.

(10) Ibid.

وأشجار الفاكهة ، وأشجار الزيتون ، وأشجار التين ، وأشجار الجميز ، وعدد لايحصى من الأشجار الأخرى [١] .

أما بوركهارد الراهب الدومنيكاني الألماني الذى كتب عن الأرض المقدسة سنة ١٢٨٣م، فإنه يقول : **«الآن يجب أن تعرف الحقيقة كاملة ، أن كل الأرض المقدسة ، كانت ولا تزال أحسن من كافة الأراضى ، ولو أن بعض الذين لم ينظروا إليها باهتمام يقولون عكس ذلك . إنها خصبة جدا فى إنتاج الحبوب التى تبذر وتنبت بقليل من الجهد»**[٢] .

هذا عن القدس ، أما الخليل وما جاورها فإنها بلاد الله المرجاة ، كثيرة القمح والكروم والزيتون ، وجميع أصناف الخضروات وأغنامها تلقح مرتين فى العام ، ونحلها يبنى خلاياه فى صخور جبالها الجميلة المكسوة سفوحها بما لايحصى من الأشجار المثمرة كالزيتون والتين والخرنوب والتفاح .. وليس تحت السماء مكان يعدل هذه البقعة[٣] .

وقد قسم ثيودوريتش فلسطين إلى أقسامها الطبيعية الثلاثة ، وهى الجليل والسامرة وجبال القدس ، ويخلص إلى ذكر حدود القسم الثالث منها، ثم يقول: إن بلاد القدس جبلية ويبلغ أقصى ارتفاعها حول المدينة المقدسة ، وهذه الجبال صخرية لكن صخورها جميلة..[٤] أما حيث يتجمع بعض التراب بين الصخور فتنمو جميع أنواع الفواكه ، وتكون الجبال مكسوة بالكروم والزيتون والتين ، أما الأودية فتملأها الحبوب والبساتين[٥] .

من كل ماسبق ، نرى أن أنواع المحاصيل التى تنمو فى فلسطين كانت متعددة ، كما رأينا فقد أشار الكتاب المقدس والرحالة شاهدى العيان إلى عدد لابأس به سواء فى ذلك الفواكه أو الحبوب أو الخضروات . ولكن تبرز من بين هذه المحاصيل والثمار ثلاثة أنواع بوجه خاص هى : القمح والزيتون ، والكروم . وكان مما يلفت نظر القادمين من أوروبا إلى مملكة بيت المقدس ، هو أن سكانها كانوا

(1) Daniel, P. 26.

(2) Burchard, P. 99.

(3) Ibid, P. 46.

(4) Theoderich, P. 2.

(5) Ibid. P. 33.

يأكلون الأرغفة البيضاء المستديرة المخبوزة فى أفران السكان الوطنيين . وهذا الخبز كان مصنوعا بلا شك من القمح، الذى يعتبر المحصول الرئيسى فى الشرق الأدنى فى ذلك الوقت(١) .

ومع أن أجود أنواع القمح تنمو الآن فى وادى زرعين ومنخفض الأردن، إلا أن منطقة الحبوب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانت شيئا مختلفاً عن ذلك تماما . فقد كانت المناطق التى تنتج الحنطة بكثرة للصليبيين والمسلمين فى الشام على حد سواء هى المناطق التى تقع شرق نهر الأردن، وشمال شرق بحيرة طبرية . وفى الشمال كان إقليم السواد ، وشرق بحيرة طبرية والجولان وشرق حوران ، هى المنتجع التقليدى للبلاد . وكانت أكبر مراكز إنتاج القمح فى المنطقة تقع حول شاوا فى الشرق، وبالقرب من وادى بانياس الخصيب فى الغرب ، وتمتد إلى الغرب حتى أودية الخليل حول تبنين(٢) .

ويوجد فى الجزء الغربى من البلاد حقول قمح واسعة . وأجود أصناف هذا القمح كانت تزرع فى شيفايلا ، وهى منطقة ذات تلال تقع بين السهل الساحلى والجبال المركزية للضفة الغربية . وقد أثنى الرحالة على الجزء الغربى من هذه المنطقة لجودة قمحها ، وتبدأ مناطق زراعة القمح من المدخل الغربى لوادى زرعين، ومرتفع قيصرية على الشاطيء ، وتمتد فى اتجاه الجنوب حتى الرملة وعكار وبيت جبرين ، ولقد اشتهرت كل من قيصرية والرملة وعكار بخبزها الأبيض(٣) .

وفى السهل الساحلى زرع القمح حول عسقلان وغزة وبالقرب من دير البلح. ومن هذه المنطقة الجنوبية كان المزارعون الوطنيون يصدرون القمح إلى القدس قبل مجيء الصليبيين إلى هناك . ولكن بعد احتلال الصليبيين لفلسطين ، فإن معظم الأراضى الزراعية الموجودة فى هذه المنطقة قد أصابها التدمير والخراب(٤) . وقبيل منتصف القرن الثانى عشر (حوالى عام ١١٤٠م) ، استوطن الصليبيون بيت جبرين وتل الصافى ، وبعد خمسة عشر عاما من هذا التاريخ وقعت عسقلان فى أيدى

(1) Prawer, Latin Kingdom, PP. 358 - 9 .

(2) Ibid .

(3) Ibid, P. 359 .

(4) Ibid.

الصليبيين الذين تمكنوا بعد سنوات قليلة من استيطانها من أن يستصلحوا الجزء الأكبر من الأراضى المحيطة بها ، وأن يعيدوا لها خصوبتها السابقة(١) .

ومع أن القمح كان المحصول المفضل لدى غالبية الصليبيين إلا أن بعض المناطق زرعت بالشعير الذى كان الإقبال عليه أقل كثيرا من الإقبال على القمح . وتقع هذه المناطق بصفة خاصة حول الخليل، وتمتد حول قرى الكرمل وساموع على حافة الصحراء الجنوبية الكبرى وحتى الشمال فى اتجاه مدينة بيت لحم(٢) .

وأثناء الاحتلال الصليبى لفلسطين، أصبحت المناطق الممتدة من بيت لحم إلى القدس والرملة والجبال اليهودية مأهولة بالسكان . وعلى الرغم من نقص الينابيع ومياه الرى فى هذه الجبال كانت المحاصيل الزراعية بها وفيرة لدرجة أن الرحالة الروسى دانيال سابق الذكر ، اعتبر أن ذلك هبة من الله(٣) . وفى منتصف القرن الثالث عشر فإننا نسمع أن شراء قطعة من الأرض فى هذه المناطق قد صار من الصعوبة بمكان ، وقد يرجع ذلك إلى كثافة الاستيطان الصليبى هناك(٤) . ومن بيت لحم شمالاً إلى البيرة والرملة على الطريق الرئيسى المؤدى إلى سبسطية تنافس الدومين الملكى وطوائف الرهبان والفرسان والكنائس والأديرة على شراء الأرض ، وإن كان اهتمامهم الرئيسى بهذه المناطق يعود فى المقام الأول إلى جودة كرومها وليس إلى القمح فى حد ذاته(٥) .

والحقيقة أن الزراعة فى تلك المناطق لم تكن سهلة دائما ، وتشهد المصاطب القديمة على منحدرات الجبال على مدى الجهد البشرى المطلوب لزراعتها ، ومادام أن الانتفاع بجهود الحيوان لاستصلاح تلك المناطق الجبلية كان مستحيلاً، فقد كان الفلاحون يفتتون التربة بالمعازق(٦) .

---

(1) William of Tyre, II, P. 236 .

(2)Theoderick, P. 53.

(3) Daniel, P. 26 .

(4) Prawer, Latin Kingdom, P.360.

(5) Ibid.

(6) Ibid.

وبالإضافة إلى القمح والشعير الذين كانا المحصولين الرئيسيين فى مملكة بيت المقدس ، كان الفلاحون يزرعون الذرة والشوفان والعلس ، وهى محاصيل يمكن استخدامها فى تغذية الإنسان والحيوان على حد سواء . أضف إلى ذلك البقوليات والخضروات مثل اللوبيا والفاصوليا والفول والعدس والحمص . كذلك زرع الفلاحون الخيار والقثاء والقاوون الأصفر (الشمام) والقاوون الأحمر (البطيخ)(١) . ولانعرف على وجه التحديد أكان البصل العسقلانى الشهير يزرع فى ذلك الوقت أم لا، وإن كان البصل والثوم والخردل يشاهد بصفة عامة على موائد الصليبيين(٢) .

علاوة على ذلك كانت التربة فى فلسطين تعطى أعشابا طبية وعطرية استخدمها الصليبيون كتوابل . ومن بين هذه الأعشاب نخص بالذكر الشمر والمريمية والسذاب(٣) ، الذى كان يوجد بصفة خاصة فى قرية العنب، وهى على بعد بضعة أميال من القدس(٤) . ويمكن استخدام تلك الأعشاب فى الأغراض الطبية أيضا .

وقد أحاط بجميع مدن مملكة بيت المقدس الحدائق وبساتين الخضروات، وغزرت فيها أحراش الزيتون التى كانت تقوم عادة عند أقدام التلال ، حيث تتراكم التربة الخصبة الصالحة لإنمائها . وكانت المناطق الرئيسية لزراعة الزيتون تقع فى الجزء الجنوبى من البلاد . وفى سبسطية وجد أحد الحجاج النصارى ، فى بداية القرن الثانى عشر ، أشجار الزيتون مزروعة فى غابات مثل البساتين . وهى الأشجار التى كان الجغرافيون والرحالة المسلمون قد أثنوا عليها قبل ذلك الوقت بقرن من الزمان . وقد كان الزيت المصفى فى هذه المناطق يصدر قبل الاحتلال

---

(١) يذكر ابن بطوطة (جـ١ ، ص ٤٢) أن البطيخ كان يزرع فى نابلس **«وهو طيب وعجيب»**.

(2) Prawer,Op. Cit., P. 361.

(٣) هو نبتة طبية ذات أوراق مرة ، واسمه العلمى Ruta Graveolens انظر : الغمراوى، دراسة فى المنهج التطبيقى لتاريخ الطب العربى ، (القاهرة ، ١٩٧٩م) ، ص ٦٠ ، هـ ٥٩ .

(٤) فى هذا الشأن ، يقول ناصر خسرو ،ص ١٩ ، **«.. وقد سرت منها (الرملة) إلى قرية أخرى تسمى قرية العنب .. وقد رأيت فى الطريق كثيرا من نبات السذاب الذى ينبت بريا على الجبال وفى الصحراء»**.

الصليبى إلى البلاد المجاورة(١) .

كانت أهم مراكز زراعة الزيتون تقع بالقرب من الخليل والقدس ونابلس ، وبيت لحم . وما يدعو إلى الدهشة أن الرحالة لم يشيروا أبداً إلى أشجار الزيتون فى الخليل ، ويمكن أن يكون ذلك مصادفة ، أو يحتمل أن يكون ذلك انعكاساً للحقيقة فى ذلك الوقت . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى ، فإن كل المدن الساحلية ابتداء من عسقلان فى الجنوب مروراً بيافا وأرسوف وقيصرية وعكا كانت محاطة ببساتين الزيتون(٢)، وفى منطقة عكا استغلت بساتين الزيتون على أساس تجارى ، حيث كان الزيتون يعصر فى كل القرى . وكانت معاصر الزيتون ، تدار فى الغالب بواسطة الحيوان ، وأحياناً كان يتولى الفلاحون إدارتها(٣).

وكان السمسم مصدرا آخر من مصادر الزيت النباتى(٤) وأوان زراعته أواخر «بؤونة» ، ومقدار ما يحتاج إليه الفدان بدارة ربع أوقية ، ووقت إدراكه «توت» والذى يتحصل منه أردب واحد إلى خمسة(٥) .

ولا يجب أن ننسى الكروم ، إذ كانت العناية بها تفوق حد الوصف ، وذلك لثمرها على أنواعه ولعصيرها أيضاً . وقد اعتبرها الرحالة الروسى دانيال أحسن من كل أنواع الفاكهة الأخرى ، وقال إنه يمكن مقارنتها بفاكهة السماء . وأثناء الحكم الإسلامى لفلسطين منع المسلمون بطبيعة الحال استهلاك الكحول، ولذلك حددوا عدد المزارعين اللازمين لزراعة الكروم ، وإن كان النصارى قد عملوا فى صناعة النبيذ تحت الحكم الإسلامى . وقد أدى ازدياد الطلب على النبيذ إبان الاحتلال

---

(1) Prawer, Latin Kingdom, PP.361.

(٢) يذكر ناصر خسرو (ص ٢٠) ، «**الأرض فى نواحى القدس مستغلة استغلالاً طيباً، والزيتون هناك كثير ويبلغ الدخل السنوى لبعض كبار المثمرين خمسين ألف بيزانت**» . إما ابن بطوطة (جـ١ ، ص ٤٠ – ٤١) فإنه يقول عن نابلس إنها «**مدينة عظيمة كثيرة الأشجار مطردة الأنهار ، من أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق**». انظر كذلك الأدريسى ، جـ٥ ، ص ٣٦٤ ، وأيضا :

Burchard, P. 16,

(3) Prawer, Loc. Cit.

(4) Idem, P. 62.

(٥) ابن مماتى ، ص ٢٦٨ .

الصليبي لفلسطين ، إلى انتعاش صناعة النبيذ مرة أخرى ، وبالتالى ازدادت المساحات المزرعة بالكروم(١) .

وقد أحاطت مزارع الكروم بكل المدن الساحلية تقريبا ، ولكن فى التلال والمناطق الجبلية كانت تلك المزارع توجد بوفرة . وقد زرع الفلاحون الكروم على الشاطىء شمال صيدا ، وفى الجليل وبصفة خاصة حول بحيرة طبرية والناصرة وعلى الطريق الممتدة من سبسطية إلى القدس ، وحول نابلس والرملة والقدس وبيت لحم ، والخليل (٢) وكذلك حول عسقلان وارسوف ويافا وطرابلس(٣) ، وهناك إشارات عديدة إلى أن الكروم كانت تزرع فى المناطق المحيطة بعكا وحيفا(٤)، وفى نهاية القرن العاشر كان الفلاحون يزرعون نوعين من العنب حول القدس . وكان النوع الأول يدعى باسم العينوني والآخر باسم الدورى ، وهما الصنفان الشهيران اللذان كان يصدران إلى الأقطار المجاورة(٥) .

ومما يلفت النظر فى مجال زراعة الكروم ذلك الاهتمام الكبير الذى أبدته المؤسسات الكنسية الصليبية بهذا النشاط . ففى القرى التى استوطنها رهبان كنيسة القيامة على الطريق من القدس إلى الرملة كانت مزارع الكروم بارزة للعيان ، وفى مناطق أخرى فإننا نسمع إن إدارة طوائف الرهبان الفرسان حولت كثيرا من حقول الذرة إلى مزارع لكروم العنب . ولعل السبب فى ذلك يعود إلى رغبة تلك الإدارة فى تلبية كافة احتياجات أفرادها من النبيذ . ولكن لايوجد شك فى أن الكروم كانت أكثر ربحا من حقول الذرة(٦) .

وبالإضافة إلى ذلك اشتهرت فلسطين بفاكهتها الممتازة كالتفاح والكمثرى والجوز والبندق والكرز والخوخ. وكان التفاح يزرع فى المناطق المحيطةبالقدس ، وفى تدمر وبيسان . أما سبسطية فتوجد فيها أشجار قليلة من الجوز والبندق (٧) .

أما اللوز فهو من الأشجار الوطنية التى لاينكر فضلها ، وزراعتها أسهل من

---

(1) Prawer, Latin Kingdom, P.362.

(٢) Theoderick, P. 53. ؛ بنيامين التطيلي ، ص ٩٥ – ٩٦ .

(٣) Burchard, P. 16. ؛ الأدريسى ، جـ٥ ، ص ٣٦٤ – ٣٧٢ .

(٤) ابن عبد الظاهر ، ص ٣٤ – ٤٢ .

(٥) المقدسى ، ص ١٧٩ .

(6) Prawer , Loc.Cit.

(7) Ibid , P. 363 .

سواها فى فلسطين ، لأن شجر اللوز كالزيتون منه ، وأكثرمنه ينمو فى الأراضى القاحلة والتربة الكلسية ، ومعظم أراضى فلسطين تركيبة من هذا النوع . ثم إن هذا الشجر لا يقتضي عناية خاصة ، وثمره يبلغ فى الشجرة الواحدة من ١٥ كيلو إلى ١٠٠ كيلو جراما ، ويباع بأسعار مرتفعة . وهذا ما ساق الشركات الإسرائيلية فى الوقت الحالى فى سواحل يافا إلى أن تكثر من أنصاب اللوز فتقوم منه غابات فى بعض حدائقها . ومن خواص ثمر اللوز أن تهيئته لاتستدعى نقله وهو يبقى زمنا طويلا[١].

ويحظى النخيل وما ينتجه من تمر ورطب بأهمية كبرى فى فلسطين ومما يستوجب الالتفات هنا أن القرآن الكريم يشير إلى وجود النخيل فى فلسطين منذ القدم ، وهذا يدل بلا شك على أهميته بالنسبة لسكانها[٢] . وتكثر زراعة النخيل فى جوار حمص وتدمر ، كما فى الغوربيسان[٣] والرملة وحيفا وقيسارية وصور .

ويمكن القول أنه كان يزرع فى بيت لحم أيضا ، ولعل أشهر منتجاته كانت أريحا[٤] ، كما كان يزرع كذلك حول كثير من المدن الساحلية . أما طريقة زراعته فكان **«يزرع نوى عند إدراكه رطبا ، ومنه ما يحول وديا منقولا بشرط حفظه جهته»**[٥] . وكان البلح ذو اللون الأصفر الذى يزرع فى تلك المناطق يصدر إلى الخارج أثناء الحكم العربى لفلسطين[٦] .

كما كانت مغارس القصب تكثر فى فلسطين ، فحينما وصل الصليبيون إليها تبين لهم أن قصب السكر تكثر زراعته فى مناطق ساحلية عديدة وفى وادى الأردن

---

(١) الأب هنرى لامنسى اليسوعى ، **«الفلاحة والأحراج اللبنانية»** ، المشرق ، السنة الثامنة ، ١٩٠٥م ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) جاء فى سورة مريم : ٢٢ «فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا». وكذلك « وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا » سورة مريم: ٢٤ . هذا وقد شاهد ابن بطوطة (جـ ١ ، ص ٣٩) ، فى بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام وبه أثر جذع النخلة .

(٣) الأدريسى ، جـ ٥ ، ص ٣٥٦ ، ابن القلانسى ؛ ص ١٧٨ ؛ ناصر خسرو ص ١٨ .

(٤) القزوينى ، ص ١٤٢ ؛ المقدسى ، ص ١٦٢ ، ١٦٤ ؛ الإدريسى ، ص ٣٥٦ .

(٥) ابن مماتى ، ص ٢٧١ .

(6) Prawer, Latin Kingdom,P.363.

فواصلوا زراعته . والحق أن قصب السكر لم يكن معروفا فى أوروبا قبل الحروب الصليبية ، فلما أتى الصليبيون إلى الشام تذوقوه لأول مرة خلال حصار أنطاكية - من ٢٠ أكتوبر إلى ١٨ يونيو ١٠٩٨م - وفى هذا الشأن يقول وليم الصورى : **«زادت غزارة الأمطار من آلامنا ، ولما كان الكثير من التعساء لا يملكون سوى مايرتدونه ، ماتوا من قسوة البرد ، إذ لم يكن لديهم غطاء يلتحفون به لأيام عديدة، ولوحظ النقص فى الخيم والأخشاب ، ومن أجل تهدئة غائلة الجوع ، وجد هؤلاء التعساء ضالتهم فى نبات حلو صاروا يمضغونه باستمرار ، وأطلقوا عليه عصا وعسل»**(١) .

وقد بلغ من عناية الصليبيين بقصب السكر ، أنهم أعفوه من الضريبة تشجيعاً لزراعته ، فاتسعت مغارسه على طول الساحل من طرابلس إلى صور . هذا فضلا عما كان من مغارس له بالقرب من البحر الميت ، وكان المحصول منه يعرف عند الصليبيين باسم **«سكر الكرك والشوبك»**(٢) ؛ ولأن المياه الغزيرة هى إحدى الدعائم الأساسية فى زراعة نبات قصب السكر ، فإننا نجد أن هذا النبات يزرع فى المناطق وفيرة المياه بصفة عامة ، وبالقرب من بحيرة طبرية بصفة خاصة . ومن هذه المنطقة استمد الاسبتارية حاجاتهم من السكر . كما كثرت زراعة قصب السكر فى وادى الأردن المشهور بينابيعه المختلفة(٣) . وكذلك فى معظم المدن الساحلية مثل عكا وصور وطرابلس وعسقلان(٤) ، **«ويزرع القصب بطريقة العقل ويدفن فى الأرض زوجا زوجا ، ولا يمكن عمل أقل من عينين فى القطعة، وتسقى الخلفة فى برمودى بعد تحريقها ، ووقت إدراك الرأس فى طوبة ، والخلفة فى النصف من هاتور»**(٥) .

أما بساتين الفاكهة فإن منتجاتها من الليمون والبرتقال قد فتنت الصليبيين

---

(1) William of Malmesbury ap. Thompson (J.W.), Economic and Social History of The Middle Ages, 300 - 1300), I, (New York 1959), P. 395 .

(٢) النقاش ، العلاقات ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(3) Burchard, P. 99 ; Jacques de Vitry, PP. 27 - 28, 30 .

(٤) Burchard, P. 16 . ، ابن الأثير ، الكامل ، جـ٨ ، ص ٢١٢ .

(٥) ابن مماتى ، ص ٢٦٦ .

بحمضها الحلو ، وعبيرها القوى النفاذ . وتوجد زراعة الليمون والبرتقال على الشاطىء بالقرب من قيصرية ، وفى داخل البلاد حول قلعة مونتفورت وفى الشمال بالقرب من بانياس(١) وكذلك طرابلس(٢).

ومما تكثر زراعته فى فلسطين الموز ، وقد وصفه الحجاج الصليبيون على نحو دقيق ، وأطلقوا عليه اسم تفاح الجنة(٣) . ويزرع الموز على طول نهر الأردن بصفة خاصة ، والأودية المسطحة الرطبة على الضفة الشمالية بصفة عامة ، ولعل طرابلس وأريحا كانت من المدن التى اشتهرت بزراعته(٤) .

وهناك نوع آخر من الفاكهة اهتم به الصليبيون ، وهو الأصناف المختلفة من التين وكانوا يأكلونه طازجا أو مجففا أو محشواً فى الكعك . ويبدو أن أشجار التين كانت مألوفة فى الجبال داخل البلاد . وقد أشار الحجاج الصليبيون إلى أشجار التين المنتشرة فيما بين الخليل وسبسطية وكذلك الرملة ويبنى وقيصرية وطرابلس ، ولكن لسبب ما لم يشيروا إليه فى الجليل (٥) .

أما شجر الرمان الذى كانت تفتخر به البلاد ، وتنقش صوره على النقود القديمة ، فلم يشر إليه الحجاج إلا نادرا . ونسمع عن شجر الرمان فى جرش وبالقرب من نابلس وفى منطقة ما وراء نهر الأردن(٦) .

وقد اهتم الصليبيون بزراعة شجر الجميز ، واستخدموا أخشابه فى البناء

---

(1) Anonymous Pilgrims, P. 34 .

(٢) يذكر ناصر خسرو (ص ١٣ ، ص ١٨) أن أشجار النارنج والتارنج والليمون كانت تنمو حول طرابلس وقيسارية .

(٣) انظر على سبيل المثال :

Anonymous Pilgrims, Loc. Cit.; Burchard, P. 100.

(٤) ناصر خسرو ، ص ١٣ .

(5) Burchard, P. 102; Anonymous Pilgrims, P. 35.

هذا ويذكر خسرو (١٩) أنه يوجد فى **«الرملة صنف من التين ليس أحسن منه فى أى مكان ويصدر منها إلى جميع البلاد»** . ويقول ابن بطوطه (جـ١ ، ص ٤٦) أن أكثر أشجار المعرة **«التين .. ومنها يحمل إلى مصر والشام»** . أنظر كذلك الأدريسى ، جـ٥ ، ص ٣٦٣ .

(6) Prawer, Latin Kingdom, P. 365.

والشئون الحربية . وينمو الجميز حول عسقلان والخليل . غير أن هذا الشجر الذى كانت له أهمية كبرى فى اقتصاد البلاد فيما مضى لم يلعب الدور نفسه إبان الاحتلال الصليبى لفلسطين(١) .

ولم تكن عناية الصليبيين بزراعة التوت لتقل عنها بزراعة ماسبق ذكره. وقد أشار الحجاج الصليبيون إلى شجر التوت فى جبال الضفة الغربية وسبسطية. وتجدر الإشارة إلى أن التوت كان الغذاء الرئيسى لأفراد الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة الذين كانوا يحاصرون عكا(٢) .

كما اشتهرت مزارع القطن فى جوار طرابلس . وقد ذكر بوركهارد أن القطن كان ينمو فى شجيرات يبلغ طولها أحيانا إلى ركبة الرجل(٣) . هذا ويقول الإدريسى أن السامان الذى يعمل منه الحصر السامانية ينبت فى مدينة بيسان . ويضيف الإدريس قائلاً : **«ولا يوجد نباته البتة إلا بها وليس فى سائر الشام شيء منه»**(٤) . ومن المحصولات الزراعية أيضا الكتان ، وعروق الصباغين والزعفران والنيلة(٥).

أما شجر الخروب فقد كان ينبت من تلقاء نفسه؛ أى عفوا فى كل الأمكنة القاحلة ولا يحتاج إلى عناية خاصة كما أن قلة ماء الأمطار أو كثرتها لاتؤثر فيه. ومما يزيد الخروب نفعًا أن ثمره سكرى(٦) . وقد عرف قدماء العبرانيين منفعته فأطعموه الخنازير وغيرها من الراعية(٧) . ويستعمل الخروب فى الصباغة وعمل السكر وعلف الأنعام ، وكذلك خشبه صلب سمط يصبر على الزمان دهرا طويلا فيرغب فيه لذلك . وغاية ما يؤخذ على الخروب أنه كالزيتون لايأتى بثمره قبل سنته العاشرة(٨) . ويقول ابن بطوطة عن طرابلس : **«وبها تصنع حلواء الخروب**

---

(1) Prawer, Latin Kingdom, p. 365.

(2) Ibid.

(3) Burchard, P. 99.

(٤) الإدريسى ، جـ ٥ ، ص ٣٥٦ .

(٣٥) النقاش ، العلاقات ، ص ١٧٧ .

(٦) اليسوعى . **«الفلاحة والأحراج اللبنانية»**، ص ١٨٢ .

(٧) **«وكان يشتهى أن يملأ بطنه من الخروب الذى كانت الخنازير تأكله فلم يعطه أحد»**، انظر إنجيل لوقا ١٥ : ١٦ .

(٨) اليسوعى ، **«الفلاحة والأحراج اللبنانية»** ، ص ١٨٢ .

وتجلب إلى دمشق وغيرها ، وكيفية عملها أن يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضاً إلى مصر والشام،[١] .

كان الصليبيون يهتمون كذلك بزراعة شجيرات عدة من ذوات الأزهار العطرية كالورد والأكاسية والقرنفل والزنبق والريحان والنرجس والبنفسج وعرس النيل والحنة[٢] .

ولو رحنا الآن نقابل بين ما كانت عليه الزراعة فى فلسطين، وما كانت عليه فى أوروبا فى ذلك العصر ، لرأينا الفرق عظيما والبون شاسعا . وهذه الحقيقة نفسها تجعلنا نستنتج أن ما أفاده الصليبيون فى هذا المجال ، لا بد أن يكون متناسبا مع الزمن الذى قضوه فى تلك البلاد يحتكون فيه بأهلها وطرق زراعتهم وأسبابها ، ومتفقاً مع درجة تأخرهم وتقدم المسلمين فيها . ومما اتفق عليه مؤرخو الصليبيين، مثل وليم الصورى ويعقوب الفيترى أنهم ما كادوا يتعرفون إلى السكر وحلاوته فى أوطانهم الجديدة حتى بادروا إلى نقل زراعة قصبه إلى بلادهم .

وكذلك نقلوا المشمش والخوخ والكمثرى . ومن جملة ما نقل من الحاصلات الزراعية إلى أوروبا عن طريق فلسطين ، وهى من أصل هندى أو يمنى ، التمر الهندى والأفاوية والطيوب والبهارات ، وأخصها القرفة وكذلك الذرة الشامية[٣].

ونستطيع أن نقرر أنهم نقلوا زراعة السمسم والخروب والدخن والأرز والليمون والبطيخ والثوم . وآية ذلك أن أسماء بعض المزروعات فى بعض اللغات الأوروبية يقرب لفظه من الأصلى العربى [٤] . غير أنه ينبغى إنصافاً للحقيقة أن نشير هنا إلى أنه توجد صعوبات فيلولوجية فى رد تلك المفردات إلى الأماكن التى انتقلت منها إلى أوروبا . ولاشك أن بلاد الشام لم تكن فى الواقع المكان الوحيد لذلك . والواقع أن تكون صقلية وإسبانيا مكانين آخرين جرى فيهما هذا الاستمداد اللغوى . كما أن اتصال الغرب الدائم خلال أجيال سحيقة بالعالم الناطق بالعربية عن طريق التجارة والقرصنة كانت كذلك ظروفا زمانية ومكانية محتملة لهذه الاستعارة[٥] .

---

(١) ابن بطوطة ، جـ١ ، ص ٤١ .

(2) Burchard, P. 99.

(٣) النقاش ، العلاقات ، ص ١٧٧ – ١٨٧ .

(4) Pirenne, (H) Economic, and Social History of Medieval Europ (London, 1937) P. 145 .

(5) Barker, the Crusades, P. 57 .

كان العاملون في المجال الزراعى يؤلفون بمجموعهم العنصر الوطنى الأصيل الذين ظلوا ،على مر الأجيال والقرون وتعاقب الغزاة والفاتحين، يشكلون النواة الحية للشعب في السهول والجبال وبطون الوديان ، ولا عجب أن استمروا يكونون الطبقة المنتجة في ظروف البلاد المختلفة وعهودها المتباينة . وفى هذا الشأن يقول ثيودوريك الذى زار فلسطين فى بداية الربع الأخير من القرن الثانى عشر (حوالى ١١٧٢مم) : **«وبينما نحن فى الطريق (بين نابلس والقدس) قابلتنا جماعة كبيرة من المسلمين يقودون الثيران والحمير وهم فى طريقهم لحرث سهل واسع جميل .. وقد أثاروا فى نفوسنا غير قليل من الذعر .. والحق أنه يقيم فى تلك الجهات عدد كبير منهم ، كما يقيمون فى المدن والقلاع ويعيشون من العمل فى الأرض تحت إشراف ملك القدس أو رئيس الداوية»**(١) .

ولعل ما يدعم هذا القول أن ابن جبير عندما رحل من تبنين فى طريقه إلى عكا لاحظ أن هذا الطريق كله : **«ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلهم مسلمون ، وهم مع الأفرنج على حالة ترفيه .. إنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم فى غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا ومساكنهم بأيديهم ، وجميع أحوالهم متروكة لهم»**(٢) . ويستطرد ابن جبير قائلا إن : **«كل ما بأيدى الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل : رساتيقها كلها للمسلمين ، وهى القرى والضياع»**(٣) .

ويظهر من الأدلة المتوافرة أن الصليبيين ، كعنصر حاكم ، لم يغيروا عرف من سبقهم من العناصر . ونظرا لجهلهم بظروف الأرض كان من الطبيعى أن يعيدوا إلى السكان الوطنيين مسألة الاهتمام بمتابعة استغلال الأرض لصالح النزلاء الصليبيين وحسب تقاليدهم الخاصة . فكما حدث فى أوروبا ، استمر منح السادة الإقطاعيين الأراضى لأتباعهم يمثل جزءا أساسيا فى العلاقة الإقطاعية . بيد أن أولئك الأتباع استفادوا من أملاكهم ، ليس باستغلال مايملكونه من أراض وما عليها من مبان بواسطة مايقدمه مستأجروها غير الأحرار من خامات عمالية ، وإنما مثل

---

(1) Theoderick, P. 61 .

(٢) ابن جبير ، ص ٢١٠ .

(٣) نفسه ، ص ٢١١ .

العناصر الأخرى التى سيطرت على فلسطين قبلهم ، بتقاضى أجرة سنوية نقدا أو عينا من أولئك المستأجرين[١] . وثمة دلالة فى الارتفاع النسبى فى نسبة الإقطاعات والهبات التى لم تكن على شكل أراضى ، بل نقدا وحقوقا مالية إلى البدو ، والحقيقة أن اقتسام الأراضى مع الحكام المسلمين تم بصورة متكررة حسب إيراداتها[٢] . ويبدو أن الصليبيين فى فلسطين احتفظوا بنظام حصلوا بواسطته على الدخل الحكومى من السكان الوطنيين ، وتركوا لهم قدرا كبيرا من الحرية فى إدارة شئونهم المحلية .

ومع ذلك كان أولئك السكان يرفضون فى بعض الأحيان دفع تلك الإتاوات المفروضة عليهم . ولا أدل على ذلك من أن الصليبيين فى عهد بلدوين الثانى وجدوا صعوبة فى جميع الإيرادات المستحقة على الفلاحين المسلمين فى لبنان فى المناطق المرتفعة المطلة على بيروت ، ولذلك أنشأ الصليبيون قلعة جلافيانوس Glavianus ، لإجبار أولئك المسلمين على دفع الإتاوات المطلوبة منهم [٣] . ومن الراجحَ أن صعوبات مماثلة قامت فى مناطق مقسمة بين الصليبيين والمسلمين .

---

(١) قبل الاحتلال الصليبى لفلسطين ، كانت إحدى الميزات البارزة فى التنظيم الاجتماعى بين سكانها ، هى العرف الذى تنازل بمقتضاه الفلاحون الذين يزرعون لملتزم الضرائب أو المالك الذين كانوا يستأجرون أرضه ، عن جزء من إنتاجهم أو جزء من الدخل المستمد من بيعه . وكان من عادة الحكومة المركزية أن تمنح الفرد حق استغلال أرض أو حتى امتياز إدارة منطقة ، مقابل تحويله مبلغاً سنوياً متفقاً عليه للخزانة ، ومثل هذه المنح كان يجرى تقديمها للجنود فى كثير من الأوقات . وفى خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر أصبح العرف العام الوحيد فى إدارة الإمبراطورية السلجوقية هى امتلاك الأرض أو حكم الإقليم مقابل الخدمات العسكرية . وهكذا نشأت حالة مماثلة للنظام الإقطاعى فى فلسطين وأصبحت على استعداد لتقبل العادات الإقطاعية . فمن وجهة نظر الفلاحين كان ما يدفعونه من مبالغ مالية للصليبيين يمثل التزامهم الرئيسى تجاه السلطة . انظر :
Smial, Crusading Warfare, PP. 58-59.

(٢) ابن جبير ، ص ٢١٠ ؛ القلقشندى ، جـ ١٤ ، ص ٣١ - ٣٩ ، ص ٤٣، ٥٠ ؛ ابن عبد الظاهر، ص ٣٤ - ٤٢ .

(٣) Fulcher of Chartres, P. 282. لعلها ديرالقلعة التى تبعد ستة أميال إلى الشرق من بيروت ، ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر بحوالى ٢,٢٠٠قدم .

ويبدو أن التقسيم تم بصورة شبه دائمة حسب الإيراد ، وشكل جمع الإتاوات من الفلاحين المسلمين الممتنعين عن الدفع ، والذين شجعهم على ذلك قرب السلطة الإسلامية التى كانت قد تقاسمت المنطقة مع الصليبيين ، مشكلة إدارية محتملة الوقوع . ويصف وليم الصورى مثل هذا الموقف فى السواد ، فهناك أيضاً كان الصليبيون قد أدخلوا عنصر القوة الضرورى على شكل قلعة وحاميتها[١] . وربما يكون أكثر الأمثلة توضيحا هو مثال قلعة الداروم التى مكنت الملك أمارى من تنظيم جمع الإتاوات بصورة أسهل وأكثر فعالية من كل الفلاحين فى القرى المحيطة بالقلعة ، والبدو ، وربما القوافل المارة عبر الإقليم[٢] .

وقد حاول الصليبيون أن يفرضوا سيطرتهم على الفلاحين المسلمين القاطنين فى الإقليم الواقع شرق نهر الأردن وحوران والبقاع ، وترجع أهمية هذا الإقليم عند الصليبيين إلى ماينبت فيه من قمح وفير، وإلى تحكمه فى الطريق الممتد من القاهرة إلى دمشق ، ويرى رنسيمان أن فلسطين تعتبر أراضٍ قاحلة غير مثمرة إذا ما قورنت بالإقليم سابق الذكر[٣] . ويذهب رنسيمان أيضا إلى القول أنه لولا مساعدة إقليم شرق نهر الأردن لما تيسر دائماً لمملكة بيت المقدس أن تطعم نفسها ، فإذا خاب المحصول كان لابد من استيراد القمح من سوريا[٤] .

لم تقتصر عناية الصليبيين على الزراعة فقط ، بل اهتموا كذلك بالنشاط التجارى المحلى . وآية ذلك أن جودفرى البويونى أول حاكم صليبى لبيت المقدس سمح لشيوخ شرق الأردن أن يرسلوا الفائض من محصولهم إلى مدن الساحل الشامى عبر فلسطين . وفى الوقت نفسه شجع الإيطاليين ، متى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً على أن يمنعوا التجارة بين مدن الساحل الشامى ومصر ، وعلى أن يجعلوا هذه المدن تعتمد فى تجارتها كلية على النصارى الغربيين . وبذا أخذت فلسطين كلها تندمج فى وحدة اقتصادية شاملة، بما صار لها من علاقات تجارية عبر البحر إلى أوروبا، ومن المحتمل أن سياسة جودفرى هذه قد حققت عائدات عاجلة فى الثروة للصليبيين فى القدس [٥] .

(1) Smial, Crusading Warfare, PP. 61-62.

(2) William of Tyre, II, P. 371.

(3) Runciman, A History of the Crusades, III, P. 352.

(4) Ibid.

(5) Albert d'Aix,P. 515.

وفى عهد بلدوين الأول حاول الصليبيون السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبى البحر الميت حتى خليج العقبة، وهى المنطقة المعروفة باسم وادى عربة، ليقطعوا الصلة بين مصر وبقية العالم الإسلامى فى الشرق ، وهى الصلة التى كانت تهدد بوقوع الصليبيين فى فلسطين بين شقى الرحى . ولاشك أن سيطرة الصليبيين على ميناء أيلة كان من شأنها أن تمكنهم من قطع طريق القوافل بين القاهرة من ناحية ودمشق وبغداد من ناحية أخرى ، فضلا عن تهديد الحجاج المسلمين وهم فى طريقهم إلى الحرمين الشريفين(١) .

وقد بدأ بلدوين الأول بالسيطرة على وادى عربة جنوب البحر الميت ثم شيد سنة ١١١٥م حصن الشوبك ليكون مركزاً يمكن الصليبيين من السيطرة على وادى عربة بأجمعه(٢)، وفى العالم التالى (١١١٦م) خرج بلدوين فى حملة أخرى ومضى حتى أيلة على ساحل خليج العقبة حيث فر الأهالى من وجهه خوفا . وقد بنى بلدوين فى أيلة أيضا قلعة حصينة للتحكم فى الطريق البرى للقوافل بين مصر والشام ، كما شيد قلعة أخرى فى جزيرة فرعون الواقعة قبالة أيلة فى خليج العقبة.

وفى عام ١١٢٠م خطى بلدون الثانى خطوة عظيمة بالنسبة لتجارة مملكة بيت المقدس ، بإصدار قرار منح فيه جميع اللاتين من التجار والحجاج والزوار إعفاءات تجارية كبيرة منها الإعفاء التام من الرسوم الجمركية لكل بضاعة ترد إلى المملكة أو تصدر منها . وفى الوقت نفسه أجاز بلدوين الثانى لجميع النصارى الشرقيين – من السريان والأرثوذكس والأرمن – وكذلك المسلمين الدخول إلى بيت المقدس لتصريف محاصليهم دون دفع أية رسوم(٣) .

وقد رأى فولك أنه من الضرورى أن يحكم سيطرته على طرق القوافل بين مصر والشام وشبه الجزيرة العربية لكى يؤمن مواقع الصليبيين شرق البحر الميت ، ولذلك قام فى عام ١١٤٢م بتشييد حصن على تل فى صحراء البتراء عرف باسم حصن الكرك . وكان لموقعه من الأهمية ما هيأ له السيطرة على الطرق السالكة الممتدة من مصر وغربى بلاد العرب إلى الشام . فضلا عن أنه لم يكن شديد البعد

---

(1) Fink, "Latin States", P. 406 .

(2) Runciman, A History of the Crusades, I, P. 97.

(3) Fulcher of Charters, P. 232; William of Tyre, I, P. 537.

عن مخاضات نهر الأردن الأدنى [١] . وبذلك اشتدت قبضة الصليبيين على طريق القوافل التجارية .

لم يكتف الصليبيون بذلك ، وإنما أرادوا الاستيلاء على عدن فى جنوب البحر الأحمر ، لأخذ **«تجار اليمن وأكارم عدن»**، ويتمكنون بالتالى من إغلاق البحر الأحمر فى وجه المسلمين ، واحتكار تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندى ، بالإضافة إلى قطع طريق الحج[٢] . ففى عام ١١٨٢ قام رينو دى شاتيون بأكبر مغامرة فى تاريخ الحروب الصليبية ، حيث تغلغل بسفنه التى نقلها قطعا على ظهور الجمال من شرق الأردن إلى خليج العقبة ثم استولى على أيلة ومنها أبحر إلى عيذاب وغيرها من الموانى الواقعة شمال جزيرة دهلك ، ونهبها وأشعل النيران فى بعضها[٣]. وقد هزت هذه الحادثة العالم الإسلامى الذى أبدى استنكاره لجرأة هذه الأرعن على الاقتراب من الأماكن الإسلامية المقدسة فى شبه الجزيرة العربية ، والتعرض لمصالح المسلمين التجارية فى البحر الأحمر . ومهما يكن من شىء ، فقد كانت خطة دى شاتيون خيالية وتتصف بالجنون ، فكانت فاقدة القيمة وكان مقدرا لها بالفشل الذريع .

ومع ذلك فإن تلك المغامرة لم تعطل من حركة التجارة بين المسلمين والصليبيين فى أنحاء البلاد ، وقد دلل على ذلك ابن جبير بما شاهده من نشاط وتبادل تجارى بين دمشق الإسلامية وعكا الصليبية ، على الرغم من قيام صلاح الدين وقتئذ بحرب دى شاتيون صاحب حصن الكرك ، ومحاصرته لذلك الحصن المانع لسبيل المسلمين بين الشام ومصر والحجاز . وفي هذا الشأن يقول ابن جبير وقد علت قلمه الدهشة : **«ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم»**[٤] .

وقد ترك لنا ابن جبير إشارة إلى حركة القوافل المستمرة من مصر إلى

---

(١) فى هذا الشأن يقول ابن شداد ، (ص ٦٦) ، **«وكان على المسلمين منه ضرر عظيم فإنه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لايمكنها الخروج إلا مع العسكر»**.

(٢) ابن واصل ، جـ٢ ، ص ١٣٠٠ ؛ أبو شامة ، جـ٢ ، ص ٣٦ – ٣٧ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٧٨ – ٧٤ .

(٤) ابن جبير ، ص ٢٠١ .

دمشق وكذلك من دمشق إلى عكا حين يقول : **«واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين إلى عكا كذلك»**(١) .

ومما أدهش ابن جبير فى هذا النشاط التجارى أن : **«قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الأفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين»**(٢) . وقد شاهد هذا بنفسه .

ويعلق ابن جبير على ذلك الوضع قائلاً : **«وأهل الحرب مشغولون بحربهم والناس فى عافية والدنيا لمن غلب..»**(٣) .

وقد ظلت مدن الشام الساحلية تُتخذ موانى للمدن الإسلامية الداخلية ، طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ويمكن أن نقدر مدى الحركة التجارية بين هذه المدن – دمشق وحمص وحماة وحلب – وبين موانيها من أنه فى سنة ١١٨٤م ، قام تاجران من تجار دمشق الأغنياء أحدهما يعرف بنصر بن قوام ، والثانى بأبى الدر ياقوت مولى الغطفانى بأداء أعمالهما التجارية كلها مع الصليبيين من أهل المدن الساحلية . وكان لهما بطبيعة الحال موظفون ، ومكاتب تجارية فى عكا . وكانا يبعثان بقوافلهما بانتظام تروح وتغدو بين دمشق وعكا ، وكانت لهما علاقات وثيقة نافذة مع حكام دمشق وبيت المقدس على حد سواء(٤) .

ومع أن الصليبيين أباحوا المرور للتجار والمسافرين بالأراضى التى احتلوها، إلا أنهم أقاموا مواقع للجمرك أو الديوان كما يسميه المؤرخون المسلمون ، على الجسور وعند مداخل الأودية وأمام الحصون . ومن بين هذه المواقع نذكر على سبيل المثال عكا والجسر الحديدى بين أنطاكية وحلب ، وكذلك عند حصن المرقب وتبنين بالإضافة إلى بانياس ودير البلح(٥) . وكان بين مصر وفلسطين مركز جمركى فى قطيا(٦) . وكان هذا الديوان عبارة عن خان معد لنزول القوافل ، ويتكون من دورين يستعمل أحداهما لحفظ البضائع ، والآخر لإقامة التجار

(١) ابن جبير ، ص ٢٠١ .

(٢) نفسه ، ص ٢٠٩ .

(٣) نفسه ، ص ٢٠١ .

(٤) نفسه ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

(٥) نفسه ، ص ٢١٠ .

(٦) ابن بطوطة ، جـ ١ ، ص ٣٧ .

والمسافرين ، وأمام باب هذا الخان توجد عدة مصاطب مفروشة للموظفين[١] .

وقد اصطحب ابن جبير فى رحلته إحدى القوافل التجارية ونوه برقة الموظفين الصليبيين فى معاملتهم للتجار المسلمين ، وأشار إلى قدرة هؤلاء الموظفين على التحدث باللغة والعربية والكتابة بها أيضا . ووصف جلوسهم إلى مكاتبهم ومعهم أقلامهم ومحابرهم الكبيرة المصنوعة من الأبنوس ، حيث كانوا على تمام الأهبة لأن يدونوا فى دفاترهم مقادير البضائع المستوردة ، وجملة المكوس المحصلة عليها[٢] . وكانت هذه المكوس تفرض على الواردات التى تدخل البلاد من المقاطعات الريفية المجاورة .

غير أن الصليبيين راعوا فى تقدير تلك المكوس أن تكون مكوسا معتدلة لكى ينافسوا تجارة العبور فى موانى الدلتا المصرية[٣] . ويضرب ابن جبير الأمثلة لذلك فيقول إنه شاهد عملية تمكيس الناس : **«تمكيسا غير مستقصى»** فى حصن تبنين على الطريق بين دمشق وعكا وأن : **«الضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ، ولا اعتراض على التجار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك.. وهو محل التعشير ، والضريبة فيه قيراط من الدنانير ، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً»**[٤] .

وقد سجل ابن جبير فى ثنايا مذكراته بصدد الطريق من دمشق إلى عكا وهو فى الأرض المحتلة، أن الصليبيين كانوا يمكّسون المسافرين من المغاربة دون جميع المسلمين بمكس إضافى عن المعتاد ، مقداره دينار صورى على الشخص الواحد، وأن أصل ذلك المكس أن فئات من المغاربة اشتركت مع نور الدين محمود فى جهاد الصليبيين ، فجزاهم الصليبيون من وقتئذ بتلك الضريبة الاستثنائية[٥] .

ومما سبق ، يتضح لنا أن النشاط التجارى بين المسلمين والصليبيين قد سار جنبا إلى جنب مع المعارك الحربية . وكانت التجارة تمر خلال الجيوش المقاتلة بمقتضى اتفاق متبادل بين الطرفين . ومن الثابت أن الجانبين قد حرصا على

(١) ابن جبير ، ص ٢٦١ .

(٢ نفسه ، ص ٢١١ .

(3) Mayer, The Crusades, P. 163 .

(٤) ابن جبير ، ص ٢١٠ .

(٥) نفسه : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

ضمان الأمن للتجارة المتبادلة بينهما . ففى صلح الرملة الذى عقد بين صلاح الدين الأيوبى وريتشارد قلب الأسد فى ٢ سبتمبر عام ١١٩٢م ، صار للمسلمين والصليبيين الحق فى أن يجتاز كل فريق منهم بلاد الآخر . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى أن تعود الحياة الطبيعية إلى فلسطين ، فأقبل الحجاج على القدس آمنين ، وأخذ النشاط يدب فى طرق التجارة . **«واختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين ، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا فى طلب التجارة ووصل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب ، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا»**(١) .

وتتميز نسخ المعاهدات المعقودة بين المسلمين والصليبيين فى عهد الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، والأشرف خليل ، فيما بين ١٢٦٧م ، ١٢٩٢م ، بأهميتها فيما نحن بصدده . فقد وردت بها إشارات عديدة تتعلق بتأمين التجار الصليبيين بالشام وغيرهم من القادمين من أوروبا . ففى هدنة عقدت بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبى الفتح «بيبرس» الصالحى النجمى وبين مقدمي الاستبارية فى عكا وحصن الأكراد والمرقب(٢) ، وردت إشارة تنص على ضرورة تأمين التجار والسفار المترددين على أنفسهم وأموالهم ودوابهم وكل ما يتعلق بهم ، وذلك فى البلاد التى وقعت الهدنة عليها(٣) .

وفى هدنة ثانية عقدت بين المالك الظاهر بيبرس وبين ملكة بيروت

(١) ابن واصل ، جـ٢ ، ص ٤٠٢ .

(٢) مدة الهدنة عشر سنين متوالية وعشرة أشهر وعشر ساعات : أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة (١٢٦٧م). انظر ، القلقشندى ، جـ ١٤ ، ص ٣١ .

(٣) فيما يلى نص البند المشار إليه : «.. وعلى أن التجار والسفار المترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين الجهة الإسلامية والجهة الفرنجية والنصرانية فى البلاد التى وقعت هذه الهدنة عليها – على النفوس والأموال والدواب ومايتعلق بهم ، يحميهم السلطان ونوابه .. ويحميهم بيت الاسبتار فى بلادهم .. وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلية فى عقد هذه البلاد الداخلة فى هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهديه ، وبلاد المناصفات ، وخاص بيت الاستبار المناصفات ، يكون الساكنون والمترددون فى الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال تحمل كل جهة الجهة الأخرى ...» انظر القلقشندى، جـ ٤ ، ص ٣٧ .

الفرنجية بتاريخ ١٢٦٩م(١) إشارة تنص على عدم تحصيل رسوم من التجار الفرنج لم تجر العادة بها ، وأن يكون التجار آمنين مدة أربعين يوماً بعد انقضاء المدة المتفق عليها(٢) .

وفى هدنة ثالثة عقدت بين الملك الظاهر بيبرس ، وولده الملك السعيد وبين جماعة الفرسان الاسبتارية على قلعة المرقب بالشام فى عام ١٢٧١م(٣) إشارة واضحة إلى الاتفاق على تقسيم ما يتحصل من التجار الصليبيين والمصريين مناصفة بين الجهتين الصليبية والإسلامية(٤) . وفى أحد شروط هذه الهدنة بند خاص بتأمين التجار المصريين والصليبيين على أرواحهم وأموالهم من ناحية كل من الملك الظاهر «بيبرس» والفرسان الاسبتارية(٥) . وورد فى الهدنة نفسها نص

---

(١) مدة الهدنة عشر سنين متوالية أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة من الهجرة . انظر القلقشندى ، جـ١٤ ، ص ٤٠ - ٤٢ .

(٢) « .. وعلى ألا يتجدد على أحد من التجار والمترددين رسم لم تجر به عادة ، بل يجرون على العوائد المستمرة ، والقواعد المستقرة من الجهتين .. وعلى أنه تاجر فرنجى صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلا فى هذه الهدنة .. وعند انقضاء الهدنة يكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوماً ولايمنع أحد منهم من العودة إلى مستقره...» انظر ، القلقشندى ، جـ ١٤ ، ص ٤١ - ٤٢ .

(٣) مدة الهدنة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات ، وعشرة أشهر أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة للهجرة (١٢٧١م) . انظر ، القلقشندى ، جـ١٤ ، ص ٤٢- ٥٠ .

(٤) « .. وكل ماهو من الموانى والمراسى البحرية المعروفة جميعها بحصن المرقب : من مينا بلده إلى مينا القنطرة المجاورة لحدود مراقية - تكون هى ومايتحصل منها من الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار ، وماينعقد عليه ارتفاعها وتشهد به الحسبانات- جميعه مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من حين أخذ بيت الاسبتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة التجارية ، بل تجرى التجار فى الحقوق على عادتهم فى البضائع التى يحضرونها والمتجر كائنا من كان..» انظر : القلقشندى ، جـ١٤، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٥) « .. وعلى أن التجار والسفار المترددين بالبضائع من بلاد المسلمين إلى بلاد النصارى متى خرجوا من المواني المحددة أعلاه يتوجهون بخفارة الجهتين من غير حق =

ثالث جاء به أنه فى حالة فسخها يؤمن التجار من الجهتين . وقد تحددت المدة التى يؤمنون فيها على أنفسهم وأموالهم بأربعين يوماً [١] . ومع ذلك فهناك نص يشير إلى أن هذه الاتفاقية لايجوز فسخها[٢] .

وفى هدنة رابعة عقدت بين السلطان الملك المنصور «قلاوون» الصالحى وولده الملك الصالح علاء الدين «على» وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعتليت ومايتبعها فى عام ١٢٨٣م إشارات عديدة لها أهمية خاصة فى هذا الشأن ؛ إذ جاء فى أحد بنودها شرط خاص بما يتبع حيال مراكب الطرفين التى تنكسر أو تغرق فى البلاد التى انعقدت عليها الهدنة وكيفية معاملة من عليها من التجار[٣] . ونص

= لا يتناولون من الخفارة شيء منسوب إلى نفوسهم إلى أن يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المرقب أمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين . ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المرقب وموانيها ، فالترتيب على الخفارة من الجهتين ، مع تدرك الرؤساء الحفظ للطرفين صادرا وواردا ، بحيث إنهم يحضرون إلى بلاد المرقب ، وإلى الموانى بالمرقب ، المحددة أعلاه ، طيبين آمنين على أوراحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين على ماشرحناه...» ، القلقشندى ، جـ١٤ ، ص ٤٧ .

(١) «.. ومتى وقع – والعياذ بالله – فسخ بسبب من الأسباب ، وكان التجار والسفار آمنين من الجهتين إلى أن يعودوا بأموالهم ، ولايمنعون من السفر إلى أماكنهم من الجهتين وتكون النهاية لهم أربعين يوماً...» انظر ، القلقشندى ، جـ١٤ ، ص ٥٠ – ٥١ .

(٢) «.. وتكون هذه الهدنة مستقرة بقواعدها المسطورة للمدة المعينة .. ولاتفسخ بموت أحد من الجهتين ولا بعزل وال وقيام غيره موضعه..» انظر القلقشندى ، المصدر السابق نفسه .

(٣) «... وعلى أنه إذا انكسر مركب من مراكب تجار السلطان وولده التى انعقدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فى مينا عكا وسواحلها ، والبلاد الساحلية التى انعقدت عليها الهدنة كان كل من فيها آمنا على الأنفس والأتباع والمتاجر ، فإذا وجد أصحاب هذه المراكب التى تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم (إليهم). وإن عدموا بموت أو غيبة ، فيحتفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده . وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج يجرى لها مثل ذلك فى بلاد السلطان وولده ويحتفظ بموجودها إن لم يكن صاحبها حاضرا إلى أن يسلم لكفيل المملكة بعكا أو المقدم..» وقد كانت هذه الهدنة «لمدة عشر سنين كوامل ، وعشرة أشهر ، وعشرة أيام، وعشر ساعات أولها يوم الخميس خامس ربيع الأول سنة اثنين وثمانين وستمائة للهجرة».انظر ، القلقشندى ، جـ ١٤ ، ص ٥١ – ٦٣ .

بند آخر فى الهدنة نفسها على ما يتبع عند وفاة أحد التجار من الجهتين ، من حيث المحافظة على أمواله إلى أن يتسلمها المختصون[١] . هذا بالإضافة إلى النص الذى كان يرد عادة فى مثل تلك المعاهدات، وهو النص الخاص بتأمين التجار المسافرين وعدم تحصيل شيء منهم لم تجر به العادة[٢] .

وفى هدنة خامسة عقدت بين الملك المنصور قلاوون وولديه على والملك الأشرف صلاح الدين خليل وبين الملكة الجليلة دام مراريت بنت سير هرى ابن الأبرنسى بيمند[٣] ، وردت إشارة تنص على ضرورة تأمين التجار والسفار على أنفسهم وأموالهم ومواشيهم فى البلاد التى وقعت الهدنة عليها[٤] .

بقى أن نشير إلى شيء مهم لاحظناه فى تلك المعاهدات، ألا وهو أنها تضمنت بنوداً صريحة تكشف عن التغيرات الكبرى على ميزان القوى بين الفريقين فى منطقة الشرق الأدنى ، وتبين أن سلاطين المماليك فى مصر كانوا يملون إرادتهم على صليبيى الشام فى ذلك الوقت . كما تكشف تلك المعاهدات عن مدى اهتمام الجهات المسئولة بمصر بأمر التجارة لما كانت تدره عليها من أموال ساعدتها على تقوية نفسها وتعزيز جيشها وأسطولها فى مواجهة الصليبيين الغزاة فى

---

(١) «.. ومتى توفى أحد من التجار الصادرين والواردين : على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، من بلاد السلطان وولده ، فى عكا وصيدا وعتليت ، والبلاد الساحلية الداخلة فى هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم وأديانهم (فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده)، وإذا توفى أحد فى البلاد الإسلامية الداخلة فى هذه الهدنة ، يحتفظ على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين..» ، انظر القلقشندى ، جـ ١٤ ، ص ٥٩ .

(٢) «.. وعلى ألا يجدد على التجار المسافرين : الصادرين والواردين من الجهتين حق لم تجر به عادة ، ولم يجروا على عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت وتؤخذ منهم الحقوق على العادة المستمرة ، ولا يجدد عليهم رسم ولا حق تجر به عاجة . وكان كل مكان عرف باستخراج الحق فيه يستخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين ، وفى حالة سفرهم وإقامتهم ، وأن يكون التجار والسفار والمترددون آمنين مطمئنين مخفرين من الجهتين فى حالة سفرهم وإقامتهم وصدورهم وورودهم بما صحبتهم من الأصناف والبضائع التى هى غير ممنوعة..» انظر ، القلقشندى ، جـ ١٤ ، ص ٦ .

(٣) هى : Dams Marguerite Fille de Sir Henri File du Prince Bemond.

(٤) ابن عبد الظاهر ، ص ١٠٥ .

فلسطين فى وقت أخذ فيه المماليك بمصر زمام المبادأة ، بينما التزم أعداؤهم بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم المتداعى بوجه عام(١) .

وبذلك نكون قد انتهينا من دراسة النشاط التجارى المحلى، وننتقل الآن إلى الكلام عن مورد اقتصادى آخر، لعله كان من بين أهم الموارد التى لعبت دوراً كبيرا فى تشكيل الحياتين الاقتصادية والسياسية فى فلسطين . وهذا المورد هو التجارة العالمية . وقد كان المقومان الرئيسيان لهذا المورد هما الطيوب والتوابل التى تنبت فى الشرق لتجد طريقها برا وبحرا إلى الموانى الشامية ، ومنها إلى الشواطىء الأوروبية ، عبر البحر المتوسط ، وكذلك الموقع المتوسط الذى تحتله فلسطين بين الشرق والغرب .

لا شك أن موقع فلسطين الجغرافى المهم المطل على البحر المتوسط ، قد جعلها مركزا ممتازا لتبادل المنتجات بين الشرق والغرب . وقد كان من المتوقع أن يستغل الصليبيون هذا الموقع لتنمية علاقاتهم التجارية مع دول العالم المختلفة والحصول من وراء ذلك على أكبر قدر ممكن من الثروة ، ولذلك عملوا على تحسين الموانى الفلسطينية وإعدادها لكى تستقبل السفن التجارية ، وبنوا فيها مستودعات لتخزين البضائع(٢) .

وقد ساهمت مملكة بيت المقدس فى التجارة العالمية ، حيث كان بإمكانها أن تصدر بعضا من منتجاتها الزراعية الزائدة عن حاجة سكانها إلى أوروبا ، وتجنى من وراء ذلك بعض الأموال . ويعتبر السكر أهم هذه المنتجات . فحينما وصل الصليبيون إلى الشام تعلموا من السكان الوطنيين عملية استخراج السكر من القصب، وحافظوا على المراكز القديمة لإنتاجه، ووسعوا هذه الصناعة فى أماكن أخرى (٣) . وقد يكون من الملائم هنا أن نذكر وصفا أورده بوركهارد لصناعة السكر : **«كان يجمع القصب ثم يقطع إلى أجزاء صغيرة من العسالج فيجفف ويصبح صلبا وهكذا كان يصنع السكر ويتقطر منه قبل أن يجف سائل يسمى عسل السكر وهو لذيذ**

---

(١) جوزيف نسيم يوسف ، دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، (الإسكندرية، ١٩٨٣م) ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) أشار كل من ابن الأثير (الكامل ، ج ٨ ، ص ٢٠٤) ؛ ابن القلانسى ، ص ١٣٨، إلى جهود جودفرى فى تعمير يافا .

(3) Runciman, A History of the Crusades, III, P. 353.

ويدخل فى صنع الكعك[١] .

وكان بعكا معصرة ضخمة للسكر ، فضلا عن مصانع السكر فى معظم المدن الساحلية وتعتبر صور المركز الرئيسى لإنتاج السكر . ويقال إن معظم ما كان يستهلك من السكر فى أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر قد جاء من المستوطنات الصليبية فى بلاد الشام[٢] .

ويلى السكر فى الأهمية فى التصدير ، القماش على اختلاف أنواعه ؛ إذ توافرت تربية دودة القز حول بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس الميلادى . على حين أن الكتان والقطن كانا ينموان فى سهل فلسطين . هذا وقد نالت صور وطرابلس شهرة واسعة فى الشرق والغرب على حد سواء بمصنوعاتها الحريرية[٣]. وقد قدر بوركهارد لدى زيارته إلى طرابلس سنة ١٢٨٣م أن عدد نساج الحرير ووبر الجمل لم يكن يقل عن الأربعة آلاف عامل[٤] .

ومن المنسوجات الفاخرة «المحلية» **Les Camelats** ، وهى أقمشة كانت تصنع فى مدن الشام كلها ، وخاصة فى طرابلس وطرطوس ، وكانت على أربعة أنواع ، منها ما هو مصنوع من وبر الجمال أو وبر الماعز ، أو من صوف الغنم أو من الحرير ، ويبدو أن هذه المنسوجات كان يرغب بها الأوروبيون كثيرا ، بدليل أن جوانفيل لدى زياراته لمدينة طرطوس حاجا كلفه الملك لويس التاسع أن يشترى له كمية كبيرة من المخامل ليقدمها هدية لبعض المؤسسات الدينية ، عند عودته إلى فرنسا[٥].

وليست لدينا معلومات كافية عن إنتاج تصديرى ذى أهمية كبرى ، ونقصد به الصباغ ، هذا وتحتوى قائمة الرسوم الجمركية الخاصة بعكا على عدد كبير من

---

(1) Burchard, PP. 99 - 100 .

(2) Heyed (W.), Historie du Commerce du Levant au Moyen Age, Leipzig, 1885-86, I,P. 79.

(٣) الإدريسى ، جـ٥ ، ص ٣٦٦ .

(4) Conder, Jerusalem, P. 334, Burchard, P. 16.

وانظر أيضا : نقولا زيادة ، «**سوريا زمن الصليبيين**» ؛ المقتطف مج ٨٧ يوليو – ديسمبر ١٩٣٥ ، ص ٢٠ ؛ النقاش ، العلاقات ، ص ١٨١ .

(٥) جوانفيل ، القديس لويس ، ص ٢٦١ .

الصباغ ، ولكن قليل من مراكز إنتاجها استقر فى مملكة بيت المقدس .

وجرى أيضا تصدير مقادير قليلة من الأعشاب الطبية والتوابل ، ويعتبر البلسان أكثرها أهمية . ونظراً لأنه كان يستخدم فى أوروبا أساساً فى طقوس الكنيسة، صار لما يرد منه من الأراضي المقدسة مكانة خاصة ، وقد نبتت تلك الأعشاب بكميات وفيرة قرب القدس وأريحا فى القرن الثانى عشر ، على أنه لم يكن من السهل أن يغزر البلسان نظرا لاحتياجه إلى الرى المستمر الذى يتكلف نفقات باهظة(١) .

ولعله من الخير تخصيص صناعة الزجاج بكلمة لأن الآنية الزجاجية كانت مادة أخرى يجرى تصديرها إلى أوروبا . وقد اشتهرت بهذه الصناعة مدن عديدة، منها صور وأنطاكية والخليل وطرابلس ودمشق وعكا(٢)· ويذكر وليم الصورى أن هذه الصناعة قد تقدمت كثيرا فى ذلك الوقت، وأن من معاملها خرجت تلك المصابيح البديعة والأكواب الجميلة والزجاجات المذهبة والمطلية بالمنيا، وتحتفظ متاحف أوروبا بنماذج منها . وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن الآنية الزجاجية، التى صنعها البنادقة كانت فى الحقيقة تقليدا للصناعة السورية ، حيث كان البنادقة يستوردون المادة الخام اللازمة لصناعة الزجاج من الشام(٣).

وتألف صناع الزجاج من اليهود الذين احتكروا كذلك صناعة الأصباغ ودباغة الجلود ، وتحضير الغراء فى كل من طرابلس والخليل والقدس(٤). ومن المحتمل أن المدابغ لم تنتج من كميات الجلود سوى ما يكفى الاستهلاك المحلى، بينما كان يجرى أحيانا تصدير الأوانى الفخارية(٥) .

والراجح أن زيت الزيتون وزيت السمسم لم يصدرا إلى الغرب إلا فى كميات قليلة(٦) . وربما كان النبيذ أكثر أهمية من زيت الزيتون وزيت السمسم ، فقد وجد

(1)Runciman, A History of the Crusades, III, P. 354.

(2) Jacques de Vitry, PP. 92 - 3.

(3) Conder, Jerusalem, P. 334.

(4) Runciman, Op. Cit., P. 353.

(5) Ibid. P. 354.

(6) Ibid, P. 353.

من الصليبيين تشجيعًا كبيراً ، ويبدو أنه كان يسد حاجة التجار فى الموانى الصليبية، وفى بعض الأوقات كان يجرى تصديره إلى الغرب .

وكانت صناعة التعدين نامية جداً ، فإن ابن بطوطة يذكر أن بيروت كانت **«تجلب منها إلى ديار مصر الفواكه .. والحديد»**[١] ، وكان هذا الحديد يستخرج من الجبال المجاورة لها ، كما أن الإدريسى يمتدح كثيرا جودة الحديد اللبنانى وصلاحيته لصناعة الأسلحة الشهيرة فى مدينة دمشق[٢] . وبالإضافة إلى الحديد كان السكان يستخرجون النحاس، وفى هذا الشأن يقول الكتاب المقدس عن أرض فلسطين أن **«حجارتها حديد ومن جبالها تحفر نحاسا»**[٣] .

ويذكر الرحالة أن الشب كانت موجودة على شواطىء البحر الميت وقد جرى تصدير كميات منها إلى أوروبا نظرا لأهميتها فى الصناعة[٤] . وبالإضافة إلى ذلك جرى تصدير القار والملح الذى كان متوافرا بكميات كبيرة على تلك الشواطىء[٥]. هذا .. ويذكر ناصر خسرو أن القار المجموع من مياه البحر الميت يستعمل فى طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان ، ويستعمله الصيادلة للمحافظة على العقاقير من الحشرات[٦] .

وعلاوة على ذلك أقيمت مصانع الصابون فى عكا ونابلس وسرمين وغيرها. وقد كان استعمال الصابون قد انتشر فى خلال القرن الثالث عشر وأصبحت صناعته على قدركبير من الأهمية فى بلاد الشام . وفى هذا الشأن يقول ابن بطوطة: **«وبها (سرمين) يصنع الصابون الأجرى ، ويجلب إلى مصر والشام ، ويصنع بها أيضا الصابون المطيب لغسل الأيدى ويصبغونه بالحمرة والصفرة»**[٧] . ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن هذا هو الصابون النابلسى الشهير[٨] .

---

(١) ابن بطوطة ، جـ١ ، ص ٣٠ .

(٢) الإدريسى ، جـ ٥ ، ص ٣٧١ .

(٣) تثنية ، ٨ : ٩ .

(4) Anonymous Pilgrims, P. 39; Fretellus, P. 126 .

(5) Theoderick, P. 54; Anonymous Pilgrims, P. 39 .

(٦) ناصر خسرو ، ص ١٧ .

(٧) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص ٤٧ .

(٨) حسين مؤنس ، ابن بطوطة ورحلاته ، (تحقيق ودراسة وتحليل) دار المعارف ، ١٩٨٠م ، ص ٥٢ .

لم يقتصر أمر التجارة العالمية على محاصيل سوريا وسلعها، بل تعداها إلى سلع الهند والصين وجزر البهار ومنتجاتها ، على أن الشيء الجدير بالذكر أن هذه التجارة الشرقية لم يكن بد من ظهورها وإتيان ثمارها حتى وإن لم يستقر الصليبيون في فلسطين . ومع أن الحروب الصليبية قد زادت - بلا شك - من إدراك الأوروبيين لثروات الشرق ، وزادت بالتالى من إقبال أوروبا على التوابل وغيرها من المنتجات الشرقية ، فمن المؤكد أيضا أنها لم تتسبب فى إقامة العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب ، لأن هذا التطور كان قد تم بالفعل على نطاق واسع فى القرن السابق(١) .

فقد كانت مدن البندقية وجنوه وبيزا وأمالفى ومرسيليا وبرشلونه - قبل الحروب الصليبية - تتجر مع بلاد الشرق الإسلامية ، وتخترق مضيق البوسفور والبحر الأسود . ولذلك ليس لنا أن نعزو إلى الحروب الصليبية وحدها فضل تزويد أوروبا بكل السلع التى وصلتها خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وأن نقلدها فضل ازدهار الأسواق وطرق التجارة القديمة ، ولا يمكننا فى الوقت نفسه أن ننكر مطلقا الحافز التجارى العظيم الذى تسبب عن استقرار الصليبيين فى سوريا، والمعرفة بكل منتجاتها وصناعتها المحلية(٢) .

وقد توقفت تجارة العبور على الأحوال السياسية فى آسيا . فحينما بدأت الحروب الصليبية ، كانت معظم التجارة الشرقية تنقل بطريق البحر ، فتجتاز المحيط الهندى إلى البحر الأحمر ، ثم إلى مصر بعد أن اجتذبتها بعيدا عن طريقها القديم إلى الخليج العربى ، وإلى بغداد ثروة المدن المصرية وما اقترن به الحكم الفاطمى من الأمن والطمأنينة . أما الموانى الشامية فلم تستخدم إلا فى تصدير السلع التى تغلب عليها الصفة المحلية مثل النيلة الواردة من العراق ، والمصنوعات المعدنية من دمشق ، وكل ما تحمله القوافل إلى السفن من جنوب بلاد العرب من أنواع السلع . وما تلى غزوات الأتراك السلاجقة فى نهاية القرن الحادى عشر من حروب لم يشجع التجارة والصناعة فى داخل سوريا . ولم يعد الرخاء فى سوريا إلا بعد أن أقام الوحدة بين المسلمين فى سوريا ومصر نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى . فازدادت المنتجات المحلية ، وأضحى من المستطاع أن تجتاز السلع

---

(١) كانتور ، التاريخ الوسيط ، جـ ٢ ص ٤٨٨ .

(2) Barker, The Crusades, P. 60 .

الواردة من العراق وفارس فى اطمئنان الطرق إلى حلب أو حمص أو دمشق ، ومنها إلى البحر المتوسط [١] . واستخدم تجار حلب مينائى السويدية التى كانوا يبلغونها بعد إجتياز أنطاكية واللاذقية ، بينما تعتبر الطرطوس وطرابلس مينائى حمص ، أما عكا فكانت ميناء دمشق[٢] .

ومع أن مصر سيطرت طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر على تجارة العبور مع الهند وبلاد العرب.. إلا أن بعض أنواع التوابل الواردة من الهند وبعض السلع الصادرة من بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين ظلت تتخذ طريقها إلى الموانى الشامية ، وبصفة خاصة مينائى عكا وصور[٣] . ويعتقد سير أرنست باركر أستاذ العلوم السياسية السابق بجامعة كمبردج ، أن التجارة الشرقية أصبحت مركزة بالدرجة الأولى فى سوريا خلال القرن الثانى عشر[٤] . وسواء كان هذا الرأى صحيحا أم مجانبا للصواب ، فإنه من الثابت أن حركة التجارة فى موانى الشام قد انتعشت إلى حد كبير فى أواخر القرن الثانى عشر ، وقد يرجع ذلك إلى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ، وما لجأ إليه بعض الباباوات وغيرهم من المتعصبين فى غرب أوروبا إلى إشهار سلاح المقاطعة الاقتصادية فى وجه المصريين ، فأصدروا عدة مراسم لمنع التجار الأوروبيين من المتاجرة مع مصر حتى يؤدى ذلك ، كما كانوا يتمنون إلى إفلاسها[٥] .

ولكن هذه السياسة لم تكن تلق قبولا كبيرا من المدن الأوروبية نفسها ، ويأتى على رأسها المدن التجارية الإيطالية، التى استمرت توفد تجارها إلى مصر لإنماء علاقتها التجارية معها . وكانت كثير من هذه المدن الإيطالية تبيع الأسلحة للمسلمين فى فترة الحروب الصليبية . وقد عبر ديورانت عن هذه الحالة أحسن تعبير بقوله إن : «**الذهب كان أقوى أثرا من الدين أو الدم المراق ، ولهذا ظلت**

---

(1) Runciman, A History of the Crusades, III, PP. 354-355.

(2) Ibid., P. 355.

(3) Barker, (E.), The Crusades, in the Legacy of Islam (Edited by Sir Thomas Arnold and Afred Guillaume, Oxford University Press, 1949), P. 61.

(٤) رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٢٠١ .

(٥) فى عام ١١٩٨م ، أصدر البابا أنوسنت الثالث قراراً يقضى بمنع البنادقة من المتاجرة مع المسلمين . انظر نص القرار عند : Thatcher, A Source Book, PP. 535-37.

التجارة المحرمة تجرى مجراها العادى،[١] .

كما أدى سقوط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فى أيدى اللاتين (١٢٠٤م) إلى ازدياد الحركة التجارية فى الموانى الشامية . وفى الوقت نفسه أصاب الركود حركة التجارة فى الموانى المصرية بسبب اتجاه إحدى الحملات الصليبية إليها مباشرة فى أواخر النصف الأول من القرن الثالث عشر ، ولم يتسن لمصر أن تسترد مكانتها فى حركة التجارة بين الشرق والغرب إلا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، عندما عمل المماليك على تدعيم حركة التجارة فى موانى الدلتا المصرية ، وحماية تجار الكارم[٢] المصريين ، هذا وقد استطاع

(1) Durant, I. P. 617.

(٢) تنتسب تجارة الكارم إلى الكارمية ، وهم كما حدثتنا عنهم وثائق الجنيزة فئة من كبار التجار اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى فى التوابل وما إليها من السلع الأخرى ، وكان مركز نشاطهم الأول فى المحيط الهندى . ورغم أن تاريخ نشأة طائفة تجار الكارم لم يتحدد بعد ، فإنه من المعروف أن هذه الجماعة نشأت فى المحيط الهندى أو على الشاطىء الغربى للهند، وأنها وجدت هناك فى بداية الأمر على صورة ما ثم تطورت مع الزمن ومع التقدم الحضارى، وصار هذا الاسم هو ماتعرف به هذه الجماعة وتوارثه من جاء بعدهم، أو من تحولت إليه السيطرة التجارية فى أسواق الهند وغيرها . ولمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع ، انظر :

Goiten, **"New Lights on the Begninning of the Karim Merchants"**, (J.R.A.S., I, II, 1958), Ashtor (E.), "the Karim Merchants Commerce and Culture (London, 1962).

ابن جبير ، ص ٦٩ – ٧٠ ، القلقشندى ، جـ٣ ، ص ٥٢٠ ، ص ٤٥٧ ، الشاطر بصيلى «الكارمية» ، المجلة التاريخية المصرية (مج ١٣ ، القاهرة ، ١٩٧٥م) ، صبحى لبيب ، **«التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى»** ، المجلة التاريخية المصرية (مج ٤، العدد الثانى ، القاهرة ، ١٩٥٢ م ، ولنفس المؤلف ، انظر : **«سياسة مصر التجارية فى عصرى الأيوبيين والمماليك »** ، المجلة التاريخية المصرية ، (مج ٢٨ ، ٢٩ ، القاهرة ، ١٩٨١ – ١٩٨٢م)، عطية القوطى ، **«أضواء جديدة على تجارة الكارم »** ، المجلة التاريخية المصرية ، (مج ٢٢ ، القاهرة ، ١٩٧٥م) ، ولنفس المؤلف ، انظر ، تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، (القاهرة ، ١٩٧٦) ، ص ص ٩١ – ١٠٤، وكذلك ص ص ١٧١ – ١٨١ ، أحمد دراج ، **«عيذاب»** » مجلة نهضة إفريقية ، أغسطس – يوليو ، ١٩٥٨) .

المماليك أن يحتكروا التجارة الشرقية طوال القرن الرابع عشر ، وأن يظل نقل السلع الشرقية فى البحر المتوسط من اختصاص التجار الإيطاليين .

وبالمقابلة مع نظم الديوان الفاطمي فى مصر، فلم يكن فى الشرق الفرنجى نظام ضريبى مزدوج ، لأن الفاطميين أخذوا فى اعتبارهم دين التاجر بالإضافة إلى نوع البضاعة المنقولة عبر أراضيهم . ومن المحتمل أن الفاطميين قدموا بعض التسهيلات الخاصة للتجار المسلمين من دون سائر التجار . غير أن صلاح الدين قرر عندما تولى حكم مصر ، أن يلغى هذا النظام لكى ينافس الصليبيين فى تجارة سوريا(١) .

وقد تفاوتت الرسوم الجمركية فى القرن الثالث عشر ما بين ٤,١٦ ٪ و ١١,٢ ٪ من قيمة البضائع المستوردة من الشرق، والمعاد تصديرها بعد ذلك إلى أوروبا . أما البضائع المستوردة للاستهلاك المحلى فقد فرضت عليها ضريبة مرتفعة الشريحة تصل فى بعض الأحيان إلى ٢٥ ٪(٢) . وكانت رسوم الاستيراد تجبى فى مينائى صور وعكا الواقعتين على البحر المتوسط ، بيد أن عكا برزت بصورة خاصة فى النشاط التجارى للصليبيين فى الشرق الفرنجى ، وهو النشاط الذى بلغ ذروته أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر(٣) .

ويساعد على فهم ما نحن بصدده أن نذكر هنا فقرة للرحالة المسلم ابن جبير فى وصف ميناء عكا ونصها : **«هي قاعدة الإفرنج بالشام ، ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، مرفأ كل سفينة»**(٤)وشبهها بالقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية فى كونها : **«مجمع السفن والرفاق»**(٥) و **«ملتقى التجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق»**(٦) ؛ ذلك أن عكا كانت الميناء الطبيعى لإقليم دمشق وإليها يتجه التجار القادمون من اليمن وجنوب شبه الجزيرة العربية إلى الشام(٧) .

(1) Mayer, The Crusades, P. 163 .

(2) Ibid.

(3) Runciman, A History of the Crusades, III, P. 355.

(٤) ابن جبير ، ص ٢١١ .

(٥) نفسه : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.

(٦) نفسه : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.

(7) Runciman., Op. Cit., P. 358.

وقد أثنى بنيامين التطيلى على موقع عكا بقوله : «إنها فى موقع ملائم من البحر، لها ثغر كبير ترسو عنده السفن المسافرة إلى أطراف القدس»(١).

وذكر ثيودريك أن : «**سفن الحجاج كانت ترسو بهم فى ميناء عكا وتعود بهم من الميناء نفسه إلى أوروبا**»(٢) وقام ثيودريك بإحصاء عدد السفن التى كانت موجودة بميناء عكا أثناء زيارته بها فكانت إحدى وثمانين سفينة علاوة على «السفينة التى كانت قد وصلت على ظهرها إلى هذا الميناء»(٣) . أما بوركهارد فيقول إن بعكا «**ميناء كبيرا جدا فى جنوبها تستطيع السفن أن ترسو فيه**»(٤) ، وإنها «**كانت تزخر دائما بالتجارة والحجاج المسلمين**»(٥) .

غير أن صغر ميناء عكا وعجزه فى كثير من الحالات عن استقبال عدد كبير من السفن الكبيرة جعلها تتعرض لمنافسة شديدة من جانب ميناء صور ، فضلا عن الموانى الأخرى فى شمالى الشام مثل اللاذقية والسويدية . يقول ابن جبير فى وصف شأن ميناء صور : «**لهذه الميناء شأن عجيب فى حسن الوضع ولعكا مثلها فى الوضع والصفة ، لكنها لا تحمل السفن الكبار ، حمل تلك ، وإنما ترسو خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها فالصورية أكمل وأجمل وأحفل**»(٦) .

كما يصفها الرحالة اليهودى الإسبانى الشهير بنيامين التطيلى فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر بأنها : «**مدينة جميلة لها خليج يتوسطها بين برجين عظيمين تدخله السفن للرسو عند الميناء . وبين البرجين سلسلة حديدية معترض عليها الحراس الأمناء يربطونها فى أول الليل، فيتعذر على سفن القرصان سبيل الدخول للسلب أو النهب من البر أو من البحر**»(٧) . ويعتقد بنيامين أنه «**ليس فى بلاد الدنيا ما يماثل هذا الميناء شأنا**»(٨) .

---

(١) بنيامين التطيلى ، ص ٩٢ .

(2) Theodrick, PP. 59 - 60 .

(3) Ibid .

(4) Burchard, P. 9.

(5) Ibid .

(٦) ابن جبير ، ص ٢١٣ .

(٧) بنيامين التطيلى ، المصدر السابق .

(٨) نفسه : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

ويذكر سيولف الولشي [١] الذى زار فلسطين بعد مجيء الصليبيين ببضع سنوات (١١٠٢ أو ١١٠٣م) أنه بعد نزول ميناء يافا وبعد وصوله إلى البر بقليل قامت عاصفة قوية أغرقت ثلاثا وعشرين سفينة كانت فى الميناء ولولا أنه رغب فى ذكر نجاته من هذه العاصفة بأعجوبة[٢]، لما حصلنا من سيولف على شيء يشير إلى سعة الميناء الذى يتسع لهذا العدد من السفن .

وغالباً ما كان فى وسع المرء أن يرى عددا قد يصل إلى مائة سفينة فى مينائى صور وعكا ، وفى ميناء يافا الصخرى الخطر . وكانت السفن الأكبر حجما تستطيع أن تحمل ألفا من التجار والحجاج فضلا عن حوالى خمسمائة طن من البضائع[٣] . وكانت البضائع التجارية تفرغ على السلالم أو ألواح الخشب المحمولة على ظهور الحمالين الذين كانوا فى الغالب من الأوروبى آسيويين الذين كانوا يعرفون باسم بولانى الميناء ، لكى توضع على الأرصفة المزدحمة فى منطقة الميناء الضيقةجدا [٤] .

ولا ننسى هنا أن ننوه إلى أن موانى العصور الوسطى تكونت بصفة عامة من أرصفة خشبية متواضعة، تكاد تتسع لاستقبال السفن التى تبلغ حمولتها من ٢٠٠ إلى ٦٠٠ طن . وجهزت هذه الموانى برافعة أو اثنتين على الأكثر لنقل حمولة السفن على الأرصفة . وهذا كان كل ما يحتاج إليه تفريغ أو شحن أى سفينة تبلغ حمولتها مئات الأطنان من الفلفل أو القرفة أو جوز الطيب أو غيرها ، وهى السلع التى كانت تعتبر من أهم البضائع فى ذلك الوقت[٥] .

ومن بين السلع التى اجتازت فلسطين وحصل منها ملوك بيت المقدس على موارد مالية تخص بالذكر التوابل ، التى كانت من أهم دوافع النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، حيث اشتد الطلب عليها فى أوروبا ، فقد كان الأوروبيون يعوزهم غذاء الأغنام شتاء فيذبحون كثيرا من هذه الحيوانات ويجففون لحومها ، ويفعلون مثل ذلك فى السمك . وفى تجفيف السمك واللحوم لم يكن هناك بد من التوابل

(1) The Pilgrimage of Saewulf (11003 AA.D.) P.P.T.S., IV, PP. 1 - 55 .

(2) Ibid, PP. 6 - 7 .

(٣) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢٢٠ .

(٤) نفسه : المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

(5) Pirenne, Economic, P. 144 .

كالفلفل وجوز الطيب والقرفة والزنجبيل والحبهان . وقد جلبت التوابل الثراء الفاحش إلى البندقية وكل الموانى الكبيرة الواقعة فى غرب البحر المتوسط ، وأدت بالتالى إلى إعادة تنشيط الخطوط الملاحية بين البحر التيرانى وإفريقيا وموانى الشرق إبان القرنين الثانى عشر والثالث عشر . فمن البندقية كانت التوابل وبقية سلع الشرق تنقل إلى أنفرس وبروج ومدن النمسا وتدر على البنادقة ذهب أوروبا حتى أثرى أهلها شعبا وحكومة ، فأمتد ملكهم فى وادى نهر البو ودلماشيا وجزر اليونان وكريت وقبرص .

وكانت المنسوجات تحتل مكانة تقترب من مكانة التوابل فى التجارة مع الشرق . ومن الطبيعى أن الفلاندرز وإنجلترا فى وقت لاحق ، وشمال إيطاليا كانت من أكثر مراكز إنتاج النسيج فى ذلك الوقت . ولكن الشرق كان هو الذى يغرق الغرب بالمنتجات الفاخرة منه . وعلى الرغم من أن المنسوجات القطنية والكتانية كانت تنتج فى أوروبا، فإن الجودة التى تميزت بها المنتجات الشرقية كانت تجد لها سوقا فى الغرب فى سهولة ويسر[1] . فقد كان هناك إقبال من جانب الأوروبيين على المنسوجات الشرقية مثل الدمشقى الوارد من دمشق [2] ، والبلدكان الوارد من بغداد والسميتى Samite والداميتى Dimities ، والديابر Diaper[3] من بيزنطة ، والأطلس Atls العربى ، وهو نوع من الحرير الساتان يصنع فى الشرق ، والتفتاه من فارس، والساتان من زيتون ، والسجاد والبطاطين من الشرق الأدنى والبكرم من

---

(١) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢٣٢ .

(٢) يقول الإدريسى ، (جـ ٥ ، ٣٦٩) إن : **«مدينة دمشق جامعة لصنوف المحاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال ، الذى يحمل منها إلى كل بلد ويتجهز منها إلى كل الآفاق والأمصار المصاقبة لها والمتباعدة منها ، ومصانعها فى ذلك عجيبة يضاهى ديباجها بديع ديباج الروم ، ويقارن بثياب تستر وينافس أعمال أصبهان ويشف على أعمال جرز نيسابور من جليل ثياب الحرير المصمتة وبدائع ثياب تنيس، وقد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ومحاسن جمة فلا يعادلها جنس ولايقاومها مثال».**

(٣) الداميتى ، نسيج يونانى ، وهو نسيج ذو الخيط المضاعف ويستعمل للستائر والأغطية ، والديابر هو نسيج ذو زخارف منشورية ومعينة ومصدره بيزنطة .

بخارى والكاميلوت [١] والموسلين الوارد من الموصل ، والكوز الوارد من غزة وبعض الأزياء من الثياب والألبسة مثل الجوب[٢] . وقد يرجع إقبال الأوروبيين على المنسوجات الشرقية إلى تفوق المواد الأولية الخام التى كانت تستخدم فى صناعة هذه المنسوجات . أضف إلى ذلك جمال الرسوم ، ودقة التصميمات والألوان الزاهية مثل الأزرق والأحمر والأرجوانى والأخضر . وقد ميزت تلك الألوان الثياب الكنسية والملكية وثياب الأمراء وكبار القوم[٣] .

ومع المنسوجات الشرقية المصدرة إلى الغرب جاءت أدوات الزينة والمجوهرات والأحجار الكريمة التى ازدانت بها تيجان الملوك وبيوت أمراء الإقطاع، وأهل الطبقة الوسطى ، من زمرد وزبرجد وياقوت وما إلى ذلك مما يوجد بالشرق وبخاصة الهند . وكذلك العاج والمصنوعات المعدنية المستوردة من دمشق والعطور وكافة أنواع البخور الذى كان يستخدم فى الطقوس الكنسية[٤] .

ولم تكن أوروبا تعرف سوى الطب العربى وعماده بالطبع الأدوية الشرقية الطبيعية كالتمر الهندى والراوند وزيت الخروع والنشادر وسنامكه والكافور والصمغ الغربى والزعفران والأفيون، وهو المسكن الوحيد فى ذلك العصر[٥] .

ولايقل عن السلع السابقة أهمية مواد الصباغة التى كان يشتد الإقبال عليها فى مراكز النسيج الكبرى فى شمال إيطاليا وفى أنواع الفلاندرز ومراكز النسيج الصغرى فى فرنسا وألمانيا وإنجلترا . وكانت الأصباغ المحلية أقل عادة فى جودتها. ومن أهم مواد الصباغة نذكر العلظم (النيلة) وحجر الشب المستورد من مصر والخشب البرازيلى الذى كان يأتى بصفة خاصة من الهند ، وكذلك خشب الصندل[٦].

---

(١) الكاملت نوع من اللباس يتخذ من وبر الجمال كما يدل عن اسمه ، وربما كان من الخملة أو المخمل .

(2) Barker, The Crusades, P. 60.

(٣) بروار ، عالم الصليبيين ، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

(4) Mayer, The Crusades, P. 176.

(5) Ibid .

(6) Pirenne, (H.), Economic, P. 145 .

وتضمنت البضائع الأوروبية التى كانت تمر من خلال فلسطين فى طريقها إلى البلاد الإسلامية خيوط النسيج الوارد من شمال فرنسا والفلاندرز وإنجلترا . والمعادن مثل النحاس والزئبق والرصاص والحديد والخشب والقار والسروج واللوز والبندق والأسلحة والمعدات مثل الخوذ والسيوف وكذلك الرقيق (١) . وبما أن لحم الخنزير محرم فى البلاد الإسلامية، فإن أوروبا تولت عملية تصدير هذا النوع من اللحم مباشرة إلى المستوطنات الصليبية فى بلاد الشام(٢) .

وكانت هناك بعض المنتجات الأوروبية القليلة التى تصدر إلى الشرق الأقصى مباشرة فى مقابل الحرير النفيس . وكان الإجراء العادى هو تبادل المنتجات الأوروبية بالمنتجات المحلية على طول الطريق . وكان هناك طريقان بصفة أساسية يؤديان إلى الشرق إحداهما شمالى والثانى جنوبى ثم يتفرع الأخير أيضا باتجاه البحر العربى أو الهند . وغالباً ما كان التجار يختتمون رحلتهم الشرقية فى مدينة ساراى Sarai على نهر الفولجا أو استراخان على بحر قزوين أو مدينة أورجيح على بحر أراك .

وتجارة مهمة أخرى مع سيبيريا جلبت أنواعاً مختلفة من الفرو إلى سوريا وأوروبا . فقد كانت القوارب تأتى من الفولجا إلى ديريند الواقعة على بحر قزوين محملة بجلود الذئاب ذات اللون الأبيض والأحمر ، وكان لتجار الفراء شارع فى القدس يبيعون فيه جلود القاقوم والدلق والقضاعة والقندس والقط الوحشى والسنجاب(٣) . وقد تحدث ابن بطوطة وماركو بولو وأبو الفدا عن تجار الفرو مع السكان غير المنظورين فى أرض الظلمة .

وقد تركز الجزء الأكبر من هذا النشاط التجارى فى قبضة الإيطاليين ، وذلك بالنظر إلى موقع بلادهم على أبواب الشرق والغرب ، وإلى تقدمهم على غيرهم من الشعوب الأوروبية فى كل مايتعلق باقتصاديات المدن وحاجتهم إلى البحث خارج بلادهم عن موارد أخرى، يكملون بها موارد بلادهم الزراعية والمعدنية غير الكافية، ولم تكن الحروب الصليبية التى لم يتحمسوا للاشتراك فيها دائما إلا ورقة يلعبون بها؛ فالتجار يستطيعون الكسب فى زمن الحرب ولكنهم فى حاجة إلى السلم

(1) Pirene, Economic P. 145 .

(2) Mayer, The Crusades, P. 176 .

(3) Conder, Jerusalem, P. 332.

لاستغلال مكاسبهم ، وختموا أعمالهم البحرية فى الفترة السابقة سواء بالاشتراك مع الصليبيين أو من دونهم بالحصول على السيادة التامة على البحر المتوسط ، وبالإكثار فى فلسطين وغيرها من إقامة الجاليات المستقلة ، وكثير منها لم يكن نتيجة الحرب بل كان نتيجة المفاوضات الدبلوماسية البارعة ، وجمعوا الثروات عن طريق النهب وأكثر من ذلك عن طريق التجارة والمصارف ، وعاونهم بصفة خاصة وجود الصليبيين بفلسطين ، لأن الصليبيين كانوا يطلبون إليهم إمدادهم بالسفن والأسلحة والسلع والمال(١) .

ولعل أهم تلك الجاليات جماعات البنادقة الذين وجدوا فى الحروب الصليبية فرصة كبرى لتدعيم وجودهم التجارى على سواحل بلاد الشام ، وليس فى حوض البحر المتوسط الذى كانوا قد دعموا مراكزهم فيه منذ زمن طويل . على أنه من المناسب هنا أن نقول على سبيل التذكرة إن البنادقة لم يتحمسوا أول الأمر للحروب الصليبية ، ولذلك فإنهم لم يعاونوا الصليبيين بقدر من العون البحرى إلا بعدما سقطت أنطاكية وتأكدوا من نجاح الصليبيين ، ثم ظهر أسطول البندقية أمام شواطىء فلسطين ، وكان يهدف إلى حماية مصالحها التجارية من المنافسة التى يحتمل أن تتعرض لها من قبل تجار بيزا وجنوه وأمالفى ، وأكثر مما يرمى إلى اتباع الغيرة الصليبية، لأن هدف البنادقة كان منذ بداية الحروب الصليبية حتى نهايتها هو الربح والكسب(٢) ، ولذلك ساهمت البنادقة بسفنها وأساطيلها فى نقل الجنود والحجاج والعتاد والمهمات من موانى أوروبا إلى سواحل مصر والشام ، كما اشتركت مع الصليبيين فى احتلال الموانى الشامية تحقيقا لمصالحها وأطماعها فى المنطقة .

ولم تقتصر البندقية على المساهمة فى قيام الكيانات الصليبية فى سوريا ، بل

---

(١) روبرت لوبيز ، التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب» ، ترجمة توفيق إسكندر فى كتاب يشتمل على خمس بحوث مترجمة باسم «بحوث فى التاريخ الاقتصادى»، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص ١٧٥ - ١٧٦ . وفى هذا الشأن يقول يعقوب الفيترى : «**إن أهمية الإيطاليين لا تقتصر على دورهم فى الحروب وإنما أيضا فى نقل السلع والمتاجر والحجاج والمؤن والأسلحة إلى الأراضى المقدسة**». انظر :

Jacques de Vitry, P. 57.

(٢) **أرشيبالد و. لويس** ، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (ترجمة أحمد محمد عيسى مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال ، القاهرة، ١٩٦٠ ، القاهرة ، ١٩٦٠)، ص ٣٨٣ .

امتد إلى العمل على الاحتفاظ بها أطول مدة ممكنة تمكينا لمصالحها وتثبيتا لها . وقد تمثل ذلك فى المعاهدات التى عقدت بين البندقية وبين حكام بيت المقدس اللاتين ، التى تضمنت امتيازات عديدة إقليمية ومالية وقضائية لصالح البندقية(١) . ومن ذلك حصل البنادقة فى عام ١١٠٠م فى حصار يافا جودفرى البويونى على وعد بأن يكون لهم كنيسة وموضع ، يقيمون لهم فيه سوقا فى جميع المدن التى يحتلها الصليبيون على الشاطىء أو فى داخل البلاد، وأن يكون لهم كذلك حق الإعفاء التام من الضرائب فى جميع أنحاء مملكة بيت المقدس .

ولم يكتف البنادقة بذلك بل ظلوا فى كل مناسبة جديدة يقدمون فيها مساعداتهم يطلبون امتيازات جديدة ، والأدلة على ذلك وفيرة بمختلف المراجع المعاصرة . ومن أمثلة ذلك أن البنادقة حصلوا فى خلال عام ١١٠٤م على مستوطنة فى عكا، وتخلى لهم بلدوين الأول عن ثلث المدينة وشارع بالقرب من البحر ، وإعفاء من الضرائب بلغت قيمته ستمائة بيزنطة ذهبى (٢) . وفى أوائل عام ١١٢٤م عقد البنادقة اتفاقا مع وليم دى بور الوصى على بيت المقدس(٣)، وهو الاتفاق الذى حقق لهم أكبر قدر ممكن من الامتيازات مقابل المساعدات الحربية التى سيقدمونها للملكة(٤) . ومن ذلك حق البنادقة فى الحصول على أحياء كاملة فى كافة مدن مملكة بيت المقدس، يقيمون فيها مؤسساتهم المختلفة اللازمة لإقامتهم، ومباشرة نشاطهم التجارى كالفنادق والمخابز والطواحين والحمامات ومخازن الحبوب ومجزر وغيرها . بحيث تكون جميع هذه المؤسسات والمرافق معفاة من الضرائب والمكوس ، كذلك اشترط البنادقة حقهم فى استخدام موازينهم ومقاييسهم ومكاييلهم الخاصة، سواء فى المعاملة فيما بينهم أو فيما بينهم وبين بقايا رعايا المملكة . هذا مع إعفائهم من كافة الضرائب الجمركية وغير الجمركية بحيث

---

(1) Pirene, Economic, P. 300-31.

انظر أيضا : شارل ديل ، البندقية ؛ ص ٣١ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، دراسات ، ص ٨٠ .

(2) William of Tyre, I, P. 554.

(٣) كان ملك بيت المقدس بلدوين الثانى آنذاك فى سجن حلب . انظر تفاصيل ذلك عند William of Tyre, PP. 552-53.

وانظر كذلك : عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ، ص ٥١٣ – ٥١٤ ، ٥٢٢ – ٥٢٣ .

(٤) عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥١٩ – ٥٢٠ .

يكون التجار البنادقة أحراراً تماما فى كافة شئون الاستيراد والتصدير . فإذا تم فتح صور وعسقلان بمساعدتهم، حصل البنادقة على ثلث كل مدينة مع تمتعهم فى ذلك الحى بكافة الامتيازات الاقتصادية السابقة(١) .

وبالإضافة إلي ذلك تعهدت حكومة بيت المقدس أن تدفع للبنادقة مبلغا سنويا من موارد صور قدره حوالى ٣٠٠ بيزنط ، وكذلك يحق للبنادقة أن يكون لهم محاكم خاصة مستقلة لمعالجة القضايا المتعلقة بالبنادقة أنفسهم . وفى حالة كون الطرف الآخر غير بندقى فإن القضية يجب أن ترفع إلى المحكمة العليا . أما البنادقة الذين يموتون .. فإن ممتلكاتهم فى هذه الحالة يجب أن تكون تحت تصرف البنادقة أنفسهم سواء ترك أولئك الموتى وصية بذلك أم لم يكتبوها . وكذلك فى حالة تحطيم سفنهم أو غرقها، فإن الممتلكات التى يتم إنقاذها يجب أن تعود إلى البنادقة(٢) .

علاوة على ذلك فإن البنادقة حرصوا على ألا يتعرضوا لمنافسة اقتصادية من جانب المدن والجمهوريات الأخرى فى غرب أوروبا ، ولذلك اشترطوا ألا تقوم مملكة بيت المقدس بتخفيض الضرائب على بقية الهيئات والجاليات إلا بعد موافقة البنادقة أنفسهم ، وأقام البنادقة لهم مكاتب للإدارة المالية ، وعقد الصفقات فى صور وصيدا وحيفا علاوة على عكا(٣) .

وهكذا كان البنادقة منذ بداية الحروب الصليبية حتى نهايتها يهدفون الربح والكسب المادى ، ولم يكن يعنيهم الباعث الدينى إلا بالقدر الذى يحقق مصالحهم لأن الصفة التجارية البحتة غلبت على مسلكهم وتصرفاتهم . ويكفى أن نعرف أن شعارهم الذى عرفوا به فى ذلك الوقت هو **"Siamo Veneziani poi Christiani"** أى **«نحن بنادقة أولاً ونصارى بعد ذلك»**(٤) .

---

(1) Fulcher of Charterse, PP. 240, 245, 270; William of Tyre, I, PP. 552-56.

(2) Ibid .

(3) Pirene, Economic, P. 31.

(4) Atiya, Crusade in the later Middle Ages, (London 1983), P. 114.

وانظر أيضاً : صبحى لبيب ، « **سياسة مصر التجارية** » ، ص ١٢٦ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، دراسات، ص ٨٠ .

وإذا كانت البندقية قد مدت يد العون كما رأينا إلى الصليبيين تحقيقا لمصالحها فحسب ، فقد امتنعت عن معاونتهم فى كثير من الأحيان، عندما كانت تجد أن مثل تلك المعاونة ستضر بمصالحها فى مصر والشرق الأدنى الإسلامى ، حتى لا توغر صدر السلطات المسئولة بمصر عليها . ونجد مثالا واضحا لذلك فى موقفها من حملة لويس التاسع الصليبية على مصر فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى، فبينما كان الملك الفرنسي يستعد لهجومه على مصر فى عهد السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين ، أجرى اتصالات مع الدول البحرية الإيطالية لاستئجار السفن اللازمة لنقل الجند والمؤن والعتاد عبر البحر إلى الشرق ؛ وعندما اتصل بالبندقية لهذا الغرض رفضت تزويده بما يحتاج إليه من سفن ، بسبب العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بينها وبين مصر وقتذاك(١) . إذ كانت تخشى من قيام حملة صليبية بحرية ضدها تؤدى إلى إغلاق أبواب التجارة فى وجهها وهى مصدر ثروة طائلة بالنسبة لها(٢) .

وإلى جانب البنادقة تكونت فى بلاد الشام جالية من أهالى أمالفى، الذين يرجع وفودهم إلى هناك منذ القرن السادس الميلادى ، حيث أسسوا فى القدس بيمارستان لمعالجة المرضى من الحجاج والتجار الأوروبيين، الذين كانوا يقدمون لزيارة الأماكن المقدسة ، وحل الأمالفيون كذلك فى عكا واللاذقية ، غير أنهم لم يقوموا بدور مهم فى حياة الصليبيين فى بلاد الشام .

ويلى جاليات البنادقة فى الأهمية جماعة الجنوية ، الذين اتخذوا بيروت مركزا رئيسيا لهم ، ومن هناك امتد نفوذهم إلى داخل آسيا حتى بلغ بلدة سيس بأرمينية الصغرى ، حيث أقاموا بها البيوت وفندقاً وكنيسة(٣) . وقد كفلت المعاهدات للجنوية إقامة منشآت فى يافا وعكا وقيسارية وارسوف وصور وطرابلس وجبيل واللاذقية والسويدية وأنطاكية .

وقد أشار الكاتب المجهول ووليم الصورى إلى أن الجنوية قد لعبوا دورا مهماً

---

(١) عن ذلك انظر:

Hyed, Histoire du Commerce, PP. 410-12. Lane-Poole, A History of Egypt, P. 218 .

(2) Grousset, Histoire des Croisaades, III, P. 428.

(٣) حسن حبشى ، نور الدين ، ص ١٤٧ .

فى مساعدة الصليبيين أثناء احتلال بيت المقدس عام ١٠٩٩م(١) . ومع ذلك فإن الجنوية لم يحصلوا على امتيازات خاصة فى مقابل ذلك، وإنما أخذوا نصيبهم فى الأسلاب والغنائم بعد إحتلال المدينة . إلا أنه سرعان ما وقع بلدوين الأول معاهدة معهم فى يافا عام ١١٠١م حصلوا بمقتضاها على وعد بأن يكون لهم الحق فى الحصول على ثلث الأسلاب من أية مدينة يتم احتلالها بمعاونتهم . وكذلك يحق لهم امتلاك شارع خاص بهم فى كل مدينة يساهمون فى احتلالها ، وبناء على هذه المعاهدات شارك الجنوية فى احتلال مدينة أرسوف وقيسارية(٢) .

وفى عام ١١٠٤م وقع بلدوين الأول معاهدة ثانية مع الجنوية حصلوا بمقتضاها على الحق فى تحصيل ثلث دخل ميناء عكا ، وبناء كنيسة فى المدينة، وأن تكون لهم السيادة التامة على أحد الشوارع فى المدينة ، وأن يتم إعفاؤهم من كافة الرسوم والضرائب ، وأن يمتلكوا ثلث مدينة أرسوف وقيسارية وعكا وأية مدينة يساهم الجنوية فى احتلالها ، وأن يمنح الجنوية شارعا فى القدس ويافا ووعدهم الملك بتسليم ممتلكاتهم ومتعلقات الجنوى الذى يتوفى فى مملكة بيت المقدس إلى الجنوية أنفسهم . ويمنح الحماية والأمان للتجار الجنوية وبضائعهم عبر مملكته ، وتعهد لهم بأن يدفع لهم مبلغا سنويا قدره ٢٠٠ بيزنت(٣) ، وبناء على هذه المعاهدة ساهم الجنوية مساهمة فعالة فى احتلال عكا عام ١١٠٤م، وبيروت عام ١١١٠م(٤) . ولقد جدد ملوك بيت المقدس هذه المعاهدة للجنوية أكثر من مرة بحيث لم يأت القرن الثالث عشر حتى حصل الجنوية على محاكم خاصة بهم فى صور وعكا ، بالإضافة إلى إعفاءات من الرسوم والضرائب على البضائع المستوردة من البلاد الإسلامية(٥) .

وفى عام ١٢٢١م منح حنا الأبلينى صاحب بيروت امتيازات تجارية للجنوية فى المدينة.. ومن ذلك إعفاؤهم من الرسوم والضرائب على البضائع الصادرة

---

(1) William of Tyre, I, P. 353; Gesta Francorum, P. 88.

(2) William of Tyre, I, PP. 435-38.

(٣) انظر النص الكامل للمعاهدة فى:

William of Tyre, I, PP. 454-56

(4) Fulcher of Chartres, P. 179; William of Tyre, I, P. 456.

وانظر أيضاً : ابن القلانسى ، ص ١٤٣ – ١٤٤ .

(5) La Monte, Feudal Monarchy, PP. 264-265.

والواردة، ومحكمة خاصة بهم علاوة على سوق فى بيروت . وفى عام ١٢٢٣م صدق الابلينى على تلك الامتيازات إلا أنه استثنى بعض السلع التى يجب على الجنوية أن يدفعوا رسوما عليها مثل الخمور والزيوت والخزف(١) . وفى عام ١١٢٣٤ منح ردهارد الثانى صاحب يافا امتيازات تجارية للجنوية فى مدينته، وتخفيضاً فى الضرائب والمكوس الجمركية(٢) .

حذا حذو الجنوية جماعة البيازنة(٣) الذين نزلوا فى صور وعكا وطرابلس والبترون واللاذقية وأنطاكية . وأصبح لهم قناصل كما للجنويين منذ عام ١١٧٠م فى أنطاكية ثم فى طرابلس بعد ذلك بربع قرن(٤). وقد حصل البيازنة على أحياء فى القدس فضلاً عن ربع يافا ، وذلك مقابل الدور المهم الذى لعبوه فى تحصين المدينتين عام ١١٩٩م(٥) . وفى عهد بلدوين الثانى منح البيازنة خمسة بيوت فى صور . وفى عام ١١٥٦م منح بلدوين الثالث البيازنة محكمة خاصة بهم فى صور. وفى العام التالى (١١٥٧م) منح أمارى كونت يافا وعسقلان البيازنة منطقة فى مدينة يافا لإقامة سوق تجارى وبيوت سكنية وكنيسة، وأعفاهم من نصف الرسوم الجمركية المقررة فى ميناء المدينة .

فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر منح البيازنة قطعة أرض لبناء بيوت قرب الموانى ، علاوة على أفران وحمامات ، وكذلك منحهم الحق فى استخدام موازينهم ومقاييسهم الخاصة ، وأن يكون لهم موظفون من قبلهم للإشراف على جميع المعاملات التى يقوم بها التجار البيازنة ، مع إعفائهم من الضرائب والرسوم، ومنح قناصلهم الاستقلال فى إدارة كل مايتعلق بشئون الجالية البيزاوية ، ومنحهم سلطات قضائية على تلك الجالية، وفى كل الحالات ما عدا الجرائم الموجهة ضد الجاليات الأخرى ، وفى هذه الحالة يجب أن تنظر فى الدعاوى أمام محاكم المملكة، وفضلاً عن ذلك حماية ممتلكاتهم وبضائعهم فى حالة غرق سفنهم أو

---

(1) Fulcher of Chartres, PP. 196-97.

(2) Janathan Riley-Smith, "The Government in Latin Syria and the Commercial Privileges of Foreign Merchants" in D. Barker (ed) Relations between East and West in the Middle Age , (Edinburg, 1973), P. 110 .

(٣) القلقشندى ، جـ ٥ ، ص ٤١١ .

(٤) حبشى ، نور الدين ، ص ١٤٧ .

(5) Boase, Kingdoms and Strongholdes, PP. 35, 36 .

تحطيمها قرب الشواطىء الصليبية . ويبدو أن البيازنة تعهدوا للصليبيين ، مقابل هذه الامتيازات الكبيرة ، بتقديم المساعدة لاحتلال يافا وعكا اللتين حررهما صلاح الدين ، وكذلك الدفاع عن صور ضد محاولات صلاح الدين لإستردادها(١) .

وقد اتخذت كل من جنوه وبيزه فى علاقتها بمصر قبل الحروب الصليبية موقف يتفق مع مصالحها الخاصة شأنهما فى ذلك شأن البندقية وجاء اشتراكهما فى تلك الحروب أو انصرافهما منها نتيجة طبيعية لما تمليه عليهما تلك المصالح(٢). هذا ومن المعروف أن بيزا اشتركت فى الصراع الذى دار بين الصليبيين وأتابكة الموصل وحلب للاستيلاء على مصر أملا فى تحقيق مطامحها التجارية بالحصول على ربع مدينة القاهرة وربع مدينة الفسطاط . وقد انتهى هذا الصراع الذى امتلأت به الحوليات خلال الستينيات من القرن الثانى عشر بنجاح نور الدين محمود ورجليه فى مصر أسد الدين شيركوه وصلاح الدين فى طرد الصليبيين .

وقد وجدت جنوة أن مصلحتها وقتذاك فى معاونة الصليبيين ضد صلاح الدين بعد أن تذوقت طعم المكاسب التى جنتها من وراء اشتغالها بالتجارة مع مصر فى عهد الفاطميين قبل اندلاع الحروب الصليبية ، وبعد أن أحست أن تغير نظام الحكم فى مصر سيضر بمصالحها الاقتصادية(٣).

وبإنتهاء الخلافة الفاطمية وبداية دولة الأيوبيين بمصر فى عام ١١٧١م، نجد أن الجنوية والبيازنة يتخذون سياسة ذات وجهين مختلفين : أحدهما يقتضي منهما مساندة الصليبيين ضد المصريين ، وغيرهم من مسلمى الشرق الأدنى ، باعتبارهم نصارى مثلهم ، فضلا عن الامتيازات العديدة التى يحصلون عليها من وراء نقل الصليبيين بسفنهم وأساطيلهم . أما الوجه الثانى فيستلزم منها الحرص قدر الاستطاعة على الإبقاء على العلاقات الطيبة مع مصر التى كانت قائمة من قبل حتى لاتضار مصالحها الاقتصادية (٤) .

وقد أدرك السلطان صلاح الدين خطر التلاحم بين المصالح التجارية وحركة

(١) عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٨٤٠ - ٨٤١ .

(٢) جوزيف نسيم يوسف ، دراسات ، ص ٨٨ .

(٣) الكنانى ، العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى ، ١١٧١ - ١٢٩١ / ٥٦٧ - ٦٩٠هـ ، (الإسكندرية ، ١٩٨١) ، ص ١٣٤ - ١٣٦ .

(٤) جوزيف نسيم يوسف ، المرجع السابق ، ص ٨٩ .

التوسع الصليبى فى المنطقة ، وعبر عن ذلك فى رسالته للخليفة العباسى عندما وصف البنادقة والبيازنة والجنوية بأنهم **«تارة يكونون غزاة وتارة يكونون سفارا»**.

وفى أواسط القرن الثالث عشر، وافقت جنوة على تأجير عدد من السفن إلى الملك لويس التاسع ليتسنى له نقل الجنود والعتاد والمهمات إلى مصر حتى يضمن لحملته الصليبية النجاح ، وعقدت معه اتفاقية بهذا الشأن(١) . ويكشف موقفها عن تدخل المصالح العادية فى الحركة الصليبية . ونجد مثالا حيا لذلك فى موقف البحارة الجنوية والبيازنة ، الذين اشتركوا فى نقل جيش لويس التاسع إلى مصر، وكان قد تركهم فى مدينة دمياط بعد استيلائه عليها لحراستها عندما توجه هو وقواته جنوبا صوب القاهرة بهدف احتلالها ؛ إذ يذكر جوانفيل مؤرخ سيرة لويس التاسع أنه غلبت على أولئك البحارة الإيطاليين الصفة التى عرفوا بها ، ورأوا ألا يعرضوا أنفسهم للخطر ولغضبة المصريين عليهم ، عندما علموا بوقوع ملك الفرنسيين ورجاله فى الأسر . ولذلك قرروا فيما بينهم ترك دمياط والنجاة بأنفسهم حتى لايلحق بهم ما لحق بالملك الأسير ، ولم يهمهم فى شىء مصير الحملة وقائدها ورجالها(٢) . ويذكر جوانفيل أن أولئك القوم لم يعدلوا عن رأيهم إلا بعد أن أغرتهم الملكة مارجريت زوجة لويس التاسع بالمال، وأدخلتهم تحت نفقة الملك الخاصة(٣) .

لقد كانت حرفة الجاليات الإيطالية هى التجارة ، وهمها الأول والأخير هو الربح والكسب المادى . وكان هذا من بين الأسباب التى أدت إلى قيام الصراع بينها فى المستوطنات الصليبية المقامة فى المدن الشامية المطلة على البحر المتوسط . وكثيرا ما تطور هذا الصراع إلى حروب مكشوفة ذهب ضحيتها الكثيرون . ونجد مثالا لذلك فى الحرب التى نشبت فى مارس سنة ١٢٤٩م بين الجنوية والبيازنة فى شوارع مدينة عكا ، وكانت وقتها من معاقل اللاتين ، وقد استخدمت فيها مختلف آلات الحصار والقتال . وفيها رجحت كفة البيازنة على الجنوية الذين قتل أحد

---

(١) فى أكتوبر ١٢٤٩ أصدر الملك الفرنسى لويس التاسع مرسوما يقضى باستئجار ست عشرة سفينة جنوية ما بين كبيرة وصغيرة ؛ من أجل الحملة على مصر . انظر :

S. Louis nolise seize navires genois pour sa premiere, Croisade (AOL, II, PP. 232-6).

(٢) جوزيف نسيم يوسف ، دراسات ، ص ٩٣ .

(٣) جوانفيل ، القديس لويس ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

قناصلهم . وانتهى الأمر بعقد هدنة بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات ، وتعتبر هذه الحرب طورا من أطوار الصراع المستمر بين الجنوية والبيازنة فى عكا وغيرها من مدن الساحل الشامى الخاضعة للحكم الصليبى . وكانت تقوم فى الغالب لأسباب تتعلق بالمسائل التجارية . كما كانت من العوامل التى أضعفت قوى الصليبيين فى الجيوب المبعثرة المتبقية لهم على امتداد الساحل ، والتى كانوا يتحصنون بداخلها ضد هجمات المصريين إلى درجة أنه لم يكن بوسعهم الصمود فى وجه تلك الهجمات، أو حتى مجرد الدفاع عن أنفسهم ومعاقلهم(١) .

ويعتبر يعقوب الفيترى من أوائل اللاتين الذين أدركوا خطورة التنافس والصراع بين الجاليات الإيطالية فى مملكة بيت المقدس ، وأثر ذلك كله على النشاط التجارى والوجود الصليبى(٢) ، ويعتبر الفيترى أن الجشع الاقتصادى كان وراء كل أشكال المنافسات والصراعات التى نشبت بين تلك الجاليات فى المملكة خلال القرن الثالث عشر (٣) . ويعتقد كوندر أن رغبة الجاليات الإيطالية فى السيطرة على التجارة الشرقية كانت السبب فى كل المنازعات التى نشبت بينهما فى الشام خلال هذا القرن(٤) .

وعلى الرغم من اختلاف أهمية الجاليات الإيطالية من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، إلا أنها اشتركت فى الصفات العامة . فقد عاش التجار الإيطاليون ومارسوا نشاطهم فى أحيائهم الخاصة، والتى كانت غالبا ماتقع بالقرب من الموانى على ساحل البحر ، وكان لهم كنيسة خاصة ومخازن للحبوب **Fondaco** و **Funda** وحمام وطاحون ومجزر وغيرها(٥) . وقد بذلت تلك الجاليات أقصى جهدها للاحتفاظ باستقلالها الاقتصادى وتلبية احتياجاتها اليومية، وبالتالى هربت من الرسوم التى كانت ستدفعها فى حالة استخدامها التسهيلات فى مدن مملكة بيت المقدس .

وبالإضافة إلى ذلك كانت الجاليات الإيطالية تلجأ إلى محاكمها الخاصة التى

---

(1) Grousset, Histoire des Croisades, III, PP. 433-7.

(2) Jacques de Vitry, PP. 64-67.

(3) Ibid, PP. 656-67.

(4) Conder, Jerusalem, P. 3005 .

(5) Mayer, the Crusades, P. 173 .

لم تكن إلا جانبا من الامتياز العام الذى جعل من الأحياء الإيطالية دولة داخل دولة Imperia in Imperio ، فما حدث من إعفائها من الرسوم وماتقدمه من المساعدات المالية يتفق مع ما لها من الامتيازات القضائية(١) . ولم تكن هذه الأحياء فى الواقع سوى قومونات ذات حكومة مستقلة يتحدث أهلها اللغة الإيطالية ، ولم يختلطوا بجيرانهم من الناحية الاجتماعية ، وشبيه بها ما حازه تجار مرسيليا من مؤسسات فى عكا ويافا وصور وجبيل ، وما تملكه تجار برشلونة من مؤسسات فى صور . على أن الأحياء التجارية فى كل المدن باستثناء عكا لم يتجاوز أفراد الواحدة منها بضع مئات من الأفراد .

وفى كل مكان من مملكة بيت المقدس تمتعت الجاليات الإيطالية بحرية تجارية بعيدة المدى ، فقد أعفوا من كل نوع من أنواع الرسوم والضرائب ، ومن الاضطرار إلى استخدام الموازين والمكاييل والمقاييس المستعملة فى المملكة . وفى أحياء الإيطاليين الخاصة ، وبصفة خاصة فى السوق ، حافظوا بأنفسهم على حفظ الأمن وصيانة النظام . وكان هذا الجانب ملقى على عاتق النواب فى الأماكن الأخرى(٢) .

كان القنصل يأتى على رأس البناء الاجتماعى فى الأحياء الإيطالية فى بلاد الشام (٣) ، ويدعمه مجلس فى تمثيله لمصالح الحى لدى سيد المدينة أو الحاكم أو الملك . كما أنه المسئول عن إدارة ممتلكات الحى والحفاظ على امتيازات الجالية فى المدينة ، وكان على الموثقين التابعين له أن يقدموا بإعداد الاتفاقيات بين التجار وكذلك عقود الزواج . وكان للقنصل جهازه المساعد من الكتبة والمأمورين . وكانت مسئولية الكتبة تنحصر فى جرد ممتلكات الحى ، كما كان مأمور المدينة يعلنون مراسيم مجلس الحى ويشرفون على تنفيذها(٤) .

وقد حاولت الحكومة الملكية القوية فى القرن الثانى عشر مرة بعد أخرى أن تخفض من امتيازات الجاليات الإيطالية فى مملكة بيت المقدس إلى مستوى

(١) باركر ، *الحروب الصليبية* ، ص ٧٩ .

(2) Mayer, The Crusades, P. 173 .

(3) Ibid, P. 172 .

(٤) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٦١ .

محتمل. وآية ذلك أن الملك فولك الأنجوى امتنع عن دفع حوالي ثلاثمائة بيزانت إلى دوق البندقية من أموال خزانة ميناء عكا ، وهو المبلغ الذى تعهدت المملكة أن تدفعه إلى البنادقة بمقتضى اتفاقية عام ١١٢٣م . وفى عام ١١٦٧م ألغى الملك أمارى الأول امتيازات أهالى جنوه التى كانوا قد نقشوها بحروف من ذهب فى كنيسة القيامة . ومع ذلك فإن كل هذه الامتيازات الملغاة أعيدت مرة أخرى ، بل زاد حجمها ، وذلك أثناء الفوضى التى حدثت قبيل وإبان الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة(١) .

كانت الجاليات الإيطالية تكافح بدورها تلك الإجراءات للمحافظة على امتيازاتها واستعانوا فى ذلك بالبابوية ، التى كانت لها مصلحة واضحة فى أن تحتفظ برابطة التحالف مع المدن البحرية القوية . وعلى ذلك هاجم البابوات حنث ملوك بيت المقدس بعهودهم ، بل تطور الأمر إلى أن البابوية هددت أولئك الملوك بالحرمان من رحمة الكنيسة إذا لم يتراجعوا عن ذلك(٢) . وغالبا ما كان الملوك يرضخون للضغوط الواقعة عليهم ، ومع ذلك تمكنوا من سحب امتيازات الجاليات الإيطالية عن طريق القضاء العالى من أحيائها ، ومنع بيع المنح والأراضى التى يحوزها سكان المدن إلى الأحياء الإيطالية . إلا أن هذه الإجراءات لم تنجح إلا جزئيا لأن الزيجات المختلطة بين الإيطاليين والصليبيين كانت تعود على الإيطاليين بالأراضى والممتلكات الإقطاعية والمدنية من خلال الوراثة(٣).

بذلك نكون قد انتهينا من دراسة وضع التجار الإيطاليين فى أحيائهم الخاصة، وننتقل الآن إلى الحديث عن الصرافة التى كانت ضرورة يومية فى مملكة بيت المقدس بسبب جماعات الصليبيين والحجاج والتجار الوافدين من شتى أنحاء أوروبا . ولذلك كان فى جميع المدن الكبرى تقريبا يوجد شارع أو منطقة مخصصة للصرافين بالقرب من الأسواق . وفى المصرف كان يتم تبادل العملات الأوروبية بالعملة المحلية والتعامل بمختلف النقود وأصنافها التى لاتحصى والتى سكت فى مئات دور سك النقود الأوروبية . وكان يتم تقدير قيمتها الأساسية كمعدن، ثم تحويلها إلى عملة محلية(٤).

(1) Mayer, The Crusades, P. 173 .

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٦٤.

(٣) نفسه ، ص ١٦٥ .

(٤) نفسه ، ص ٢٣٣ .

بالإضافة إلى ذلك.. فإن الصيارفة كان عليهم أن يتعاملوا بالعملات الموجودة فى الشرق الأدنى إلى جانب عملات أوروبا . وكانت العملة الرئيسية فى البلاد قبل الغزو الصليبى هو العملة المصرية أى الدينار الذهبى(١) ، والدرهم الفضى الفاطمى. وكانت هذه العملات تختلط لاسيما فى المدن البحرية بعملات سوريا وبلاد ما بين النهرين بل وعملات فارس . وكانت كميات من مثل هذه العملات إن لم تكن مدخرة ، ترد إلى دور السك الخاصة بالنقود الصليبية من خلال الضرائب ، بيد أنها ظلت متداولة بعد الغزو الصليبى(٢) .

وقد ضرب الصليبيون بالشرق العربى – أثناء استقرارهم فيه – نقودا ذهبية عرفت باسم الدنانير الإسلامية **Saracenate Besants** ، وما هى فى الحقيقة إلا تقليداً للنقود الفاطمية بكتاباتها وكل خصائصها الإسلامية . غير أن ما جرى ضربه من هذا النقد الذهبى كان منخفض العيار، لأنه لم يحو من الذهب إلا ثلثى ماتحويه الدنانير الفاطمية(٣) . وبالمقابلة مع الدينار القديم الذى كان يحتوى على حوالى ٤,٢٥ جرام من الذهب الخالص ، فإن الدينار الفاطمى الأخير الذى قلده الصليبيون كان أخف وزناً ومن خليط أرخص . ومع ذلك تفوق هذا الدينار ، فى الوزن وما يحويه من الذهب على البيزنت الإسلامى، الذى تراوح قطره فيما بين ٢٢ ، ٢٣ ملليمترا ويزن من ٣,٥ جرام إلى ٣,٧ جرام . وكان هذا الخليط يحتوى على ٦٥,٥ ٪ ، وأحيانا ٧٥ ٪ من الذهب(٤) .

وتتميز الدنانير الصليبية المقلدة لدنانير الخليفة الفاطمى المستنصر بالله بأنها

(١) لفظة الدينار مشتق من اللفظ اليونانى اللاتينى Denarius-Aureus وهو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب ، وقد عرف العرب هذه العملة الرومانية وتعاملوا بها قبل الإسلام وبعده . وقد أشار إليها القرآن الكريم فى سورة آل عمران (آية ٧٥) : «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ». هذا ومن المعروف أن الوزن الشرعى للدينار الإسلامى هو ٤,٢٥ جرام من الذهب الخالص ، وكان عبارة ٣/٢ ٢٣ قيراط ، ولمزيد من التفاصيل عن الدينار والدرهم ، انظر ، ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٣٢ – ٢٣٥ .

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢٢٤ .

(3) Runciman, A History of the Crusades, III, P. 363.

(4) Prawer, Latin Kingdom, P. 385.

تشبه نماذجها الأصلية من حيث الشكل العام فقط، ولكنها تختلف عنها فى أن النقاش الذى قام بنقش كتاباتها وهو جاهل بها عجز عن نقشها نقشا دقيقا فأدى ذلك إلى صعوبة قراءتها بسبب تقطيع كلماتها وسقوط كثير من حروفها سهواً منه ، وقد نقش حرفًا مكان الآخر ، كما نقش بعض الكلمات معكوسة مثل لفظ الجلالة «**الله**» ، كذلك عجز النقاش عن توزيع النص على المساحة المخصصة فجاء النص فى غالب الأحيان مبتورا ولم يعثر حتى الآن على دينار صليبى واحد عليه مكان وتاريخه سكه كاملين أو حتى مكان سكه أو تاريخه . وهكذا تعتبر الدنانير الصليبية المقلدة لدنانير المستنصر أصعب العملات الصليبية المقلدة من حيث القراءة(١) .

أما بالنسبة لدنانير الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤هـ) ، فمن الواضح أن الصليبيين قد نجحوا فى تقليد الشكل العام للدنانير الفاطمية الأصلية للخليفة الآمر من حيث اشتمالها على هامشين كتابيين وأثرين، يفصلهما خطان بارزان بكل من الوجه والظهر يزيدان شكل العملة روعة وجمالا . وقد نقشت كتابات كل هامش منهما بالخط الكوفى فى داخل دائرة مستديرة، كما يفصل الكتابة المركزية المكونة من سطرين متوازيين عن الهامش الداخلى لكل من الوجه والظهر دائرة من خط بارز، غير أن النجاح لم يحالفهم فى تقليد التفاصيل الدقيقة لهذه الدنانير، مما أدى إلى وقوع النقاش الذى قام بنقش كتابات هذه الدنانير الصليبية المقلدة فى العديد من الأخطاء اللغوية والتاريخية(٢) .

فمن الأخطاء الكتابية التى وقع فيها الفنان الصليبى على سبيل المثال ، لا الحصر أن الدنانير الصليبية المقلدة جاءت منقوصة بعض عباراتها مغلوطة بعض كلماتها ومتقطعة بعض حروفها فى كثير من الأحيان ، ويرجع ذلك إلى جهل الفنان الصليبى بقواعد اللغة العربية وعجزه عن توزيع النص على المساحة المخصصة له ، وكان الفنان يتوقف أحيانا عند كلمة المدينة، وبذلك لم ينقش مكان وتاريخ السك . وأحيانا كان ينقش مكان الضرب دون التاريخ ، وأحيانا أخرى كان ينقش مكان الضرب وجزءا من التاريخ كرقمى الآحاد والعشرات فقط دون

(١) رأفت النبراوى ، «**عملات صليبية بكتابة عربية فى بلاد الشام**» ، مجلة القدس ، العدد ٥٢، صفر ١٤٠٥ هـ نوفمبر ١٩٨٤م ، ص ٧٠ .

(٢) نفسه ، ص ٧١ - ٧٢ .

المئات[١].

ومن الأخطاء التاريخية التى وردت على الدنانير الصليبية المقلدة لدنانير الآمر بأحكام الله أن النقاش كان ينقش تاريخا سابقا على فترة حكم الأمراء أو تاريخا لاحقا لفترة حكمه؛ أى إن التواريخ المسجلة على هذه العملات الصليبية لاتتفق وفترة حكم الآمر[٢] .

كذلك وقع الفنان الصليبى الذى قام بتقليد دنانير الخليفة الحافظ لدين الله فى الأخطاء نفسها التى وقع فيها عند تقليده لدنانير الخليفة الآمر . كذلك قلد الصليبيون دنانير السلطان صلاح الدين الأيوبى، ووقعوا فى أخطاء كتابية[٣] .

وعلى أية حال.. فقد تحسن التقليد الذى عرفته النقود الباكرة بحيث كان هناك عديد من الحروف أو الكلمات ، مثل التواريخ ، وأماكن الضرب أصبح من الممكن قراءتها ، وإن ظلت خاصية العملات الصليبية دون مستوى العملات البيزنطية والإسلامية[٤] . وبصفة خاصة من حيث الوزن والسبيكة . وليس من المؤكد ما إذا كان طراز هذه العملة يخفى على أى تاجر محترف قيمتها الحقيقية أو لا ، ولكنها مع ذلك كانت تقبل فى التجارة العالمية فى حوض البحر المتوسط . أضف إلى ذلك أن العملات الصليبية ولا سيما نقود مملكة بيت المقدس ، التى اشتهرت عند المسلمين بالصورية (أى الدنانير المضروبة فى مدينة صور) لم تلبث أن انتشر تداولها فى أنحاء الشرق الأدنى ، وصارت هى العملة المعول عليها فى معاملات سكان البلاد.

---

(١) النبراوى ، **«عملات صليبية»** ، ص ٧٢ .

(٢) نفسه : المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

(٣) نفسه : المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

(٤) لعل أهم ما وصلنا من المؤرخين فى الإسلام عن النقود ، من المؤرخ المصرى المقريزى ، الذى صنف كتابا بعنوان : **«النقود الإسلامية»** وقد نشر هذا الكتاب مع ما كتبه البلاذرى، وابن خلدون ، والقلقشندى ، وبعض المؤلفين المحدثين ، العالم العراقى الأب أنستاس مارى الكرملى فى كتابه : (النقود الإسلامية وعلم النميات ، القاهرة ، ١٩٣٩م) ، وكذلك توجد طبعة أخرى للكتاب نفسه تحت اسم «النقود الإسلامية المسمى بشذور العقود فى ذكر النقود » تحقيق وإضافات محمد السيد على بحر العلوم ، الطبعة الخامسة ، النجف ، المكتب الحيدرية ، ١٩٦٧ .

والعملة التى ضربها الصليبيون ، كانت تنقش عليها ، كما هو الحال فى صقلية أثناء الحكم النورمانى [١] ، كلمات عربية مشفوعة بالتاريخ الهجرى وفوقها اسم حاكم البلاد الإسلامية . ومما هو أعجب من هذا وذاك أنه نقشت عليها آيات قرآنية وكتابات تشير إلى الرسالة المحمدية . وأحيانا كان ينقش عليها رسم صليب صغير الحجم أو الحروف الأولى من اسم الأمير الصليبى ؛ مما يدل على صفتها الحقيقة . وكان يكتفى فى مسكوكات أخرى بذكر تاريخ صناعتها ، واسم دار الضرب التى سكتها للتدليل على مصدرها [٢] . وكان يقصد بذلك بطبيعة الحال أن يقبل المسلمون من الأمراء والتجار على تداولها ،مثلما كان الصليبيون يقبلون على تداول نظائرها من العملات الإسلامية المقابلة لها .

وقد ظل العمل جاريا وفق هذه الحال حتى نهاية النصف الأول من القرن الثالث عشر عندما جاء **Eude de Chateauroux** إلى الأراضى المقدسة نائبا عن البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٧٠م) ، وأدرك هذا القاصد الرسولى حقيقة الأمر ، واستنكر ذلك العمل الذى ظل قائماً حتى ذلك الوقت دون أن يؤبه له . وقد بعث هذا النائب رسالة إلى البابا بخصوص هذا الأمر ، فطلب البابا من رسوله اتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع استخدام هذه العملة فى فلسطين ، وخوله سلطة إصدار قرار الحرمان الكنسى ضد كل من يخالف ذلك[٣] .

---

(١) بلغ من اهتمام النورمان بالتراث العربى الإسلامى فى صقلية أن أقبلوا على تعلم اللغة العربية ، التى أصبحت بذلك لغة رسمية فى البلاد، بالإضافة إلى اللغتين اللاتينية واليونانية (جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، نقله إلى اللغة العربية عادل زعيتر ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٨٣) . وعلى ذلك لم يكن غريباً أن يسلك النورمان نقودهم وعليها تواريخ هجرية وعبارة **«لا إله إلا الله محمد رسول الله»** ، وبعض آيات من القرآن الكريم (لويجى رينالدى، «المدينة العربية فى الغرب»، مجلة المقتطف ، المجلد التاسع والخمسون ، القاهرة ، ١٩٢١ ، ص ٥٣٣ - ٥٣٩) ، وقد كان ذلك غاية فى التسامح الدينى مقرونا بحكمة تجارية ؛ إذ كان يهم النورمان أن تقبل نقودهم فى شمال أفريقية . هذا وقد واصل الأمراء السوابيون الذين خلفوا النورمان فى حكم صقلية ضرب نقودهم بالعربية زمنا طويلا (مورينو ، المسلمون فى صقلية ، ص ٢٠).

(٢) ستيفنسن **«الحروب الصليبية»** ، ص ١٩١ .

(٣) جوزيف نسيم يوسف ، دراسات ، ص ٣٢٩ .

وهكذا صارت النقود الصليبية من ذاك الوقت (١٢٥٧م) تضرب وعليها التاريخ الميلادى ، وتنقش عليها عبارات دينية نصرانية دالة على مذهب التثليث (**الآب ، والابن ، وروح القدس**) وشارة النصرانية محاطة بعبارة (**رب واحد ، إيمان واحد ، معمودية واحدة**)(١) . وعلى الوجه الثاني نقشت عبارة (**نفتخر بصليب ربنا يسوع المسيح الذى به سلامتنا وتحياتنا ، وقيامتنا ، وبه تخلصنا وعقابنا**)(٢) ، وذلك على الرغم من أن نقوشها كانت لاتزال مصوغة فى كلمات عربية ومكتوبة بخط كوفى، ومن أن قيمتها كانت قيمة العملة السابقة(٣) نفسها.

ولعل ذلك قد تم بناء على طلب التجار البنادقة الذين أدركوا بلا شك ، وما يمكن أن يكون لاستخدام عملة منقوشة باللاتينية أو بالفرنسية ، من أثر على التجار المسلمين ، بعد أن كان التعامل التجارى بين المسلمين والنصارى يجرى بالعملة سابقة الذكر ، فلجأوا إلى هذه الحيلة متخذين قطعا من حجم الدينار الإسلامى نفسه وإن اختلف النقش حتى لايشعر التجار المسلمون بتحول فجائى فى المعاملات النقدية ؛ إذ كان المقصود من هذه العملة الجديدة هو استمرار حركة التعامل مع المسلمين ، وعدم إغضاب البابا فى الوقت نفسه . هذا ولا يمكننا بأى حال من الأحوال ، أن نغفل أثر الملك لويس التاسع فى هذا التعديل الذى طرأ على العملة(٤) .

والذى يلفت النظر فى هذا الشأن أن العملات التى عثر عليها من هذا النوع ضربت كلها فى عكا فيما بين عامى ١٢٥١ ، ١٢٥٥م؛ ومعنى ذلك أنه كانت بالمدينة فى ذلك الوقت دار لضرب النقود ، وأن هذه العملات التى عثر عليها يرجع تاريخها إلى الفترة التى أقامها لويس التاسع فى فلسطين(٥).

وبالإضافة إلى ذلك، ضرب الصليبيون فى فلسطين نوعاً آخر من النقود الذهبية، نقشت فى منتصفها عبارة « **Agnus Dei**» وتحيط بها جملة « **Agnus Dei que tollit peccata mudi**» وعلى الظهر نقشت الجملة الآتية **Christus vincit**

---

(١) رسالة بولس إلى أهل أفسس ٤ : ٥ .

(2) Prawer, Latin Kingdom, P. 387.

(3) Mayer, The Crusades, P. 163.

(٤) جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى ، ص ٣٢٩ – ٣٣٠ .

(٥) نفسه ، المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

christus, regnat Christus imperat وقد بلغ قطر هذه النقود حوالى ٢٠٠,٥ ملي، ٢٠ ملي ، وتراوح وزنها ما بين ٣,٢١ جرام ، ٣,٦٢ جرام ، وهي مصنوعة من السبائك(١) .

وبجانب النقود الذهبية سابقة الذكر ضرب الصليبيون نقوداً فضية ، وهي تعتبر الآن نادرة جدا ، ويضم متحف الفن الإسلامى بالقاهرة نماذج منها . ويبدو أنها ضربت تقليدا للنقود الأيوبية المعاصرة لها ، وخاصة الدراهم الفضية لكل من الملك الظاهر غازى حاكم حلب ، والملك نجم الدين أيوب ، والملك الصالح عماد الدين إسماعيل بدمشق . ويلاحظ عن كتابات هذه النقود أن طرازها يسهل تمييزه عن النقود الإسلامية الأصلية، وربما سك الصليبيون هذه النقود فى دور سك صليبية أو فى دور سك البندقية ، أو غيرها من المدن إيطالية(٢) . وبعض الدراهم التى تحمل تاريخ سنة ٦٤١هـ تذكر اسم الخليفة العباسى « المستنصر بالله » بألقابه (أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين) مع أن هذا الخليفة كان قد مات منذ سنة أى سنة ٦٤٠هـ ، وكثير من الدراهم الصليبية التى ضربت تقليدا لدراهم الصالح إسماعيل تذكر أنها ضرب دمشق سنة ٦٤٤هـ وتحمل أيضا ألقاب المستنصر، مع أن المستنصر مات قبل ذلك التاريخ بأربع سنوات ، كما أن الصالح إسماعيل كان قد ترك دمشقٍ للصالح أيوب فى ٨ جمادى الأول سنة ٦٤٣هـ ، وأصبح من غير المعقول أن تضرب دراهم دمشق بعد هذا التاريخ باسم الصالح إسماعيل(٣). ويغلب على الظن أن مثل هذه الدراهم التى تحمل أسماء وتواريخ خاطئة قد ضربها الصليبيون فى أوروبا على أيدى عمال سوريين من أسرى الحروب الصليبية ، إذ هم أقدر على الكتابة العربية من غيرهم من العمال الأوروبيين ، ولم يكن الضارب المسلم قد علم وهو فى الأسر بموت الخليفة أو بترك الصالح إسماعيل لدمشق فاستمر يضرب النقود الصليبية بتواريخ متتابعة لا تتماشى مع التغيرات السياسية فى الشرق العربى(٤).

ولم تكن قيمة النقود الصليبية ثابتة ، وإنما كانت تعكس حالة اقتصاد مملكة

---

(1) Prawer , Latin Kingdom, P. 387 .

(٢) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ماضيها وحاضرها (القاهرة ، ١٩٦٤م) ، ص ٨٢ .

(٣) نفسه : المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

(٤) نفسه ، ص ٨٣ .

بيت المقدس صعوداً وهبوطا ، وفى الربع الأخير من القرن الثانى عشر وبصفة خاصة بعد معركة حطين ، ضرب بارونات المملكة نقوداً ، وهذا لم يكن ليحدث فى ظل الملوك الأقوياء فى المملكة الأولى ، لأن ذلك يعد انتهاكا للامتيازات الملكية(١). ومن الواضح أن عملات السادة الإقطاعيين قد ظهرت فى الفترة القلقة التى شهدت صراع البارونات على إرتقاء العرش بعد وفاة الملك بلدوين الخامس . وهذه النقود كانت عبارة عن سبائك أو من النحاس الخالص ذات فئات صغيرة . ولم تكن بأى حال من الأحوال تضاهى فى القوة النقود الملكية؛ ولذلك كان تداولها محدود . ومع ذلك فإن هذه النقود جلبت الأرباح للسيد الإقطاعى الذى ضربها . ويبدو أنها لم تكن تضرب لأغراض اقتصادية بحتة ، وإنما قصد بها إظهار استقلالهم السياسى عن ملك بيت المقدس .

وفى ميدان النقود لا يمكن أن نغفل النشاط الذى نجم من قبل الحجاج والجيوش الصليبية بين أوروبا والشرق العربى ، فقد ساعد هذا النشاط على تقدم التجارة الدولية إلى حد لم يكن معروفا من قبل الحروب الصليبية . وتطلبت الظروف المالية الجديدة تداولا أسرع وأعظم للعملة، فابتكرت طريقة الأوراق المالية الخاصة بتقييد ما للعميل من حساب فى المصارف Credit-note ، وتأسست البيوت المالية فى جنوه وبيزا وانتشرت فروعها وأعمالها فى شرق البحر المتوسط .

وقد صارت بعض طوائف الفرسان الرهبان وبصفة خاصة الداوية بمثابة مصارف للإيداع والتسليف . وبفضل ممتلكاتهم الواسعة فى أغلب أرجاء العالم الصليبى ، أضحى لهم دور كبير فى تمويل الحروب الصليبية ، وتزويد الصليبيين فى بلاد الشام بتسهيلات مصرفية مهمة . وآية ذلك أن اشتراك الفرنسيين فى الحملة الصليبية المعروفة بالحملة السابعة على مصر ، لم يتحقق إلا بفضل مساعدة الداوية، الذين اضطروا إلى دفع مبالغ مالية كبيرة إلى الملك لويس التاسع فى الشرق ، وجرى تسديدها لهم فى فرنسا بعد ذلك(٢) . ولم ينته القرن الثانى عشر

---

(1) Runciman, A History of the Crusades, III, P. 364.

(٢) اشتهر الفرسان الداوية بحبهم الشديد لجمع المال واكتنازه مما دفع الملك لويس التاسع إلى الاستيلاء على أموالهم بالعنف ليفدى نفسه من أسر المصريين ، بعد أن كان الداوية قد رفضوا إقراضه ثلاثين ألف دينار لهذا الغرض . وقد هدد رينو دى فيشيه Renaud de Vichiers (١٢٥٠ – ١٢٥٦) ، الرئيس الأكبر للداوية آنذاك ، بأنه سيسترد =

حتى صار الداوية يمارسون بإنتظام عملية اقراض الأموال، وتقاضوا عن ذلك فوائد باهظة، ومع أنهم لم يكونوا موضع ثقة من الناحية السياسية فإن سمعتهم المالية بلغت من الارتفاع مما جعل المسلمون يولونهم الثقة ويفيدون من خدماتهم .

وبجانب الداوية مارست الاسبتارية والتيتون عمليات من هذا القبيل . ولكن على نطاق يقل كثيرا مما كان عند الداوية . والحقيقة أن مملكة بيت المقدس ، لم تجن بصفة مباشرة شيئاً من هذا النشاط المالى الذى زاد بلا شك من قوة طوائف الفرسان الرهبان وبالتالى تمردهم على الحكومة ، غير أن هذا النشاط المصرفى أفاد البلاد فى مجموعها من الناحية المالية .

= هذه الأموال من أموال الملك فى عكا . كما أن جوانفيل الذى دون لنا سيرة هذا الملك واجه هو الأخر متاعب عديدة مع الداوية في مدينة عكا ، وآية ذلك أن مشرف بيت الداوية فى المدينة أنكر معرفته بجوانفيل نفسه . وعندما رفع جوانفيل الأمر إلى رئيس الداوية رد عليه قائلا : «ياسيد جوانفيل ، أنت تعلم أنني أحبك كثيرا ، ولكن ثق أنني لن أحبك ، إذا لم تكف عن إثارة هذه القضية ، لأنك تريد أن تدخل فى اعتقاد الناس أن إخواننا الفرسان الداوية لصوص». غير أن هذا الرئيس اضطر إلى رد مال جوانفيل بعد فترة قصيرة . ويعلق جوانفيل على كيفية عثور رئيس الداوية على ماله فيقول : **«أما كيف وجودها ، فقد بدل المشرف على الحصن وأرسله إلى قرية اسمها سينورى ، وبذلك أعاد لى هذا الرجل مالى»**. انظر : جوانفيل ، القديس لويس ، ص ١٧٥ – ١٧٧ ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .

الفصل الرابع
القلاع والشئون الحربية

- مصادر التجنيد (المقطعون - المأجورون - الحجاج - طوائف الرهبان الفرسان) ، دور المرأة الصليبية في قتال المسلمين .
- الفرسان ذوي التسليح الثقيل .
- أسلوب القتال الذي كان يتبعه الجيش الصليبي أثناء الزحف.
- التشكيل المربع .
- التشكيل المتراص والهدف منه .
- التركبولى .
- النبالة .
- المشاة .
- نقطة الضعف في التشكيلات الصليبية .
- العلم الصليبي ، سمات المقاتل الصليبي وصفاته كما لمسها المسلمون (الشجاعة - قوة الاحتمال - الحذر) .
- القلاع الصليبية (وظائفها ، أنماطها) .
- بعض أدوات القتال عند الصليبيين (الأبراج - الدبابات - الكباش - المنجنيق - القبو - الستائر - السلالم - النقب) .
- أسطول رينو دى شاتيون .
- أحوال الأسرى .

إن كافة الحكومات تقوم إلى حد ما على أساس القوة وربما كان هذا هو الأساس الأول الذى قامت عليه السيادة الفرنجية فى فلسطين . فلم يكن احتمال خطر هجوم وشيك وشبه متواصل وحسب ، وإنما كان السكان الوطنيون فى المناطق العربية المحتلة لا يوافقون أبدا بصورة تامة على الحكم اللاتينى ، وكان عليهم أن يظهروا فى مناسبات مهمة إما ولاء مشكوكا فيه أو عداء فعليا . وتجسدت قوة الصليبيين فى جيشهم الميدانى من ناحية ، وفى الأماكن المحصنة من ناحية أخرى[١] . وهذان العنصران يشكلان موضوع هذا الفصل .

كان من بين أهداف الحروب الصليبية احتلال الأراضى المقدسة ، وإقامة كيان عسكرى فيه من القوة ما يكفل الاحتفاظ بتلك الأراضى ورد أية هجمات معادية عليها . وما من سبيل لبلوغ هذا الهدف ما لم تضم الحملات الصليبية عددا كافيا من الصليبيين يرى أن نذر الحج الذى قطعوه على أنفسهم ، إنما هو التزام يتقيدون به طيلة حياتهم[٢] . وتطبيقا لهذا المبدأ ترك الصليبيون عند نهاية الحرب الصليبية الأولى جودفرى البويونى فى الأراضى المقدسة حاكمًا على القدس وميناءها يافا تؤازره قوة عسكرية، ربما كان قوامها ٣٠٠ فارس ، ٢٠٠٠ راجل حسبما يذكر وليم الصورى [٣] . وتقاطرت الحملات الصليبية على الشام فى الأعوام التالية ؛ مما أدى إلى توسيع نطاق النجاح الذى أحرزته الحملة الصليبية الأولى وتدعيم الاحتلال اللاتينى ، ولهذا.. فإن العادة الشائعة التى يجرى عليها الكثيرون فى حديثهم عن الحملة الصليبية التى شنت فى سنة ١١٤٨م ، على أنها هى الحرب الصليبية الثانية تتجاهل وتخفى هذه الحقيقة الهامة[٤] .

---

(1) Smail, Crusading Warfare, P. 204.

(٢) ستيفنسن ، **«الحروب الصليبية»** ، ص ١٧٤ .

(3) William of Tyre, I, P. 408.

وللمزيد من التفاصيل عن القوة العددية للصليبيين راجع :

Runciman , A History of the Crusades, I, PP. 336-341.

(٤) تمدنا المصادر العربية والنصرانية الغربية والشرقية بأمثلة لا حصر لها عن أفواج القادمين الجدد من أوروبا وهجومهم على المناطق العربية فى الفترة الممتدة من عام ١٠٩١م إلى عام ١١٤٨م ، انظر على سبيل المثال : ابن القلانسى ، ص ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٣ ، ١٧١ ، ابن الأثير الكامل ، جـ٨ ، ص ١٩٥ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ – ٢٦٠٠ ، ابن واصل ، جـ١ ص ١٤٠ ، المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ١٥٤ ، أبو شامة ، ص ٥١ – ٥٢ . وانظر كذلك:=

ومع ذلك فإن الاحتلال الصليبى للأراضى العربية لم يبلغ أبدا مرحلة الكمال، كما أن قوات الاحتلال الدائمة كانت دائمًا غير كافية(١). ولاشك فى أن الفرسان الذين يؤدون الخدمة مقابل الإقطاعات العقارية أو النقدية يعتبرون العمود الفقرى لتلك القوات(٢) ؛ إذ جلب الصليبيون معهم من أوروبا تقاليد المؤسسات الإقطاعية ، لذلك فإن أولئك الذين منحهم الحاكم الأرض احتفظوا بها بشرط أن يؤدوا له خدمات معينة ، كان أهمها أن يظهروا مسلحين فى الوقت والمكان المعينين ليتبعوا الحاكم فى حملته ، فإن كان الإقطاع مدينا بخدمة أكثر من فارس ، يلجأ المقطع إلى حشد العدد الذى كانت أراضيه قد أقيمت به(٣) .

ويقدم يوحنا الأبلينى فى كتابه : **Livre des Assises de la Haute Cour** تفاصيل حول خدمة والفرسان المطلوبة من المقطعين التابعين لملوك المقدس(٤) .

وقد فرق الابلينى بين الفرسان الذين يخدمون عن الإقطاعات الكبيرة والفرسان الذين يخدمون عن المدن . وكان على كبار المقطعين فى مملكة بيت المقدس وهم : كونت يافا وعسقلان ، وسيد صور ، أمير الجليل ، أن يقدم كل واحد منهم مائة فارس للملك بكامل عدتهم ، بينما لم يبذل أمير ماوراء نهر الأردن (الكرك ومنتريال) سوى ستين فارسا ، وإقطاع جوسلين أربعة وعشرين فارسا(٥) .

أما المدن فقد التزمت بأن تجهز الفرسان وفقاً لثروتها . فكان على القدس، أن تقدم واحد وستين فارسا ، بينما تبذل نابلس خمسة وسبعين فارسا، وتقدم عكا ثمانين فارسا، وصور ثمانية وعشرين فارسا ، وبيروت واحدا وعشرين فارسا ،

William of Tyre, I, PP. 434-7, 445-8, 485-8; Fulcher of Chartres, PP. 151-4, 176, 195-7, 199-200; Anonymous Syriac Chronicle, PP. 94-5.

(١) ستيفنسن ، «**الحروب الصليبية**» ، ص ١٧٤ .

(2) La Monte, Feudal Molnarchy, P. 158.

(3) Smail, Crusading Warfare, P. 88.

(4) Jan d'Ibelin, R.H.C., Lois, Les Assises de Jerusalem, I, PP. 422-6.

(5) Ibid.

ومارن خمسة عشر فارسا ، والداروم فارسين (١) . ويبلغ المجموع ستمائة ستة وستين فارسا . وهؤلاء الفرسان لم تبذلهم الطبقة البورجوازية بل النبلاء الذين يقيمون فى المدن أو الذين يملكون مساكن فيها ، أما البورجوازية فأدوا نصيبهم للحكومة بما بذلوه نقدا من الضرائب(٢) .

ومع أن قوانين مملكة بيت المقدس لم يرد فيها ما يشير إلى وجود حد زمنى للخدمة العسكرية ، فإن المقطع كان يؤدى الخدمة طيلة العام إذا لزم الأمر ، لا لمدة معينة تبلغ أربعين يوما كما هو الحال فى غرب أوروبا . على أن وليم الصورى عند إشارته إلى الحملة الصليبية الموجهة إلى مصر سنة ١١٦٧م ، يذكر أن الفرسان اجتمعوا فى عسقلان ومعهم من الزاد والمؤونة ما يكفيهم المدة المقررة(٣) . وفى رأى لامونت أن هذه الإشارة قد تدل على احتمال وجود حد زمنى للخدمة العسكرية فى المملكة ، وإن كانت لم تبين على وجه التحديد عدد الأيام المقررة للخدمة(٤) . ويفترض لامونت أن مدة هذه الحملة قد تقررت فى اجتماع المحكمة العليا بالقدس؛ باعتبارها الهيئة المسئولة عن شئون الحرب(٥) . على أنه يبدو من غير الضرورى افتراض أن وليم الصورى كان يعنى أكثر مما يقول ، فعندما كان يجرى حشد الجيوش الكارولنجية كانت تؤمر أحياناً بإحضار الطعام لفترة محددة . وعندما كان هذا يستنفد كان يعملون على إيجاد غيره فى ميدان القتال ، وكانت ترتيبات مماثلة تتخذ أيضا بين الحين والآخر خلال العصر الإقطاعى، ويبدو أن جيش أمارى كان فى حاجة لحمل المؤن لفترة معينة بسبب اضطراره لعبور الصحراء بين فلسطين ومصر (٦) . ويشير وليم الصورى نفسه إلى مناسبات أخرى،

(1) Jan d'Ibelin, PP. 422 - 6.

(2) Runciman , A History of the Crusades, II, P.298.

(3) Willermus Tyrensis, Histoira Reum in Partibus Transmarinis Gestarum, R.H.C., Hist, Occ., I, (Paris, 1844), P. 9004 :"Assujmptis ad dies Constitutos Necesarus Alimentis".

(4) La Monte, Feudal Monarchy, P. 141.

(5) Ibid.

(6) Smail, Crusading Warfare, PP. 98-99, N. 3.

تقرر فيها البدء بحملة مع حمل الطعام والعلف لعدد متفق عليه من الأيام(١) .

كان السيد الإقطاعى هو الذى يتولى دعوة أتباعه لتأدية الخدمة العسكرية فى المدة المقررة . فإذا استغرقت الحملة من الزمن ما يزيد عن الوقت المحدد لها، التزم السيد الإقطاعى بدفع نفقات الأتباع بعد انتهاء المدة المحددة . غير أنه يبدو أنه لم يوجد ما يدعو إلى تحديد مدة الخدمة ما دام الأتباع يقومون بها على نفقتهم الخاصة ، بشرط أن يجرى الاتفاق على ذلك من قبل(٢) .

ومن المحتمل أن ما جرى فى مملكة بيت المقدس من عدم تحديد مدة هذه الخدمة يرجع إلى أن المملكة كانت فى حالة حرب مستمرة ، وإن كان ما يؤديه الأتباع من خدمة كان على نفقة السيد الإقطاعى ، ولهم أن يلزموا سيدهم بأن يدفع لها نفقاتهم قبل أن يذهبوا لتأدية الخدمة(٣) . ومن الأدلة على ذلك أنه كان من حق التابع أن يلجأ إلى المحكمة لنفى ما يوجه إليه من تهمة عدم تأدية الخدمة المقررةعليه ، بأنه لم يتقاض ماهو مقدر له من النفقة والأجر ، وترتب على ذلك أنه يجوز له أن يتحلل من الخدمة وأن يغفل أمر كل ما يوجه إليه من دعوة لتأديتها(٤) .

وفى حالة توقف الملك عن دفع أرزاق أتباعه من حائزى الإقطاعات النقدية، جاز لهم أن يبيعوا سلاحهم وأن يعيشوا على ما يتحصلون عليه من ثمن هذا البيع وجرى إعفاؤهم بالتالى من الخدمة العسكرية . ويبدو أن الملك لم يكن ملزمًا بدفع ماتأخر من أرزاق هؤلاء الأتباع، إذا قلت موارده بسبب الأوبئة أو خيبة المحصول أو هجمات المسلمين(٥) .

أما صاحب الإقطاع العقارى.. فإنه لايعفى من الخدمة المقررة على إقطاعه، إلا إذا وقع فى أيدى المسلمين ولم يهب سيده لإعادته وإرجاعه إليه ، إذ يعتبر قصور السيد عن المحافظة على إقطاع تابعه نقضًا للعقد الإقطاعى . وفى هذه الحالة كان للتابع الحق فى أن يتحلل من يمين الولاء والطاعة وما التزم به من خدمات . أما إذا حاول السيد الإقطاعى أن يسترد اقطاع تابعه، وفشل فى ذلك، جاز

(1) Willermus Tyrensis,PP. 739, 767, 1108.

(2) La Monte, Feudal Monarchy P. 142 .

(3) Ibelin, P. 376.

(4) Ibid, P. 376.

(5) Assises de Jerusalem, I, P. 652.

للتابع أن يتحلل من الخدمة العسكرية لارتباطها بالأرض، إلا أنه لايحق له أن ينقض يمين الولاء لسيده[1] .

والإقطاع العقارى لا يبذل إلا فى مقابل تأدية خدمة عسكرية من المقطع نفسه . فإذا حاز الشخص إقطاعات عديدة تحتم عليه أن يحلف يمين الولاء ويؤدى الخدمة الشخصية لأول من بذل له إقطاعا من الأرض ، وأن يقسم للآخرين على أن يتعهد بخدمتهم بما يقدمه من فرسان . وتتساوى الإقطاعات النقدية مع الإقطاعات العقارية فى المكانة من حيث ما تتطلبه من الخدمة والولاء[2] .

ومن المعروف أن الإقطاع النقدى المبذول من الملك يفضل الإقطاع العقارى المبذول من سيد آخر فى الخدمة الشخصية ، ويعتبر البارونات أتباعًا للملك . ومن ثم يعتبر أتباع البارونات أتباعا للملك ، وعليهم جميعا أن يؤدوا له الخدمة الشخصية. فغدا الإقطاع النقدى من الأهمية فى مملكة بيت المقدس بالشرق مثلما كان للإقطاع العقارى فى الغرب من حيث الإفادة منه فى الاتصال المباشر بأتباع البارونات والسيطرة عليهم .

والقعود عن تأدية الخدمة أو عدم الاستجابة لدعوة الملك يعتبر من الجرائم الخطيرة التى يعاقب مرتكبها بمصادرة أملاكه، ولاتجرى المصادر إلا أثناء حياة المقطع وبشرط أن يقدم الدليل على تقصيره[3] . وعلى الرغم مما يتقاضاه الملك من بارونات مملكة بيت المقدس من خدمة عسكرية مستمرة طويلة الأمد ، وعلى الرغم من أن البارونات يتكفلون بنفقات تلك الخدمة ، فقد فرضت قيود كثيرة على مطالب الملك، نذكر منها على سبيل المثال أنه لا يجوز للملك أن يطلب خدمة فارس من الفرسان إذا تجاوز الستين من عمره[4] . وفى هذه الحالة يكتفى المقطع بأن يرسل فرساناً بقدر ما بيده من إقطاعات .

كذلك لا يحق للملك أن يتقاضى خدمة شخصية يتطلع من ورائها إلى كسب شخصى خارج مملكة بيت المقدس . أما إذا أمر تابعه بأن يخدم لصالح المملكة وسد حاجاتها.. فعليه أن يخدم فى هذه الحالة على نفقة الملك ، فإذا أجزل الملك له

(1) Assises de Jerusalem, I, P. 652.

(2) Ibid, P. 633.

(3) Ibelin, PP. 305-6.

(4) Ibid, P. 358.

العطاء ورفض التابع أن يقوم بالخدمة فإنه يعتبر مقصرا فى الخدمة، وبالتالى يصادر إقطاعه[١] . على أن التابع يلتزم بتأدية الخدمة خارج المملكة حين يجرى زواج السيد أو أحد أولاده خارج مملكة بيت المقدس ، أو أن يكون الهدف من هذه الخدمة الدفاع عن عقيدة سيده وشرفه ، أو عندما توجد حاجة ملحة إلى المساعدة خارج المملكة ، وحين يتأكد التابع بأن هذه الخدمة سوف تعود على المملكة بنفع عام[٢]. وفى هذه الحالة يلتزم السيد بجميع نفقات خدمة التابع خارج المملكة ، وتعتبر أنطاكية والرها وطرابلس خارج نطاق ما يجرى من خدمة حرة مجانية .

وهناك عامل آخر يحد من الخدمة التى يتقاضاها الملك من تابعه ، ونشأ هذا العامل من الإجراء الذى اتخذته المحكمة العليا أثناء قيام الملك أمارى الأول بحملته الأولى على مصر . ويقضي هذا الإجراء بعدم إجبار أى تابع على مرافقة سيده لمحاصرة مدينة أو قلعة، ما لم يكن لديه من الدواب ما تستطيع حمله[٣].

ومن الطبيعى أن يكون التعاون فى ميدان القتال هو المحور الأساسى للعلاقات الإقطاعية بين ملك بيت المقدس وكبار أمراء الكيانات الصليبية فى الرها وأنطاكية وطرابلس ، لأن المهمة الأولى للملك كانت حماية هؤلاء الأمراء وأراضيهم وأتباعه فى حين كان الواجب الأول على الأمراء هو الخدمة فى جيش الملك[٤] . بيد أن الأمراء صاروا يتصرفون على أنهم مستقلون ، فإذا انحازوا بجيوشهم إلى الملك فإنما يقدمون له هذه الخدمة على أنهم أسوياء له [٥] . وجرى فى بعض الأحوال أنهم لم ينحازوا إليه إلا بعد إرغامهم على ذلك .

وبالإضافة إلى الفرسان، التزم كبار رجال الدين فى الكنائس والأديرة بأن يقدموا من الجنود ما يتناسب مع إقطاعاتهم من الأراضى أو مع ما يمتلكون من مساكن . ويدخل ضمن هذه الفئة من الجند ما تقدمه المدن من أجناد . فقد التزم أسقف القدس بتقديم مائتى جندى وأسقف اللد مائتى جندى أيضا ، أما أسقف عكا ورئيس أساقفة صور.. فقد بذل كل منهما مائة وخمسين جنديا كلا على حدة ،

(1) Assises de Jerusalem, I, P. 626.

(2) Ibid.

(3) Riley-Smith, Feudal Nobility, P. 8.

(4) Painter, Mediaeval Socity, P. 18.

(5) Stephenson, Mediaeval Feudalism, PP. 27-28.

وكذلك بذل رئيس أساقفة قيسارية ، ومدينة قيسارية ، ودير جبل الزيتون خمسين جنديا كلا على حدة ، ومدينة يافا مائة جندى ، ومدينة صور مائة جندى ، ومدينة نابلس ثلاثمائة جندى ، ودير جبل صهيون مائة وثلاثين جنديا. وقد أورد يوحنا الأبلينى مجموع الملتحقين بمثل تلك الخدمة الواجبة فى المملكة ككل على أنه خمسة آلاف وخمسة وعشرون جنديا(١) . ولم يكن بالمدن قوة حربية خاصة بها ، وإنما تؤدى المدن مقابل ما حصلت عليه من امتيازات ، ومقابل الأراضى التى تدخل فى زمامها خدمات يؤديها عنها جنود تستأجرهم لهذا الغرض .

ومع ذلك فإن تلك الأعداد من الفرسان والجنود لم تكن كافية لتلبية الأهداف العسكرية لملوك بيت المقدس الذين كان عليهم أن يقبلوا الجنود المأجورين فى خدمتهم(٢) . وقد كان تنكرد هو الجندى المأجور الأول فى تاريخ الحروب الصليبية حيث دفع له الأمراء اللاتين أجرا خلال حصار أنطاكية فى سنة ١٠٩٨م، بهدف توفير حماية للدير الذى تم تحصينه لسد الطريق أمام بوابة القديس بول(٣). وفى العام التالى (١٠٩٩م) ، وقبل أن يغادر الجيش الصليبى معرة النعمان للزحف على بيت المقدس، عرض ريمون السانجيلى استخدام معظم القادة الآخرين مقابل أجور يدفعها لهم(٤) .

وفى تعليقاته على فقر الملك بلدوين الأول ، أفاد وليم الصورى أن ما كان لدى الملك يكاد لا يكفى لدفع أجور الجنود المرتزقة **Stipendia equitum**(٥) . ويتعزز هذا الاحتمال بأن هؤلاء كانوا جنودا مرتزقة ولم يكونوا مالكى إقطاعات مالية بوصف فوشيه من شارتر للأحوال فى عام ١١٢٤م ، عندما كان من الضرورى اتخاذ إجراءات استثنائية لجمع الأموال لدفع أجور الجنود الممتطين الجياد والمشاة كى يشتركوا فى حصار صور(٦) . وتشير رواية وليم الصورى للأحداث نفسها إلى Stipendiaarii pedites فى الجيش اللاتينى (٧) . وفيما بعد يشير إلى

(1) Ibelin, PP. 426-7.

(2) Smail, Crusading Warfare, P.93.

(3) Gesta Francorum, P. 43 .

(4) Raimond d'Agiles, PP. 271-2.

(5) Willermus Tyrensis,P. 488.

(6) Fulcher of Chartres, P. 255.

(7) Willermus Tyrensis,P. 568.

وجود Stipendiarii equites et pedites فى حامية بانياس[١]. وفى سنة ١١٥٣م، وعد الحجاج الذين أرغمهم الملك على الالتحاق به فى حصار عسقلان بمنحهم أجرة على خدماتهم[٢] . وفى السنوات اللاحقة يبدو أن اعتماد حكام بيت المقدس على الجنود المرتزقة أصبح أشد . وفى عام ١١٨٣م تمت جباية ضريبة فى كافة أنحاء المملكة كان الهدف منها Equitum peditumque copias habere possemus،[٣] وكان ملوك فرنسا وإنجلترا الذين لم يتمكنوا من الحضور مع جيوشهم إلى سوريا يرسلون بدلا من ذلك نقوداً يمكن بواسطتها استئجار الجنود . فالجيش الذى حارب فى حطين ، جرى حشده بصورة جزئية بالأموال، التى أرسلها هنرى الثانى ملك إنجلترا إلى سوريا[٤] .

على أن دفع رواتب الجند المأجورة يعتبر من المشكلات الخطيرة التى طالما واجهت مملكة بيت المقدس بسبب ما تعرضت له أحيانا كثيرة من الفقر وسوء الأحوال الاقتصادية . وزخرت قوانين بيت المقدس بالإشارات إلى حالات كثيرة توقف فيها السادة عن دفع مرتبات هؤلاء الجند ، والكندسطبل هو المسئول عن استخلاص حق الجندى المأجور من سيده[٥] .

وجرت العادة بأن تبرم عقود الجند المأجورة شهريا ، فإذا استغنى السيد عن خدمات جنديه المأجور وأمر بتسريحه بعد انقضاء ثلاثة أيام من الشهر تحتم عليه فى هذه الحالة أن يدفع له راتب الشهر كله . أما إذا طلب الجندى إعفاءه من الخدمة فلا يدفع له السيد شيئا مهما امتدت خدمته أياما فى الشهر التالى[٦]. وإذا تعاقد الجندى على أن يخدم شهرا فلا ينبغى أن يتخلى عن الخدمة قبل المدة المتفق عليها إلا إذا ورث إقطاعا يتطلب منه خدمة شخصية ، أو إذا جرت رسامته راهبا أو قسيسا ، أو إذا أراد أن يتزوج ، أو عزم على أن يشترك فى حملة صليبية للقتال فى جهة لاينوى سيده التوجه إليها ، أما إذا تخلى عن خدمة سيده لأحوال أو أسباب أخرى ، تحتم نزع ما قد يكون بيده من إقطاع ، وتجريده من عدته الحربية إذا ما

(1)Willermus Tyrensis, P. 631.

(2) Ibid, P. 799.

(3) Ibid, P. 1110.

(4) Smail, Crusading Warfare, P. 94 .

(5) Keer, The Crusades, P. 38; Archer, The Crusades, P. 124.

(6) Ibelin, P. 211.

كان مجرد جندى ، وينظر المارشال فى قضايا الجند المأجورة[١] .

والجند المأجورة يتولى الإنفاق عليهم الملك وأتباعه الذين يستخدمونهم فرسانا فضلا عما هو مقرر على إقطاعاتهم من الفرسان . وعلى الرغم من أن ملك بيت المقدس هو السيد الوحيد الذى يجوز إعفاؤه من دفع الأرزاق الناجمة عن الإقطاعات النقدية حينما تجتاح البلاد الأوبئة والمجاعات أو تتعرض لمهاجمة المسلمين ، فإنه لم يأل جهدا فى جمع الأموال المطلوبة لدفع أجور الجند المأجورة[٢] .

وفى حالة حدوث طارىء فى مملكة بيت المقدس ، كان يهب لنجدتها جيش صليبى كبير من أوروبا . وبين قيام المملكة فى عام ١٠٩٩م وسقوطها فى عام ١٢٩١م ، غادرت أوروبا ثمانى حملات رئيسية للدفاع عنها . وفى وسط هذه الحملات الكبيرة كان الصليبيون يفدون أفراداً وجماعات على الأراضى المقدسة بقصد الحج وقتال المسلمين[٣] . وهكذا لم تخل فلسطين أبدا من بعض الفرسان والجنود الذين اعتزموا قتال المسلمين لمدة عام أو أكثر، يزورون خلالها قبر المسيح – عليه السلام – والأماكن المقدسة ، ثم يعودون بعد ذلك إلى بلادهم . ومن أمثلة ذلك أن الملك هنرى عندما رقد فى فراش الموت، طلب من صديقه ومعلمه وليم مارشال أن يحمل صليبه إلى القدس ، وبناء على ذلك ذهب وليم إلى فلسطين واشترك فى بعض المعارك ضد المسلمين، ثم عاد إلى إنجلترا وهو يحمل ثوبا من قماش الحرير ليستخدم فى عمل كفن للملك . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يفضل أولئك الحجاج الاستيطان فى فلسطين ليصبحوا أتباعاً لملك بيت المقدس[٤] .

والحقيقة أن ملوك بيت المقدس كانوا يستعينون بمن يفد إليهم من الغرب الأوروبى ، بقصد الحج إلى بيت المقدس فى تدعيم قوتهم العسكرية . والأدلة على ذلك وفيرة بمختلف المراجع المعاصرة ؛ ففى حوادث سنة ٤٩٦ هـ يذكر ابن الأثير أنه : **«وصل إلى الفرنج خلق كثير فى البحر قاصدين زيارة بيت المقدس فندبهم**

---

(1) Mayer, The Crusades, P. 161.

(2) La Monte, Feudal Monarchy, P. 162.

(3) Painter, Middle Ages, PP. 211 - 120.

(4) Ibid.

بلدوين للغزو معه(١). كما يذكر أنه في سنة ٤٩٧هـ : **«وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة اللاذقية فيها التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك واستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس فحصروها معه براً وبحراً»**(٢).

ولكن هذه القوات فشلت في الاستيلاء على طرابلس ، فسارت إلى جُبيل واستولت عليها ثم واصلت سيرها إلى عكا . ويذكر ابن الأثير أن السبب في ذلك هو أن **«الملك بغدوين ملك الفرنج صاحب القدس»**(٣) ، قد **«استنجدهم على حصارها فنازلوها وحصروها في البر والبحر»**(٤) . أما ابن القلانسي فإنه يتحدث في حوادث سنة ٤٩٧هـ عن وصول بعض السفن التي تحمل إمدادات من **«التجار والأجناد والحجاج وغير ذلك»**(٥) وأن ريمون السانجيلي الذي كان يحاصر طرابلس : **«استنجد بهم في مضايقتها والمعونة على ملكتها، وأنهم وصلوا إليه فاجتمعوا معًا على منازلتها ومضايقتها فقاتلوها أياما ورحلوا عنها . ونزلوا على ثغر جبيل فقاتلوه وضايقوه وملكوه بالأمان»**(٦) . وقد عبر أبو شامة عن أنباء وصول إمدادات بحرية صليبية عن طريق البحر أحسن تعبير بقوله : **«ومددهم من البحر لاينقطع»**(٧) . وفي هذا الشأن يقول ابن واصل : **«تواصلت الإمدادات من البحر إليهم يتلون بعضها بعضا ، وكان كلما نقص من العدو عدد جاء من داخل البحر أمثال»**(٨) .

وفي خطاب مرسل من السلطان صلاح الدين إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن يستنجد به على الصليبيين أثناء حصارهم لعكا يقول: **«ولا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة تعوض من الرجال ما قتل»**

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢١٨ .

(٢) نفسه ، ص ٢٢١ .

(٣) نفسه : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٤) نفسه : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٥) ابن القلانسي ، ص ١٤٣ ، يذكر ابن القلانسي في حوادث سنة ٥٠٣ هـ أنه وصل **«بعض ملوك الأفرنج في البحر ومعه نيف وستون مركبا مشحونة بالرجال لقصد الحج والغزو في بلاد الإسلام فقصد بيت المقدس وتوجه إليه بلدوين واجتمع معه وتقرر بينهما قصد البلاد الإسلامية..»** .

(٦) القلانسي ، ص ١٤٣ .

(٧) أبو شامة ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ .

(٨) ابن واصل ، جـ ٢ ، ص ٣٠٩ .

وتخلف من الزاد ما أكل ، فهم كل يوم فى حصول زيادة ، ووفور مادة ، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر ما منعهم البر ، وبطروا لما كثروا»(١) .

والحق أن المسلمين كانوا قد أدركوا فى ذلك الوقت أهمية الحج عند الفرنج؛ مما دفع السلطان صلاح الدين الأيوبى إلى تسهيل تلك المهمة أمامهم حتى يعودوا إلى أوروبا . فقد حدث بعد صلح الرملة بين المسلمين والصليبيين أن وصل إلى بيت المقدس عدد كبير من الصليبيين للحج ، وفتح لهم السلطان صلاح الدين الباب فى ذلك : **«ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم إلى يافا وكثر ذلك من الفرنج»**(٢) وكان هدف السلطان بذلك **«أن يقضوا وطرهم من الزيارة ويرجعوا إلى بلادهم فيأمن المسلمون شرهم»** (٣)· ولما علم الملك ريتشارد قلب الأسد بإقبال الصليبيين على الحج : **«صعب عليه ذلك ، وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار ، واقترح ألا يأذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتاب ، وعلمت الفرنجية ذلك فعظم عليهم ، واهتموا فى الحج ، فكان يرد منهم كل يوم جموع كثيرة مقدمون وأوساط وملوك متنكرون »** (٤) .

كان هؤلاء الحجاج يفوقون من حيث أعدادهم الفرسان والجند المأجورة ، بسبب قلة تكاليف تجنيدهم ، وقلة الامتيازات التى كانوا يحصلون عليها من وراء اشتراكهم فى القتال(٥) . وفى حالات معينة كان يجرى إجبار هؤلاء الحجاج على قتال المسلمين فى مقابل وعد بدفع أجورهم فيما بعد(٦) . غير أن هؤلاء لم يكونوا مؤهلين للقيام بالأعمال العسكرية، وهو الأمر الذى كان يترك تأثيره السلبى على أداء الجيش الصليبى بطبيعة الحال(٧) .

كان المصدر الرئيسى الرابع للجنود فى مملكة بيت المقدس يتمثل فى طوائف الفرسان الرهبان ، وبخاصة الاسبتارية والداوية ، الذين يعتبرون أفضل

---

(١) أبو شامة ، جـ٢، ص ١٧١ .

(٢) ابن شداد ، ص ٢٣٦ .

(٣) نفسه : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٤) نفسه : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٥) قاسم عبد قاسم ، **«صورة المقاتل الصليبى فى المصادر العربية»** ، المجلة التاريخية المصرية، مج ٢٧، سنة ١٩٨١م ، ص ٢٣ .

(6) William of Tyre, II. PP. 221-2.

(٧) قاسم عبده قاسم ، **«صورة المقاتل الصليبى»**، ص ٢٣ .

مصادر التجنيد التى كانت تزود الصليبيين فى فلسطين بالمقاتلين [١] . ففى عهد بلدوين الثانى بدأ نشاط تلك الطوائف يسترعى الانتباه فى الحروب الصليبية بعد أن تكونت طائفة الفرسان الداوية فى حين تحولت الاسبتارية من طائفة للعناية بمرضى الصليبيين وعلاجهم إلى منظمة عسكرية . ومن المعروف أن الهدف الأساسى من قيام طوائف الفرسان الرهبان بالشام على عصر الحروب الصليبية ، إنما كان العناية بمرضى الصليبيين ورعايتهم . ولكن هذا الهدف لم يلبث أن تغير بعد قليل ، فاتخذت تلك الطوائف طابعا حربيا ، وصار عليها أن تدافع عن ممتلكات الصليبيين بالشام ، وتحمى أماكنهم المقدسة ، وتحارب المسلمين ، حتى جاء وقت أصبح فيه الداوية والاسبتارية هم حماة الكيان الصليبى بالشام[٢] ، فى وقت قل فيه عدد المقاتلين الصليبيين بالشام نتيجة المرض والوفاة أو العودة إلى الغرب الأوروبى. ويشهد تاريخ الحروب الصليبية على أن فرسان الداوية والاسبتارية كانوا أثبت فئات الصليبيين على القتال وأصلبهم عوداً وأكثرهم صبرا وشجاعة ، وأنه لولا ما قام به أولئك الفرسان من جهود جريئة لانتهى أجل الكيان الصليبى بفلسطين قبل نهاية القرن الثالث عشر بمدة طويلة[٣] .

فمنذ منتصف ثلاثينيات القرن الثانى عشر لم تقم الداوية والاسبتارية بإمداد مملكة بيت المقدس بالفرق العسكرية فقط ، وإنما كانا مكلفين كذلك بالدفاع عن المواقع العسكرية المهمة فالنقط القوية والأبراج والحصون سلمت جميعا للطائفتين . وما لبثت شبكات الطرق والمواصلات كلها أن خضعت لدورياتهم التى تولت أعمال الحراسة . وبالإضافة إلى ذلك فإنه منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ومع تزايد القوة الإسلامية تمركز فرسان الداوية والاسبتارية فى القلاع والحصون الضخمة التى كانت تحمى حدود المملكة والكيانات الصليبية فى الشمال[٤] .

وما أن خطا القرن الثالث عشر حتى كانت الداوية والاسبتارية تحتلان الكثرة الغالبة من القلاع الصليبية كافة وتقوم عليها . وكان الاسبتارية فى طرابلس

(1) Smail, Crusading Warfare, P. 95.

(2) King, The Knights Hospitallers, P. 11.

(3) Runciman, A History of the Crusades, II, P. 312 .

(٤) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٩٤ .

يسيطرون على منطقة من الأرض أوسع رقعة من الأراضى التى كانت يحكمها أمير طرابلس نفسه . وفى أنطاكية كانت أمنع القلاع وأقواها فى أيدى الداوية(١) .

وقد اعتمدت طوائف الفرسان الرهبان فى تمويل نشاطهم الحربى على ممتلكاتهم الواسعة فى أوروبا (٢) . فقد كان الاسبتارية يملكون ثمانى عشرة ضيعة فى أوروبا (٣) . أما الداوية الذين كانوا لا يقلون عنهم ثراء فقد أصبحوا صيارفة أوروبا الكبار فى القرن الثانى عشر ويتنافسون مع البيوت المالية فى إيطاليا(٤) .

علاوة على ذلك فقد حصلت تلك الطوائف فى بعض الأحيان على امتيازات إضافية من ملوك بيت المقدس ، مقابل تأدية خدمات خاصة ، ومن هذه الامتيازات ازداد نصيبها فى الغنيمة والحصول على إقطاعات عديدة ، وتخصيصها بأموال ورسوم متحصلة من بعض المدن والجهات ، ففى سنة ١١٦٨م وعد الملك أمارى الأول بأن يعطى الداوية نصيباً مما سوف يحصل عليه من أتاوات على بعض المدن المصرية ، فضلا عن نصيب كبير من الأسلاب مقابلَ ما قدمه الداوية من الفرسان والجنود للاشتراك فى الحملة الموجهة إلى مصر . وفى سنة ١٢٢٠م جعل جان بيرين للفرسان التيتون نصف ما يقع فى أيديهم(٥) .

وفى أوج قمتهم استطاع الاسبتارية أن يقدموا خمسمائة فارس للخدمة فى ميدان القتال بينما بذل الداوية ثلاثمائة فارس(٦) . على أن كل هيئة أخذت تعمل مستقلة ، فلكل منها قواتها البرية والبحرية ، وتعتبر بحرية الداوية من أقوى الأساطيل الحربية أواخر العصور الوسطى ولاسيما بعد انتقال هؤلاء الفرسان إلى رودس ومالطة(٧) .

غير أن طوائف الفرسان الرهبان لم تخضع خضوعا تاما لأى حاكم صليبى، سواء علمانى أو كنسى ، وإنما كانت تعتز باستقلالها . وقد سجل وليم الصورى عدة

(١) ستيفنس ، «الحروب الصليبية» ، ص ١٩٣ .

(2) Painter, Middle Ages, P. 211 .

(٣) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٩٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٩٥ .

(5) La Monte, Feudal Monarchy, P. 163.

(6) C.M.H.,V,P.306.

(7) La Monte, Op. Cit., P. 164.

مناسبات مهمة سلكت فيها تلك الطوائف سلوك حلفاء مستقلين ، ويمكن رؤية مظهر آخر لانتهازيتها فى الحصول على استقلالها ، فى عدد من الاتفاقات التى عقدتها مع الأمراء اللاتين . فكانت تنشد دائماً سلطة الإشراف على سياستها العسكرية الخاصة مع الحكام المسلمين فى المناطق المجاورة . فإن أعلنت الطائفة الحرب أو عقدت هدنة ، التزم الحاكم الصليبى بمراعاتها ، ومن ناحية أخرى لم يكن بوسعه عقد هدنة إن لم ترغب الطوائف فى ذلك ، فإن فعل ذلك لم يتعين اعتبارها ملزمة بها [١] . وقد انتهزت تلك الطوائف كل فرصة لانتزاع امتياز للاحتفاظ بكل ما كانت تستولى عليه . وهكذا وجد الأمراء اللاتين فى طوائف الفرسان الرهبان جنوداً من نوعية ممتازة ساعدوا على تعويض نقص العدد فى الجيش الاقطاعى وتعويض عجزهم عن استئجار العدد الكافى من الجنود المرتزقة غير أن فرسان الداوية والاسبتارية قدموا كحلفاء ، ومن ثم فقد أولئك الأمراء ما كانوا يتمتعون به من إشراف على العمليات الحربية فى العقود الأولى من القرن الثانى عشر[٢] .

ولاتكتمل الصورة الحقيقية للجيوش الصليبية دون الاشارة إلى نصيب المرأة الفرنجية فى حروب ذلك العصر ؛ إذ تحدثت الراويات الشرقية كثيرا عن المرأة الأوروبية بنوع خاص ، وعن مدى مشاركتها للرجل فى تلك الحروب الطاحنة[٣] . فتقول إنها امتطت الجياد وهى متخفية فى زيها العسكرى تحارب المسلمين اعتقادا منها بأن ذلك من صميم العبادة والدين ، فتظل تمارس القتال جنبا إلى جنب مع الرجل دون أن تعرف شخصيتها ، أو يكتشف أمرها إلا بعد القتل أو الأسر . وفى هذا الشأن يقول أبو شامة : **« وفى يوم الوقعة طلعت منهن نسوة لهم بالفرسان أسوة وفيهن مع لينهن قسوة وليس لهن سوى السوابغ كسوة فما عرفن حتى سلبن وعرين ومنهن عدة سبين واشترين»**[٤] .

وفى مكان آخر يقول : **«وذوات المقانع من الفرنج يحملن إلى الطعان**

---

(1) Smail, Crusading warfare, P. 103.

(2) Ibid, P. 103 - 4.

(٣) انظر على سبيل المثال : ابن شداد ، ص ١٣٠ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ؛ ابن الأثير ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٤ ، الأصفهانى ؛ الفتح القدسى ، ص ٢٢٨ – ص ٢٣١ ؛ ابن واصل ، جـ ٢ ، ص ٣٠٨؛ أبو شامة ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ ، ١٦٢ .

(٤) أبو شامة ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ .

والطوارق والقنطاريات وقد وجد فى الوقعات التى جرت عدة منهن بين القتلى وما عرفن حتى سببين»(١) .

أما العماد فإنه يقول : **« وفى الفرنج فوارس لهن دروع وقوانس وكن فى زى الرجال يبرزن فى حومة القتال...»** (٢) .

وحينما حاصر السلطان صلاح الدين القدس سنة ١١٨٧ برزت فتاة صليبية اسمها مارجريت ومعها مقلاع وعلى رأسها خوذة ، واخترقت صفوف المقاتلين تحت نيران المسلمين حتى تمكنت من النجاة ، واخترقت سوريا والأناضول عائدة بمفردها إلى أوروبا . على حين أحست امرأة أخرى بالعار الذى لحقها من جراء فرار زوجها من الحرب فألزمته العودة إلى الشرق وآثرت أن تراه ميتا على أن تراه بعيدا عن صفوف المقاتلين (٣) . كما أظهرت إحداهن ضروبا من الشجاعة النادرة فى حصار عكا (١١٨٩ - ١١٩١م) عندما أحدث المسلمون ثغرة فى تحصينات الصليبيين فوقفت تلك المرأة فى الثغرة بقوس من الخشب ترمى ، فلم تزل تقاتل حتى قتلت وأوصت زوجها وهى فى النزع الأخير بأن يدفنها فى الخندق لتنال ثواب المقاتلين والمحاصرين(٤) .

وقد أشار السلطان صلاح الدين فى كتابه إلى الخليفة الناصر لدين الله أبى العباس أحمد ببغداد بنوع خاص إلى وصول مراكب صليبية إلى عكا (١١٨٩م) تحمل ثلاثمائة امرأة جىء بهن خصيصًا للترفيه عن الجنود الصليبيين ولصرف العساكر الإسلامية عن القتال **«بتسبيل فروجهن»** على حد قول العماد(٥) . ولاشك أن العماد تحامل فى وصفه لتلك النسوة بعض الشىء وقد حرص على أن يظهر لنا مقدرته البيانية فلم يترك لفظة ساقطة ، ولا كلمة نابية ولا عبارة مثيرة أو وصفا جارحا إلا وحشده فى هذا المقام .

ويبدو أن بعض المسلمين تحيزوا للصليبيين لما عندهم من نساء جميلات . ففى حوادث سنة ٥٨٦ هـ يقول ابن كثير : **« استهلت والسلطان محاصر لحصن عكا**

---

(١) أبو شامة ، جـ ٢ ، ص ١٦٢ .

(٢) الأصفهانى ، الفتح القدسى ، ص ٣٤٩ .

(3) Michaud, Histoire des Croisades, I I , P. 137.

(4) Lane Poole, Salada-n, p. 264.

(٥) الأصفهانى ، المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .

وإمداد الأفرنج تفد إليهم من البحر فى كل وقت حتى أن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال، ومنهن من تأتى بنية راحة الغرباء ، لينكحوها فى الغربة، فيجدوا راحة وخدمة وقضاء وطر . قدم إليهم مركب فيه ثلاثمائة امرأة من أحسن النساء وأجملهن بهذه النية فإذا وجدوا ذلك ثبتوا على الحرب والغربة حتى أن كثيرا من فسقة المسلمين تحيزوا لهم من أجل هذه النسوة ، واشتهر الخبر بذلك»(١) .

ولم يقتصر الأمر على الفتيات الفرنجيات فقط ، بل إن العجائز : **«امتلأت بهن المراكز وهن يشدون تارة ويرخين تارة ويحرضن وينخين ويقلن إن الصليب لايرضى إلا بالاباء وأنه لا بقاء له إلا بالفناء وأن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء فانظر إلى الاتفاق فى الضلال بين الرجال والنساء»** (٢) .

ومما سبق يتضح لنا أن القوة الأساسية فى الجيوش الصليبية كانت تتألف من الفرسان ذوى التسليح الثقيل ، وهو نتاج لتطور اقتصادى اجتماعى جرى فى أوروبا فى تلك الفترة وجعل من الفرسان الثقيلة صفوة بين العسكريين(٣) . وكانت مهمة أولئك الفرسان فى الشرق العربى هى القضاء على أى شىء فى طريقهم ، وكانت قوة صدمة الخيالة والتأثير الذى يتركه الفرسان المدرعون بالحديد لايمكن مقاومته(٤) ، ولذلك احتل الفارس مكانة مهمة فى المجتمع الصليبى وهذا يتفق بلاشك مع طبيعة الوجود الصليبى فى سوريا ، فهو وجود عسكرى استيطانى عدوانى ، لايجد لنفسه أماناً فى المحيط الإسلامى المعادى له سوى بتدعيم قواته القتالية التى كان الفرسان أهم دعاماتها بطبيعة الحال(٥). ولذلك كان أمراء الصليبيين وملوكهم يغضبون كثيراً إذا فشل فرسانهم فى تحقيق مهامهم وينزلون بهم أقصى ضروب العقاب(٦) .

وقد لفتت المكانة المهمة التى احتلها الفارس فى المجتمع الصليبى أنظار المؤرخين المسلمين خاصة أولئك الذين شاءت ظروفهم أن يتعاملوا مع الصليبيين عن قرب ، ومن هؤلاء «أسامة بن منقذ» ، الذى يقول فى هذا الصدد :

---

(١) ابن كثير ، جـ ١٢ ، ص ٣٣٤ .

(٢) أبو شامة ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ .

(٣) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢٠٦ .

(٤) نفسه ، ص ٢١٤ .

(٥) قاسم عبد قاسم ، **«صورة المقاتل الصليبى»** ، ص ٢٣ .

(٦) ابن منقذ ، ص ٤٩ .

«...والأفرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولاعندهم تقدمه ومنزلة عالية إلا الفرسان ، ولا عندهم ناس إلا الفرسان ، فهم أصحاب الرأى ، وهم أصحاب القضاء والحكم»(١) .

كان الفارس الصليبى يرتدى الهوبيرك **Hauberk** وهو عبارة عن سترة من الزرد تتألف من حلقات أو سلاسل متداخلة من المعادن ، وغالبا ما كانت للهوبيرك ياقة وأكمام طويلة تنتهى بقفازات ، ورروعى فيه أن يكون مشقوقا طوليا من أسفله من الأمام والخلف حتى لا تعوق الفارس عن امتطاء جواده (٢) . وكان الفارس يضع على رأسه خوذة حديدية مخروطية الشكل بزاوئد جلدية كى تغطى الرقبة ، وغالبا ما كانت لها قطعة أمامية لحماية الوجه(٣) . وقد تطورت هذه الخوذة فيما بعد إلى أخرى أسطوانية الشكل ذات حجم أكبر ، تغطى الرأس والوجه بالكامل ولاتترك إلا فتحة أو فتحتين للرؤية والتنفس . غير أن عيب هذه الخوذة يكمن فى صعوبة معرفة العدو من الصديق خلال القتال(٤) . وارتدى بعض الفرسان سراويل قصيرة من الزرد ، لها مقاعد من القماش كى تجعل الفارس فى وضع مريح وهو على السرج ، بيد أن غالبية الفرسان ارتدوا سراويل مبطنة طويلة(٥) . ومن فوق كتف الفارس الأيمن يتدلى نطاق معلق به درع يأخذ غالبا شكل الطائرة الورقية ، وأحيانا شكل مستطيل أو دائرة ، وهو مصنوع من خشب الزيزفون أو الدردار المغطى بالجلد ، وله مقبض بارز فى الوسط ويبلغ طوله أربعة أقدام تقريبا(٦) . وبسبب ثقل الدرع لايستطيع الفارس تحريكه بسهولة فى وقت ينبغى أن تكون يده

---

(١) ابن منقد ، ص ٦٤ .

(٢) Duggan, The Crusades, P. 38 . وتعطينا أنشودة رولان قسطا وافرا من المعلومات عن التجهيزات الحربية للفارس الأوروبى فى القرن الحادى عشر وهى التجهيزات التى استخدمت فى الحروب الصليبية . انظر :

The Song of Roland (trans. by C.K. Scott Moncrieff with an introduction by G.K. Chestertion, and a note on technique by G. Sanitsbury, Ann Arbor Paperbacks, The University of Michigan Press, U.S.A., 1978).

(3) Archer, Loc. Cit.

(4) Duggan, The Crusades, p. 38 .

(5) Ibid.

(6) Archer, The Crusades, P. 357 .

فارس صليبي يرتدي درعاً مزرداً ومعطفاً طويلاً – نقلا عن :

Boase, Kingdoms and Strongholds, P. 49 .



اليسرى مشغولة بالقبض على لجام الفرس . وعلى أية حال ، متى كان الدرع فى وضعه الصحيح فإنه يقوم بتغطية الفارس من رقبته حتى ركبة الساق اليسرى . وفى وقت ما قرب نهاية القرن الثانى عشر صارت السترة والدروع وغطاء الرأس فى أغلب الأحوال تحمل العلامات المميزة للفارس . وكان هذا ميلاداً لفن الدروع وعلاماتها لدى كل من المسلمين والصليبيين(١) .

أما السيف الذى كان يحمله الفارس الصليبى فلم يكن له طول ثابت ، فأحيانا يتراوح فى الطول بين ثلاثة وأربعة أقدام وأحيانا أخرى بين قدمين وثلاثة ، وهو ذو حافتين مثبت فى جراب على الجانب الأيسر للفارس (٢) . أما الحربة فكانت مصنوعة من خشب الدردار ، وهى ذات رأس مستدق يأخذ شكل ورقة الشجر أو مكعبْ ، ويبلغ طولها ثمانية أقدام .

كان الهجوم الأول يتم بواسطة الرمح الذى توقفت فعاليته على الحصان وممتطيه ؛ فكان الحصان يحمل ثقل ممتطيه المدرع والمسلح ، وبقوة اندفاعه وفر القوة اللازمة لدفع الرمح . وكان الفارس يمسك بيده اليسرى اللجام والترس ، وبيمناه .. إما يستخدم رمحه ببراعة فيدفعه بصورة متأرجحة أو يمسكه ثابتا تحت ذراعه . ولا نعرف سرعة الفارس الصليبى أثناء ركوبه فى المعركه ، ومن الراجح أن سرعته كانت أعلى ما يستطيع الحصان فإن تحطم الرمح فى الهجوم الأول واصل الفارس الهجوم بسيفه(٣) .

كان فى مقدور الفرسان اللاتين كاملى العدة أن يتغلبوا بتأثير وطأة هجماتهم على أية قوة إسلامية يستطيعون أن يلتحموا بها . غير أن القوات الخفيفة من فرسان العرب والترك المسلحين بالأقواس والسهام كانوا أسرع من أن يلحق بهم ، كما كان يسهل عليهم عادة أن ينهكوا قوة الفرسان الصليبيين بحركات يناورون فيها بين شدة الكر وسرعة الفر(٤) . وفى هذه الظروف كانت سلامة الفارس الصليبى تعتمد على درعه وخوذته وترسه فلم تكن السهام لتخرق خوذته أو ترسه بسهولة كما لم تكن تنفذ خلال درعه المكون من السلاسل ببساطة مالم تضرب فى نقطة ضعيفة مثل الرقبة أو الوجه . بيد أن التغيرات التى أدخلت على الدرع الجسدى وعلى

---

(١) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢٠٩ .

(2) Duggan, The Crusades, P. 38.

(3) Smail, Crusading Warfare, P. 113 .

(٤) ستيفنس ، «الحروب الصليبية» ، ص ١٩٣ .

الخوذة سرعان ما جعلت هذه الأهداف صعبة المنال إلى حد ما ، إلا أن هذا لم يمنع المسلمين من قذف الخيول من أسفل الفرسان فالفارس المترجل لايكون فارسا على الإطلاق . إذ لايكون كبرياؤه قد جرح فحسب، ولكن فعاليته القتالية أيضاً تتضاءل إلى لاشيء[١] .

ويشير أبو شامة إلى انهيار قوة الفارس الصليبى إذا هلك حصانه ، فيذكر عن موقعة حطين أن : « **فارسهم ما دام فرسه سالما لم يذل للصرعة ، فإنه من لبسه للزردى من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد ، ولكن فرسه إذا هلك ، فرس وملك ، وما ترجل فارس إلا والطعن والرمى لمركوبه كالم**»[٢] .

ولذلك رأى ملوك بيت المقدس أن يتحملوا مسئولية تعويض الفرسان عن خيولهم التى هلكت أو جرت إصابتها أو استولى عليها المسلمون، على أساس ما سبق تقدير أثمانها قبل المعركة ، وهذا هو المعروف بنظام التعويض **restor** الذى يعتبر من أهم خصائص النظام الحربى عند الصليبيين . ويقوم المارشال قبيل حدوث المعركة بالتفتيش على أسلحة الفرسان وتقدير أثمان خيولهم، وادراج ذلك فى جرائد، فإذا هلك الحصان أو جرت إصابته فى المعركة تقدم صاحبه إلى المارشال وطلب عوضا عنه ، فيأمر بحصان آخر يساويه فى القيمة والثمن أو يأمر بدفع ثمنه الذى سبق تقديره[٣] .

ويذكر أسامة بن منقذ أن تنكرد صاحب أنطاكية أخذ يؤنب رجاله ويتهمهم فى شجاعتهم وبسالتهم أثناء قتالهم لرجال شيزر ، على الرغم من أن كل واحد من رجاله له ديوان مثل ديوانه مائة مسلم ، فأعلنوا أنهم يخشون هلاك خيولهم فقال الخيل لى ، من قتل حصانه أخلفته عليه ، وربما بدأ هذا النظام منذ ذلك الحين[٤].

كانت المشكلات التى تواجهها الجيوش الصليبية مشكلات معقدة للغاية ، فلم يكن على هذه الجيوش أن تتعامل مع عدو يتفوق عليها من ناحية العدد فحسب ، وإنما كانت تواجه جيوشاً إسلامية تنتهج أسلوباً قتاليا مجهولا فى غرب أوربا ، ولذلك وجه القادة الصليبيون اهتماماً خاصا بتشكيل جيوشهم أثناء زحفها لمهاجمة

---

(١) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢١٥ .

(٢) أبو شامة ، جـ ٢ ، ص ٧٨ .

(3) La Monte, Feudal Monarchy, P. 120 .

(٤) ابن منقذ ، ص ٤٩ .

المسلمين[١] . ففى عام ١٠٩٩م، وعندما اقترب الصليبيون من ميدان القتال فى عسقلان ، كانت قوتهم تنقسم إلى تسع سرايا منظمة فى ثلاثة صفوف كل منها مؤلف من ثلاث سرايا ، تألف بذلك تشكيل مربع أمكن بواسطته مواجهة الهجوم بصورة ملائمة على حد سواء ، مهما كانت الجهة التى صدرت منها[٢] .

غير أن هذا التشكيل لم يجر تبينه بصورة دائمة أثناء الزحف ؛ إذا تطلب جبهة واسعة ، ولذلك أمكن استخدامه فقط فى المناطق الخالية من العوائق ، فالتشكيل الملائم للسهل الساحلى بقرب عسقلان لم يكن ممكنا فى الأرض الوعرة أو كثيرة التلال والشائعة فى الأماكن الأخرى فى سوريا . وكان التشكيل اللاتينى عادة طابورا مزودا أحيانا بحرس الجناحين ويلتزم كله أحيانا أخرى بإحدى الطرق والمسارات، ولم يكن هدفه الاحتراس من المباغتة وحسب ، بل والمحافظة على معدل سرعته فى التقدم ، على الرغم من إزعاج المسلمين له بالغارات المتكررة ومقاومتهم له[٣] .

وللاحتفاظ بهذا التشكيل المتراص لطابورهم ، كان يتعين على الفرسان الممتطين لخيولهم خفض سرعتهم إلى مستوى سرعة الجنود المشاه ، وكان هذا يطيل بطبيعة الحال من مدة وصول الجيش الصليبى إلى المكان المراد مهاجمته . وفى خلال ذلك كان على الصليبيين أن يقاسوا من العطش والغبار والحرارة ، وكذلك رمى المسلمين لهم بالسهام ، وهجماتهم المتكررة ، وكان المسلمون يلجأون فى بعض الأحيان إلى إحراق كافة النباتات الجافة ؛ حتى يصيبوا الطابور الصليبى بالغم وضيق الصدر من جراء النار والدخان[٤] . وقد استخدم المسلمون هذا الأسلوب خلال المعركة التى دارت رحاها خارج أنطاكية فى ٢٨ حزيران عام ١٠٩٨م، وكذلك فى معركة حطين عام ١١٨٧م[٥] .

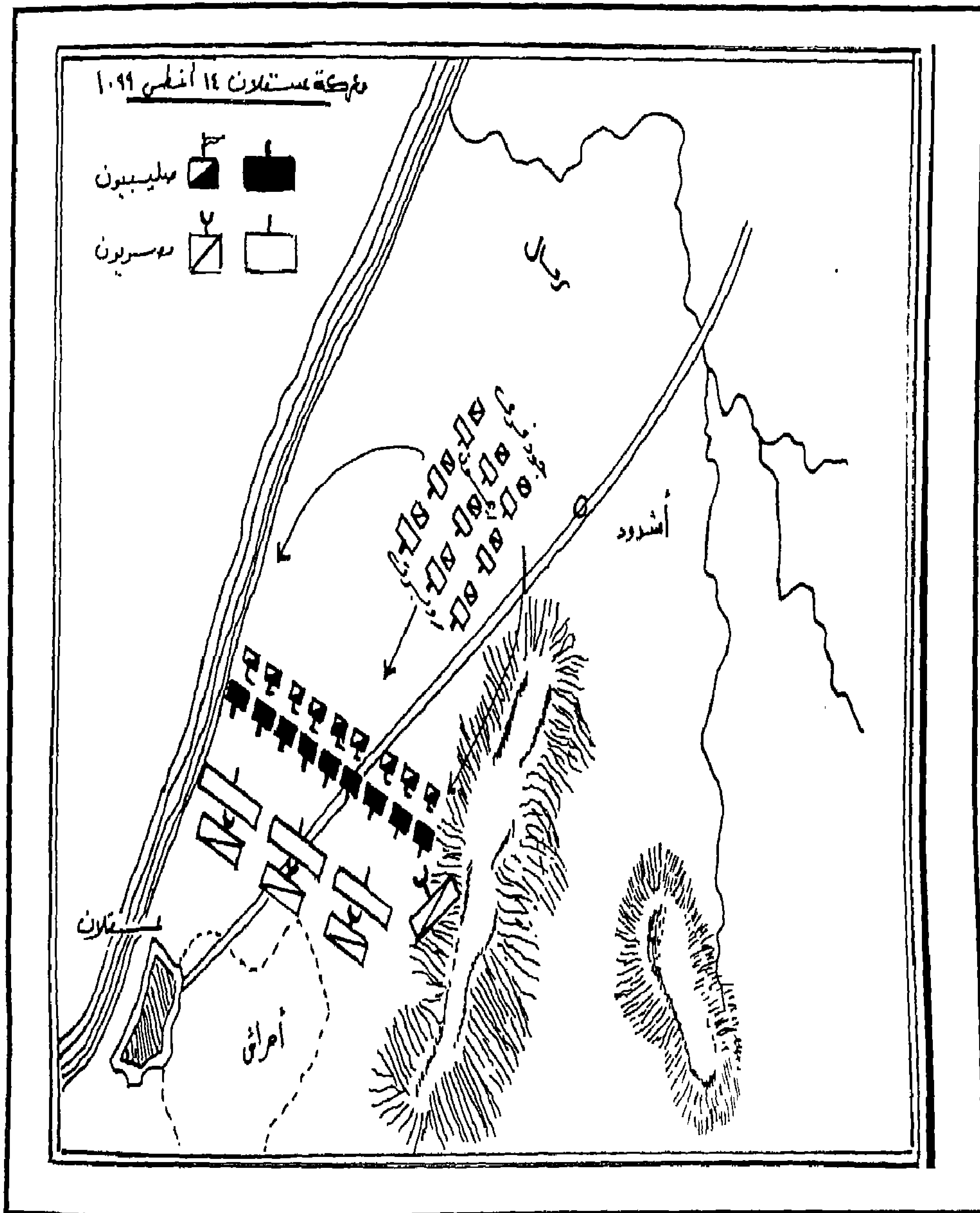
---

(1) Smail, Crusading Warfare, P. 156.
(2) Oman, The Art of War, P. 287.
(3) Smail, op. cit., P. 159.
(4) Ibid.

(٥) فى هذا الشأن يقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٨٣ هـ : «**وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان إليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال**» . أما أبو شامة ، (جـ ٢ ، ص ٧٧) ، فيقول : «**فبلغوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام فى الاصطلاء والاصطلام : نار الضرام ونار الأوام ونار السهام**».
انظر كذلك ابن شداد ، ص ٧٧ .

التشكيل المربع نقلاً عن :

Oman, The Art of War, P. 288 .



ومع ذلك حرص الصليبيون على المحافظة على تشكيلهم المتراص وكذلك نقل جثث موتاهم وجرحاهم برفقة الطابور ، حتى لاترتفع معنويات المسلمين بمعرفة الخسائر التى كانوا قد أنزلوهم بهم . وقبل كل شيء اتخذت أشد الإجراءات لضمان ألا يبدى نظام الزحف أية ثغرة يتمكن المسلمون من اقتحامها . وهدد أى رجل يتخلى عن مكانه فى صفوف الجيش بفرض عقوبات صارمة ضده (١) .

ويمكن توضيح أسلوب القتال الذى كان يتبعه الجيش الصليبى من خلال بعض الأمثلة التى أوردتها المصادر العربية ، فابن شداد ، مثلا ، يقول : «... **فخرج فارسهم وراجلهم ، وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين فى أنفسهم ، ولاخارجين عن راجلهم ، والرجالة حولهم كالسور المبنى يتلو بعضها بعضا...»**(٢) .

وفى مكان آخر يقول : «**وسار الفرنج طالبين المسلمين .. وهم ينضم بعضهم إلى بعض ، يحمى راجلهم فارسهم...»**(٣) . وفى كلامه عن إحدى المعارك التى جرت قبيل سقوط عكا فى أيدى صليبى الحملة الثالثة ، يؤكد ابن شداد مرة أخرى هذه الملاحظة بقوله : «**... وكان عسكر العدو المخذول قد ترتب ، فكانت الرجالة حوله كالسور...»** (٤) .

وفى هذا الشأن يقول ابن واصل أن رجالة الصليبيين كانوا فى أثناء زحفهم للقتال ينقسمون إلى قسمين أحدهما كان يسير أمام الفرسان والأخر يستريح : «**ولاقتال عليهم ، فإذا تعب المقاتلة وأثخنهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح ، واستراح القسم العمال»**(٥) .

وفرسانهم يسيرون فى وسطهم بحيث لايظهر منهم أحد ، ولايخرجون عنهم إلا وقت الحملة لاغير(٦) . و «**رجالتهم مستديرون حولهم كالسور عليهم الكبور(٧)»**

(1) Smail, Crusading Warfare, P. 159 .

(٢) ابن شداد ، ص ٧٧ .

(٣) نفسه ، ص ٦٢ .

(٤) نفسه ، ص ١٧٩ .

(٥) ابن واصل ، جـ ٢ ، ص ٣٦٥ – ص ٣٦٦ .

(٦) نفسه ، ص ٣٦٦ .

(٧) الكبور ، جمع الكبر ، وهو نوع من القباء يتخذ للحرب .

الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيها النشاب[١] ولايتأثرون وهم يرمون بالزنبورك[٢] ، فيجرحون خيول المسلمين .. لقد شاهدتهم وفى ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة ، وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ...[٣] .

كان الهدف من وراء هذا «التكتيك» البارع أن يبقى الجيش الصليبى كتلة واحدة متماسكة ، وكان كل من يخالف هذا النظام يعاقب بلا هوادة ، لأنه إذا اختل هذا النظام انتقلت بالتالى السيطرة على ميدان القتال من بين أيدى الصليبيين إلى أيدى المسلمين الذين كانوا دائما أكثر عددا من الصليبيين ، وأخف حملا منهم ، وأسرع فى الحركة [٤] . وهكذا كان الفرسان والمشاه يتمم كل منهما الآخر . فكان المشاه فى أثناء الزحف ، وفى ميدان القتال ، يوضعون عادة بين المسلمين

(١) النشاب هو النبل أو السهام ومفرده نشابة . وقد ذكر الحسن به عبد الله (آثار الأول فى ترتيب الدول ، بولاق ، ١٢٩٥ هـ ، ص ١٦٠) أنواع النشاب وما يمتاز به كل نوع على الآخر ، قال : «**وأما النشاب فيجب أن تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والفتل والثقل والخفة ، وطوله وقصره على حسب مقادير الرامى ، والمريش : المربع أو المثلث ، والجناح الأيمن أخف من الأيسر ، والمثلث المريش أسرع ، والمربع أعدل وأصح ، ولكن فيه بطء وريش الذنب لا خير فيه فإن اضطر إليه فليخلط مع غيره ...**».

(٢) الزنبورك ، والجمع زنبوركات عبارة عن سهم فى سمك الإبهام ، وفى طول الذراع، وله أربعة أوجه ، وحده من الحديد ، وطلقته سريعة يخترق رجلين جالسين أحدهما خلف الآخر بزيهما العسكرى ودروعهما ، ثم يلتصق بالأرض أخيراً ، وإذا صويت الطلقة إلى حجر الحائط اخترقته . ولذلك أصبح الزنبورك سلاحاً مخيفاً فى العصور الوسطى ، وقد عرفه الصليبيون فى الحرب الأولى ثم حرم البابوات استعماله بين المسلمين ، فاختفى ولم يشر إليه مؤرخو العرب فى مؤلفاتهم إلا فى حصار صلاح الدين لصور واستمر استعماله بعد ذلك فى حصار عكا ، واستخدمه ريتشارد قلب الأسد فى الحملة الصليبية الثالثة ، وظل جيشه محتفظا به بعد عودته إلى أوروبا ، ومن ثم انتشر هناك من جديد ، وقتل ريتشارد نفسه بطلقة من الزنبورك ، ولم يستعمل المسلمون الزنبورك إلا متأخرين منذ أن ذكره مؤرخوهم تحت حوادث سنة ٦٦٣هـ ، وشاع استعماله فى الشرق من هذا التاريخ وأفرد له العثمانيون فرقة خاصة فى الجيش تسمى الزنبوركية . انظر : عبد الرحمن زكى ، السلاح فى الإسلام ، ص ٣١ .

(٣) ابن واصل ، جـ ٢ ، ص ٣٦٥ .

(4) Mayer, The Crusades, p. 165 .

والفرسان ، الذين ، حتى مجيء لحظة قيامهم بهجومهم الحاسم ، نالوا الحماية بهذا الشكل بواسطة حاجز بشرى مسلح بالحراب والأقواس هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى ، كان المشاه أنفسهم غير مؤهلين بصفة عامة للعمل الهجومى الناجح ، ولم يكن باستطاعتهم أن يقاوموا على مسئوليتهم الخاصة هجمات فرسان المسلمين لفترة غير محدودة . ولتخفيف الضغط الاسلامى اعتمدوا على الفرسان الذين كانوا ضروريين لتحقيق النصر النهائى فى القتال[١] . وكان من الطبيعى أن يشارك الفرسان بصورة فعالة فى القتال أثناء الزحف ، وذلك عندما يضغط المسلمون بشكل التحامى زائد عن الحد على الطابور الصليبى . وكان الهدف من وراء ذلك هو تخفيف الضغط عن الجيش الصليبى الزاحف غير أنهم سرعان ما يعدون خشية الوقوع فى أحد الكمائن[٢] .

وقد اتضح للصليبيين بما تعلموه عن طريق الخبرة والتجربة أن فيالق الفرسان إذا شاءت أن تحرز النصر يعوزها حماية قوية من جند المشاه وقوات الفرسان الخفيفة التى تعمل درعًا لوقايتها [٣] . لذلك اضطروا فيما يبدو إلى اتباع أسلوب الأتراك فى القتال بشكل جزئى . ولم يكن هذا بالأمر الهين ، فالصليبيون الذين لم يتميزوا بالمرونة فى أساليبهم العسكرية اعتمدوا على الموهبة المحلية ، وكونوا فرقا من السكان المحليين أطلقوا عليهم اسم التركوبلى **Turcoples**[٤] .

(1) Smail, Crusading Warfare, P. 130 .

(2) Ibid, P. 164 .

(٣) ستيفنس ، «**الحروب الصليبية**» ، ص ١٩٣ .

(٤) التركبلى ، لفظة يونانية ، معناها أبناء أو سلالة الترك ، وهو مصطلح كان يطلقه البيزنطيون على فرقة من فرقهم تلى فى الأهمية فرقة الفرسان وينحدر أفرادها من أب تركى أو عربى وأم يونانية . ويبدو أن البيزنطيين بعد اتصالهم بالأتراك السلاجقة ، وأنهزامهم فى موقعة ملازكرد كونوا هذه الفرقة من الفرسان التى تعتمد على الكر والفر والحرب السريعة . ويبدو أن الصليبيين عندما مروا بأراضى الدولة البيزنطية أثناء حملتهم الأولى اقتبسوا نظام هذه الفرقة وكونوا لأنفسهم فرقاً كثيرة تحمل اسم تركبلى . وقد اقتبست الجيوش الإسلامية بدورها هذا النظام وكونت فرقا فى جيشها تحمل اسم تركبلى. وظلت هذه الفرقة موجودة فى جيوش الصليبيين والمسلمين إلى وقت متأخر ، فقد أشير إلى التركبلى فى نص الهدنة بين السلطان الناصر قلاوون وفرنج عكا فى ٥ ربيع الأول ٦٨٢ هـ . انظر ابن منقذ ، ص ٥١ ، الأصفهانى ، الفتح القدسى ، ص ٤٢٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، فى مواضع كثيرة ، ابن واصل ، جـ ٢ ، ص ١٤٩ ، المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٩٩١ .

الذين درجوا على استخدام الأساليب الحربية المعروفة عند الأتراك ؛ فالخيول السريعة والأسلحة الخفيفة وجعبة السهام والقوس كانت أهم ما يميزهم . وربما كان المقاتلون الأصليون فعلا من الأتراك والبيزنطيين ، ولكنهم فى نهاية الأمر صاروا يجندون من السكان المحليين كالأرمن والبدو.. وربما جندوا فيما بعد من البولان . ويبدو أن التركبلى لم يكونوا يحاربون فى المعارك الصليبية الحقيقية ، ويمكن اعتبارهم وحدات احتياطية أو معاونة . ومن الراجح أن مهمة هذه الفئة من الجيش كانت تنحصر فى دفع الهجمات، التى يشنها المسلمون ومنعهم من الاستفادة بميزة القوس والسهم(١)، وقد أصبحت التركبلى جزءاً نظاميا من الداوية والاسبتارية،وأخذ كل منهما تضم التركبلى بين الضباط الكبار(٢) .

وإلى جانب النجاح الذى يمكن أن يكون قد حققه استخدام فيالق التركبلى.. فإن الصليبيين استجابوا للتحدى الإسلامى بإنشاء فيالق من رماة السهام الراجلين لجيوشهم .. وقد صار هؤلاء الرماة هم طليعة الجيوش فى المواجهة بتجهيزاتهم الخفيفة التى تشتمل على غطاء الرأس الخشبى أو الجلدى وصديرى ودرع خشبى والقوس والسهام . وكان هؤلاء الرماة يجندون من بين سكان المدن والمؤسسات الكنسية أى من الصليبيين دون مستوى النبلاء . وعادة ما كانت المدن والمؤسسات الكنسية تضطلع بواجب تجهيز فيالق الرماة للجيوش، وكان أولئك هم الجنود المشاة الذى كان بعضهم يقوم بالقتال أيضا ضمن الخيالة الخفيفة(٣).

وقد اكتشف المسلمون نقطة الضعف فى التشيكلات الصليبية ، ولذلك كانوا يتحاشون بقدر الإمكان أية مواجهة مباشرة مع الصليبيين ؛ لأن ذلك كان يعنى أن تكتسحهم الخيالة المدرعة الثقيلة . وكان هذا يعنى تجنب المعارك فى السهول المفتوحة ، والتى كانت تسمح باستخدام الخيالة المدرعة بشكل فعال . وكان المسلمون يفضلون الأرض التلالية والجبلية أو الأغوار لما توفره لهم من ميزات . ومن ناحية أخرى كانوا يناورون لضرب الأجنحة وفصل النبالة المشاة عن فرسان الصليبيين .. وإذا ما تم الفصل بينهما كان الفارس الصليبى يتجرد من ناحية الرماة وبذلك يصبح هدفًا لسهام الخيالة الأتراك . وقد وعى المسلمون هذا تماماً ، وكانت المناورة هى السبب الرئيسى فى هزيمة الجيوش الصليبية فى معركة حطين

(١) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢١٦ .

(2) Smial, Crusading Warfare , P. 111.

(٣) براور ،المرجع السابق ، ص ٢١٦ – ٢١٧ .

الفاصلة(١) .

كان الجيش الصليبى وهو يستعد للقتال ينقسم عادة إلى ثلاثة أقسام رئيسية.. يقف أحدها من ناحية اليمين ويسمى ميمنة ، والثانى يقف فى ناحية الشمال ، ويسمى الميسرة ، بحيث تمتد ميمنة الصليبيين مقابلة ميسرة المسلمين ، والميسرة فى مقابلة الميمنة . وبين هذين القسمين ، الميمنة والميسرة يتمركز القسم الرئيسى من الجيش، ويسمى بالقلب، وهو يتألف عادة من الخيالة المدرعة الثقيلة بقيادة الملك أو من ينوب عنه ، وبين يديه الإنجيل **«محمول مستور بثوب أطلس مغطى ، وأربعة أنفس يمسكون أطرافه ، وهم يسيرون بين يدى الملك»**(٢) . وقد ترك لنا ابن واصل وصفًا دقيقًا وطريفًا فى الوقت نفسه للعلم الصليبى، حين يقول : **«وعلمهم مرتفع على عجلة ، وهو يسحب بالبغال ، وهو عال جدا كالمنارة ، خرقته بيضاء ملمعة على شكل الصلبان»**(٣) .

وعلى الرغم من العداء الذى كان قائماً بين المسلمين والصليبيين ، فإن المسلمين أعجبوا بشجاعة الصليبيين وبسالتهم ، وقدرتهم القتالية ومناورتهم فى ميدان القتال ، فضلا عن جلدهم وقوة تحملهم ، ولذلك لم يجد كتابهم حرجًا فى ذكر الأمثلة الدالة على تلك الصفات ، على الرغم من الحرب القائمة والصراع الدائم بين الطرفين . وقد يساعد على فهم ما نحن بصدده أن نذكر هنا فقرة لأسامة بن منقذ فى وصف الصليبيين ونصها : **«سبحان الخالق البارىء إذ خبر الإنسان أمور الفرنج سبح الله تعالى وقدسه ، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير ، كما فى البهائم فضيلة القوة والتحمل»**(٤) . وفى أماكن متفرقة من مذكراته يقدم لنا أسامة بن منقذ عدداً من الأمثلة، التى تدل على شجاعة المقاتل الصليبى وجسارته فى ميدان القتال(٥) .

---

(١) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) ابن واصل ، جـ٢ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٣) نفسه ، ص ٢٤٣ . ويذكر ابن شداد ، (ص١٤٩) وصفا آخر طريفاً ونادراً لعلم الجيوش الصليبية حين يقول فيه : **« وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها ، وهى تسحب بالبغال ، وهم يذبون عن العلم ، وهو عال جدا كالمنارة ، خرقته بيضاء ملمع بحمرة على شكل الصلبان»**.

(٤) ابن منقذ ، ص ١٣٢ .

(٥) نفسه ، ص ٩٦، ص ٧٠ - ٧١ .

وعن قوة الاحتمال لدى المقاتلين الصليبيين يتحدث ابن شداد بإعجاب قائلا: «**فأنظر إلى صبر هؤلاء القوة على الأعمال الشاقة من غير ديوان ونفع..**»(١) .
وفى مكان آخر يتحدث ابن شداد عن ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وأحد زعماء الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة بقوله : «**فركب الملعون ، وكان شجاعا باسلا صاحب رأى فى الحرب ، وثبت بين يدى العساكر**»(٢) . كما يقول عنه أيضا : «**وهذا ملك الإنكتار شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوى الهمة ، وله وقعات عظيمة وله جسارة على الحرب**»(٣) . أما ابن القلانسى فإنه يصف بعض فرسان الصليبيين ومقاتليهم بالفروسية والشجاعة والبسالة وشدة المراس(٤).

ويمكن تفسير هذه الشجاعة التى تميز بها المقاتل الصليبى فى ضوء خلفيته الاجتماعية من جهة ، والتدين العاطفى الذى حكم سلوكه من جهة أخرى ، فضلا عن الظروف المعادية التى عاش فى إطارها هذا المقاتل على أرض الشام من جهة ثالثة(٥) .

ومع أن المسلمين أعجبوا بشجاعة المقاتلين الصليبيين إلا أنهم تنبهوا إلى الحذر الذى كان يميز سلوكهم ، فها هو أسامة بن منقذ يذكر مانصه : «**وهم .. أكبر الناس احترازا فى الحرب**»(٦) . ويقدم لنا أسامة عددا من الأمثلة لكى يثبت بها صدق ملاحظته . كما تقدم المصادر العربية الأخرى مزيداً من الأمثلة التى تدعم هذه الملاحظة التى أبداها أسامة بن منقذ عن صفة الحذر البالغ فى شخصية المقاتل الصليبى (٧). وجميع هذه الأمثلة تكشف كيف كان الصليبيون لا يدخلون معركة إلا

---

(١) ابن شداد ، ص ٨٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩ .

(٣) نفسه ، ص ١٥٧ .

(٤) يقول ابن القلانسى فى حوادث عام ٥٠١ هـ: « **أسرى ظهير الدين أتابك فى عسكره إلى طبرية وفرق عسكره فرقتين نفذ إحداهما إلى أرض فلسطين والأخرى أغار بها على طبرية فخرج إليه صاحبها فى رجاله المعروف بجرفاس وهو من مقدمى الإفرنج المشهورين بالفروسية والشجاعة والبسالة وشدة المراس**».

(٥) قاسم عبده قاسم ، «**صورة المقاتل الصليبى**» ، ص ١٧ .

(٦) ابن منقذ ، ص ١٢ .

(٧) انظر على سبيل المثال : ابن الأثير، الكامل ، جـ١ ، ص ١٠٣ ، ١٣٩ ؛ ابن شداد، ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ الأصفهانى ، الفتح القدسى ، ص ٥٩ - ٦٠ ؛ ابن القلانسى ، =

إذا كانت نتائجها مضمونة تماما ، وكيف أنهم كانوا يميلون إلى القيام بعمليات عسكرية محدودة . ويبحثون باستمرار عن النصر السريع السهل متوسلين إلى ذلك بالحيلة والخداع، كما توضح بعض الأمثلة كيف أن الصليبيين كانوا بعض الأحيان يقتلون أسراهم خوفا من أن ينقذهم رفاقهم(١).

ويرى سميل ، وهو أحد المؤرخين المتخصصين فى التاريخ العسكرى فى العصور الوسطى ، أنه يمكن تبرير هذا الحذر فى ضوء طبيعة الوجود الصليبى فى بلاد الشام ؛ ذلك أنه يرى أن الصليبيين فى بلاد الشام كانوا يواجهون عدة مشكلات عسكرية تكتيكية وإستراتيجية فرضت عليهم الحذر وضبط النفس ، كما أنهم كانوا يقاتلون فى سبيل تحقيق أهداف محددة ، هى الاستيلاء على بعض المناطق ذات الأهمية الدينية البالغة بالنسبة لهم ولذلك - والكلام ما يزال للمؤرخ نفسه - فإنهم أخذوا ينهجون نهجا دفاعيا فى حروبهم بعد الجيل الأول(٢) .

وبالإضافة إلى ذلك كانت لدى الصليبيين أسباب أخرى تدفعهم إلى الحذر ؛ إذ أدركوا ، كما يذكر سميل ، أن نتيجة أى معركة من المعارك لابد وأن تكون مشكوكاً فيها ، وأن عواقب الهزيمة قد تكون وخيمة ، فكان من المحتمل أن تقتل أو تؤسر أعداد كبيرة من الفرسان، الذين لم يتوافروا قط بشكل كاف فى بلاد الشام وتعرضت الحصون المهمة لتهديد مضاعف ، فلم يكن هناك ما يمنع العدو المنتصر من توجيه كافة موارده ضدها ، فقد تركت الحصون بحاميات غير كافية لأنها كانت قد أفرغت من رجالها لتزويد الجيش الميدانى الصليبى بالمقاتلين . وفى هذه الأحوال، بات من الواضح أن عديداً من المسلمين والنصارى الشرقيين فى الأراضى المحتلة كانوا إما لا يبالون بمصير حكامهم اللاتين أو يرحبون بهزيمتهم(٣).

ويمكن تفسير حذر المقاتل الصليبى فى ضوء وضعه القانونى فى نظر الغرب الأوروبى آنذاك، وكذلك فى ضوء الظروف التى أحاطت بهذا الوجود الصليبى العدوانى الاستيطانى فى الأراضى العربية ؛ ذلك أن إحساس المقاتل الصليبى بانتمائه إلى كيان دخيل قائم فى محيط من الأعداء الذين يتحينون الفرصة

=ص ٥٨ - ١٨٦، ص ٢١٣ - ٢١٤ ، ٢٩٧ - ٢٩٩ ؛ أبو شامة ، جـ١ ، ص ٥٢ .

(١) قاسم عبده قاسم ، **«صورة المقاتل الصليبى»** ، ص ٢٧ .

(2) Smial, Crusading Warfare, P. 138.

(3) Ibid, P. 139 .

للإطاحة به ، جعله أكثر حذرا وحيطة . وربما كان هذا الإحساس كامناً فى اللاشعور فى بداية الأمر ، بيد أن تصاعد المقاومة الإسلامية ثم تنظيمها بحيث انتقلت إلى مرحلة الهجوم ، أفقد هذا الكيان الدخيل إحساسه بالأمان(١) .

ونظرا للتفوق العددى للمسلمين كان على الصليبيين أن يظلوا أقلية فى حالة حرب مستديمة . وقد أملى عليهم المنطق والحذر أن يتمركزوا فى مواقع قليلة محصنة(٢) . وعلى الرغم من ذلك.. فإن هذه الوسيلة لم تكن كافية لإحكام السيطرة على المناطق الريفية ولضمان الاتصالات وجعل الوجود الصليبى حقيقة ملموسة ، رصع الصليبيون شبكة الطرق الرئيسية والفرعية فى البلاد بالحصون ونقاط المراقبة القوية التى هى أقرب لمراكز الشرطة منها إلى القواعد العسكرية . وكان من السهل أن تتصل الحصون والحاميات ببعضها من السهل أو الجبل عن طريق إشارات النيران والدخان أو الحمام الزاجل ، وكانت المواقع الصليبية الحصينة بمثابة مؤسسات عسكرية ثابتة على حين كان الجيش هو العنصر المتحرك فيها(٣) .

وقد اعتمد الصليبيون على قلاعهم للمحافظة على المناطق، التى استولوا عليها عنوة . ويلقى هذا الاعتماد مزيدا من الضوء على طبيعة الاستيطان الصليبى فى سوريا . وفى هذا المجال لا يمكننا أن نوافق على الرأى القائل بأن القلاع الصليبية لم تكن إلا وسيلة للدفاع عن الحدود؛ لأن هذا الرأى لايمثل فى الواقع إلا جزء من الحقيقة (٤) . فمن جهة كان الدفاع عن الحدود يمثل دوراً لم يكن بإمكان القلعة أو حتى مجموعة من القلاع أن تحققه إلا بصورة ناقصة ، ومن جهة أخرى أدى بناء القلاع مجموعة متنوعة واسعة من الوظائف الأخرى ، وربما يشكل أكبر فعالية ؛ إذ استخدمت القلاع فى الهجوم ، ولعبت دورا ملحوظاً فى الإحتلال الصليبى لأنطاكية وطرابلس وصور وعسقلان(٥) . والأدلة على ذلك وفيرة بمختلف المراجع المعاصرة فقد بدأ حصار أنطاكية فى أكتوبر ١٠٩٧م ، ومن المحتمل أن القادة الصليبيين قرروا فى الشهر التالى بناء قلعة خارج بوابة القديس بول ، وكانت

---

(١) قاسم عبده قاسم ، **«صورة المقاتل الصليبى»** ، ص ٣١ .

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٧ .

(٣) نفسه ، ص ١٩٩ .

(4) Grousset, Histoire des Crosades, II, PP. 154-8

(5) Smial, Crusading Warfare, P. 60.

النتيجة إقامة قلعة Malrgrd ، وبذلك تمكنت حاميتها من مقاومة الهجمات التركية[1] .

وفى عام ١١٠٣م بدأ ريمون السانجيلي بحصاره لطرابلس ، وكان لديه قلة من الأتباع ، فى حين كانت وسائل الدفاع عن المدينة منيعة وسكانها وافرى العدد، ومن الراجح أن ريمون توقع أيضاً بعض الهجمات من حكام المناطق الإسلامية المجاورة. ولذلك اختار موقعا حصينا بالقرب من أسوار طرابلس ، ومن القلعة التى بناها هناك، نازع حكام المدينة السيطرة على الريف المحيط بها، إلى أن استسلموا بعد ذلك بست سنوات ، بعد انقطاعهم عن مصدر تموينهم الرئيسى[2]. وفى هذا الشأن يقول ابن الأثير : **«كان صنجيل الفرنجي.. قد ملك مدينة جبلة وأقام على طرابلس يحصرها، فحيث لم يقدر أن يملكها بنى بالقرب منها حصنا وبنى تحته ربضا وأقام مرصداً لها ومنتظراً وجود فرصة»**[3] .

وفيما بين عامى ١١٣٦ ، ١١٤٩م أقام الصليبيون لهم قلاعا فى بيت جبرين ويبنى وتل الصافى وغزة . ويبدو أن إنشاءها كان لمنع الغارات التى كانت تقوم بها حامية عسقلان الإسلامية فى اتجاه القدس ويافا وهى الغارات التى جلبت عدم الاستقرار إلى حياة سكان السهل الساحلي الخصيب وحياة الحجاج أثناء سيرهم فى الطريق إلى الأماكن المقدسة . ويعنى تحقيق ذلك ليس بمجرد وجود الحصون الجديدة بما فيها من حاميات داخلها على استعداد لمواجهة الهجوم ، وإنما كان على تلك الحاميات أن تباشر القتال ، فتهاجم رجال عسقلان كلما غادروا ملجأهم فى مدينتهم . ويمكن بسهولة إدراك كيف أمكن أن يصبح هذا الدفاع العدوانى هجوماً على المنطقة المحيطة بعسقلان ، ويشكل الخطوة الأولى فى عملية إخضاع المدينة ذاتها[4] .

وقد أصبحت هذه القلاع فيما بعد مراكز للاستعمار والتنمية الاقتصادية ، فحامية تل الصافى جلبت الأمن إلى الريف بحيث استوطنت الأسر فى المنطقة المجاورة لها ، وأصبحت الأرض أكثر إنتاجا . وحاولت الاسبتارية التى كانت قد وضعت فى عهدتها بيت جبرين عند تحصينها ، واستمالة الصليبيين للاستيطان فى

(1) Gesta Frncorum, P. 30 .

(2) Smail, Crusading Warfare, P. 210 .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٣٥ .

(4) Smail, Op. Cit., P. 60.

المنطقة التى سيطرت عليها[1].

كانت القلاع قبل كل شيء مراكز للسلطة .. فقائد القلعة وحاميتها كان حاكم الإقليم المحيط بها ، وكان تحت تصرفه بصورة مستمرة من الوسائل ما يواجه به أى تحد لسلطته، وأينما قامت كانت القلاع تشكل قاعدة أمكن منها ممارسة السيطرة وأمكن من داخلها حمايتها والاحتفاظ بها . وكما حدث فى أوروبا ، كذلك فى سوريا حيث لم يكن يتعين على القلاع أن تقاوم حصارا إلا بين حين وآخر ، وحققت بصورة متواصلة وظيفتها كأساس طبيعى لسيادة الحاكم[2].

وفى مناسبة واحدة على الأقل ، حملت الحاجات الإدارية الصليبيين على بناء قلعة .. فخلال حكم بلدوين الثانى وجدت صعوبة فى جمع الإيرادات المستحقة على الفلاحين المسلمين ، وكان الحل هو إنشاء قلعة جلافيانوس[3]. ومن المرجح أن صعوبات مماثلة قامت فى مناطق أخرى مقسمة بين الصليبيين والمسلمين .

وهكذا منحت القلعة حاكمها سلطة الإشراف على المنطقة المحيطة بها .. فكان باستطاعته أن يستمد من الأرض وسكانها دخلا على شكل بضاعة ونقود وخدمات، دعمت فى الوقت حاجاته الشخصية ومكنته من تنفيذ التزاماته الإقطاعية فى الحكم والحرب . وكان الإشراف الذى مارسه جزءا من السيادة اللاتينية فى سوريا وشكلت القوة التى استند إليها جزءاً من القوة المتوافرة الكاملة ، لمواجهة أى هجوم إسلامى . وارتكزت كافة العوامل التالية : سيطرة الطبقة الحاكمة فى المجتمع الإقطاعى وسيطرة الفرنج على الأرمن والنصارى السوريين والمسلمين ، ومقاومة الفرنج للهجوم الإسلامى على القوة التى تجسدت إلى حد ما فى الجيش ، وإلى حد مافى الأماكن المحصنة ، وكانت هذه هى الأهمية الحقيقية للقلعة والمدينة المسورة فى الشرق الفرنجى [4].

وقد اهتم الصليبيون بدراسة أساليب العمارة العسكرية فى خلال سيرهم الطويل فى رحلتهم من الغرب إلى الشرق ، وأفادوا حقًا من قوة ملاحظتهم [5] .

(1)Smail, Crusading Warfare, P. 213 .

(2) Ibid P. 61.

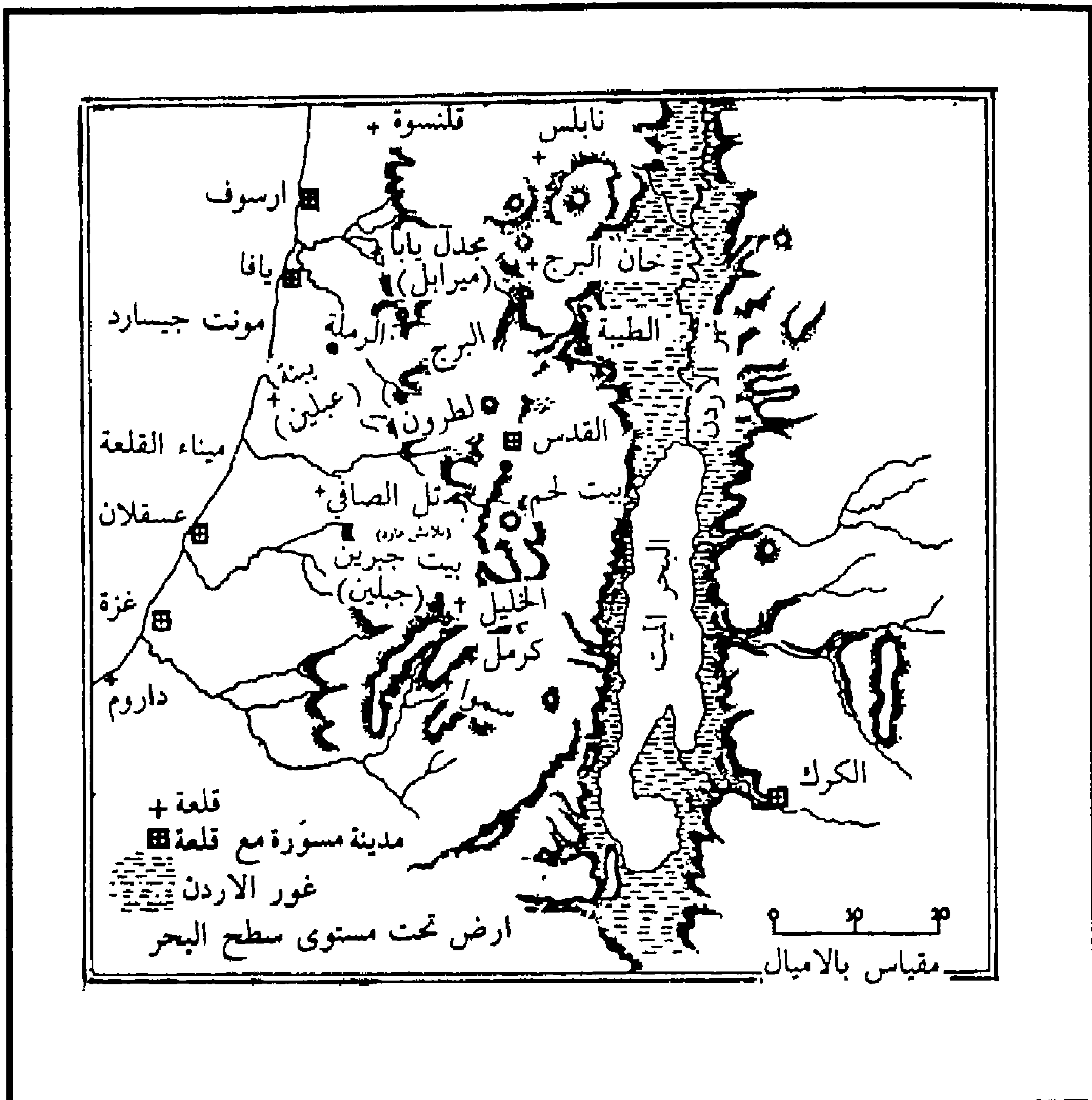
(3) Fulcher of Chartres, P. 282 .

(4) Smail, Op. Cit., P. 214 .

(5) Runciman, A History of the Crusades , III, P. 370.

جنوب فلسطين نقلا عن

Smail, Crusading Warfare, P. 212



ولكن موقفهم من النواحى الإدارية والتعبوية كان على الأقل مختلفا عن البيزنطيين والعرب . فكانت شكواهم من نقص عدد الرجال دائمة ، ولم يستطيعوا الاحتفاظ بجحافل ضخمة العدد في حامياتهم المبعثرة في مملكتهم .. فلا غرو إذا لاحظنا متانة قلاعهم وسهولة وضعها من ناحية الدفاع عنها . والأمثلة كثيرة ومتواترة فى المصادر التاريخية الإسلامية على مدى اهتمام الصليبيين بالتحصينات ، فقد ذكر ابن القلانسى [١]، وابن شداد[٢] ، وابن واصل[٣]، فى صفحات مؤلفاتهم طائفة من الأمثلة التى توضح ذلك.

كما أن الرحالة ابن جبير ، الذى زار بلاد الشام فى عصر السلطان صلاح الدين يلاحظ اهتمام الصليبيين بتحصين مدنهم، ويقول فى ملاحظة ذكية عن مدينة صور المحتلة: **« مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة ، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولااستكانة ، وقد أعدها الفرنج مفزعاً لحادث زمانهم وجعلوها مثابة لأمنهم»**[٤] .

وقد اهتم الصليبيون كثيراً باختيار المواقع المناسبة، التى تتوافر فيها المزايا العسكرية الدفاعية ، ولذلك نراهم قد استخدموا كل منحدر إلى أقصى حد . ولما كان من الصعب استعمال جنود الكشافة، فقد استعاضوا عنهم بمبدأ تبادل الرؤية؛

---

(١) فى حوادث سنة ٤٩٩ هـ ، يذكر ابن القلانسى أن الفرنج خرجوا **«إلى سواد طبرية ، وشرعوا فى عمارة حصن علعال فيما بين السواد والبثينة وكان من الحصون الموصوفة بالمنعة والحصانة».**

(٢) يقول ابن شداد (ص ٩٠) عن قلعة صهيون أنها : **«قلعة حصينة منيعة فى طرف الجبل ، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد ، مقدار طوله ستون ذراعا ولا يبلغ وهو نقر فى حجر ، ولها ثلاثة أسوار ، سور دون ربضها وسور دون القلة ، وسور القلعة ، وكان على قلعتها علم طويل منصوب».**

(٣ يذكر ابن واصل (جـ٢ ، ص ٨٤ – ٨٥) أن الصليبيين قد عرضوا حائط حصن بين الأحزان : **«إلى أن زاد على عشرة أذرع وقطعت له عظام الحجارة ، وكل فص منها من سبعة أذرع إلى ما فوقها أو ما دونها وعدتها تزيد عن عشرين ألف حجر ، لا يستقر الحجر فى مكان ولايستقل فى بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها أنوف الجبال الشم ، وقد جعلت سقيته بالكلس الذى إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه ، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه وأوعز إلى خصمه من الحديد بألا يتعرض لهدمه».**

(٤) ابن جبير ، ص ٢١٢ .

بمعنى أن تكشف كل قلعة ما يجاورها أو يتلوها من الحصون؛ بهدف تبادل الأنباء والتعليمات وتيسير المواصلات . وقد أشار العماد الأصفهانى إلى هذه الحقيقة بقوله : «.. **وقد رتب الفرنج أفواجًا على تلك الفجاج ، لا سيما أبرنس الكرك فإنه كان حريصاً على الدرك..**»(١) .

وقد بالغ الصليبيون فى زيادة سمك جدران القلاع وإطالة علوها ، لكى تقاوم الهجمات المباشرة والأسحلة الفتاكة ، ولم يعتمدوا على منشئات الدفاع الخارجية التى تقام عادة أمام القلعة ؛ اقتصادا للجند(٢) .

كانت المساحة التى تشغلها القلعة كبيرة وتسمح بوقاية قطعان الحيوان والغنم أثناء غارات المسلمين العديدة . والحقيقة أن القلعة لعبت دورا أكثر أهمية للصليبيين مما لعبته عند العرب والبيزنطيين . وفى الغرب المعاصر للصليبيين كانت القلعة فى دورها البسيط عبارة عن حصن مربع قوى البناء ، وقد بلغ أسلوبه فى عهد النورمان إلى ما يقرب من الكمال . ولكنه كان لا يفى باحتياجات حاميات الصليبيين فكان عليهم أن يعملوا لتحسين طراز قلعتهم لتؤدى لهم أجل الفوائد ، فاستعاروا أفكارا كثيرة من أسلافهم البيزنطيين ، واقتبسوا مما شاهدوه فى الشرق من ظاهرة المشربيات ، كما انتفعوا بأسلوب توزيع الأبراج على امتداد سور القلعة . ولم ينقل هؤلاء ماشاهدوه دون تعديل بل نراهم يفضلون الأبراج المستديرة لأنها تعطى مدى أوسع للإضرار بالعدو ، ولم يتمسكوا بالأبراج المربعة التى صممها البيزنطيون(٣) .

ولم تكن هذه الحصون والقلاع جديدة تماما ؛ إذ كانت فى حقيقتها حصونا قديمة بناها المسلمون قبل الغزو الصليبى ، وانحصر دور الصليبيين فى تطوير نظام الدفاع بها ، وقد بدأوا عملهم فى المدن التى احتوت على قدر كاف من الحصون(٤) .

وقد بنى الصليبيون أول قلعة يمكن تأريخها بدقة – قلعة الكونت ريمون على

---

(١) الأصفهانى ، الفتح القدسى ، ص ، ٥٩ .

(2) Runciman, A History of the Crusades , III, P. 370.

(3) Ibid.

(٤) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٩٩ – ٢٠٠ .

جبل الشيخ عام ١١٠٤م ، لكى تكون مقرا لقيادة جيشه بينما كان منهمكا فى حصار طرابلس[١] . ومن المحتمل أن تكون قلاع أمراء الجليل فى طبرية وتورون قد شيدت فى الوقت نفسه[٢] .

كانت قلاع الصليبيين فى أوائل القرن الثانى عشر صغيرة كقلعة بلغوار مثلا، شيدوها بالأسلوب البيزنطى ويحيط بها سور خارجى يكاد يكون مربع الشكل تقريبا، وتكتنفه الأبراج ويقوم فى وسطها حصن عال ، وقد اهتموا كثيرا باختيار الموقع ليكون صعب المنال ، ولكى يستغنوا عن بناء المنشآت الدفاعية الخارجية .. أما أسلوب البناء فقد جمع بين المتانة واالمنعة[٣] .

وفى العقد الثانى من القرن الثانى عشر فى أيام حكم بلدوين الأول بدأ العصر الكبير فى بناء القلاع الصليبية فى الأراضى المحتلة واستمر أيام فولك حينما شيدت قلعة كرك مواب وبوفورت ، وإلى الشمال قلعة صهيون . وكذلك تلك المجموعة من القلاع الصغيرة نسبيا فى الضفة الغربية مثل قلعة الحارس الأبيض وقلعة ابلين . ونرى الصليبيين قد انتفعوا فى قلعة صهيون بالخندق المحيط ببعض أجزائها ، وحولوه إلى قوة عميقة ، يبلغ عمقها نحو تسعين قدما قطعوها فى الحجر الصلب . وقد أدرك الصليبيون أهمية موقع صهيون فزادوه مناعة ، ومن ذلك أنهم استخدموا المتاريس المدلاة ، وهى أبواب من حديد معلقة على بوابات الحصون تنزل عند الضرورة فتسدها . وقد عرف الصليبيون من المسلمين المدخل الذى على شكل زاوية قائمة[٤] .

أما القلاع الصليبية الكبرى فكانت مبانيها أكثر تعقيدا.. فإن حصن الأكراد مثلا شيد لكى يعيش فيه الأمير وأسرته وجنوده والكتبة ورجال الإدارة الذين يعملون فى إمارته .. وفى مثل هذه القلعة كان الحصن ومساكن الإقامة تقام فى غالب الأحيان فى أبعد أركان السور؛ ليمكن الدفاع عنها بسهولة ، أما المخازن والمصلى فقد شيدت فى الفضاء الأوسط داخل القلعة ، بينما اشتملت الأبراج الأخرى المشيدة

(١) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٨ ، ص ٢٣٥ .

(2) Runciman, A History of the Crusades P. 368 .

(٣) عبد الرحمن زكى ، «**القلاع فى الحروب الصليبية**»، (المجلة التاريخية المصرية ، مج ١٥، ١٩٦٩م) ص ١٢٦ .

(٤) عبد الرحمن زكى ، «**القلاع**» ، ص ١٢٨ .

ضمن مبانى السور على ثكنات الجنود وأماكن العمل ، وكان شكل مخطط القلعة يختلف تبعا لشكل الأرض المقامة عليها القلعة ومساحتها [1] . وقد كان الحصن عبارة عن برج بسيط مربع الشكل على النمط النورمانى، له فى غالب الأحيان مدخل واحد شيد بالحجارة القوية، وإن زخرفت أحيانا مساكن الإقامة والمصلى[2] .

ويصف لنا أحد الكتاب المسلمين ممن شاهدوا حصن الكرك بأنه : **«من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر ، وبينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلاً وهو سرارة أرض فلسطين ، به نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر أنه ينتهي إلى أربعمائة قرية»**[3] .

وكاتب آخر يقول إن هذا الحصن قد : **«تاه بعطفه على الممالك والحصون وشمخ بأنفه أن تمتد إلى مثله يد الحرب الزبون ، وغدا جاذبا بضبع الشام ، وآخذا مخانق بلاد الإسلام ، وشللا فى يد البلاد ، وشجا فى صدر العباد تنقض من عشه صدور الأعداء الكاسرة ، وترتاع فى سطوتها قلوب الجيوش الطائرة وتربض بأرباضه آساد تحمى تلك الأجام ، وتفوق من قسيه سهام تصمى مقومات السهام ، تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون ويصطفى كرام أموالهم وهم صابرون لامصابرون ، كم شكت منه حماه تثلى بذكرها قلة الإنصاف ، وكم خافته معرة وما من مرة خاف .. وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهى كالأنامل وتكاد ببروجه ترى كالمطايا المقطرة وهى منها بمنزلة الزوامل ما خيمنا به حتى استبحنا محمى تلك المدائن المكنى عنها بالأرباض ، وأسحنا بساحتها بحرا من الحديد ما اندفع حتى فاض ، وأخذنا النقوب فى أسوار لاتنق ولا يدق بنيانها المرصوص . ولاتقرأ المعاول ما لخواتم أبراجها من نقوش النصوص»**[4] .

وبتقدم القرن الثانى عشر طرأت تغييرات رئيسية فى تخطيط القلاع الصليبية، فقد نظر بعين الاعتبار إلى أهمية موقع الحصن وهو أمنع أجزاء القلعة

(1) Runciman, A History of the Crusades , III, P. 371.

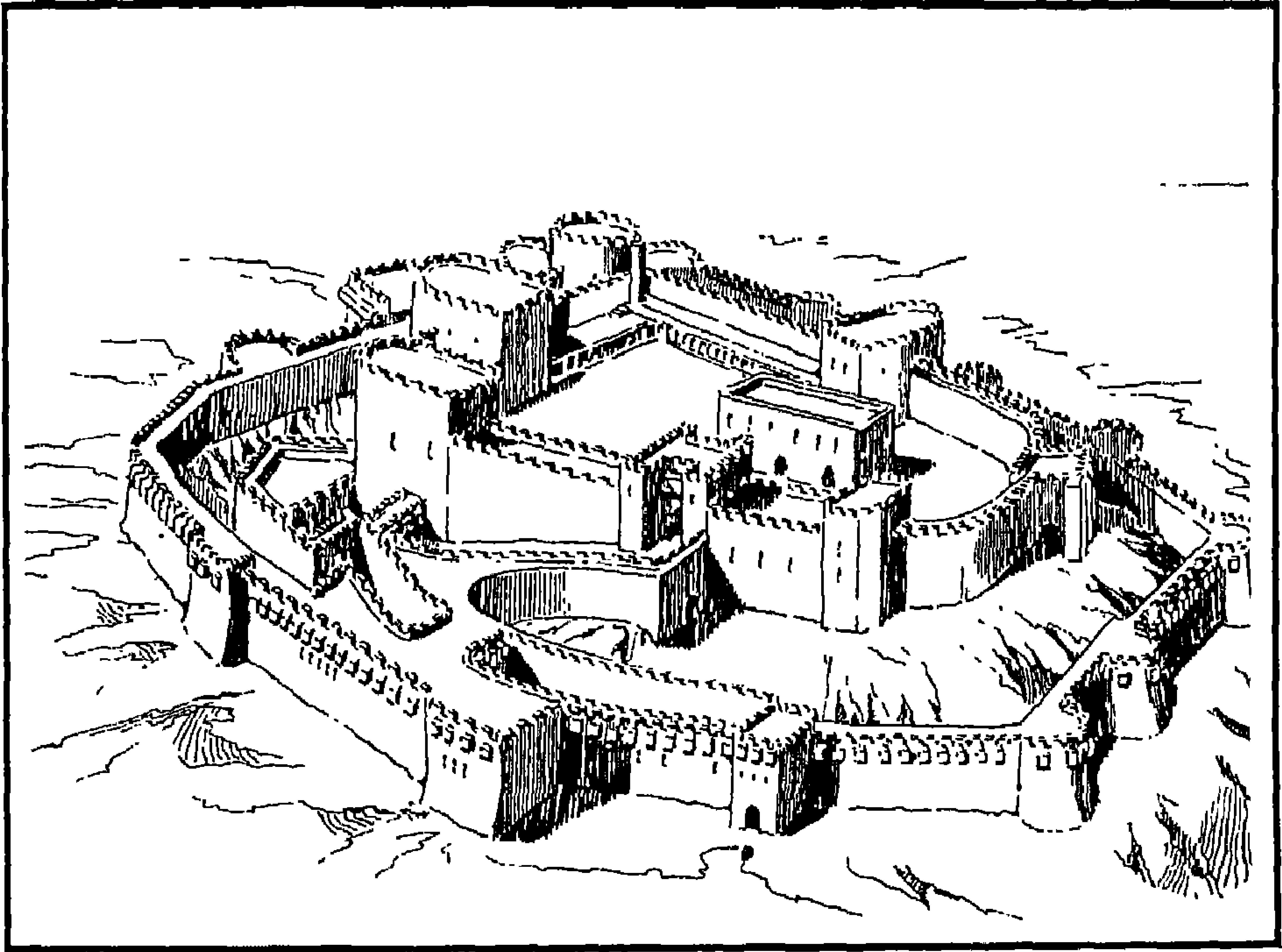
(2) Ibid.

(٣) ابن جبير ، ص ٢٠١ .

(٤) من رسالة الملك المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن مبشرا بفتح صافيتا من إنشاء محى الدين بن عبد الظاهر . انظر القلقشندى ، جـ٧ ، ص ٣٥٣ – ٣٥٧ .

حصن الكرك دى شيفاليه نقلا عن

Sellman, (R.R.) Castles and fortresses (London, 1974), P. 39



وأقواها، رؤى أن يقام فى أضعف قطاعات السور . وكان الحصن حينذاك قد تحول شكله من المربع إلى المستدير ، لأن السطح المستدير يمكنه مقاومة طلقات المقذوفات بشكل مؤثر، كما أنه زيد عدد الأبواب العادية والسرية فى الأسوار (١) .

ونلاحظ أن القلاع التى شيدها الصليبيون أخذت فى الضخامة ، ولاسيما حينما بنى رجال الطوائف الدينية قلاعاً لهم أو عندما كانت تؤول إليهم قلاع النبلاء والأمراء . وكانت قلاع تلك الطوائف لاتأوى النساء ، ومع أن مساكن كبار القادة والموظفين داخل القلاع اشتملت على جميع وسائل الراحة، فقد احتوت أيضاً على كل ما تتطلبه الضرورة العسكرية . فقد كانت القلاع الكبرى مثل كرك عثليت عبارة عن مدن عسكرية تسع عدة آلاف من المحاربين والخدم التابعين(٢) .

وكان من النادر استخدام الأسوار المزدوجة فى قلاع الأسلوب المركز ، صحيح أنه كان لقلاع طائفة الاسبتارية الكبرى مثل حصن الأكراد والمرقب إطار مزدوج وقلد هذه الظاهرة طائفة الداوية ، قلدوه فى بناء قلعة صافيتا ، ولكنهم فضلوا السور المفرد كقاعدة عامة ، ولذلك نلاحظ أن قلاعهم المهمة التى شيدوها فى القرن الثالث عشر كطرطوسة وعثليت اتخذت الأسلوب الباكر ، ولكننا نشاهد فى الحالتين أن الأجزاء المرتفعة من الأسوار هى الأجزاء التى كانت تلاصق البحر ، كذلك قلعة مونتفورت التى شيدها رجال التيتون كانت ذات سور مفرد(٣) .

كان الصليبيون يقاتلون باستماتة وضراوة للدفاع عن مدنهم وقلاعهم فإن فقدان الصليبيين للمدن والأراضى التى احتلوها فى بلاد الشام كان يعنى النهاية بالنسبة لهم(٤) . ومما يؤكد هذا القول أن أسامة بن منقذ يذكر فى حوادث سنة ٥٠٩هـ كيف ظل الصليبيون يقاتلون بضراوة فى قلعة كفر طاب، رغم اشتعال النيران فى الحصن حتى اقتحمه المسلمون (٥) . وفي هذا الشأن يقول ابن شداد وقد علت قلمه الدهشة : **«ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم**

(1) Runciman, A History of the Crusades , III, P. 372.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(٤) قاسم عبده قاسم ، **«صور المقاتل الصليبى»** ، ص ٣٣ .

(٥) ابن منقذ ، ص ٧٣ – ٧٥ .

قيام عوض الجدار مكشفين»(١).

وفى مكان آخر يقول : **«ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم وسداد حركاتهم وسكناتهم ، ولقد رأيت رجلين على ممشى السور يمنعان المتسلق فيه من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما بحجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى الداخل ، وقام رفيقه مقامه متصدياً لمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر ، بحيث لم يفرق بينهما إلا ناقد بصير..»**(٢) . كما يقدم لنا العماد الكاتب الأصفهانى عدد من الأمثلة التى تؤكد كذلك(٣).

إن الصدام بين الشرق والغرب فى بلاد الشام ، وهو صدام تم على كافة المستويات ، وضع الصليبيين فى مواجهة تحديات أكبر من طاقة خبراتهم العسكرية . فعلى الرغم من أن فن الحصار كان معروفاً فى ذلك الوقت ، فإن الشرق واجه الصليبيين بمشكلات نادراً ما واجهتهم من قبل فى أوروبا . فإن حجم القلاع وحجم المدن التى تمتد حوائطها فى نطاق تبلغ عدة أميال ، جعل حصارها والإلتفات حولها حتى يموت السكان جوعاً ، وهو الإجراء العادى فى الغرب ، أمرا غير مناسب فى الشرق الأدنى ؛ لذلك تطور فن الحصار إلى الاقتحام المباشر(٤).

وفى نظام التسليح المستخدم فى اقتحام المدن يحتل البرج المتحرك مكان الصدارة ، وغالباً ما كان يسمى **«برج الناقوس»** بسبب شكله وارتفاعه(٥) . وقد وصفه ابن واصل وصفا دقيقا واضحا بقوله : **«..كان الفرنج قد شرعوا فى بناء ثلاثة أبراج عالية عظام ، ونقلوا فى البحر آلاتها وأخشابها الجافية ، وقطع الحديد ، وتعبوا فيها سبعة أشهر ، وفرغوا منها فى ربيع الأول من هذه السنة (٥٨٦هـ) فطلت كأنها أطواد ، ونصب فى ثلاثة مواضع من أقطار البلد (عكا) وملئت طبقاتها بالعدد والعدة ، وكل برج منها فى أركانه أربع اسطوانات عاليات غلاظ ، طول كل واحدة خمسون ذراعا لتشرف على ارتفاع سور البلد ، وبسطوها على دوائر العجل ، ثم كسوها بجلود البقر ، وسقوها بالخل والخمر ، وكانوا يقربونها كل يوم من البلد حسب**

---

(١) ابن شداد ، ص ٩٣ .

(٢) نفسه ، ص ٢٢٤ .

(٣) الأصفهانى ، الفتح القدسى ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

(٤) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢٠٢ .

(٥) نفسه ، ص ٢٠٣ .

ما تيسر لهم ، وكشفوا من جوانبها سور البلد ..»[١] .

كان البرج يستعمل للاقتراب من حصون العدو أو المدن المنيعة لاقتحامها ولرمى السهام أو أية مقذوفات أخرى . وفى معظم الأحيان كان البرج يجر على عجلات خشبية أو حديدية - أو يدفع على أسطوانات ، وكان البرج يتألف من عدة أدوار يعلو بعضها بعضا ويوصل إليها بدرجات من الداخل ، وينتهى بقنطرة خشبية يمكن إلقاؤها على الحصن أو السور ليجرى عليها الجنود فى اقتحامهم للحصون والأسوار[٢] . ويذكر المؤرخون المسلمون أن البرج يتكون من خمس طبقات ، يسع سطحها منجنيقات ، ومن المقاتلة ما يزيد على خمسمائة رجل[٣] .

ومع ذلك كانت هناك صعوبة فى استعمال مثل هذه الأبراج، بالإضافة إلى ما تتطلبه من نفقات باهظة . فلم يكن هناك نجار صليبى يستطيع أن يبنى برجًا يبلغ طوله ما بين أربعين وستين ذراعا[٤] ، ويمكنه حمل عشرات من المقاتلين ، ومن ثم كان لا بد من الاستعانة بالمهندسين الخبراء فى هذا الشأن . ومن المحتمل أنه فى المرحلة الباكرة من الغزو استفاد الصليبيون من النصارى الشرقيين، وبصفة خاصة الأرمن الذين كانوا يعرفون كيف يشيدون آلات الحصار . وهناك صعوبة أخرى تمثلت فى إحضار برج الحصار وتقريبه من السور بقدر الإمكان . وكان هذا يتطلب ردم جزء من الخندق الذى قد يعترض طريقه[٥]، وكان هذا عملا شاقا ومرهقا . وكانت القوانين الصليبية فى مملكة بيت المقدس تنص على أن الفارس ليس مضطراً للنزول عن فرسه حتى فى وقت الحصار .

وكان من الممكن للمحاصرين أن ينجحوا فى حرق البرج فى هجمة مفاجئة على قوات الحصار، أو بإستخدام النار الإغريقية[٦] التى كانت خليطا كيميائيا ، كان

(١) ابن واصل ، جـ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) عبد الرحمن زكى ، السلاح فى الإسلام ، ص ١٣ - ١٤ .

(٣) ابن شداد ، ص ١٢٠ ؛ ابن الأثير ، جـ٩، ص ٢٠٥ ؛ أبو شامة ، جـ٢، ص ١٥٣ .

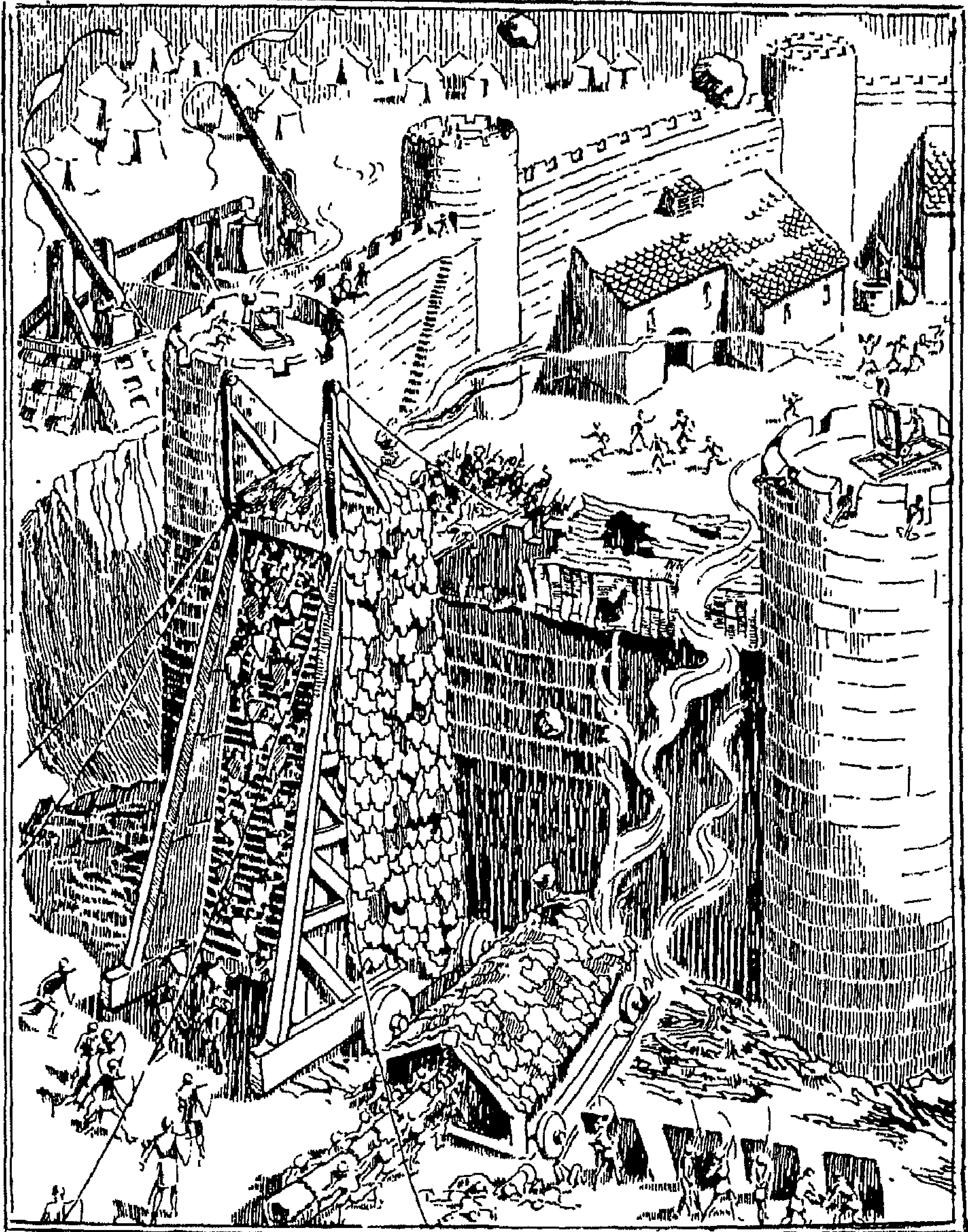
(٤) انظر ابن القلانسى ، ص ١٧٨ .

(5) Gesta Francorum, P. 91.

(٦) قيل إن الذى اخترع تلك المادة هو شخص يدعى كالينيكوس من هليوبوليس فى القرن السابع ، وأن نوعا منها استخدم فى طرد العرب من القسطنطينية أثناء الحصارات الكبيرة التى ضربت عليها .. ويبدو أن العرب تعلموا صنعها قبل الحروب الصليبية، وما لبثت =

الحصار فى العصور الوسطى نقلا عن

Sellman, (R.R.) Castles and Fortresses, (London, 1974)



هذا الخليط يوضع فى آنية فخارية ، ثم يشعل ويقذف أو يلصق بالبرج ويكون تأثيره قاتلا وغالبا ما كان يستخدم فى المعارك الحربية .

وفى بعض الأحيان لم تكن الآنية بسيطة بالقدر الذى يجعل المرء يسميها قنابل يدوية بل كانت : **«تأتى من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من القار ذات ذنب يقارب الرمح طولاً ، وكان يصاحبها صوت هائل كدوى الرعد ، وكأنها طائر فى الجو ، يشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شىء كأنه فى وضح النهار»**[1].

وكانت هذه البراميل الهائلة تقذف بواسطة الأقواس المتحركة[2]. ومما يدل على قوة النار الإغريقية أن الملك لويس التاسع كان كلما سمع صوت قذائفها يجلس فى فراشه، ويرفع يديه وعينيه إلى **«مخلصنا وهتف باكيا أيها الرب السيد ، احفظ لى شعبى»**[3] . ولم يكتف الملك لويس بذلك فكان **«كلما وقعت قذيفة بالليل ، أرسل إلينا أحد حجابه يسألنا كيف أصبحنا وعما إذا كانت النار أصابتنا بضر ما»**[4].

وقد عبر جوانفيل عن قوة النار الإغريقية أحسن تعبير بقوله : **«ولم أر قط فى حياتى لهبا أجمل مرآى وأقوى شدة من هذا اللهب»**[5] . وكانت وسيلة حماية الأبراج الوحيدة ضد النار الإغريقية هى تغطيته بحطب الكرم والبسط والطين وجلود البقر الطرية المنقوعة فى الخل[6]، وإن كان هذا لا يجد كثيراً إذا ما طال الحصار[7].

وقد ساعدت هذه الأبراج فى الاستيلاء على معرة النعمان ، ففى نوفمبر من عام ١٠٩٨م ، أمر ريمون الصنجيلى رجاله ببناء برج حصار خشبى ، ولما تم بناء البرج ، وقف الفرسان فى الطابق العلوى منه فى حين قام رجاله أسفل البرج

= أن بطل استعمالها تماما عندما حل محلها البارود والمدفع فى القرن الرابع عشر .

(١) جوانفيل ، ص ١١٠ .

(٢) نفسه ، المؤلف نفسه ، والصفحة نفسها .

(٣) نفسه ، ص ١١١ .

(٤) نفسه ، المؤلف نفسه ، الصفحة نفسها .

(٥) نفسه ، ص ١٦٤ .

(٦) ابن واصل ، جـ ١ ، ص ٣١٥ ؛ ابن القلانس ، ص ١٧١ ؛ ابن الأثير ، جـ١، ص ٢٠٥ .

(٧) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢٠٤

بدفعه نحو سور المدينة ، وأثناء انشغال المسلمين بإلقاء الأحجار والنار على البرج ، تمكن جنود صليبيون من إحداث ثغرة فى السور ، نفذوا منها يوم ١١ ديسمبر ، وبذلك تمكنوا من الاستيلاء على المدينة(١) . وقد استخدم الصليبيون هذه الأبراج فى الاستيلاء على القدس وغيرها من المدن الإسلامية المهمة(٢) .

وحين تعجز أبراج الحصار عن اقتحام الحصون، كان المقاتلون يستعملون أدوات أخرى لإحداث فجوة فى الأسوار . واقدم هذه الأجهزة هما الدبابة والكبش. كانت الدبابة آلة من آلات الحرب يدخل فيها المقاتلون فيدبون إلى الأسوار لينقبوها، وهي شبه برج متحرك له أحيانا ، أربعة أدوار أولها من الخشب وثانيها من الرصاص وثالثها من الحديد ورابعها من النحاس الأصفر، وتتحرك هذه الدبابة على عجلات(٣) ، وتصعد إلى طبقاته **الجنود** لنقب الحصون وتسلق الأسوار . وكانت الدبابة تسبق المشاة حتى تقترب إلى مسافات قصيرة من مواقع العدو أو حصونه . وهناك تؤتى تأثيرها المطلوب ، وتقذف الحجارة أو كرات النار المشتعلة أو النبال(٤) .

أما الكبش فهو آلة من خب وحديد يجرونها بنوع من الخيل فتدق الحائط فينهدم ، وأصل الكبش دبابة له رأس فى مقدمه مثل رأس الكبش . ويتصل هذا الرأس فى داخل دبابة بعمود غليظ معلق، تجرى على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها . ويتعاون الجنود الذين يتحصنون داخل الدبابة وجنود آخرون استتروا بدروع الدبابة ، ووقفوا خلفها ، يتعاون كل هؤلاء على ضرب السور حتى يخرقوه(٥) . وفى عماد الدين الوصف التالى : **«واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة وآلة للغوائل غائلة فى رأسها شكل عظيم يقال له الكبش وله قرنان فى طول رمحين كالعمودين الغليظين . أقفال الأسوار المعلقة بها تفشى ، فكم سور إذا نطحته طحنته»**(١) .

ويقول عنها ابن واصل : **«واتخذ العدو دبابة عظيمة يدخل تحتها خلق عظيم،**

---

(1) Gesta Francorum, P. 77-79..

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٣٦ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٦٢ ، ١٧٩ .

(٣) ابن واصل ، جـ ٢ ، ص ٣٣٤ ، ٣٥١ .

(٤) عبد الرحمن زكى ، السلاح فى الإسلام ، ص ٢٤ – ٢٥ .

(5) Fedden, (R.) Crusader Castle, (London, 1950), P. 38; Archer, The Crusades, PP. 351-2.

(٦) الأصفهانى ، الفتح القدسي ، ص ٢١٣ .

وهى ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك به من داخلها، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد ، وهى تسمى كبش تنطح السور بشدة عظيمة لكثرة من يجرها فتهدمه بتكرار نطحها،(١). أما ابن القلانسى فإنه يذكر أن طول الكبش **«ستون ذراعا»** وفى رأسه: **«حديد يزيد وزنه عن عشرين رطلاً»**(٢).

كانت هاتان الآلتان ، الدبابة والكبش ، الفاعلتان فى الحصار تشاركان البرج أحد مساوئه الرئيسية ، إذ كان لا يمكن المناورة بها عبر الخنادق المحيطة بالحصون ما لم يتم ردم جزء من الخندق (٣) . ويمكن مقاومة الكبش مثلما استطاعت القوات الإسلامية التى كان يحاصرها الصليبيون داخل أسوار القدس عام ١٠٩٩م وذلك بأن تنزل كتل من القضبان والعوارض الخشبية لامتصاص صدمة الكبش، فضلا عن الإمساك به وشل حركته حتى لايوزع ضرباته(٤) .

وكذلك اتخذ المقاتلون آلة أخرى ، وهى قبو ، وفيه رجال يسحبونها ورأسها محدود على شكل السكة التى يحرث بها ، وأما رأس الكبش فمدور ، فهذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها ، وتسمى هذه السكة سفودا(٥) .

واتخذوا أيضا ستائر وسلالم هائلة ، والستائر كانوا يتخذونها من الجلود واللبود المبللة بالخل والشب والنطرون لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط، وكانت تستعمل بوجه خاص لحماية الأبراج والدبابات المصنوعة من الخشب ، وكذلك لحماية السفن من تلك القذائف بسبب القار الذى يطلى به المراكب. وهناك نوع آخر من الستائر يعلق بعيدا عن الأسوار ليضعف قذائف المنجنيق والجروخ(٦) والزيارات(٧) ، فتقل بالتالى قوتها ولا تؤثر فى جدران القلاع

(١) ابن واصل ، ص ٣٣٤ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٨٠ .

(٣) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢٠٥ .

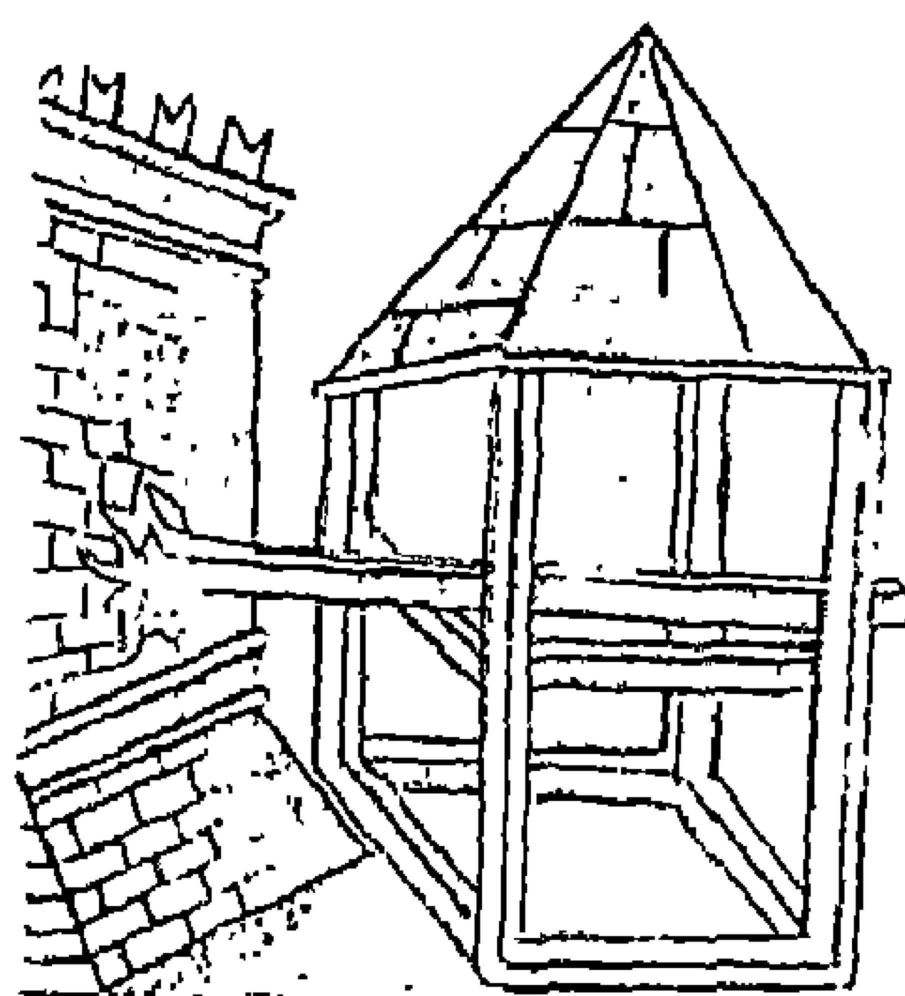
(4) Fedden, Crusader Castles, P. 38 .

(٥) ابن واصل ، جـ٢ ، ص ٢٣٤ .

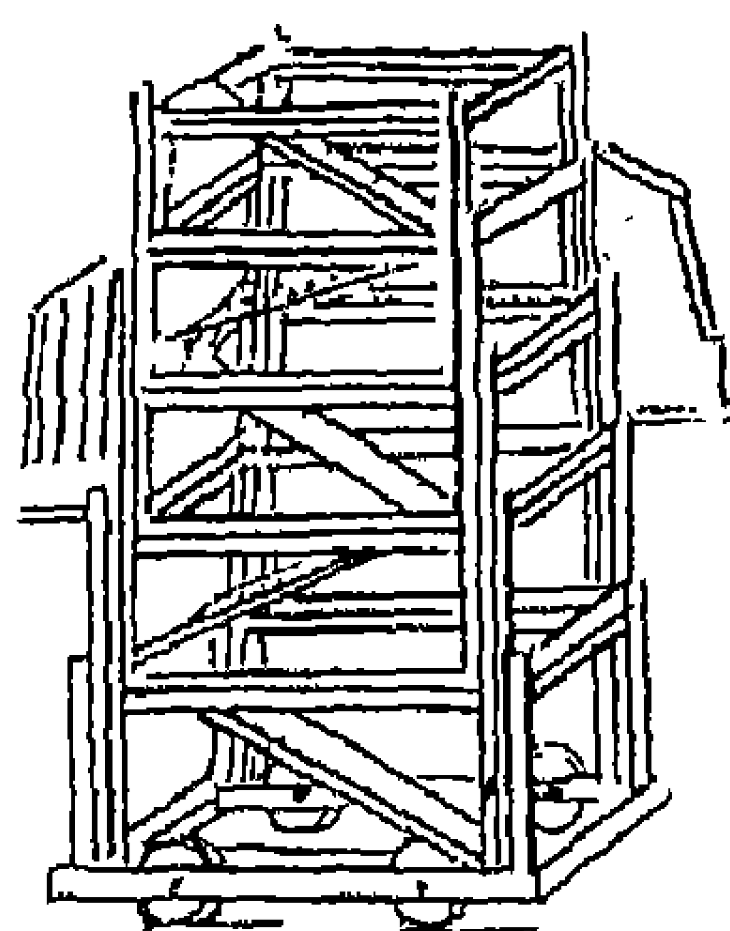
(٦) الجروخ ، مفردها جرخ، وهو نوع من القوس الذى ترمى عنه النشاب أو النفط، ويقال للذى يرمى عن قوسه السهام أو النفط الجرخى والجمع الجرخية .

(٧) الزيارات مفردها الزيار وهو نوع من القسى الرامية للسهام يذكر غالباً مع أنواع القسى الأخرى مثل الجرخ والعقار ولكنه أكبرها وأضخمها، ويحتاج إيتارها إلى عدة من الرجال.

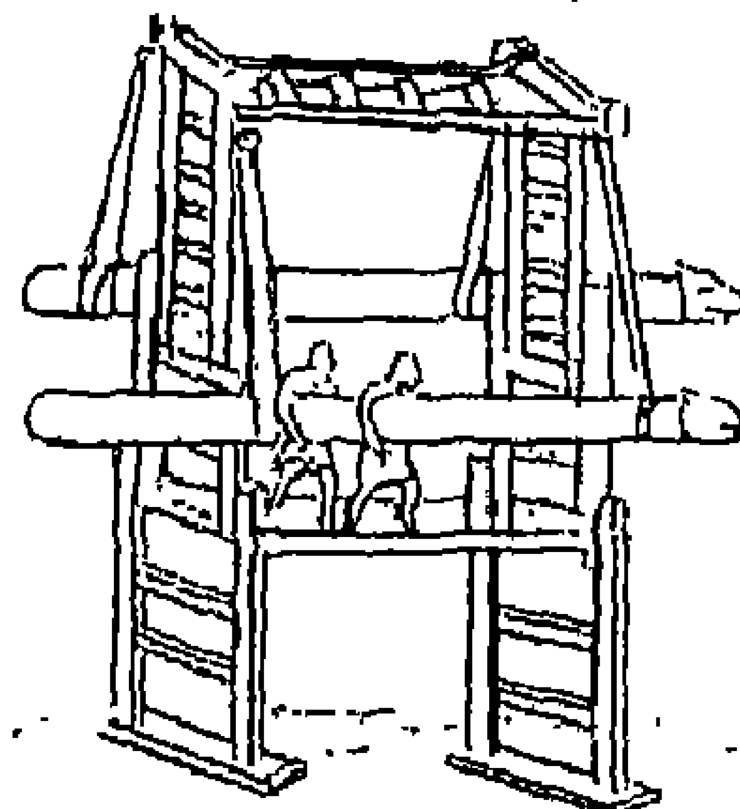
أنواع مختلفة لأبراج القتال والدبابات



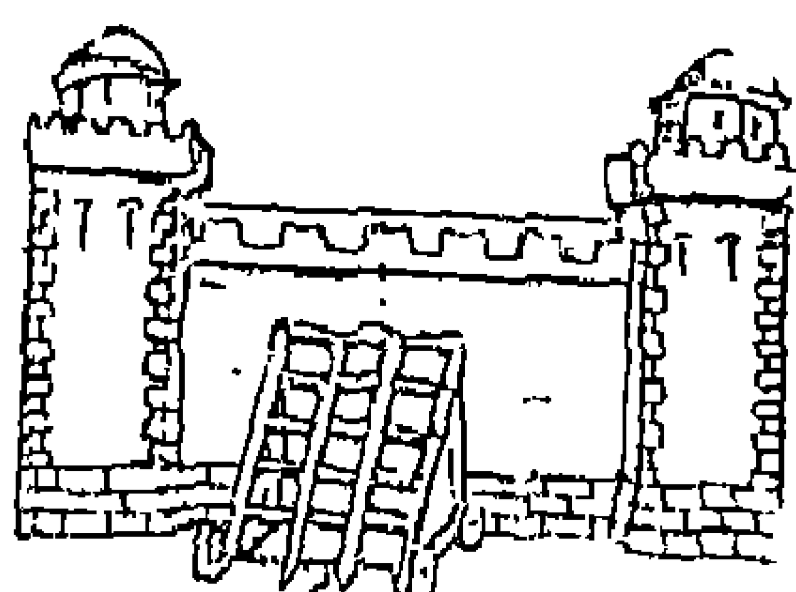
برج مزود بكبش



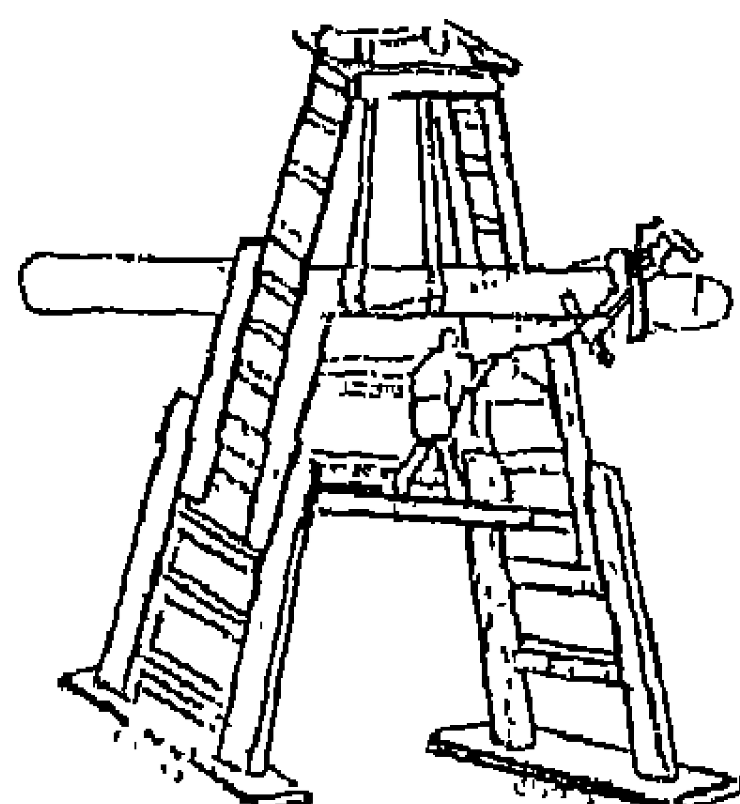
بـــرج



الكبش



سلم الحصار



بـــرج

والحصون(١) ويستخدمها المهاجمون للوقاية من قذائف العدو . ذكرها ابن الأثير فقال : **«أقاموا ستاير يرمون من ورائها»**.

كما استعمل الصليبيون السلالم ، وهى أبسط طريقة للهجوم المباشر على الحصون والأسوار . غير أنه يكلف الجيش المهاجم خسائر فادحة فى الأرواح ، إذ يسهل بعدد قليل من حامية القلعة صد الهجوم وكان يمكن لهذه الطريقة أن تؤتى ثمارها إذا كانت الهجمات مكثفة ومتوالية . ولما كان الهدف الأساسى من استخدام السلالم هو وصول المهاجمين إلى مستوى حاجز شرفه الحصن ، ففى الإمكان الاستغناء عنها بطريقة أخرى، وهى تكديس الرمال على جدار السور حتى يتكون منحدر كبير يمكن القوات المهاجمة من أن تتقدم فوقه(٢). على أن هذا الأسلوب شأنه شأن سابقه ؛ أى إنه يعوق الجند المتقدمين على المنحدر لخطر النار المدمرة التى تلقى عليهم من شرفات الحصن ، مما يؤدى إلى خسائر جسيمة فى صفوفهم، على الرغم من أن المهاجمين كانوا يستعينون بالسواتر المغطاة بجلد الحيوان (٣). ولايفوتنا فى هذا المجال أن السلالم كانت عرضة للكسر فى بعض الأحيان كما حدث خلال حصار أنطاكية (٤) .

وكان هناك طريقة أخرى للحصار وهى استخدام «المنجنيق» لقلقلة الأحجار فى الأسوار وفتح فجوة ينفذ منها الجيش المهاجم . وكان هذا الأسلوب يلعب دورا حاسما فى الحصار(٥) . وقد وصفه القلقشندى بأنه: **«آلة من خشب لها دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل رأسه ثقيلة وذنبه خفيف تجعل كفة المنجنيق فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فتخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئاً إلا أهلكه»**(٦).

ومما يلحق بالمنجنيق الزيادات، وهى اللولب والحبال التى يجذب بها

(١) الحسن بن عبد الله ، ص ١٩٤ ، ١٩٧ ؛ القلقشندى ، جـ٢ ، ص ١٣٨ .

(2) Fedden, Crusades Castles, P. 37 .

(3) Ibid .

(4) Gesta Francorum, P. 47 .

(٥) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٢٠٥ .

(٦) صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص ١٤٤ ؛ انظر كذلك الحسن بن عبد الله ، ص ١٩١ – ١٩٣ ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ؛ ص ١١٩ ؛ ابن شداد ، ص ٢٦ ، هـ ٤ ؛ العدوى ، القوات البحرية ، ص ١١٧ .

المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمى به الحجر أو النفط ، وهى الآلة القاذفة، كانت معروفة عند الفينيقيين والرومان والعرب وغيرهم من الأمم القديمة(١) .

ومن المنجنيق أنواع مختلفة أهمها : لرمى السهام إذ توضع فى المنجنيق الواحدة عدة منها وترمى عنها بالأقواس إلى مسافات بعيدة وبقوة خارقة ، وكذلك لرمى الحجارة وهدم الحصون بالحجارة الضخمة ، وأيضا لرمى قدور النفط أو الكرات المشتعلة من النار الإغريقية ، وأخيرا لرمى العقارب أو سلال الرماد وغيرها من الرمم المتعفنة(٢) .

ومما يؤخذ على المنجنيق عدم دقته فى إصابة الأهداف المختارة فى جدار الحصن ، وهذا يرجع دون شك إلى أن مسار القذيفة كان يأخذ مسارا منحنيا عاليا. وكذلك كان من الصعب استعماله فى فصل الشتاء إذا أتفق وقوع الأمطار والثلوج فالمسافة التى يستغرقها جر المنجنيق على أرض جافة وفى أحوال عادية ، تختلف عنها حين تكون الأرض موحلة (٣) . فقد حدث خلال زحف السلطان الأشرف

---

(١) عبادة ، سفن الأسطول الإسلامى وأنواعها ومعداتها فى الإسلام (القاهرة، ١٩١٣م) ، ص ٥، هـ٢ . وقد أسهب الشاعر محمود بن سليمان الحلبى فى وصف المنجنيق والأضرار الكبيرة التى يلحقها بالأعداء فى أثناء الحصار فى قصيدة قالها بمناسبة استرداد الملك المنصور قلاوون طرابلس سنة ٦٨٨هـ بعد أن حاصرها أياما وبعد أن تم له فتحها أحرقها وبنى مدينة أخرى عوضًا عنها ، قال الشاعر :

كأن المجانيق التى أوترت ضحى ... عليها لهـا فى ثلم أبراجها وتـر
تحلق فى جـو السـماء وترتمـى ... إليهم كما ينقض من حالق نسر
وليست بخنساء العرانين إذ بدت ... لناظرها يوما وفى قلبها صخـر
لها شرر كالقصر ترمى به العدا ... فلا برج يستعصى عليه ولا قصر

انظر : (الهرفى ، شعر الجهاد فى الحروب الصليبية ، فى بلاد الشام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، ص ١٣٧ - ١٣٨) . ويصف الشاعر الشهاب محمود الحلبى ، المنجنيق التى استعملها الملك الأشرف صلاح الدين فى حصار قعلة الروم (٦٩١هـ) بقوله :

كانت المجانيق التى قمن حمولهـا ... رواعد سخط وبالها النار والصخر
أقامت صلاة الحرب ليلا صخورها ... فأكثرها شفع وأكبرها وتـــر

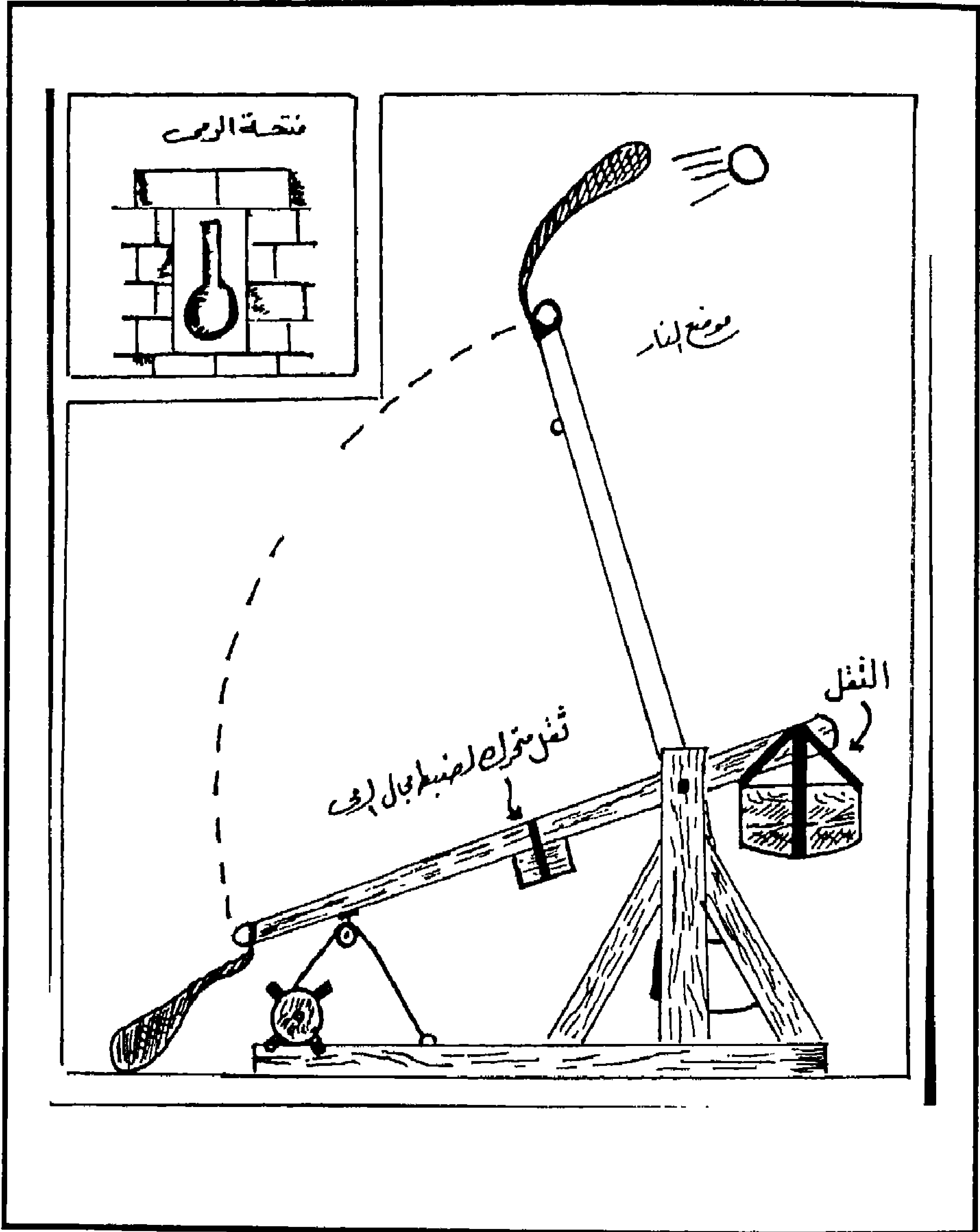
انظر : (ابن كثير ، جـ ١٣ ، ص ٣٢٩).

(٢) عبد الرحمن زكى ، السلاح فى الإسلام ، ص ٥٩ .

(٣) الحسن بن عبد الله ، ص ١٩٤ ، أبو الفدا ، جـ٤ ، ص ٢٤ .

المنجنيق نقلا عن

Sellman, Castles and Fortesses, P. 51 .



خليل بن قلاوون على عكا عام ١٣٩١م أن استغرق جر آلات المنجنيق من حصن الأكراد إلى عكا شهرا كاملا فى حين أنها لا تزيد عن ثمانية أيام فى الأحوال العادية(١) .

على أن النقب كان يعتبر أهم الأخطار الفنية ، إذ يحفر المهاجمون نفقا تحت أسوار المدينة المحاصرة ، يسدونه كلما تقدموا بدعامات من الخشب ، وإذا ما تم الوصول إلى نقطة أسفل الأسوار تحرق الدعامات بالحشائش الجافة فتؤدى إلى انهيار النفق وما يعلوه من السور ، غير أن النقب كان مستحيلا إذا كانت القلعة مشيدة على صخرة صلبة . وعلى الرغم مما توافر بالقلعة المحاصرة من مستودعات المؤن والصهاريج ، تعتبر المجاعة والعطش من الأخطار السائدة(٢) .

ولقد عبر ابن واصل عن أدوات القتال التى كان يستعملها الصليبيون أحسن تعبير بقوله : **«ولهم .. تنوع فى المكايدة فإنهم قاتلوا مرة بالأبرجة وأخرى بالمنجنيقات ، وثالثة بالدبابات ، ورابعة بالكباش ، وأخرى باللوالب ، ويوما بالنقب، وليلا بالسرايات ، وطورا بطمر الخنادق ، وأناه بنصب السلالم ، ودفعه بالزحوف فى الليل والنهار»**(٣) .

من كل ما سبق نرى أن الجيش الميدانى الصليبى والقلاع كانت أسلحة الخدمة الممتازة إلى حد كبير فى مملكة بيت المقدس ، فلم يحظ الأسطول قط بالأهمية نفسها ولا العناية ، لأن المستوطنين لم يكونوا فى الحقيقة إلا جندا

---

(١) أبو الفدا ، جـ ٤ ، ص ٢٤

(2) Runciman, A History of the crusades , III, P. 373.

وفى وصف النقوب التى عملها المسلمون فى حصن المرقب (٦٨٤ هـ) . يقول الشاعر محمود بن سليمان الحلبى :

ومن تحتها تلك النقوب كأنها إذا ما تمشت فى ضمير الثرى سر
فزلزلتها بالركض فانهد ركنها ولم يبق من دون المنايا لها ستر
قسمتهم شطرين غير غريقهم فالسيف شطر والقيود لها شطر

انظر : (الهرفى ، شعر الجهاد ، ص ١٣٨).

(٣) ابن واصل ، جـ٢ ص ٣٥٣ . والسرية جماعة ينسلون من العسكر فيغيرون ويرجعون، والسرية كذلك الجماعة من الخيل ما بين العشرين إلى الثلاثين وقيل ما بين العشرة إلى العشرين .

لاملاحين غير أن أنطاكية وطرابلس أنشأت فيما بعد أسطولاً صغيرا وأقامت طوائف الفرسان الرهبان الأساطيل الصغيرة . أما مملكة بيت المقدس فلم تكن لها قوة بحرية كافية نظراً لقلة الموانى الصالحة وافتقارها إلى الأخشاب اللازمة لصناعة السفن ، ولذا كان لا بد من التماس مساعدة دولة بحرية فى كل حملة تتطلب قوة بحرية كالتى تلزم للاستيلاء على المدن الساحلية ، والتى تحتاج إليها الحملات الموجهة إلى مصر(١) .

وكما سبق أن ذكرنا، فإن الأساطيل الإيطالية تعاونت مع الصليبيين لاحتلال مدن الشام الساحلية ، وقد تم احتلال أغلبها فى الفترة الواقعة بين سنة ١١٠٠م، ١١١٠م. بيد أن مدينة صور احتلت فى سنة ١١٢٤م ومدينة عسقلان احتلت سنة ١١٥٣م . وقد قامت هذه الأساطيل بالاشتراك مع جيوش الحملة الصليبية المعروفة بالأولى بالأعمال الرئيسية التى أدت إلى الاحتلال الصليبى لبلاد الشام . وكانت عسقلان هى الميناء المهم الوحيد الذى تم الاستيلاء عليه دون مساعدة الأساطيل الإيطالية. وقد تنحى البنادقة عن الاشتراك بسفنهم فى الحملات التى استغرقت السنوات العشر الواقعة بين سنة ١١٠٠ و ١١١٠م ، عندما كانوا فى خلال هذه الفترة حلفاء للإمبراطور البيزنطى الكسيوس ، ولكنهم اشتركوا فى حصار صيدا سنة ١١١٠م ، كما اشتركوا بصفة خاصة فى الاستيلاء على مدينة صور سنة ١١٢٤م. كما أن مملكة بيت المقدس اعتمدت فى نقل قواتها على السفن البيزنطية التى كانت تتردد ما بين قبرص وسواحل طرابلس لإمدادها بالميرة والإمدادات .

وهكذا قنع الحكام فى مملكة بيت المقدس فى بداية الأمر بمساعدة الأساطيل الإيطالية والأساطيل البيزنطية لهم ، ولم يفكروا فى بناء أسطول محلى ولكنهم سرعان ما تنبهوا إلى الأهمية الكبرى والفائدة العظمى التى يجنونها من وراء ذلك ، عندما أصبح وجود أسطول خاص بهم أمرا ضروريا للدفاع عن سواحل أقاليمهم ضد هجمات الأساطيل المصرية فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر . ويبدو أن أهم مراكز بناء السفن الصليبية فى ذلك الوقت كانت توجد فيما يبدو بميناء عكا حيث تتوافر بها كافة الإمكانات المحلية . وفى هذا الشأن يقول ابن واصل : **«وفى جملة ما ظفر به فى طريقه بطسه(٢) من مراكب الفرنج تحمل أخشابا منجورة إلى عكا**

(1) Runciman, A History of the Crusades , II, P. 314.

(٢) البطس أو البطسات أو بطشات أو بطش ومفردها بطسة ويقال أحيانا بطشة وقد تحرف إلى بسطه وهى سفن حربية كبيرة الحجم كثيرة القلاع وقد يصل عدد القلاع فى البسطة الواحدة إلى أربعين قلعا ، مما يدل على اتساعها وهول منظرها . =

ومعها نجارون ليبنوا بها شوانى [١] **، فأسر النجارون ومن معهم ، وهم نيف وسبعون.. وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون وكفى شرها المؤمنون »**[٢] . وفى الهدنة المعقودة بين الملك المنصور قلاوون وبين متملك طرابلس الشام سنة ٦٨٠هـ، وردت إشارة قد تكون لها أهمية خاصة بما نحن بصدده إذا جاء فى أحد بنودها ما يلى : **« على الشوانى من الجهتين أن تكون آمنة كل طايفة من الأخرى»**[٣] .

= وكانت البسطة تستخدم لنقل الأزواد والميرة والآلات والرجال والأسلحة والذخيرة وما يحتاج إليه فى الحرب والحصار . وقد كانت البطسة الواحدة تحمل فى العادة ما بين ٣٠٠ ، ٢٥٠٠ مقاتل . وكانوا يجعلون لها أسطحًا عالية يضعون فيها الميرة ، والأقوات ، وكان لبعضها طبقات ، كل طبقة خاصة بفئة من الجيش ويوجد فى البطسة برج بخرطوم فإذا أريد قلبه على السور انقلب بحيل هندسية ويبقى طريقا إلى المكان الذى انقلبت عليه ليمشى عليه المقاتلة . انظر : أبو شامة ، ج٢ ، ص ٢٧ ؛ ابن واصل ، ج٢ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ ، ص ١١٤ ؛ عبادة ، الأسطول الإسلامى ، ص ٦ - ١١ ؛ العدوى ، البحرية العربية، ص ١٦٨ .

(١) الشوانى والمفرد الشينى أو الشانى أو الشينية أو شونة ، وهى أهم القطع الكبيرة مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، حتى صارت أشبه بالقلاع البحرية ، تحاصر العدو وترميه بالنفط ، وتحكم سفنه بقوسها ، ويبدو هذا واضحا فى وصف الشاعر ابن حمديس الصقلى للشوانى ، قال يمدح أبا يحيى الحسن بن على بن يحيى :

أنشأت شوانى طايرة ... وبنيت على الماء مدنا
ببروج قتالها تحسبها ... فى شمم شواهقها قننا
ترمى ببروج إن ظهرت ... لعدو مخرقة بطنا
وبنفط أبيض تحسبه ... ماء وبه تزكى السكنا
ضمن التوفيق لها ظفرا ... ومن هلك غداتك ما ضمنا

وقد احتوت الشوانى على مخازن «أهراء» لخزن القمح، وصهاريج لخزن الماء العذب حتى تساعد بحارتها وجندها على البقاء أطول مدة ممكنة فى عرض البحار ، وقد كان متوسط ما تحمله الشينى الواحد ما يقرب من المائة والخمسين رجلا . وكان الشينى أيضا يسمى بالغراب . انظر : ابن مماتى ، ص ٣٤٠ ؛ أبو شامة ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ؛ ابن واصل ، جـ٢ ، ص ١٣ ؛ عبادة ، الأسطول الإسلامى ، ص ٦ ؛ العدوى ، البحرية العربية، ص ١٦٨ .

(٢) ابن واصل ، جـ ٢ ، ص ١٣١ .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، جـ ٢ ، ص ٣٠٦ .

كان رينو دى شاتيون أمير الكرك ، أول من أدرك أهمية بناء أسطول خاص بالصليبيين ، وبصفة خاصة عندما توالت عليه ضربات الحامية المصرية المرابطة بحصن آيلة (العقبة) ولا سبيل للصليبيين إليها[١]. وهداه تفكيره أخيرا إلى قطع غابات إقليم الكرك وأكثر نخيل العريش وحمله إلى حصن الكرك منذ نوفمبر سنة ١١٨١م ، وهناك عهد إلى دير رهبان بصنع بعض المراكب[٢] ، كما عهد إلى صليبى عسقلان بصنع البعض الآخر حتى توافرت لديه خمس سفن حربية كبيرة ، وعدد كبير من المراكب الخفيفة ، نقلها جميعا مفككة على جمال البدو إلى الساحل بعد أن أغراهم بالمال [٣] . ثم أعاد تجميع المراكب ودهنها باللون الأسود وشحنها بالرجال وآلات القتال ، وأوقف منها مركبين على جزيرة قلعة آيلة تمنع أهلها استسقاء الماء ، ومضى الباقون فى مراكبهم إلى عيذاب[٤]، فقطعوا طريق التجارة وشرعوا فى القتل والأسر والنهب ثم توجهوا إلى أرض الحجاز فعظم البلاء ، وأعضل الداء وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم[٥]. وقد دهش المسلمون لأن مشاهدتهم لسفن الصليبيين لم تكن إلا مباغتة غير متوقعة لأنهم لم يعهدوا ببحرهم أوروبياً ولا دخل إليهم صليبى قط [٦] ، بل إن المقريزى يؤكد أن

---

(١) ابن واصل ، جـ ٢ ص ١٢٧ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ج٢ ، ص ٧٤ .

(3) Lane-Poole, Saladin, P. 175 .

(٤) كانت عيذاب ميناء مهمًا على بحر القلزم (الأحمر) ينتهى إليها طريق الحج والتجارة الذى يبدأ من قوص على النيل ، وإليها تنتهى تجارات اليمن والحبشة والهند ، وكان الحجاج من المغاربة يفضلون هذا الطريق عن غيره ليتفادوا صعوبات الإبحار فى بحر القلزم ، أو أخطار الطريق البرى عبر سيناء وبلاد العرب لأن عيذاب تقابل ميناء جدة على الشاطىء الغربى وتعبر السفينة بينها فى ليلة واحدة . وقد زارها ابن جبير (ربيع الأول ٥٧٩هـ) ولم يستطع إحصاء القوافل الواردة والصادرة بها لكثرتها . ويعيش أهل عيذاب على إصلاح سفن الحجاج وصنع مراكب البحر الأحمر، التى كانت تعرف باسم الجلاب ، وهى تخاط بحبال الليف ولا يستعمل فيها مسمار البتة لكثرة الشعاب المغناطيسية المعترضة فى هذا البحر . ووصف ابن جبير وغيره كيفية عمل الجلاب .

(٥) ابن واصل ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ .

(٦) أبو الفدا ، جـ٣ ، ص ٦٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٧٩ .

الصليبيين صاروا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة[١] . ويتفق أبو شامة مع المقريزى فى روايته ، فيقول إن الصليبيين نزلوا على ساحل الحوراء قرب ينبع حيث أغاروا على القوافل ، وتعهد بعض الخونة من البدو إرشادهم إلى داخلية البلاد[٢] .

ومهما يكن من أمر ، فقد تمكن الأسطول المصرى من إحراق مراكب الصليبيين وأسر من فيها[٣] . وكان موسم الحج قد أزف عندئذ فأرسل حسام الدين لؤلؤ، متولى الأسطول بديار مصر ، أسيرين من الصليبيين إلى منى حيث نحروا **«كما تنحر البدن»** . أما الباقون من الأسرى فقد أرسلوا إلى مصر ، وفى أرجلهم القيود ، ويبدو أن أولئك الأسرى جىء بهم إلى القاهرة ، فكان دخولهم لها يوما مشهودا على قول المقريزى [٤] . وتولى قتلهم جميعا الصوفية والفقهاء تنفيذاً لأوامر السلطان صلاح الدين حتى **«لايبقى أحد يخبر عن ذلك البحر وطريقه»**[٥] .

ويمكن القول بأن قتل أولئك الأسرى الصليبيين لم يكن بدافع التشفى والانتقام، وإنما لحكمة فنية عسكرية والذى لا شك فيه أن صلاح الدين كان كريما ومتسامحا مع أسراه ، إذ يروى التاريخ عن معركة حطين الفاصلة عام ١١٨٧م أن جنوده بعد انتهاء المعركة جمعوا الأسرى الصليبيين وقيدوهم بأطناب الخيل ، ولوفرة عدد أولئك الأسرى وضع فى حبل واحد ثلاثون وأربعون يقودهم فارس واحد ، ووقف جندى واحد لحراسة مائة ومائتين من الأسرى فى مكان واحد لتعذر الحبال . وفتح المسلمون بعد معركة حطين الناصرة وصفورية وأسروا كثيرا من أهلها ، ثم وضعوا القيود فى أرجلهم والأصفاد فى أعناقهم وأيديهم، وسيق هؤلاء وأولئك إلى حيث يجلس صلاح الدين وسط خيمته يستعرض جميع الأسرى ، ليحاورهم ويطعمهم ويرويهم وينزل السكينة فى قلوبهم ويكسو من فى حاجة منهم إلى الكسوة[٦] .

وأحس صلاح الدين مرة بثقل البرد على مقدم كبير منهم، فألبسه فروته

---

(١) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٩ .

(٢) أبو شامة ، جـ٢ ، ص ٢٣٧ .

(٣) المقريزى ، المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٤) نفسه ، الخطط ، جـ٣ ، ص ١٣٩ .

(٥) أبو شامة ، المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٦) ابن شداد ، ص ١٥١ .

الخاصة ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جوخية ، كما أمر لمقدمهم بخيمة تضرب قريبا من خيمته حتى يتم ترحيلهم إلى المعتقلات ، وقبل ترحيلهم إليها يأذن لهم صلاح الدين فى مراسلة ذويهم ليحضروا لهم من معسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها أو يسيروا غلمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره ولإخبار ذويهم بحالهم[١] .

سأل السلطان صلاح الدين عن طريق ترجمانه ، أحد الذين أسروا فى بيروت فى تلك السنة وكان شيخا كبيرا طاعنا فى السن : «**ما الذى حملك على المجىء وأنت فى هذه السن؟ وما المسافة من هنا إلى بلادك؟**» فقال الشيخ الأسير : «**جئت للحج والزيارة ، وبينى وبين بلادى عدة شهور**» فرق صلاح الدين ومنّ عليه وأطلقه وأعاده راكبا على فرس إلى عسكر الصليبيين[٢] .

ويذكر لين بول نقلا عن أرنول المؤرخ الصليبى المعاصر الذى شهد تحرير القدس سنة ١١٨٧م أن آلافا من المدنيين عجزوا عن دفع الفدية المقررة فأصبحوا أسرى ، وطلب الملك العادل من أخيه صلاح الدين ألفا منهم يطلق سراحهم فدية لله، فأجاب طلبه ورجا بطريرك القدس والأمير الصليبى باليان مثل هذا العدد، فأعطاهما صلاح الدين ألفا آخر أصبحوا أحرارا . وعندئذ قال صلاح الدين لمن حوله : «**لقد قدم أخى صدقته ، وكذلك فعل البطريق وباليان ولم يبق إلا أنا**» وأمر المنادين بالمناداة فى الشوارع بمعافاة جميع العجزة غير القادرين على الدفع وتحريرهم[٣] . ولم يكتف صلاح الدين بذلك، بل منحهم أيضا مساعدات مالية من ماله الخاص . وهكذا بدأ الفارق كبيرا بين سلوك صلاح الدين عندما حرر القدس سنة ١١٨٧م ، وبين ما فعله الصليبيون بالمدينة وأهلها عندما سقطت فى أيديهم سنة ١٠٩٩م .

وقد شهد المؤرخون الغربيون بكرم أخلاق السلطان صلاح الدين وسماحته ، وبأنه عامل نساء الصليبيين معاملة حميدة، وسمح لهم بالخروج من القدس معززات مكرمات ومعهن أموالهن وأتباعهن وحشمهن[٤] . وكانت زوجة الملك جاى لوزجنان الأسير موجودة فى القدس، وطلبت من صلاح الدين السماح لها بمصاحبة زوجها

(١) ابن شداد ، ص ١٥١ .

(٢) نفسه ، ص ١٥٦ .

(3) Lane-Poole, Saladin, P. 276 .

(4) Stevenson, Crusaders, P. 253.

في الأسر في نابلس فأذن لها «**وأذن في إخراج كل ما لها في الأكياس والأخراج وأبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهر ونفائسها وكرائم خزائنها ، فخرجت بجميع مالها وحالها ونسائها ورجالها وإسقاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها وتبعها من لم يكن من أتباعها**»[١] . كذلك طلبت الأميرة اتينت أرملة أرناط من السلطان صلاح الدين الخروج كما طلبت إطلاق سراح ابنها من زوجها الأول أونفروى ، فأكرمها السلطان ، وسمح لها بالسفر «**وهي بنوابها محوطة وبرأيها منوطة**»[٢] ثم أطلق سراح ابنها بعد استيلاء العادل على الكرك في نوفمبر سنة ١١٨٨م والشوبك في يونية ١١٨٩م .

ومن أروع ما يذكر عن السلطان صلاح الدين في معاملة الأسرى ، أنه رفض رغبة أولاده الصغار في قتل أحد الأسرى الصليبيين ، حتى لا يولد في نفسهم غريزة سفك الدماء وهم في سن لا يفرقون فيه بين المسلم والكافر ، وحذرهم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق[٣] . ودخل لصوص ليلا خيام الصليبيين على حين غفلة من حراسها ، لسرقة المحاربين فعادوا بطفل رضيع له ثلاثة أشهر ، وجاءت أمه إلى السلطان صلاح الدين تقص قصتها ، ناحبة باكية ، فدمعت عيناه، وطلب الرضيع من أعوانه فقيل إنه بيع بثمن بخس ، ومازالت مخابراته العسكرية تبحث عنه في خيام المسلمين حتى جيء به في قماطة ، ثم أمر صلاح الدين بالأم، فحملت على فرس ومعها طفلها وأنفذ معها من أوصلها إلى معسكرها[٤].

وعلى الرغم من ذلك فإن السلطان صلاح الدين اتبع مع الداوية والاسبتارية سياسة خاصة ، قضت بقتل كل من ينتمي إليهما دون استرقاق ، وسبب ذلك تنكر هاتين الطائفتين للمبادىء الإنسانية التي من المفروض أن يكرسوا حياتهم لخدمتها ، فخلعوا زيهم الديني الأسود واتشحوا بالوشاح العسكري الأبيض والشارة الصليبية الحمراء ، وصاروا في زمرة المحاربين ، ينقضون العهود ويسفكون الدماء ، وعرف عنهم التعصب الأعمى وعدم الإقلاع عن معادتهما للمسلمين فضلا عن صلفهما وكبريائهما وعدم الخدمة في الأسر ، أو مفاداة أنفسهم بالمال أو البدل بأسرى المسلمين ، لذا فضل السلطان صلاح الدين أن يطهر الأرض من نجسهما ، فأحضر

---

(١) أبو شامة ، جـ٢ ، ص ٩٦ ؛ ابن واصل ، جـ٢ ، ص ٢١٦ .

(٢) نفسه : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

(٣) ابن شداد ، ص ١٥٦ .

(٤) نفسه ، ص ٣٢ – ٣٣ .

فى يوليو سنة ١١٨٧م بعد انتصاره فى حطين كل أسير داوى أو اسبتارى وأمضى فيه حكم السيف ، وجعل لكل من يأتيه بأسير منهما خمسين دينارا، فأتوه فى الحال بمائتين وضرب رقابهم . ثم كتب إلى الصفى بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عنق من يجده من الداوية والاسبتارية إلا من أسلم منهم(١).

وقد استخدم السلطان صلاح الدين أسرى الصليبيين فى بناء عمائره الحربية(٢)، شأنهم فى ذلك شأن الأسرى المسلمين الذين كانوا يعملون فى عمائر الصليبيين(٣). وجرت عادة السلطان صلاح الدين مع الأسرى الصليبيين أن يعرضهم فى الشوارع والطرقات لرفع الروح المعنوية للمصريين . وقد سجل ابن جبير صورة لأحد عروضهم بالإسكندرية فى مايو سنة ١١٨٣م ، حيث اصطف الناس على جانبى الشوارع لمشاهدة الأسرى، وهم راكبون الجمال ووجوهم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق(٤) .

وكان الصليبيون نادرا ما يفتدون أسراهم بالمال ، ومرد ذلك فى الغالب أن أولئك الأسرى خليط من أجناس وشعوب أوروبية متباينة ، أو جند مأجورة . وقد لقى السلطان صلاح الدين مشاكل وصعوبات ناجمة عن عدم الإلمام بلغات الأسرى لاختلاف أجناسهم وتباين لهجماتهم ، وأشار فى خطاب له إلى الخليفة العباسى إلى تلك المشكلات ، إذ قال : **«فأعتمد فى هذا المجموع من الجيوش الغربية والألسنة الأعجمية من لا يحصر معدوده ولا يتصور فى الدنيا وجوده .. حتى إنه إذا أسر الأسير واستأمن المستأمن ، احتيج فى فهم لغته إلى عدة تراجم فينقل واحدا عن آخر ، ويقول ثان ما يقول أول ، وثالث ما يقول ثان»**(٥).

وهكذا كانت الروابط بين الصليبيين تكاد تكون معدومة، ويسوق الدليل على

(١) ابن الأثير ، جـ٩ ، ص ١٩٦ ؛ أبو شامة ، جـ٢ ، ص ٨١ ؛ ابن شداد ، ص ٧٧، الأصفهانى ، الفتح القدسى ، ص ٢٩٨ . استثنى صلاح الدين من القتل واحداً فقط من رجال هاتين الفئتين الدينيتين، وهو جيرار رئيس الداوية الذى تشفع له الملك جاى لوزجنان عند صلاح الدين ، انظر : المقريزى ، السلوك ، ج . حاشية ٩٣، ابن واصل ص ١٩٧ .

(٢) المقريزى المصدر السابق ، جـ٤ ، ص ٣٣٢ ، الأصفهانى ، ص ٩١ ، ص ٨٠ ، أبو جبير، ص ٢٠ .

(٣) انظر : ابن واصل ، المصدر السابق ، ص ٣٦٤ .

(٤) ابن جبير ، ص ٥٧ .

(٥) ابن واصل ، المصدر السابق ، ص ٣٥٢ .

هذا القول المؤرخ الصليبى المعاصر أرنول حين يتحدث عن موقف فقراء أسرى الصليبيين، الذين أطلق صلاح الدين سراحهم بعد تحريرالقدس ، إذ لم يكادوا يدخلون حدود إمارة طرابلس الصليبية حتى انقض عليهم بعض أمراء الصليبيين واعتدوا عليهم ، وعندئذ اتجه أولئك المشردون شمالاً صوب مدينة طرابلس ذاتها. ولكن أهل طرابلس خشوا على أنفسهم وعلى مدينتهم من تلك الجموع خاوية الوفاض ، فأغلقوا أبواب مدينتهم فى وجوههم ، ورفضوا أن يستضيفوا إخوانهم فى محنتهم ليخففوا عنهم بعض آلامهم ، بل إن أهل طرابلس نهبوا ما بقى مع بعضهم من أموال تركها لهم السلطان صلاح الدين [١] وذهب جماعة آخرون من النساء والأطفال إلى مدينة صور ، فرفض حاكمها الأمير كونراد إدخالهم حتى لايتحمل مسئولية الدفاع عنهم ، ورغبت جماعة ثالثة الإبحار إلى أوروبا فامتنعت السفن الإيطالية الراسية فى الإسكندرية عن حملهم دون أجر ، إلا أن السلطات المصرية تدخلت فى الأمر وألزمتها بحمل المهاجرين [٢] ، وهكذا لم يجد أولئك الصليبيون النازحون من إخوانهم الآخرين جزءا من المعاملة الرحيمة التى لقوها من صلاح الدين ، فذهب بعضهم إلى أنطاكية حيث وجدوا مقرا ومقاما إلى حين[٣].

غير أن أغنياء الصليبيين افتدوا أنفسهم من الأسر بالمال ، أمثال باليان ابن برزان الذى بذل فى نفسه بعد سنة من أسره مائة وخمسين ألف دينار صورية وأطلق ألف أسير من المسلمين ، وكذلك ابن القمصية الذى استفدته أمه بخمسة وخمسين ألفا من الدنانير الصورية ، ومات الأمير أودو فى الأسر فأخذت جيفته بأسير مسلم ، أفرج عنه فورا[٤] . وقد انتقد المؤرخ لين بول بطريرك القدس لعدم فكاكه بعض الأسرى الصليبيين وهو قادر على ذلك ، لأن صلاح الدين سمح لهم بالخروج من المدينة بعد استردادها حاملا معه كل مجوهرات الكنائس والتحف الثمينة والأموال الوفيرة ، فآثر البطريرك الاحتفاظ بها على إنفاقها فى فكاك الأسرى ، وأصبح من الخير للأسير الصليبى أن يظل نزيلا بمعسكر صلاح الدين من أن يموت جوعا فى خيمة صليبية[٥].

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ٢ ، ص ٨٢٥ .

(2) Stevenson, The Crusaders, P. 231.

(3) Grousset, Histoire de Croisade, II, PP. 818-19.

(٤) المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٦٨

(5) Lane-Poole, Saladin, PP. 231, 276.

وانظر أيضاً : ابن واصل ، جـ٢ ، ص ١١٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ، ابن واصل ، جـ ٢ ، ص ٢١٦ .

ولما كان هذا هو موقف الصليبيين من أسراهم.. فإنه لم يكن متوقعا أن يعاملوا أسرى المسلمين معاملة تنطوى على أى مظهر من مظاهر الرحمة أو الإنسانية بدليل استخدام الأسيرات المسلمات فى إدارة طواحين اليد ، وخلاخيل الحديد فى أرجلهن وقيام بعض المسلمين بالخدمة الشاقة وهم يرسفون فى قيود الحديد والخشب المنقوب[١] . وقد وصف ابن جبير حياة الأسرى المسلمين فى المعسكر الصليبى بقوله : **«ويرسفون فى القيود ، ويصرفون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد والأسيرات المسلمات كذلك فى أسواقهن خلاخيل الحديد فتنفطر لهم الأفئدة ، ولايغنى الإشفاق عنهم شيئا»[٢].**

ولم يقف الأمر بأسرى المسلمين عند هذا الحد من التعذيب، بل تعداه إلى القتل والإعدام فى أبشع صورة ، وحسبنا أن نقف على قصة ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا مع أسرى المسلمين بمدينة عكا . فقد اتفق الجانبان الإسلامى والصليبى على تسليم حامية المدينة للصليبيين ، ودفع الفدية المالية المقررة على الجانب الإسلامى مقابل فكاك الأسرى المسلمين ، وأن تدفع الفدية على أقساط ثلاثة يدفع كل منها أول كل شهر ويكون استحقاق القسط الأول فى نهاية يوليو سنة ١١٩١م، ولما حضر مندوبو ملك إنجلترا لاستلام القسط الأول ، طلب صلاح الدين منهم تسليم أسرى عكا مقابل هذا القسط على أن يسلمهم رهائن مقابل القسطين الثانى والثالث، فأبى المندوبون وتشكك كل فريق فى نية الآخر . وتوقفت عملية مبادلة الأسرى بين الفريقين . وفى يوم الثلاثاء ٢٠ أغسطس سنة ١١٩١ خرج ريتشارد بأسرى المسلمين وعددهم حوالى ألفين وسبعمائة إلى الآبار الواقعة خارج عكا، وأمر بذبحهم على مرآى من المسلمين والصليبيين[٣] . وعلم صلاح الدين بخبر هذه المذبحة فلطم على رأسه ونتف لحيته من شدة تأثره ، ولم يأخذ أسرى الصليبيين بما ارتكبه ريتشارد ، بل أرجعهم إلى معتقلهم فى مدينة دمشق سالمين[٤] وقرر قتل كل من يقع فى يده أسيرا بعد هذا التاريخ[٥] .

---

(١) ابن الأثير ، جـ ١٢ ، ص ١٠ .

(٢) ابن جبير ، ص ٢١٤ .

(٣) الأصفهانى ، الفتح القدسى ، ص ٢٩٣ ؛ أبو شامة ، جـ ٢، ص ١٨٩ .

(4) Grousset, Histoire des Croisades, III, PP. 51-61.

الأصفهانى ، المصدر السابق ، ص ٢٩٣ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ٢٥١ ؛ وفى هذا الشأن يقول ابن واصل ، (جـ٢ ، =

ومهما اختلفت وجهات نظر المؤرخين فى التعليق على مجزرة عكا.. فإنها أججت روح العداوة والبغضاء بين المسلمين والصليبيين ، وعرضت حياة الأسرى فى كل من المعسكرين للخطر والفناء ، وغدت روح الانتقام ، وسفك الدماء هى السائدة بدلا من المعاملة الإنسانية والرفق بالأسرى ، وبلغت الوحشية إلى درجة يستنكرها العقل والمنطق ، إذ يأسر الصليبيون مسلما ثم يقتلونه ويحرقونه ، ويأسر المسلمون منهم واحدا فيقتلونه ويحرقونه أيضا ، ويشهد بذلك مؤرخ معاصر رأى بعينيه النارين فى المعسكرين الإسلامى والصليبى تشتعلان فى وقت واحد[1].

****

= ص ٣٦٥)، أنه : « **لما أتى السلطان منهم بأسير أمر بقتله**» . أما ابن شداد (ص ١٧٦) فيروى أنه عندما وقع أسيران فى يد صلاح الدين أثناء الزحف، فإنه «**قتلهما شر قتلة ، وكان فى شدة الضيق لما جرى على أسرى عكا**».

(١) ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٨٢ .

الفصل الخامس
المجتمع الصليبى

- مذبحة القدس .
- الخلفية التى جاء بها الصليبيون إلى الشرق العربى .
- الصليبيون يحاولون إيجاد أسلوب للتعامل مع المسلمين .
- أسباب تأثر الصليبيين بالمسلمين فى بعض الأمور .
- التزاوج ونشأة جيل جديد .
- استعمال الخصيان فى الحريم .
- المساكن والأثاث.
- الطعام والشراب .
- صليبى لايأكل لحم الخنزير .
- الطرز الشائعة والملابس .
- السيدات الإفرنجيات والبيئة الشرقية.
- الحمامات .
- الأعياد والحفلات .
- قضاء أوقات الفراغ .
- سباق صليبى .
- سبت النور .
- الله طفلا ! تحولات إلى الإسلام بين الصليبيين .

- صليبى يعترض أسامة فى صلاته .
- تحولات إلى النصرانية بين العبيد والأسرى المسلمين .
- بعض الأمراء الصليبيين يتعلمون العربية .
- عزوف المسلمين عن الثقافة الغربية .
- صورة الصليبيين عند الكتاب المسلمين : (الكفر - الغدر - النفاق- الخديعة - الخيانة - القسوة والغلظة) .
- أثر الكفاح بين المسلمين والصليبيين فى قصص ألف ليلة وليلة (قصة الصعيدى وزوجته الفرنجية - حكاية على نور الدين المصرى مع مريم الزنارية).
- عيوب الصليبيين كما سجلها أسامة بن منقذ : (ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة - محاكماتهم غبية غريبة - طبعهم ساذج جاهل بالمعارضة مع الطب العربى - لا عقل لهم..) .
- الأحلاف المتبادلة .
- الكشف عن معادن الرجال والنساء .
- الصلات الاجتماعية والروابط الإنسانية التى كانت سائدة بين الصليبيين والمسلمين .
- غدر تنكرد .
- إفرنجية تفضل أن يكون زوجها إسكافيا .
- عرس صليبى.
- المجاملات.
- العلاقات بين اليهود والصليبيين .

وطد الصليبيون سيادتهم علي جماعات من السكان الوطنيين فاقت أعدادها عددهم بكثير ، وكانت الأغلبية للمسلمين الذين ارتبطوا دائماً دينيا ، وفي كثير من الأحيان ثقافيا وعرقيا بالأعداء الخارجيين للكيانات الصليبية في بلاد الشام[1]. ولذلك كانت العلاقات القائمة بين الصليبيين ورعاياهم من السكان الوطنيين وثيقة الصلة بوضعهم العسكري وتشكل هذه العلاقات موضوع هذا الفصل .

نزل الصليبيون بالشرق العربي الإسلامي حوالي مائة وثلاثة وتسعين سنة (١٠٩٨ - ١٢٩١م) ، اختلطوا خلالها بالمسلمين، وتبادلوا الحرب حينا والسلام حينا آخر . وقد أدى هذا الاختلاط الذى لم يكن هناك بد عنه بين الجانبين زمن السلام إلى تبدل ظاهرى في شعور كل من الجانبين الإسلامى والصليبى نحو الآخر ، وإلى تهذيب أخلاق أولئك الغزاة الجفاة[2] . وإذا أصغينا إلى بعض مؤرخيهم ومؤرخى العرب فى تلك الفترة ، لسمعنا ما يجعلنا نتردد فى الإعتقاد بأنه بالإمكان أن نعهد عن مثل أولئك القوم ما عرفناه من تغيير فيما بعد . فالصورة التى تعطيها لنا المصادر العربية والنصرانية الغربية والشرقية عن المذابح التى تمت فى القدس بشعة للغاية وتنطق بحق الانتقام الذى كان سمة من سمات الحروب الصليبية[3] .

وإليك ما يقوله ريمون الأجويلرى عما فعله الصليبيون فى المدينة، نورده هنا للدلالة على وحشيتهم وقسوتهم : **«ما أن استولى رجالنا على السور والأبراج .. فبعضهم أطاحوا برؤوس أعدائهم ، بينما رشقهم البعض الآخر بالسهام .. على حين عذبهم البعض فترة طويلة بأن قذفوهم فى النار أحياء ، وكانت أكوام الرؤوس والأيدى والأرجل تسترعى النظر فى شوارع المدينة»**[4] .

ويحدثنا ريمون الاجويلرى أنه عندما توجه صباح اليوم التالى للغزو الصليبى للقدس لزيارة منطقة معبد سليمان كان عليه أن يبحث لقدميه عن ممر وسط جثث ودماء وصلت حتى قدميه [5] ، وفى هذا الشأن يقول فوشيه الشارترى : **«.. ولو أنك**

---

(1) Smail, Crusading Warfare, P. 40.

(٢) انظر : ابن منقذ ، ص ١٣٤ .

(٣) إسحاق عبيد ، روما وبيزنطه ، ص ٧٧ .

(4) Raymond d'Aguiliers, in Peters (ed.), the First Crusade, P. 214.

قاسم عبد قاسم . الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق ، (بيروت ، ١٩٨٥) ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(5) Raymond, Loc. Cit.; Cf. R.H.C., Occ., III, P. 300.

كنت موجودا هناك لغاصت قدماك حتى العقبين فى دماء المذبوحين ، ترى ماذا أقول ؟ لم نترك منهم أحدا على قيد الحياة ، ولم ينج حتى النساء والأطفال»(١) .

ولما كان الصليبيون يعتقدون أن أولئك التعساء الذين قتلوهم قد ابتلعوا الذهب والفضة ، فإنهم لم يتورعوا عن شق «**بطون الذين ذبحوهم لكى يستخرجوا من المعدة والأمعاء العملات الذهبية التى كان المسلمون قد ابتلعوها وهم أحياء**»(٢) ، غير أن بقر بطن الواحد تلو الآخر عملية طويلة تتنافى مع شرههم وغرامهم فى التعذيب، فقاموا «**بجمع كومة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رمادا حتى يمكنهم أن يجدوا بسهولة الذهب**»(٣) .

وليس أصدق على وصف هذه الهمجية من أحد الغزاة أنفسهم ، وهو المؤرخ المجهول الذى كان شاهدا عيان لهذه الأحداث ، إذ يقول بالحرف الواحد : «**وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التى ألمت بالشعب الوثنى**»!!(٤) . ولا شك أن الذى جرى به قلم هذا الفارس الصليبى المجهول فى شماتة واضحة وزهو ، يدل دلالة واضحة على مدى بشاعة المذبحة التى أقدم عليها الصليبيون فى القدس ، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وبين طفل أو شيخ، ولم يراعوا حرمة للمسجد الأقصى ، بل دنسوه بخيولهم وأعمال القتل والفظائع التى ارتكبوها بداخله ، مما يندى له جبين أى إنسان على أقل قدر من الخلق(٥) ، حتى

---

(1) Fulcher of Chartres, P. 122 (Cf, Peters, The First Crusade, P. 77).

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Gesta Francorum, P. 92.

(٥) يذكر ابن الأثير ، (الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٨٩) أن الفرنج قتلوا بالمسجد الأقصى «**ما يزيد عن سبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف**» . وفى هذا الصدد يقول المؤرخ النصرانى ابن العبرى (تاريخ مختصر الدول ، ص ١٩٧) : « **ولبث الفرنج فى البلد أسبوعا يقتلون فيه المسلمين ، وقتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً** » ، كذلك ذكر متى الرهاوى أن عدد من قتلهم الفرنج من المسلمين زاد على خمسة وستين ألفا. انظر :

Chronique de Matthieu d'Edesse, P. 226.

أما المؤرخ السورى المجهول فإنه يقدر العدد بحوالى ثلاثين ألفا. انظر : =

مؤرخاً صليبيا آخر وهو وليم الصورى يذكر هذه المذبحة معقبا بقوله : **«إن الغزاة أصابهم الاشمئزاز لما إقترفته أيديهم»**(١) . ولا شك أن هذه المذبحة البشعة قد لطخت سمعة الغرب اللاتينى النصرانى ، ولم يجد المؤرخون الغربيون المحدثون بدا من الاعتراف بأنها كانت وصمة عار فى جبين نصارى الحملة الصليبية المعروفة بالأولى(٢) . وليس معروفاً ما إذا كان الصليبيون قد أقدموا وقتها على أكل لحوم البشر كما يقول الدكتور إسحاق عبيد(٣) ، أو أنهم أشاعوا ذلك عن أنفسهم مثلما فعلوا فى أنطاكية(٤) .

وإذا كان الأمر كذلك ، فيحق لنا أن نسأل عن الأسباب التى جعلت الصليبيون يخفون تلك الهمجية ، ويبذلون جهدا يائسا فى سبيل التفاهم مع السكان الوطنيين والتعرف إليهم ، ولماذا سعوا على أن تقوم بينهم وبين المسلمين المجاورين لهم وأهالى الأراضى المحتلة علاقات صداقة قدر الاستطاعة؟ . والجواب على ذلك يمكن أن يكون بسيطا إذا تذكرنا الخليقة التى جاء بها الصليبيون إلى الشرق ليقاتلوا المسلمين . ذلك أن الصليبيين قد خرجوا من بلادهم للانتقام من المسلمين واستئصال شأفتهم . وكما جاء فى إحدى الراويات التى تحدثت عن خطبة البابا أربان الثانى **Urban II** (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) ، التى ألقاها فى مدينة كليرمون **Clermont** فى مقاطعة أفرنى **Auvergne** بفرنسا(٥) ، أن البابا حث رجال الدين

= Anonymos Syriac Chronicle, P. 73.

وانظر كذلك ، رأفت عبد الحميد ، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، (القاهرة ، ١٩٨٤) ، ص ١١٠ - ١١١ .

(1) William of Tyre, I, P. 37 .

(٢) انظر على سبيل المثال : Grousset, Histoire des Croisades, I, P. 161.

(٣) إسحاق عيد ، روما وبيزنطة ، ص ٧٨ .

(٤) ذكر وليم الصورى (Vol., I, PP. 222-3) ، أنه أثناء حصار أنطاكية، أمر بوهيموند النورمانى بتعليق بعض الأسرى المسلمين فوق النار ، وأمر رجاله أن يشيعوا أنه سوف يأكل أجساد من يقبض عليهم من الجواسيس . وللمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر : جمعة محمد مصطفى الجندى ، العنف والإرهاب الصليبى فى بلاد الشام ، أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ٢٠٠٥م .

(٥) أورد خطاب البابا أربان الثانى أربعة من المؤرخين اللاتين المعاصرين له، هم: فوشيه الشاترى ، وروبير الراهب ، وبلدريك الدوللى وجيوبرت . وهناك مؤرخ خامس متأخر نسبياً هو وليم مالمبسورى ، أثبت الخطاب بعد قرابة ثلاثين سنة من تاريخه. وقد دون الأربعة الأولون الخطاب ، كما لو كانوا قد حضروا المؤتمر وشهدوا ما دار فيه . وادعى بلدريك =

على أن يحرضوا **«الناس من شتى الطبقات ، ومن الفرسان ومن الجنود المشاة من الأغنياء والفقراء بأن يسارعوا لاستئصال شأفة هذا الجنس الشرير من أرضنا»!!**(١) .

وبالإضافة إلى ذلك فإن البابا أربان الثانى أشار إلى المسلمين على أنهم **«كفار»** و **«برابرة»** . ويلى هذ الألفاظ نعوت من قبيل : **«الجنس الوثنى الشرير»** ، **«الترك المدنسون للمقدسات»** ، **«الجنس الممقوت لدى الله»** ، **«أعداء الله وأعداؤنا»** ، وهم فوق هذا أتباع للشيطان ، وعنصر دنيء ، خدم لإبليس ، وأتباع للمسيخ الدجال(٢) .

كان الصليبيون يحتقرون المسلمين ويعتقدون أنهم جبناء ولايجرؤون أبدا على القتال عن قرب(٣) ، غير أن هذا الاعتقاد سرعان ما تبدل بعدما خبروا القتال مع المسلمين ، وقد أشار الفارس المجهول إلى شجاعة المسلمين ومهارتهم قائلا:

= أنه حضر المؤتمر ، وإن كان كل من بلدريك وجيوبرت قد ذكر أن ما أورده من الخطاب قد لايكون هو النص الحرفي له . والحقيقة أن النصوص الخمسة للخطاب تختلف عن بعضها اختلافا بينا . وقد تناولت الكاتبة الأمريكية دانا مونرو بالنقد والتحليل هذه الاختلافات فى محاولة هدفها العثور على النص الأصلى للخطاب ، بتجميع النقاط التى اتفق المؤرخون عليها ، واعتقدت هذه الكاتبة أن المسائل التى اتفق عليها الكتاب الأربعة يجب أن تقبل على أنها صحيحة فى خطاب أوربان هذا .

انظر :

Munro (D.C.), "The Speech of Pope Urban II at Clermont" A.H.R., II, (905), PP. 231-242.

ويقول ستيفن رنسيمان أنه من الواضح أن كل هؤلاء المؤرخين الخمسة قد دون الخطبة، التى اعتقد أن البابا قد ألقاها فى كليرمون، بعد أن أضاف إليها من عنده بعض الحيل الخطابية ومن هنا جاء الاختلاف بين هذه النصوص . انظر :

Runciman, A History of the Crusades, I, P. 108, N. 1.

وللوقوف على الروايات التى تناولت خطاب أربان ، انظر :

Peter (E.), The First Crusade-The Chronicle of Fulcher of Charters and other sources, (University of Pennsylvania Press, 1971), PP. 2-16.

(1) Fulcher of Chartrs, P. 66.

(2) Ibid.

(٣) عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

« أى رجل من الرجال يستطيع ، مهما كانت تجربته وتعليمه أن يكتب عن مهارة وقوة وشجاعة الأتراك.. ولديهم قول شائع بأنهم والفرنج من أصل واحد ، وأنهم فقط والفرنج خلقوا لكى يكونوا فرنساناً ، وهذا حقيقى ، ولايستطيع أحد أن ينكره»(١). وفى مكان آخر يقول : **« وعلى مسافة بعيدة كانت هناك قلعة تسمى أريغ ، وبها عدد كبير من شجعان الأتراك ، وكان هؤلاء غالبا ما يشنون الهجمات على رجالنا .. »**(٢) .

وقد يكون من الطريف أن نذكر هنا ما قاله فوشيه من شارتر وهو يصف الحالة التى انتابت الصليبيين بعد هجوم ناجح قام به الأتراك عليهم ، يقول فوشيه فى ألم : **«ترى ماذا أحكى بعد ذلك ، أننا جميعا تراكمنا مثل قطيع من الماشية فى حظيرة نرتعش ونرتجف خوفا ورعبا ، وقد أحاط بنا العدو من كل جانب ، لدرجة أننا لم نكن قادرين على التحول إلى أى اتجاه .. وكانت هناك صيحة عظيمة تستغيث السماء من الرجال والنساء والأطفال الصغار .. ولم يبق أمل فى الحياة»**(٣).

كذلك كان الصليبيون يعتقدون أنهم ، يوم قصدهم **فلسطين** ، أرفع منزلة من أهلها ، وظنوا أن المسلمين وثنيين يعبدون **«محمدا وصنمه»**(٤) . غير أن هذه الدعاوى الباطلة كان لابد وأن ينجلى الحق من ورائها ، وأن ينقلب مفعولها إلى ضده ، وهذا ما حدث فعلا مع الصليبيين الذين سممت البابوية أفكارهم وأخرجتهم عن طبيعتهم الإنسانية ، لمآرب خاصة ، تبينوا مبلغ الصحة منها فيما بعد ، وأغراض أخفاها بعض أمرائهم ، ولكنها ما لبثت أن ظهر جلى أمرها ، إذ إنهم ما كادوا يصلون إلى الشرق ، حتى وجدوا أنفسهم أمام شعب يعبد أفراده رب العالمين ، لا محمدا وصنمه كما يزعمون ، وتعرفوا إلى ناس أرقى حضارة يحترمون المرأة ويشفقون من إيذاء الشيخ والطفل(٥) .

ولكى يحتفظوا بمستوطناتهم ونفوذهم، كان على الصليبيين أن يوجدوا أسلوبا

(1) Gesta Francorum, P. 21 .

(2) Ibid .

(3) Fulcher of Chartres, P. 85.

(4) Hitti, The Arabs, P. 643.

(٥) النقاش ، العلاقات ، ص ١٤٢ .

للتعايش مع السكان الوطنيين فى الأراضى العربية [١] ، فعلى الرغم من أن الصليبيين كانوا يحصلون على بعض المساعدات والأموال من الغرب وبعض المساعدة من الحجاج بشكل خاص ، إلا أنه كان عليهم إغراء السكان الوطنيين ليقوموا بالأعمال المختلفة ، ذلك أن الصليبيين كانوا قلة فى عددهم، وبالتالى فضلوا ادخار قوتهم البشرية للعمليات العسكرية .

علاوة على ذلك.. فإن الزلازل العديدة التى حدثت فى بلاد الشام فى هذه الفترة جعلت من الضرورى إعادة بناء وترميم الحصون التى استولى عليها الصليبيون وتلك التى أسسوها، وأن خدمات الأهالى الذين إمتازوا فى العمارة والفنون والبناء كان لا يمكن الاستغناء عنها بأى حال من الأحوال فى مثل هذه الظروف[٢] .

وحيث إن طرق زراعة النباتات والفواكه فى الأراضى المحتلة كانت غير معروفة بالنسبة للصليبيين.. فقد أصبح على هؤلاء استعمال الفلاحين من الأهالى، ولذلك يبدو أن الصليبيين تركوا لهم حقوقا مهمة تتعلق بالإدارة الذاتية والتمتع بعاداتهم الخاصة[٣] . ومصدرنا الرئيسى للمعلومات حول هذه المسألة هو الوصف الذى تركه لنا ابن جبير لرحلة قام بها من دمشق إلى عكا فى سنة ١١٨٤م، وفى الطريق بين تبنين والساحل، لاحظ أن المسلمين كانوا يدفعون للصليبيين نسبة من إنتاجهم السنوى، وكذلك ضريبة الرؤوس وضريبة أخرى على ثمار الأشجار، وفيما عدا ذلك فإن : «**مساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم**»[٤] .

غير أن ابن جبير يستنكر حال أولئك المسلمين الذين أضلتهم الفتنة فى الأراضى المحتلة بقوله : « **وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم ، لما يبصرون عليهم إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الإسلامى جور صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الأفرنج ، ويأنس بعدله ، فإلى الله المشتكى من هذا الحال**[٥] **وحسبنا تعزية وتسلية ما جاء فى الكتاب العزيز**

(1) Smail, Crusading Warfare, P. 5.

(٢) عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١١٣ – ١١٤ .

(3) Smail, Op. Cit., P. 54 .

(٤) ابن جبير ، ص ٢١١ .

(٥) نفسه : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

«إنْ هِيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ»(١).

ولما كان سكان القرى والضياع فى الأراضى المحتلة كلهم من المسلمين ، فإنه إذا وصل إليهم الأسير أخفوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام(٢) . ووردت قاعدة إسناد شئون المسلمين بتلك الرساتيق إلى رجل مسلم ، من بينهم عند ابن جبير، عندما يقول : **« فنزلنا .. بضيعة من ضياع مكة .. ورئيسها الناظر فيها من المسلمين ، مقدم من جهة الإفرنج على من فيها من عمارها من المسلمين»**(٣) .

ويذكر ابن شداد أن المسلمين كانوا يقيمون فى جبلة..» ولهم **«قاض يحكم بينهم»**(٤) . ويؤكد ذلك ابن الأثير بقوله : **« وكان هذا القاضى عند بيمند صاحب أنطاكية وجبله مسموع الكلمة له الحرمة الوافرة والمنزلة العالية ، وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها وعلى ما يتعلق بالبيمند»**(٥).

وأهمية هذه القاعدة هنا أنها أفادت المسلمين كثيراً فى الحرب والسلم على حد سواء . ففى الحرب بين المسلمين والصليبيين يقدم أولئك المسلمون وقاضيهم ما وسعهم من ضروب المساعدة لجيوش المسلمين فى أوقات القتال ، وفى زمن السلم ، يعمل قاضيهم على تنظيم حياتهم اليومية مع السلطات الصليبية ، ويخفف عنهم عبء التزاماتها وجور حكامها . والدليل على ذلك ما قدمه ابن واصل ، بمناسبة فتح صلاح الدين لبلاد السواحل السورية الشمالية فى صيف سنة ١١٨٨م ؛ إذ وصل قاضى جبلة آنذاك ، ومعه جماعة على السلطان ، وأشار عليه بالزحف على جبلة واللاذقية وما حولها من الحصون والمعاقل الصليبية ، وتكفل له بفتحها **«وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه إيرنس أنطاكية وعول عليه فيها»**(٦) . وقد ذكر هذا القاضى أن

---

(١) يذكر ابن جبير هنا سورة الأعراف آية ١٥٥ .

(٢) ابن منقذ ، ص ٨٢ .

(٣) ابن جبير ، ص ٢١١ .

(٤) ابن شداد ، ص ٨٩ .

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٩٠ .

(٦) ابن واصل ، جـ ٢ ، ص ٢٥٦ .

المسلمين بجبلة «راغبون في التسليم ، ومنتظرون للسلطان أن يخلصهم من الفرنج[١] فصادف ذلك الاقتراح هوى فى نفس صلاح الدين وتحرك بجيوشه ، فلما وصل إلى جبلة أسرع قاضيها إلى رفع أعلامه على سورها وسلمها إليه ، وأفسد وسائل الدفاع على من بها من الصليبيين ، وما زال يخوفهم ويرغبهم فى ترتيب شروط الأمان والتسليم ومبادلة الأسرى ، حتى أجابوه إلى ذلك»[٢] . وأخذ صلاح الدين جبلة ، ثم تقدم إلى اللاذقية حيث قام قاضى جبلة بالدور نفسه فى استسلام للصليبيين[٣] .

وقد أدى اختلاط الصليبيين بالمسلمين فى بلاد الشام فى ذلك الوقت إلى تأثر الصليبيين بالمسلمين فى بعض الأمور السطحية وليس العكس ، ولا يصعب علينا تعليل ذلك فى ضوء طبيعة الظروف، التى أحاطت بالصليبيين فى الأراضى المحتلة آنذاك ، فهم كانوا دائما أقل عددا وانتشروا على هيئة جاليات صغيرة داخل مدن أو قلاع ، صارت أشبه بجزر محدودة وسط محيط إسلامى معاد كبير . وفى داخل هذه المراكز لم ينعم الصليبيون بالاستقرار طويلا ؛ إذ كثيرا ما كانوا يتعرضون لهجمات ونكسات اضطرت فريقا منهم إلى تفضيل العودة إلى بلادهم فى الغرب لتأتى بدلهم جماعات صليبية جديدة فى صورة محاربين أو حجاج . يضاف إلى هذا حقيقة مهمة ينبغى ألا تغيب عنا هى أن الصليبيين الذين وفدوا من غربى أوروبا على بلاد الشام فى ذلك الوقت كانوا فى مستوى حضارى أقل بكثير، مما كان عليه المسلمون بالشام من رقى حضارى وفكرى ومادى؛ الأمر الذى جعل الصليبيين هم الذين يحاولون التشبه بالمسلمين ومحاكاتهم والتأثر بأوضاعهم ، وليس العكس[٤]، وبعبارة أخرى أن الأقليات الصليبية فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد لم تستطع أن تحتفظ بمقوماتها وعاداتها وأصولها الغربية سليمة ونقية تماماً ، وإنما اضطرت بحكم تخلف مستواها الحضارى من ناحية وقلة أعدادها من ناحية ثانية إلى أن تكتسب كثيراً من صفات وعادات المجتمع الإسلامى الأرقى فى مستواه الحضارى والذى قدر لها أن تعيش متناثرة وسطه[٥].

---

(١) ابن واصل ، جـ٢ ، ص ٢٥٦ .

(٢) ابن الأثير ،الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٩١ .

(٣) ابن شداد ، ص ٨٩ ؛ ابن واصل ، جـ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٤) عاشور ، المجتمع الإسلامى ، ص ٢٣٩ .

(٥) نفسه : المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

ويبدو هذا الأمر بوضوح فى سخرية كتاب المسلمين المعاصرين من ضعف المستوى الحضارى للصليبيين فى بلاد الشام وخشونة عاداتهم وتقاليدهم وخلل أوضاعهم الاجتماعية . وبالإضافة إلى القصص العديدة التى رواها أسامة بن منقذ بالذات؛ ليدلل بها على ضعف المستوى الحضارى والاجتماعى عند الصليبيين ، نجده يقولها فى صراحة أن الصليبيين الذين عاشوا بالشام وجاوروا المسلمين تهذبت أخلاقهم ، وأنسوا بعشرة المسلمين ، أما **«من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية فهو أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين»**(١) . ويقصد أسامة بكلمة **«تبلدوا»** أنهم تعودوا نمط الحياة الإسلامية فى بلاد الشام(٢)، وهذا هو وجه الاختلاف بين الصليبيين الأوائل ومن لحق بهم من الموجات الصليبية المتعاقبة، والموصوفة بالزهور والغرور، والتعصب الدينى البغيض ، والجهل بأحوال الشرق وأهله .

وقد تزوج بعض الصليبيين من النصرانيات السوريات أو الأرمنيات أو البيزنطيات(٣) كما تزوج بعض السوريين بالإفرنجيات(٣) ، فنشأ عن ذلك التزاوج جيلا جديدا لقب باسم بولان **Poulains** . ولا شك فى أن عائلات فرنجية عديدة ظلت فى البلاد بعد طرد الصليبيين . وقد اندمجت هذه العائلات أخيرا بأهل البلاد اندماجا كليا ، ففقدوا معه كل طابع لاتينى . وقد أوصى البابا إسكندر الرابع (١٢٥٤- ١٢٦١م) فى رسالة بعث بها سنة ١٢٥٦م إلى البطريرك المارونى سمعان الحدثى بأولئك الصليبيين الذين لجأوا إلى جبال لبنان خيرا ، وطلب إلى البطريرك أن يحافظ عليهم . وليس من السهل معرفة عدد من أذابتهم البيئة الشرقية من الصليبيين ، أو هضمتهم وجعلتهم قسما من كيانها الوطنى ، وليس غريبا اليوم مشاهدة عدد من الناس من ذوى العيون الزرق والشعر الأشقر فى مدن مثل أهدن فى شمال لبنان وبيت لحم بفلسطين والعريش فى شمال سيناء المصرية ، وهناك أسر أغلبها لبنانية نصرانية مارونية تدعى أنها من أصل غربى ، وتحتفظ بأسماء لاتينية يقال إنها تشير إلى أنها انحدرت من الصليبيين الذين تخلفوا فى البلاد أمثال عائلة الصليبى **Crusading** وفرنجية **Frankish** ودويهى **De Douai** وبردويل **Baldwin** وصوايا **Savoie** ودريان **Comte de Orient** وطربية **Torbey**(٤) .

---

(١) انظر ، قاسم عبد قاسم ، **«صورة المقاتل الصليبى»** ، ص ٣٤ ، حاشية ١ .

(2) Fulcher of Chartres, P. 271 .

(٣) ابن منقذ ، ص ١٣٠ .

(٤) حتى ، تاريخ لبنان ، ص ٣٩٠ .

ونتج عن هذا الاختلاط أن انتشر فى البيئة الصليبية عادة الفها بعض جماعات من المسلمين وهى استعمال الخصيان فى الحريم حيث يقومون بخدمة نساء الشريف وبناته ، بينما يحرم ذلك العمل على الخادم الأوروبى أو العبد من أى جنس كان(١) .

وكان طبيعيًا أن يقيم الصليبيين فى البيوت العربية التى هجرتها أصحابها الأصليون بسبب ظروف الحرب . وقد تبين لهم أن نمط هذه البيوت يتلاءم مع الظروف البيئية والجغرافية فى الأراضى المحتلة ؛ ولذلك فإنهم اتخذوا فى بناء بيوتهم وقصور الأمراء والملوك منهم ، الطراز العربى ، فسكنوا بنايات ذات الأفنية الفسيحة ، تحيط بها الغرف والقاعات ، وتتوسطها بحيرة صناعية يتدفق منها الماء ، وينطلق من النافورة عاليا فى الهواء ثم تنتشر ذراته رذاذا يخفف شدة الحرارة، ويبعث فى النفوس البهجة والسرور ، كما يشيع فى الأجسام البرودة والراحة(٢). هذا عدا ما أقاموه فيها من آيات الزخرفة بتصفيح جدرانها وسقوفها بالرخام والفسيفساء وبتمويمهها بالذهب(٣).

وكان المنزل ذو الطابقين أو الثلاثة طوابق هو النمط الشائع فى المساكن، بيد أن المنازل ذات الطوابق الخمسة كانت معروفة أيضا ، وغالبًا ما كانت أسقفها المسطحة مرصعة بأشجار النخيل المزروعة فى أحواض أو بالأشجار دائمة الخضرة، بحيث تصير مكانا يستمتع فيه المرء بالنسمات الباردة بعد مغيب الشمس الحارقة . وفى الداخل كانت الحوائط السميكة تحفظ الدفء فى الشتاء ، حيث تهبط درجة الحرارة فى أماكن مثل القدس ، وصفد ، وجبال شرق عكا، وفى طرابلس وأنطاكية، إلى درجة التجمد . وفى الصيف كانت الحوائط والنوافذ الضيقة تحفظ للحجرات برودتها ، حتى أثناء وقت الخماسين اللافحة . كما كانت الأسقف شاهقة الارتفاع . وتضفى الأقواس الرقيقة مزيداً من الشعور بالارتفاع على المكان(٤).

ثم اتخذوا لبيوتهم وقصورهم من الأثاث ما يتفق معها ، ومع الروح الشرقية المعروفة بحب الترف ، فاصطنعوا السجاد والطنافس وزينوها بالرياش الفاخر

---

(١) حبشى ، نور الدين ، ص ١٤٨ .

(2) Hitti, The Arabs, PP. 643-44.

(٣) النقاش ، العلاقات ، ص ١٤٦ .

(٤) لمزيد من التفاصيل ، انظر : براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٤٣ – ١٤٤ .

والمصنوعات الدمشقية والأوعية النحاسية المنمقة والآنية الزجاجية والخزفية والمصنوعة في صور [١]، وقد اتخذوا لتنويرها الشمع وكثيرا ما كان حسب عادة العرب مضخماً بالطيوب[٢].

أما أنواع الطعام والشراب التي كان يتناولها الصليبيون فإنها تدل على الترف والبذخ ، فقد كان طعام الصليبيين يحتوى على المربى والسمك ولحوم الغزال والبتلو والضأن . وكانت توضع على الموائد أنواع مختلفة من الفواكه مثل البرتقال والليمون والتفاح والعنب والموز . وكانوا يشربون أنواع الخمور المعتقة التي اشتهرت بها بلاد الشام ، وكانوا يشربون بأكواب مطلية بالفضة أو بالذهب ، وكانت الموائد تعد في حجرات الطعام في الحصون مفروشة بالمفارش الفاخرة ذات اللون الأبيض[٣].

وقد تأثر الصليبيون بأنواع الأطعمة الشرقية ، بل إن بعض الذين تأقلموا في الشرق بعد مرور فترة طويلة تركوا الأطعمة الغربية ، وكانوا يتناولون الأطعمة الشرقية ، ويدلل ابن منقذ على ذلك بقوله : **«فمن ذلك أنني نفذت صاحبا إلى أنطاكية في شغل . وكان بها الرئيس تادرس بن الصفي وبينه وبيني صداقة ، وهو نافذ الحكم في أنطاكية فقال لصاحبه يوماً «قد دعاني صديق لي من الفرنج ، لو تجيء معي حتى ترى زيهم ، قال : «فمضيت معه ، فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتقاء ، الذين خرجوا في أول خروج الفرنج .. فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة . ورآني متوقفا عن الأكل فقال : «كل طيب النفس فأنا لا آكل من طعام الفرنج ، ولي طباخات مصريات ، ما أكل إلا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير فأكلنا وانصرفنا»[٤].**

ولم يكن شأنهم أقل من ذلك في المشروبات، فاصطنعوا منها المعطرة والمثلجة والمحلاة[٥] .

---

(١) حتى ، **«تحفة الشرق للغرب»** ، الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسية (القاهرة ، ١٩٢٦م)، ص ١٤٧ .

(٢) النقاش ، العلاقات ، ص ١٤٧ .

(3) Conder, Jerusalem, PP. 182-3.

(٤) ابن منقذ ، ص ١٤٠ .

(٥) النقاش ، العلاقات ، ص ١٤٨ .

وقد تركت الطرز الشائعة والملابس تأثيرها أيضا على الصليبيين فلا غرابة أن يتشبه الصليبيون بالمسلمين فى ملبسهم . وقد نزلوا بينهم ونسى الكثيرون منهم لغتهم الأصلية وبلدانهم الأولى حتى ليأخذ عليهم أحد مؤرخيهم أنهم تبلدوا ، ويقول إن : الصليبى كان يعيش فى وسط أسرة وطنية جميلة، وأنهم قد تحولوا إلى شرقيين فى عاداتهم وتقاليدهم ونمط حياتهم(١) ، وقد أقلع بعضهم عن الملابس الأوروبية وتعلقوا بالأزياء والملابس الشرقية التى كانت أدعى إلى الراحة ، فأقبلوا على شراء المنسوجات الراقية التى عرفها الشرق ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المنسوجات لم تكن متوافرة في أوروبا سوى فى بيوت الملوك والأمراء، وكانت تظهر بين الفينة والأخرى فى الاحتفالات الكنسية .. إلا أنها الآن أصبحت فى متناول الناس جميعا حتى محدودى الدخل منهم فى الشرق ، فالحرير والتفتاه والقصب والقطن والصوف والشاش كانت تنسج بأيدى الصليبيين ونسائهم(٢) . وقد أخذ بعض الصليبيين عن المسلمين استعمال الكوفية حول القبعة قصيرة الجوانب، وعمدوا إلى إطالة ملابسهم وتحليتها بالجواهر حسب مكانة المرء فى قومة . كما كانوا يلبسون الكلوثة على رؤوسهم ، ويؤثر عن بلدوين الأول أنه على الرغم من قرب عهده بأوروبا كان يؤثر عليه استعمال الملابس الشرقية(٣) .

وكانت السيدات الصليبيات يأخذن عن الجو الشرقى الذى يتنفسن فيه مظاهر الحياة، التى انطبعت صورها واضحة جلية فى ملابسهن، فكن يرتدين ما تلبسه مثيلاتهن من الصقليات اللاتى عاشرن المسلمات . وتمتاز ملابسهن بأنها مجرجرة الأذيال وتتألف من قميصين مرسلين إلى القدمين(٤) . كما اتخذوا لزينتهن

(1) Fulcher of Chatres, P. 271.

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٤٧ .

(3) Brehier, l'Eglise et L'Orient, P. 61.

(٤) فى خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر أثر حسن الجوار بين المسلمين والنصارى بجزيرة صقلية فى حياة النصارى، فما وقع فى نفس ابن جبير زى النساء النصرانيات اللائى غصت بهم الكنائس فى أعياد الميلاد، فتحدث عن أرديتهن الحريرية المشغولة بالذهب والفضة ، ونقبهن الملونة وأحذيتهن وافرة الزخرفة على الوجه التالى :« **وزى النصرانيات فى هذه المدينة (بلرم) زى نساء المسلمين فصيحات الألسن ملتحفات متنقبات خرجن هذا العيد المذكور، وقد لبسن ثياب الحرير المذهبة والتحفن اللحف الرائعة ، وانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الأخفاف المذهبة ، وبرزت لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة** =

المجوهرات الدمشقية والقاهرية ، وأدوات التطرية من المساحيق والخضاب ، واجتذبهن المرايا الزجاجية والفراء بأنواعه ، والأقمشة المصنوعة من وبر الجمل(١).

وكان بعض الصليبيين يفرضون على نسائهم وبناتهن أن يضربن الخمار على وجوههن، كما هو مألوف فى البيئة الإسلامية فى ذلك الوقت ويأبون عليهم أن يخرجن إلى الأسواق سافرات ، بل إنهم ما كانوا يسمحون لهم بالخروج إلا للضرورة القصوى كالذهاب إلى الكنائس والحمامات(٢) . وفى هذا الشأن يقول يعقوب الفيترى بغضب :

« إنهم شكاكون غيورون على زوجاتهم اللاتى يحبسونهن ويراقبونهن بطريقة صارمة وواعية، بحيث إن إخوتهن وأقاربهن يكادون لايقتربون منهن، على حين يمنعونهن كثيرا من ارتياد الكنائس وحضور القداس والصلوات والتبشير بكلمة الرب، وغيرها من المسائل المتعلقة بخلاصهن، لدرجة أنهم نادرا ما يسمحون لهن بالذهاب إلى الكنيسة مرة كل عام ، وبالرغم مما سبق ذكره فإن بعض الأزواج يسمحون لزوجاتهم بالخروج إلى الحمام ثلاثة مرات أسبوعيا وفى رقابة مشددة»(٣).

ويرى الدكتور سعيد عاشور أن الإفرنجيات اتخذن الحجاب على الوجه رغبة منهن فى محاكاة المسلمات الأرقى حضارة ، فضلا عن اعتقادهن بأن الحجاب يثير حب الاستطلاع عند الرجال ، ويزيد المرأة حسناً بنسيجه الموشى بالذهب(٤). أما رنسيمان فإنه يقول إن ذلك لم يكن من قبيل الاحتشام، بل لوقاية الطلاء الذى غطى وجوههن ، يضاف إلى ذلك ، والكلام ما زال لرنسيمان ، ماجرين عليه من

= **نساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر**. انظر ابن جبير ، ص ٢٣١ .

(١) حتى ، «**تحفة الشرق للغرب**» ، ص ١٤٦ .

(٢) لم يقتصر هذا الأمر على الفرنجيات فى بلاد الشام بل كان سائدا فى صقلية ؛ إذ يذكر المؤرخ الإيطالى لويجى رينالدى، «**المدينة العربية فى الغرب**»، مجلة المقتطف، مج ٥٩ ، القاهرة ، ١٩٢١ ، ص ٥٣٦ ، أنه لا يزال بين بعض أهالى صقلية حتى الآن عادات تشبه عادات المسلمين . ومن بين هذه العادات يذكر مورينو (المسلمون فى صقلية، ص ٣٥، ٣٧) أن القرويات الصقليات إلى اليوم مائلات إلي الاحتجاب وملازمة بيوتهن، إلا فى الأعياد ، حيث يذهبن إلى القداس فى أفخر ثيابهن الوطنية وهن متبرقعات بشالاتهن .

(3) Jacques de Vitry, P. 65 .

(٤) المجتمع الإسلامى ، ص ٢٤٠ .

التأنق فى سيرهن[١] . ويكشف لنا يعقوب الفيترى عن موقف الإفرنجيات من هذا الوضع بقوله :

«ولكن كلما شدد البولان على زوجاتهن زادت محاولاتهن بآلاف الطرق والحيل للخروج من هذا التضييق ، فإنهن تعلمن أساليب الشر التى لا يمكن إحصاؤها بشكل يصعب تصديقه ، وهى أساليب تعلمنها من النساء السوريات»[٢] .

كان بعض الشعراء يذهبون إلى كنائس الصليبيين ، ويشاهدون نساء الصليبيين اللاتى كن سافرات على عادة بلادهن . فقالوا فى ذلك شعرا كثيرا . وممن اشتهر بذلك ابن القيسرانى[٣] .

---

(1) Runciman, A History of the Crusades, II, P. 317..

(2) Jacques de Vitry, P. 65 .

(٣) يقول ابن القيسراني ، وكان قد حضر الصلاة فى كنيسة بربارة وهى كنيسة للفرنج خاصة :

بدينك ياقس بربارة	وما بت تتلوه فى الحندس
أجرنى من الصور الناطقات	وقد قمن حولك فى مدرس
إذ هن أقبلن وقت الصلا	ة فى كل لون من الأطلس
وجالت مناطق أوساطها	وضاقت بها حلل السندس
وأجلسها ثقل أردافها	فيالى عن ذلك المجلس
فلولا التحرج فى ملتى	طلعت عليهن فى برنس
وقمت ألحن قداسهن	غير بليد ولا أخرس
ولم تك فرسانها فى الطعان	بأشجع منى ولا أفرس
ألا جندا ما استثار الهوى	تلك الكنائس من كنس
ترى كل فاتنة وجهها	معرى بشمس الضحى مكتس
فرنجية ساكن عقدها	وزنارها قلق المجلس
إذا أقبلت صورة أقبلت	عليها بناظرها الأشوس
فياليتنى عندها دمية	ترانى ولا ريب فى ملمس
فأقسم لو أنى أستطيع	تحولت صورة مر جرجس

ومنها قوله فى إفرنجية يصفها بزرقة العين:

لقد فتنتنى فرنجية	نسيم العبير بها يعبق =

ومما راق الفرنج كثير من نعم الحياة فى مجتمعهم الجديد الحمامات فأقبلوا

= ففى ثوبها غصن ناعم وفى تاجها قمر مشرق
وإن تك فى عينها زرقة فإن سنان القنا أزرق

وقال فى أخرى :

وأحربا فى الثغور من بلد يضحك حسنا ، كأنه ثغر
ترى قصورا ، كأنها بيع ناطقة فى خلالها الصور
هالات طاقاتهن أهلة يبسم فى كل هالة قمر
سوافر ، كلما شعرن بنا برقعهن الحياء والخفر
فى كل وجه كان صورته بدر ، ولكن ليلة شعر
فهو إذا ما السلو حاربه كان لتلك الظفائر الظفر
فيا عزولى فيهن ، دع كلفى وانظر إلى الشمس هل لها طرر
وكن معينى على ذوى خدع إن سالم القلب حارب النظر
سرت وخلفت فى ديارهم قلبا تمنيت أنه بصر
ولم أزل أغبط المقيم بها للقرب حتى غبطت من أسروا

وقال فى كنيسة السيدة، وهى قبة شاهقة للنصارى بأنطاكية :

متى عجبت يا صاح بالسيدة فسل عن فؤدى فى الأفئدة
وقبلك حذره من أن يصاد فإن بها للهوى مصيدة
وجوهه تباهى قناديلها ببهجة نيرانها الموقدة
ترى كل مستضعف خصره إذا ما دعا طرفه أنجده
وذات روادف عند القيام تحسبها أنها مقعدة
وبدر من الشعر فى غاسق يضاحك أبيضه أسوده
فيالى من ذلك الزبرقان إذا زرفن الليل ، أو جعده
محل جمال ، إذا ما رأيت أمرده قلب ما أمرده
به كل نشوانة لحظها يطرق بين يدى عربده
صوارم، قاطعة فى الجفون فهى مجردة ، مغمدة
فهل أنا من فى سبيل الغرام أورده الحب ما أورده
فهل لدم فات من طالب وهيهات أجز يوم غده
وكيف يجازى بقتل النفوس من لم يمد إليها يده =

عليها أيما إقبال وقصدوها فى أوقات فراغهم يقضون فيها الساعات طلبا للراحة فضلاً عن الغاية الأولى منها وهى النظافة(١) . وقد كانت هذه الحمامات تتخذ نوادى يجتمع فيها المستحمون لتناول المشروبات ولتجاذب الأحاديث فى جو شرقى يعبق بالدفء وأنواع الطيب . ومن المحتمل أن كثيرا من المشكلات والاتفاقات قد تبرم أو تحل فى هذه الحمامات . ويبدو أن المسلمين وحدهم الذين كانوا يقومون بإدارتها(٢).. وقد كان الصليبيون **ينكرون شد المئزر على الوسط فى الحمام؛ الأمر الذى كان يثير فى بعض الأحيان مشادة أو يبعث على النكتة الرائعة والفكاهة الطريفة .**

وقد جلب تردد البولان على الحمامات تهمة **«الرفاهية»** عليهم ؛ إذ أشار برنار الكليرفوى **Bernad de Clairvaux** الزاهد فى فخر بأن الداوية الذين يتمتعون بعطفه وحمايته لا يستخدمون الحمام إطلاقا ! وبعدها بخمسين عاما كتب يعقوب الفيترى منددا بهذه **«البذاءات»** التى تحدث بين سيدات الطبقة الراقية فى المجتمع الصليبى.. فقد كان الجنوية يسمحون حتى بالاستحمام العام فى البالنيوم **Balneum** فى عكا . وأيما كانت العادة فإن الأوروبيين الذين كانوا يزرون مملكة بيت المقدس كانوا يعودون إلى أوروبا بانطباع أن مجتمعا مخنثا قد خلف أبطال الحملة الصليبية المعروفة بالأولى، الذين كانوا قد أصبحوا آنذاك قدوة أسطورية تتمثل فيها كل صفات الفروسية وقيمها(٣)، واليوم قد يصف المرء مثل هذا التصرف بالدهاء أو بالمكر ، ولكن الأمر كان يختلف تماما أمام ناظرى القادم من أوروبا حديثا(٤) . وقد كان يعقوب الفيترى عنيفا إلى حد ما فى إدانته ، إذ يقول : **«لقد تربوا فى العز ناعمين ومخنثين وهم فى الثياب الناعمة»**(٥) .

= وللمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع ، انظر : ديوان ابن القيسرانى ، (محفوظ بدار الكتب رقم ١٤٨٤ - أدب) ، وكذلك بدوى (أحمد أحمد) ، الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام (الطبعة الثامنة) ، القاهرة ، ١٧٩٧ ، ص ٩٣ - ٩٥ ؛ كيلانى، الحروب الصليبية ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(١) النقاش ، العلاقات ، ص ١٥٠ .

(٢) حبشى ، نور الدين ، ص ١٥٤ .

(٣) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٨٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٤٩ .

(5) Jacques de Vitry, P. 64 .

ومع ذلك فإن جوانفيل عندما جاء إلى الأراضى المقدسة بصحبة سيده «القديس لويس» ، لم يتردد فى دخول أحد الحمامات فى عكا ليزيل ما علق به من الأوساخ وما تراكم من العرق أثناء وجوده فى الأسر ، إلا أن هبوطا فى قلبه حدث فجأة واعتراه إغماء فأخذوه **«فى مشقة كبيرة من الحمام»** وسجوه فى فراشه ويذكر الدكتور حسن حبشى الذى قام على ترجمة مذكرات جوانفيل إلى العربية فى تعليق له على هذا الخبر أن رواية نسخة جونز صريحة فى أن أسقف عكا هو الذى رتب لجوانفيل هذا المكان القريب من الحمامات ليقيم فيه أثناء وجوده بعكا[١] .

وقد حذا الصليبيون أيضا حذو الشرقيين فى أعيادهم ، وحفلات لهوهم فتشبهوا بهم فى اتخاذ جوقات الطرب فى مجالس الشرب، فاستمعوا إلى الأرغن والمزمار والعود والقيثارة والربابة وغيرها كالأبواق المصنوعة من قرون الحيوانات [٢]. وكذلك فقد استمعوا إلى المغنيات وأشركوا الراقصات فى إحياء حفلاتهم ، كما استدعوا الندابات المحترفات فى جنائزهم[٣] .

واهتم الصليبيون بتنظيم أوقات فراغهم، فأحيانا كانوا يقومون بلعب النرد أو الشطرنج فى المنزل أو فى الحمامات العامة ، أو حتى فى إحدى الحانات ، وكان الواحد منهم يقامر بثروته وحياته ، وكانت الوجبات الغذائية والشراب حتى الثمالة جزءاً لا يتجزأ من التسلية[٤] . وفى بعض الأحيان كانوا يذهبون إلى المراقص العامة فى عكا وصور؛ حيث يقوم الرجال بالرقص مع السيدات على أنغام المموسيقى[٥] .

بيد أن الصيد كان الرياضة المفضلة عند الفرسان اللاتين[٦]، الذين كانوا يستعينون فيها بالكلاب والشباك ، ولكن كانت أكثر استعانتهم بالصقور والبزاة وكانت تكثر فى أماكن صيد الحجلان والأرانب وطير الماء وأنواع متعددة من

(١) مذكرات جوانفيل ، ص ١٨٦ .

(٢) النقاش ، العلاقات ، ص ١٤٨ .

(3) Samil, Crusading Warfare, P. 41.

(٤) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٥٣ .

(5) Conder, Jerusalem, 183.

(٦) كان ذلك امتدادا طبيعيا لحياة الأمراء فى الغرب الأوروبى من اعتبار الصيد الرياضة الأساسية عند أمراء الإقطاع فى العصور الوسطى .

الغزلان . كما كانت تصاد الثعالب والذئاب والضباع بل والماعز البرى . وكان الصيادون يلقون الدببة والأسود من وقت لآخر . أما أسلحة الصيد فكانت الأقواس والسهام ، ولكن الصيادين كانوا عموماً يمارسون استخدام الصقور والبزاة فى الصيد التى كانوا يجدون فيها أقصى متعة لهم . وكان أمراء المسلمين وعليتهم لا يقلون عن أولئك إقبالا على هذه الرياضة، التى أصبحت لذلك صلة صداقة بينهم وبين جيرانهم الصليبيين ، وكانت الصقور والخيل من الهدايا التى تحظى بمزيد من القبول والتقدير[١].

وقد تحدث أسامة بن منقذ عما شاهده من اهتمام الصليبيين بالصيد عند زيارته مع الأمير معين الدين أتر للملك فولك فى عكا ، فقد رأى رجلا من الجنوية قد وصل من أوروبا عند الملك ، ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركى ومعه كلبة صغيرة ، وقد طلبه معين الدين فأخذه الملك فولك من الجنوى مع الكلبة وأعطاهما لمعين الدين[٢] . كما تحدث أسامة عن الباز المقرنص الذى أفلت من الصليبيين وقرنس فى جبل المعرة، والذى اعتبره أسامة من أمهر الجوارح وأشطرها **«وقد جاء إنسان من فلاحى معرة النعمان معه باز مقرنص مكسر الأجنحة والذنب فى قدر العقاب الكبير ما رأيت قط بازا مثله»**[٣].

ولقد كان الصيد من الأسباب التى أدت إلى موت الملك فولك، إذ إنه قُتل بينما كان يطارد أرنبا بريا برمحه . ولقد كان صيد الخنازير من الرياضة المحببة لدى النبلاء الصليبيين وكانوا يستخدمون الكلاب والفهود لصيدها . ولقد كاد الملك ريتشارد أن يقتل عندما كان يحاول صيد خنزير بالقرب من عسقلان .

أما المباريات الرياضية وحفلات السبق عندهم.. فقد كان فيها شيء من الخشونة ، كما يحدثنا بذلك أسامة بن منقذ إذ حضر إحداها فى طبرية، وإليك ما يقول : **«حضرت بطبرية فى عيد من أعيادهم ، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح، وخرج معهم عجوزان فانيان أوقفوهما فى رأس الميدان وتركوا فى رأسه سمطوه وطرحوه على صخرة ، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن سرية من الخيالة يشدون فيها والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة ، وهم يضحكون حتى**

(١) ستيفنسن ، الحروب الصليبية ، ص ١٩٤ .

(٢) ابن منقذ ، ص ١٩٦ – ١٩٧ .

(٣) نفسه ، ص ٢١٠ .

سبقت واحدة منهم فأخذت ذلك الخنزير»(١) .

وقد كانت سباقاتهم على ظهور الخيل أشبه ما تكون بألعاب الجريد عند الشاميين ، وكان السوريون بارعين **«بالرماية والمسابقة واللعب الصوالجة»** على قول ابن جبير(٢) . فاستحسن أمراء الصليبيين ألعابهم الرياضية وأخذوا يرتاضون أو ينسحبون على منوالها فيها (٣) ، ولذلك دخل الجريد Tournements وغيره إلى أوروبا .

وبالإضافة إلى ذلك.. فإن الصليبيين كانوا يجتمعون فى كنيسة القيامة فى أوقات مختلفة للإحتفال بأعيادهم . ولقد ترك لنا أحد شهود العيان وصفًا رائعًا وذكيا لأحد هذه الأعياد ، يقول ابن واصل : **«ولهم فى هذا المكان ضلالة تقع فى كل سنة فى اليوم الذى يليه يوم فحصهم، وهو أنهم يزعمون أن نورا ينزل من السماء ، ولقد كذبوا وإفتروا ، وإنما هو تدليس وتلبيس من بتركهم ، يغر به ضعفاء العقول ويستدرجهم به إلى ضلالتهم وغيهم ، ولقد حضرت فى زمن الصبى يوم سبت النور فى هذه الكنيسة مراراً على سبيل التفرج ، فكانوا يعكفون على القبة الصغيرة التى فيها القبر والنصارى مجتمعون بها يرفعون صلبانهم ويقرأن إنجيلهم ، ويضجون» .. فإذا كان وقت الظهر أو بعده دخل البترك القبة ، وأخرج شمعة موقدة زعم أنه أوقدها من القنديل الذى اشتعل بالنور المنزل (من السماء) ، فيأتيه النصارى بشمعهم فيوقدونه من تلك الشمعة ، فيمتلىء المكان بالشمع الموقدة ، ويظهر على النصارى من الفرح والاستبشار ما لا يزيد عليه جهلا وضلالة ، وظنا فاسدا أنه نور أنزل عليهم ، وإنما هو نار محرقة افتعلها عدو الله البترك على سبيل المخرقة»**(٤) .

ومع أن الصليبيين اختلطوا بالمسلمين فى بلاد الشام ، فإنهم كانوا لا يزالون يحتفظون بكثير من عاداتهم الدينية . فقد كانوا يقدسون الأيقونات شأنهم فى ذلك شأن نصارى الغرب ، مما جعل أسامة بن منقذ يصفهم بالكفر . وفى هذا الشأن يقول أسامة : **«رأيت واحدا منهم إلى الأمير معين الدين ، وهو فى الصخرة فقال :**

---

(١) ابن منقذ ، ص ١٣٨ .

(٢) ابن جبير ، ص ٢٧٧ .

(٣) النقاش ، العلاقات ، ص ١٤٩ .

(٤) ابن واصل ، جـ ٢، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

تريد تبصر الله صغيراً؟! قال : نعم ، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم ، والمسيح عليه السلام صغيرا فى حجرها فقال : هذا الله صغير ، تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيراً»(١) .

وكانت تحدث فى غضون هذه الفترة من حين لآخر تحولات إلى الإسلام بين الصليبيين . والحقيقة أن زيادة اختلاط الصليبيين بالمسلمين وتقديرهم لفضائل خصومهم أخذ ينمو على مر الزمن . وهى ظاهرة تميز المتأخرين من مؤرخى الحروب الصليبية عن السابقين منهم تمييزاً واضحا جليا ، ثم ما كان من كثرة تقليد الصليبيين المقيمين فى الأراضى المحتلة للشرقيين فى عاداتهم وأساليب حياتهم إن ذلك كله أوجد تأثيرا دينيا إسلاميا فى الأفكار الدينية النصرانية . ومن أظهر ألوان هذا التأثير ، ذلك المسلك السمح الذى سلكه كثير من الفرسان الصليبيين نحو العقيدة الإسلامية، وهو إتجاه فكرى كان أشد ما تشكو منه الكنيسة(٢) . وضرب لنا أسامة مثلا من هذا السلوك الجديد : **«أننى كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى ، وفى جانبه مسجد صغير ، قد جعله الإفرنج كنيسة ، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية ، وهم أصدقائى ، يخلون لى ذلك المسجد الصغير ، أصلى فيه ، فدخلته يوما ، فكبرت ووقفت فى الصلاة ، فهجم على واحد من الأفرنج ، مسكنى، ورد وجهى إلى الشرق وقال : كذا صل ، فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه وأخرجوه عنى وعدت أنا إلى الصلاة ، فأغتفلهم ، وعاد هجم على ذلك نفسه ، ورد وجهى إلى الشرق وقال : كذا صل ، فعاد الداوية ودخلوا إليه . وأخرجوه واعتذروا إلىّ ، وقالوا : هذا غريب ، وصل من بلاد الإفرنج فى هذه الأيام ، وما رأى من يصلى إلى غير الشرق ، فقلت : حسبى من الصلاة ، فخرجت، فكنت أعجب من ذلك الشيطان ، وتغير وجهه ، ورعدته ، وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة»**(٣) .

وقد يكون مثيراً حقًا ، لو لم تكن المسائل الدينية مثار جدل فى المناسبات

---

(١) ابن منقذ ، ص ٩٩ .

(٢) سير توماس ر. أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، (ترجمة إلى العربية حسن إبراهيم حسن وعبد الحميد عابدين وإسماعيل النحراوى ، القاهرة، ١٩٥٧) ، ص ١٠٩ – ١١٠ .

(٣) ابن منقذ ، ص ١٣٤ – ١٣٥ .

الكثيرة حينما كان يلتقى الصليبيون بالمسلمين لقاء وديا أثناء المهادنات العديدة، لاسيما إذا عرفنا أن الدين نفسه كان من بين الأسباب التى دفعت بالصليبيين إلى الأراضى المقدسة وحملهم على شن هذه الحروب المستمرة . وقد أدى اختلاط علماء اللاهوت النصرانى بالمسلمين إلى تكوين رأى أكثر إنصافا عن الدين الإسلامى ، ولم يعد غريباً بعد ذلك أن يعتنق كثير من الصليبيين الإسلام(١) .

وقد يكون من الممتع أن نعرف من هم هؤلاء الدعاة المسلمون، الذين عملوا على كسب هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام ، ولكن يبدو أنهم لم يخلفوا سجلا بأعمالهم . على أننا نعلم أن السلطان صلاح الدين نفسه كان على رأسهم . ويبدو أن أخلاق السلطان وحياته التى انطوت على البطولة قد أحدثت فى أذهان الصليبيين فى عصر تأثيرا سحريا خاصا ، حتى أن نفرا من الفرسان الصليبيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أنهم هجروا ديانتهم ، وقومهم وانضموا إلى المسلمين(٢) .

أما المسلمون فإنهم كانوا لا يرون سببا فى ترك دينهم ليعتنقوا النصرانية، غير أن لدينا بعض الأخبار التى تتحدث عن وقوع حالات تنصر، لا سيما بين المرتزقة والعبيد والأسرى من المسلمين . فإن يعقوب الفيترى يذكر أن بعض هؤلاء الأسرى المسلمين تعمدوا بمعمودية يسوع المسيح لكى ينجوا من الموت(٣)، وفى هذا الشأن يقول ابن جبير : **«ومن سوء الاتفاقات ، المستعاذ بالله من شرها ، أنه صبحنا فى طريقنا إلى عكا من دمشق رجل مغربى من بونة عمل بجاية ، كان أسيراً فتخلص على يدى أبى الدر المذكور ، وبقى فى جملة صبيانه ، فوصل فى قافلته إلى عكا . وكان قد صحب النصارى ، وتخلق بكثير من أخلاقهم ، فما زال الشيطان يستهويه ويغريه ، إلى أن نبذ دين الإسلام فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور . فانصرفنا إلى عكا ، وأعلمنا بخبره ، وهو بها قد بطس ورجس ، وعقد الزنار ، واستعجل النار ، وحقت عليه كلمة العذاب ، وتأهب لسوء الحساب وسحيق المآب»**(٤) .

ويبدو أن بعضا من المسلمين كانوا يؤثرون سلامة أنفسهم، ولو اقتضى ذلك

(١) أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص ١١٠ .

(٢) نفسه : المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

(3) Jacquess de Vitry, P.

(٤) ابن جبير ، ص ٢١٥ .

أن يتظاهر بترك الدين الإسلامى واعتناق النصرانية ، فابن الأثير ، مثلا ، يذكر أنه عندما دخل الصليبيون قرية بزاعة تنصر قاضيها وجماعة من أهلها نحو أربعمائة نفس [١] . وقد رجعنا إلى ما استطعنا الرجوع إليه من المصادر العربية المتعلقة بهذه الفترة لنتتبع أخبار هذا القاضى وجماعته بعد ذلك ، وهل ظلوا على نصرانيتهم أم عادوا للإسلام ثانية ؟ ولكننا لم نعثر على شيء يفيدنا فى هذا الشأن. وفي اعتقادنا أن هذا سيكون قد حدث علي سبيل «التقية» اتباعاً لقول الله تعالى «مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»[٢] .

وقد وردت إشارات فى المصادر العربية تدل على أن بعض الأمراء الصليبيين بدأوا يتعلمون اللغة العربية ، ويتثقفون بالثقافة الإسلامية ، ويناقشون فى الأمور الدينية الإسلامية ، فابن واصل – مثلا – يقول عند حديثه عن «**أرناط**» صاحب صيدا وشقيق أرنون : «**وكان صاحب دهاء ومكر ، وكان من كبار الفرنج وعقلائهم، عارفًا بالعربية وعنده إطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث .. ، وكان يناظر فى دينه ونناظره فى بطلانه ، وكان حسن المحاورة ، متأدبا فى كلام**»[٣] .

ويستفاد مما ذكره ابن شداد فى هذا الشأن أن «**أرناط**» كان يستعين بأحد المسلمين لكى «**يقرأ له ويفهمه**»[٤] . وبالإضافة إلى «**أرناط**» ، نجد أن ريمون الثالث أمير طرابلس يتقن العربية ، فقد تعلمها أثناء وقوعه فى الأسر فى حلب بدءا من عام ١١٦٥م ، وأصبح يعرف الإسلام ، وعادات أهله معرفة جيدة . وقد برع بعض الصليبيين فى الترجمة من العربية وإليها مثل ابن الهنفرى، الذى كان يترجم بين الملك العادل وملك الإنجليز عندما كان يتحدثان فى الصلح «**وهو من فرنج الساحل من كبارهم**»[٥] . ويذكر لنا كاتب سيرة «القديس» لويس أن عددا من الصليبيين كانوا يعرفون العربية ، ولما أرسل رئيس طائفة الحشاشين وفدوا إلى الملك احتاج الرسل إلى تراجمة من الصليبيين لينقلوا الرسالة بواسطتهم[٦] .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٣٥٩ .

(٢) سورة النحل ، آية ١٠٦ .

(٣) ابن واصل ، جـ٢ ، ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .

(٤) ابن شداد ، ص ٩٧ .

(٥) نفسه ، ص ١٨٢ .

(٦) مذكرات جوانفيل ، ص ٢٠٥ .

ومن الذين اهتموا بأسرار اللغة العربية وتذوقوا أدبها وليم الصورى ، كبير مؤرخى الحروب الصليبية اللاتين المعاصرين ، كان وليم الصورى سليل أسرة من المستوطنين الغربيين الذين استقروا فى فلسطين بعد الغزو الصليبى لها . نشأ وليم فى الشرق وتعلم اللغة العربية وأجاد القراءة والكتابة بها إجادته اللاتينية . وقد ألف بناء على رغبة صديقه وسيده أمارى الأول ملك بيت المقدس كتاباً عن تاريخ الشرق بوجه عام والعرب بوجه خاص منذ ظهور الإسلام إلى زمنه ، وتناول فيه الحديث عن محمد - ﷺ - وأمراء الشرق أجمعين معتمدا على المصادر العربية واليونانية ، ولاسيما تاريخ بن البطريق، وسمى كتابه هذا تاريخ العرب . وللأسف ضاع هذا المخطوط الكبير، ولم يبق منه سوى ما نقله منه مؤرخو القرن الثالث عشر الميلادى [١] .

ولم يحاول المسلمون أن يتعلموا لغة أعدائهم الفرنج . فقد كان المسلم الذى يتكلم لغة القرآن يراها حطة على نفسه أن يتعلم لغة «**الكفار**» ، وحتى أسامة بن منقذ أكثر المسلمين معاشرة للصليبيين لم يكن يحسن غير العربية فهو يقول عنهم : «**إنهم لا يتكلمون إلا الإفرنجى ، ما ندرى ما يقولون**»[٢] . ويشير إلى سيدة أفرنجية تعلقت به أثناء اجتيازه السوق وهى «**تبربر بلسانهم وما أدرى ما تقول**»[٣] .

على أن ذلك كله لم يمنع أسامة بن منقذ من استعمال كلمات مثل سرجندى[٤] وسرجند[٥] **Sergeant** وتركبولى[٦] **Turcopole** وبرجاس[٧] **Bourgeoisue** والبسكند[٨] **Viscount** والداما [٩] **Madame** ، والبرونسى[١٠] **Prince** وهذا يعنى أن المسلمين رغم إحجامهم عن تعلم لغة الصليبيين ، فإنهم نقلوا

(١) سعداوى ، ثلاثية من مؤرخى الحروب الصليبية ، ص ٢٣ ، وما بعدها .

(٢) ابن منقذ ، ص ٦٦ .

(٣) نفسه ، ص ١٤٠ .

(٤) نفسه ، ص ٧٥ .

(٥) نفسه ، ص ٦٧ .

(٦) نفسه ، ص ٥١ .

(٧) نفسه ، ص ١٤١ .

(٨) نفسه ، ص ١٣٩ .

(٩) نفسه ، ص ١٣٦ .

(١٠) نفسه ، ص ١١٩ .

كثيرا من الألفاظ والاصطلاحات الفرنجية إلى العربية ، ونجد مثالاً لذلك عند ابن شداد فى كتابه «**النوادر السلطانية**» عندما تحدث عن الصلح الذى وقع بين المسلمين والصليبيين فى عهد السلطان صلاح الدين ، عندما حاصر الصليبيون عكا ، واتفقوا على ترك المسلمين يخرجون من المدينة دون أذى ، مقابل فدية تدفع لهم ، وأن هذه الفدية تدفع «**فى تروم ثلاثة ، كل ترم شهر**»(١) . الترم Term كلمة إنجليزية تعنى الفصل وقول النويرى الفصل Vassal ومعناها المقطع(٢) . أما المقريزى فقد استعمل كلمة القومص وهى كلمة لاتينية ، وقصد بالقمص الكونت رايموند الثالث حاكم طرابلس(٣) . كما استعمل بعض الكلمات الأخرى كقوله عن لويس التاسع ملك فرنسا : «**وكان هذا ريد افرنسى من أعظم ملوك الفرنجة ، وأشدهم بأسا ، وافرنسى هى أمة من الفرنج ومعنى ريد أفرنسى ملك أفرنسى ، فإن ريد فى لغتهم معناها ملك**»(٤) .

ومن الكلمات الشائعة فى كتابات المؤرخين المسلمين كلمة «**البرنس**» بمعنى الأمير، ذكرها سبط بن الجوزى فى حديثه عن أحداث سنة أربع وأربعين وخمسمائة عندما خرج نور الدين قاصدا أنطاكية : «**فخرج إليه البرنس وكانت بينهم وقعة عظيمة كسرهم نور الدين الكسرة المشهورة، وقتل من جنودهم ألفا وخمسمائة وأسر مثلهم ، وقتل البرنس وحمل رأسه إلى نور الدين**»(٥) .

ومن الكلمات التى استعملها ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة كلمة «**سير**» Sir بمعنى السيد، عندما قال : «**وتم فى سنة ثمان وثمانين وستمائة فتح طرابلس ، وهو أن صاحب طرابلس كان وقع بينه وبين سير تلميه الفرنجى، وكان من أصحاب صاحب الحصن الذى آخر به صاحب طرابلس رضاء للملك المنصور قلاوون**»(٦) .

ومن الملاحظ أن هناك كلمات فرنجية أوردها بعض المؤرخين المسلمين محرفة بعض الشيء إلى العربية، كقولهم «**الكند**» ، و«**الإمبرور**» ، و«**الإنكتار**» ،

---

(١) ابن شداد ، ص ١٧٣ .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ص ٢٦١ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٩٢ .

(٤) نفسه ، ص ٣٣٣ .

(٥) سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٠١ .

(٦) النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص ٣٢٠ .

ويعنون بها الكونت والإمبراطور والإنجليز (١) . ومثل هذه الكلمات الفرنجية التى تسربت إلى لغة الكتابة فى هذا العصر نجد لها صدى فى شعر الجهاد أيضاً ، حيث يتحدث الشعراء عن أعدائهم من الصليبيين . وهى مظهر للتغير الثقافى وإن لم يكن كبير الأثر ، إلا أنه ينبغى أن يوضح لشبهه القريب بما حدث من غزو الكلمات الأعجمية وخاصة الفارسية إبان التقاء اللغة العربية باللغات المحلية فى البلاد المفتوحة فى آسيا ، عقب حركة الفتوح الإسلامية .

وردت بعض الكلمات الفرنجية في شعر الجهاد، كقول ابن منير الطرابلسى فى قصيدة له يمدح فيها نور الدين ويذكر بعض وقائعه فقال فيها :

فبرنست البرنس لفاع خف   وجرع مر جوسك جوسلين(٢)

وقد وردت كلمة «**البرنس**» فى قصائد أخرى لابن منير منها قصيدته، التى قالها بمناسبة فتح عزاز والتى جاء فيها قوله :

تبرنس منها البرنس الثياب   وحلته من واقع أحلابهـا(٣)

ولم يكن ابن منير وحده الذى يورد مثل هذه الكلمات؛ إذ شابهه فى ذلك ابن القيسرانى حيث استعمل كلمة «**القومص**» فى بعض قصائده، فقال :

كلما أهدت الأقدار للقمص أسرة   وأسعد قرنى من حواه لك الأسر

طغى وبغى عدوا على علوائه   فأوبقه الكفران عدواه والكفر (٤)

وليس من شك أن «**بردويل**» تحريف Baldwin وهو اسم لأحد ملوك بيت المقدس وأطلق على أسماء أماكن كثيرة فى فلسطين وشمال سيناء المصرية ، كما خلدت قرية سنجل بفلسطين اسم Saint Gilles ، وخلدت قرية الرينة اسم رينو Renaud. وربما يكون إحجام المفكر المسلم عن تعلم لغة العدو ، أنه نظر إليها من الزاوية الدينية ، أما المفكر الصليبى فنظر إلى العربية من الزاوية المشوبة بغرض سياسى، هو التفاهم والتجسس والدفاع عن النفس(٥) .

(١) انظر على سبيل المثال : ابن شداد ، فى أماكن متفرقة .

(٢) أبو شامة ، جـ١ ، ص ٨٢ .

(٣) نفسه، ص ٧١ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ١١ ، ص ١٥٤ .

(٥) جوستاف جرونيبام ، حضارة الإسلام ، (تعريب عبد العزيز جاويد ومراجعة العبادى)، ص ٢٠ ، ٢٦ .

كان العداء الشديد بين المسلمين والصليبيين دافعًا لكتاب المسلمين على تتبع مثالب خصومهم ، فمن لم يستطع أن ينال من الصليبيين بالسيف نال منهم بالقلم . وقد زاد من كره المسلمين للصليبيين ما ارتكبه هؤلاء من القتل والنهب والسلب حتى أن اسم الصليبيين ما كان يذكر إلا مقرونا باللعن ، فابن منقذ مثلا ، لم يضن عليهم بلقب **«شياطين»**[١] ، و**«كافرين»**[٢] ، ولم يتردد فى استنزال لعنة الله عليهم[٣] عملا بسنة كتاب ذلك العصر ، وفى الدعاء إلى الله تعالى كى يطهر الدنيا منهم[٤] . أما ابن جبير فإنه يردف دائماً اسم كل مدينة يحتلها الصليبيون بعبارة **«دمرها الله»**[٥] . فعندما تحدث عن حصن تبنين فإنه يقول : **«وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة ، وهى أم الملك الخنزير صاحب عكا دمرها الله»**[٦] . ويتكلم عن عكا فيقول : **«هى قاعدة مدن الإفرنج بالشام .. تستعر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة ، قذرة ، مملوءة كلها رجسا وغدرا»**[٧] .

كان طبيعيا أن يتحدث الكتاب المسلمون عن الصليبيين من منطلق عدائى، وهم فى ذلك يعكسون المشاعر التى خلفها العدوان الصليبى فى وجدان الناس فى العالم الإسلامى . صحيح أن القرآن الكريم يضع السيد المسيح –عليه السلام– فى مرتبة سامية ، كما أن على المسلم أن يعترف بأن المسيح من الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله لهداية البشر ، كجزء من إيمانه بالإسلام [٨] ، إلا أن موقف الكتاب المسلمين العدائى من الصليبيين وتكفيرهم ما هو إلا موقف سياسى وليس موقفا دينيا[٩] .

---

(١) ابن منقذ ، ص ١١٨ ، ١٢٨ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٨ ، ١٣٥ .

(٣) نفسه ، ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٤) نفسه ، ص ١٣١ .

(٥) ابن جبير ، ص ٢١٠ – ٢١٢ .

(٦) نفسه ، ص ٢١٠ .

(٧) نفسه ، ص ٢١١ .

(٨) «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» ، البقرة ، آية ١٣٥ .

(٩) انظر قاسم عبده قاسم ، **«صورة المقاتل الصليبى»** ، ص ١٥ .

وإلى جانب ذلك سجلوا عليهم الغدر ، وجعلوه من سماتهم وخصائصهم البينة فيهم ، وأن العهد لا قيمة له عندهم ، فهم يحتفظون به إذا ضعفوا ، ويفسخونه إذا وجدوا أنفسهم قادرين على التحلل من قيوده ، ويصف ذلك القاضى الفاضل فى رسالة له فيقول : « **تشنع ملك بالغدر ، وهو .. قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه، فى أهل عكا ، نهارا ، جهارا ، وشهد فيها بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى ، وغدر الفرنج معلوم :**

إذا غدرت حسناء وفت بعهدها ومن عهدها ألا يدون لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا ، ويفجرون إذا قووا..»[1] .

وسجل عليهم هذا الغدر ابن الساعاتى ، فقال :

أسكن أوطان النبيين عصبة تمين لدى إيمانها ، وهى تحلف[2].

وذكر ابن القلانسى أن نور الدين هاجم الصليبيين فى الملاحة سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة بسبب نقضهم هدنة كانت قائمة بينهم وبين المسلمين فهزمهم ، وقتل أعدادا كبيرة منهم ، ولم يقتل من المسلمين سوى رجلين[3] ، فقال أحد الشعراء يهجو الصليبيين ويذكر غدرهم بالمسلمين ، وعدم وفائهم لعهودهم ، وإنهم إنما استحقوا هذه الهزيمة لهذا السبب .

نقضوا هدنـة الصلاح بجهـل بعد تأكيدها بحسن الوفاء

ولقوا بغيهم بما كـان فيـه من فساد بجلهم واعتـداء

لا حمى الله شملهم من شتات بمواطن تفوق حد المضاء

فجزاء الكفور قتـل وأسـر وجزاء الشكور خير الجزاء

فلرب العباد حمـد وشكـر دائم مع تواصل النعماء[4]

---

(١) انظر ، أبو شامة ، جـ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٢) انظر، ديوان ابن الساعاتى (تحقيق ونشر أنيس المقدسى ، طبع فى بيروت بالمطبعة الأمريكانية سنة ١٩٣٨) ، جـ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤١ .

(٤) نفسه ، ص ٢٤٢ .

قد تحدث ابن منير الطرابلسى من غدر جوسلين قائد الصليبيين وتكرار ذلك منه فقال عنه :

ما زال يغدر ثم يغدر قادرا   حتى أتاه بجامع أصحابه (١)

أما النفاق فكان من صفات الصليبيين التى ذكرها الشعراء ، ومن أولئك ابن منير الطرابلسى ، الذى مدح نور الدين بقصيدة بمناسبة فتحه لقلعة حارم هجا فيها الصليبيين بقوله :

وإذا العدا زرعوا النفاق وأحصدوا   كيد فعزمك ناقض حصـاد (٢)

وإذا أردنا أن نستعرض بعض الصفات الأخرى التى هجا بها المسلمون الصليبيين، وجدنا أن الخديعة والخيانة كانت من هذه الصفات ، وقد أبرزها ابن القيسرانى عندما مدح نور الدين، وقد استولى على سنجار والرحبة والفرات سنة أربعين وخمسمائة، فقال :

وأرى صياح القمص كان خديعة   فطفى وجار وليس ثم وجار
خان الضيعة غير محقوق بهـا   والخير يهـدم ما به الختار
ذئب إذا ما غيت أقدام عاتيـا   أقدام من لم يدن منه قرار(٣)

وفى هجاء المسلمين للصليبيين عناصر إيجابية واضحة ، فكل هذه العيوب التى كانت موضعا للهجاء يعنى إبرازها تنبيه المسلمين إليها فى تعاملهم مع الصليبيين وتحذيرهم من مخاطر غدرهم وخيانتهم، وزرعهم بذور الخلاف والنفاق ونقضهم للعهود(٤) .

وأمر آخر عابه كتاب المسلمين على الصليبيين هو قسوتهم وغلظتهم وبطشهم وكيدهم وإمعانهم فى جلب الضرر والأذية للمسلمين وإسرافهم فى البطش والفتك وغلوهم فى التخريب والتدمير وبأسهم فى القتال والنزال ؛ فالعماد الأصفهانى،

---

(١) أبو شامة ، جـ١ ، ص ٨٨ .

(٢) نفسه ، ص ١٠١ .

(٣) نفسه : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

(٤) الهرفى (محمد على) ، شعر الجهاد فى الحروب الصليبية ، فى بلاد الشام، (الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م) ، ص ١٧٥ .

مثلاً، وصفهم بالقسوة وجمود العاطفة إلى حد الوحشية ، وعلى حد قوله : **«فإن الله قد نزع من قلوبهم الرقة ، وخلق الناس من طين وخلقهم من حجارة»**(١) .

ويمكن أن نلتمس العذر للعماد الأصفهانى فيما قاله ، فعلى الرغم من أن القسوة فى معاملة العدو كانت سمة من سمات ذلك العصر فإن ما اقترفه الصليبيون من الفظائع كان يتسم بالوحشية الشديدة والقسوة حتى بمقاييس ذلك الوقت . وهذه القسوة أو الوحشية التى تميز بها الصليبيون ، هى فى حقيقة الأمر ما هى إلا تعبير عن المستوى الحضارى الذى عاش مجتمع أوروبا فى تلك المرحلة التى شهدت اكتمال ملامح حضارة العصور الوسطى فى الغرب(٢) .

وكانت معركة حطين ، وتحرير القدس مما أطلق أقلام الكتاب المسلمين بإظهار الشماتة والسرور بانهزام أعدائهم وأعداء الدين . ففى حوادث سنة ٥٨٣هـ يقول العماد الأصفهانى : **« وخلصت بمنحة الله من المحنة ، الأرض المقدسة الممتحنة. وكفى الله شر الشرك ، وحكم على دماء الكفرة بالسفك ، ونصرت الدولة الناصرية وخذلت الملة النصرانية وانتقم التوحيد من التثليث»**.

أما الشعراء فقد تغذوا ، وأطالوا ، وامتلأ العالم الإسلامى كله بنغمات من الطرب والبهجة ، وتدفق الشعر قويا فياضا ، يصف ذلك كله فمن ذلك قول الشريف محمد بن أسعد بن معمر ، نقيب الأشراف بمصر ، وقد بدأها بما ينم على الدهشة والذهول اللذين ألما بالعالم الإسلامى ، لدى سماع خبر تحرير القدس ، إذ قال :

أترى منامـــا بعينـى أبصـــر ... القدس ، يفتـح ، والفرنجة تكسر
ومليكهم فى القيد مصفود ، ولم ... يرَ قبـــل ذاك مليـــك يؤســـر
قد جاء نصر الله والفتح الـــذى ... وعد الرسول ، فسبحوا واستغفروا
فتح الشام، وطهر القدس الـــذى ... هو فى القيامة للأنام المحشـــر
من كان هذا فتحه لمحمــــــد ... ماذا يقال له ، ومـــاذا يذكـــر(٣)

---

(١) العماد الأصفهانى ، الفتح القدسى ، ص ٥١ .

(٢) انظر قاسم عبده قاسم ، **«صورة المقاتل الصليبى»** ، ص ١٤ .

(٣) ابن واصل ، ج٢ ، ص ٢٢٣ .

ويمكن أن نشاهد أثر الكفاح بين المسلمين والصليبيين واضحا جليا فى القصص التى شاعت فى ذلك العصر . وكان هذا الكفاح ينتهى دائما بإنتصار المسلمين على أعداء الدين وظفر الإسلام وانهزام النصرانية ، ولنضرب مثلاً لذلك **«حكاية على نور الدين المصرى مع مريم الزنارية»** ، وهى جزء من قصص ألف ليلة وليلة . فنرى فى هذه القصة أن القاص كان يصرف همه إلى تملق عواطف الجمهور فمريم تضحى بأهلها وبلادها وتقتل إخوتها وترد على أخيها الأكبر رداً عنيفا حينما تعرض للدين الإسلامى ، فى سبيل زوجها المسلم الذى أحبها وأحبته وأخلص لها وأخلصت له(١) .

وقصة أخرى من قصص ألف ليلة يظهر فيها أثر الحروب الصليبية أكثر وضوحا وجلاء مما تقدم هى **«قصة الصعيدى وزوجته الإفرنجية»** ، وقد توخى القاص أن يظهر التاجر المسلم فى صورة رجل عفيف يوسوس له الشيطان بعمل السوء ويحاول أن يوقعه فى الخطيئة ، ولكن الرجل يتذكر دينه وما يأمره من اجتناب الكبائر فيرجع إلى صوابه ويتمسك بأهداب الدين فكافأه الله على ذلك بأن ساق له هذه الفرنجية فأخذها بثمن بخس، وتمتع بها بطريق حلال مشروع . ولما ذكرها بنفسه قالت له هذا سر دينك الصحيح وأسلمت وأبت أن تعود إلى أهلها وترجع إلى وطنها، وآثرت أن تعيش مسلمة مع زوجها المسلم فى بلاد المسلمين(٢) .

كان للصليبيين بعض النقائص والعيوب فتتبعها كتاب المسلمين ، وسجلوها ، ومن بين هؤلاء أسامة بن منقذ الذى خلف لنا مفكرة ضمنها أمتع الملاحظات وأدقها وأكثرها إنصافا وواقعية ، كان أسامة فارسا مغوارا وجوادا وشاعرا يحسن الطراد والصيد ، وكان إبان الحرب يشترك فى القتال ضد الصليبيين ، أما فى أيام الهدنة فكان يعاشرهم ويصادقهم ، ولكن حرية الاختلاط الجنسي التى شاهدها فى أوساطهم قد بدت له فى غاية الفظاعة ، وغدوا فى نظره قوما : **«ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته، يلقاه رجل آخر يأخذ يد المرأة ، ويعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من**

---

(١) كيلانى (محمد سيد) ، الحروب الصليبية ، أثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام ، (دار الفرجانى ، القاهرة ، طرابلس ، لندن ، ١٩٨٤م) ، ص ١٦٦ – ١٧١ .

(٢) نفسه : ص ١٧١ – ١٧٤ .

الحديث ، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى»[١] .

وفي مكان آخر يقول أسامة : «ومما شاهدت من ذلك كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له معز ، داره عمارة المسلمين ، لها طاقات تفتح إلى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار، يأخذ من قنينته من النبيذ وينادى عليه .. فجاء يوماً ، ووجد رجلا مع امرأته في الفراش فقال له : أى شيء أدخلك عندا امرأتي ؟ قال : تعبان ، كنت أستريح ، قال : كيف دخلت إلى فراشي ؟ قال : وجدت فراشا مفروشا نمت فيه ، قال : والمرأة نائمة معك ؟ قال : الفراش لها ما كنت أقدر أمنعها من فراشها قال : وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته»[٢] . وفي كتاب الاعتبار بعض قصص أخرى تدل على هذا الخلق فيهم .

ولدينا وصف حي لمدينة عكا سجله قلم يعقوب الفيترى، الذى شغل منصب أسقف المدينة لبعض الوقت لتأكيد ما ذكره أسامة بن منقذ ، يقول الفيترى : «لايكاد بين (البولان) واحد في كل ألف يأخذ زواجه مأخذ الجد . فهم لا يعتبرون الزنا خطيئة قاتلة . فمنذ الطفولة وهم مدللون ومستسلمون للملذات الحسية حيث لايتعودون سماع عمل الرب ، الذى يستخفون به . وقد وجدت هنا أجانب هربوا في يأس من أوطانهم بسبب عديد من الخطايا الفظيعة ، وهؤلاء الناس الذين لا يخشون الله ، يفسدون المدينة بأسرها بأعمالهم الدنيئة ونماذجهم الخبيثة»[٣] .

ويستطرد الفيترى قائلاً إنه : « في كل ليلة وكل يوم تقريبا يقتل أناس سرا أو جهرا .. ففي الليل يخنق الرجال زوجاتهم إذا كانوا يكرهونهن ، على حين تستخدم النساء من السم القديم والشراب السحرى لقتل الأزواج حتى يستطعن الاقتران برجال آخرين . وهناك في المدينة باعة للسموم حتى أنه لا يمكن لأحد أن يثق في أحد، فأعداء الإنسان هم أهل بيته»[٤] . وفي مكان آخر يقول : «وتعج المدينة ببيوت الدعارة ، ولأن المومسات يدفعن أعلى الإيجارات فلهذا إنه ليس فقط

---

(١) ابن منقذ ، ص ١٣٥ .

(٢) نفسه : ص ١٣٥ – ١٣٦ .

(3) Jacques de Vitry, P. 66.

(4) Ibid .

المدنيين فحسب، ولكن القسوس، بل وحتى الرهبان يقومون بتأجير منازلهم فى جميع أنحاء المدينة للعاهرات[١].

وقد سخر أسامة أيضا من طرق الصليبيين القضائية فهى عنده غبية غريبة؛ لاعتمادهم فى محاكمتهم على المبارزة والرمى فى الماء للفصل فيها إذا كان المتهم بريئا مذنبا[٢] .

وكذلك أساليب الصليبيين فى معالجة المرضى ، فقد كانت إذا قورنت بتطبيب العرب عقيمة للغاية ، ويروى لنا أسامة عدة نوادر ممزوجة بالسخرية اللاذعة المرة ، ضاربا بها المثل عن فن الشفاء العجيب عند الصليبيين ، وفى القصة التالية التى رواها ابن منقذ تظهر مدى الفروقات الكبيرة بين المسلمين والصليبيين فى وسائل الطب والعلاج، وقد وقعت هذه الحادثة فى قرية المنيطرة إحدى قرى أعالى لبنان.. فقال : **«ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمى يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه . فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ؟ قال : أحضروا لى فارسا قد طلعت فى رجله دملة ، وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت . وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجى فقال لهم : هذا ما يعرف شيئا يداويهم ، وقال للفارس : إيما أحب إليك ، تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال : أعيش برجل واحدة . قال : احضروا لى فارسا قويا وفأسا قاطعة ، فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، أقطعها . فضربه ، وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات الرجل من ساعته . وأبصره المرأة فقال : هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها . فحلقوه . وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان قد دخل فى رأسها . فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت فى وقتها ، فقلت لهم : بقى لكم إلى حاجة؟ قالوا : لا . فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه»**[٣].

---

(1) Jacques de Vitry, P. 66.

(٢) ابن منقذ ، ص ١٣٨ – ١٣٩ .

(٣) نفسه ، ص ١٣٢ – ١٣٣ . ولكن أسامة لحرصه على الدقة والصدق روى قصتين نجح فيهما الطبيب الفرنجى ، انظر ، الاعتبار ، ص ٩٨ – ٩٩ .

وتقول المستشرقة الألمانية زيجريد هونكة أن هذه النادرة ليست دعاوى خصم كما يتبادر إلى أذهان بعض الناس ، كما أنها ليست محاولة تهدف إلى الحط من شأن قوم لهم وزنهم، كانوا أعداء العرب الألداء ، ذلك أن ثمة نوادر أخرى من هذا النوع تشهد «ببراعة» الطب فى أوروبا آنذاك(١) . وتقول هذه المستشرقة إن أحد المؤرخين الأوروبيين الثقاة ، روى بعد مرور مائة سنة من وقوع نادرتنا السابقة ، قصة النبيل الصغير الأمير فون ، الذى كان يشكو قصرا فى نفسه وسمنة فى بدنه . لقد أراد هذا الأمير أن يستشير طبيبا ليعرف إذا كانت سمنته هذه ستزعجه وتتعبه فى الرحلة، التى ينوى القيام بها بصحبة الإمبراطور هاينريش السادس إلى أبوليا الإيطالية . وسرعان ما تناول الطبيب موسى حادة شق بها بطن الأمير الصغير المسكين ببساطة ، فنزع الشحم الزائد منه ، وانتزع روحه معه كذلك. وتعلق المستشرقة الألمانية على ذلك بقولها : **«أجل لقد كان ما حدث طريقة أساسية فى المعالجة تذكرنا بفن الطبابة الغربى فى الأراضى المقدسة»**(٢) .

ولم يعد غريبا بعد ذلك أن يفضل الأمراء الصليبيون والفئة الأرستقراطية الطب العربى ، ووسائل العلاج عند المسلمين لا سيما فيما يتعلق بالأمراض المحلية، وفى هذا الشأن يقول وليم الصورى بشىء من الأسى : **«إن أمراءنا الشرقيين تحت تأثير نسائهم يزدرون بالأدوية وبالوسائل الطبية اللاتينية، ولا يؤمنون إلا بالأطباء اليهود والسامريين والسوريين والعرب»**(٣) .

ولكن عندما تناول الملك بلدوين الثالث وكان عمره ثلاثة وثلاثين عاما، وكان يتمتع بصحة جيدة بعض الحبوب التى وصفها له بركة، طبيب كونت طرابلس على أنها مقو فمرض ومات فى بيروت سنة ١١٦٢م سرت إشاعة أنه مات مسموما(٤) . وبعد ، اثنتى عشرة سنة لما مرض الملك أمارى بمرض الزحار، وهو فى القدس رفض الأطباء السوريون أن يفصدوه ، أو أن يعطوه مسهلا غير أن أطباءه من الصليبيين عالجوه بالفصد والمسهل فمات على الفور(٥) .

---

(١) زيغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على أوروبا ، (نقله من الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقى ، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخورى ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م) ، ص ٢١٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢١٧ .

(3) William of Tyre, II, P. 292 .

(4) Ibid. PP. 292-3.

(5) Ibid. P. 295.

وعلى الرغم من ضعف المستوى الحضارى للصليبيين فى بلاد الشام إلا أنهم كانوا يعتزون بأنفسهم ، ويثقون فى مقدرتهم العقلية والعلمية ، ولكن المسلمين لم يسلموا لهم بهذه الصفة ، وعدوها دليلا على ضعف عقولهم . روى أسامة بن منقذ، قال : **«كان فى عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم إفرنجى ، قد وصل من بلادهم يحج ويعود ، فأنس بى ، وصار ملازمى ، يدعوننى أخى ، وبيننا المودة والمعاشرة . فلما عزم على التوجه إلى البحر إلى بلاده ، قال لى : يا أخى ، أنا سائر إلى بلادى ، وأريدك أن تنفذ معى ابنك ، وكان ابنى معى ، وهو ابن أربع عشرة سنة – إلى بلادى يبصر الفرسان ، ويتعلم العقل والفروسية ، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل ، فطرق سمعى كلام ما يخرج من رأس عاقل »**(١) .

ومما يلفت النظر أن الصليبيين كانوا يرحبون فى خصوماتهم الخاصة بالمساعدة التى تأتيهم من أعدائهم المسلمين . كما يرحب المسلمون فى خصوماتهم الخاصة بالنجدة التى تأتيهم من أعدائهم الصليبيين ، ومثال ذلك أن بلدوين الأول ملك بيت المقدس وروجر أمير أنطاكية اتفقا مع طغتكين أمير دمشق سنة ١١١٥م اتفاقا وديا لوقف الحرب بين الفريقين . وعقد فولك الخامس ملك بيت المقدس مع معين الدين نائب دمشق معاهدة ١١٣٧م ، تنص على وقت القتال بين الطرفين حتى سنة ١١٤٤م ، ونمت عن ذلك سياسة تقليدية بين البلاطين الإسلامى فى دمشق والصليبى فى القدس ، وتبودلت الزيارات والسفارات بينهما . ويشير أسامة إلى حديث دار بينه وبين الملك فولك ، حين قدم عليه سفيرا من قبل دمشق ، وغمر الفرح فولك ، لما علم أن أسامة فارس عظيم ، وعلق أسامة على فرحة الملك بعبارة نصها : **«أنا فارس يا مولاى من جنسى وقومى»**(٢) .

وقد ذكر صاحب الروضتين فى حوادث سنة ٥٤٦هـ أن نور الدين حاصر دمشق لمعاضدة أهلها الصليبيين واستنصارهم به ، وقد مدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها على صاحب دمشق، جاء فيها :

هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا ... نارا تخش بهم غدا فى المحشر
أذكوا بجلق حرها واستشعرت ... لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم سمن خلفهم مستنجدا ... ما ظاهر الكفار من لم يكفر

(١) ابن منقذ ، ص ٩٧ .
(٢) نفسه، ص ٦٥ .

لا تعفو بل الردى نفس الـــذى أدرع الضلال على أعز مشهـر[١]

وكتب إليه أيضا يعرض بصاحب دمشق مجير الدين من قصيدة :

فيـا راكـبـا إمـا عـرضـت فـبلغـن بيوتا على جيرون (٢) بالذل معمد

وقل لمبـيـد الدين وهو مـجـيـره بزعم له وجـه الحقيقة أربـــد

حـملت الصليب باغـيـا ونبذتـه وثغرك مطووس النبات وأدرد (٣)

وحـاربت حـزب الله والله ناصـر لناصره ودين أحمـد أحمـد (٤)

وقد استنجد شاور بالصليبيين ودعاهم إلى احتلال مصر ، ورأينا نفرا من أعيان المسلمين وفقهائهم يذهبون إلى القدس ويحرضون ملكها الصليبى على غزو مصر نكاية فى شاور ، ثم ساروا مع الجيش الصليبى إلى مصر ودخلوا معه بلبيس وشاهدوا فتك الصليبيين بأهلها المساكين بين القتل والأسر والنهب والسلب والاعتداء على الأعـراض وإهتـاك الحـرم ، ومع ذلك لبـثـوا فى صـفـوف الصليـبـيين لأن مصلحتهم الشخصية كانت تحتم عليهم ذلك . ورأينا قصة عمارة اليمنى الشاعر المشهور الذى اتفق سرا مع جماعة من القضاة والفقهاء والأمراء وكاتبوا الصليبيين لغزو مصر وإرجاع الخلافة الفاطمية ، وفى ذلك يقول أحد الشعراء :

عمارة فى الإسـلام أبـدى جـنـاية وبايـع فيـها بيعـة وصليبـا

وأمسى شريك الشرك فى بغض أحمد فأصبح فى حب الصليب صليبا

وكان خبيث الملتقى أن عجمتــه تجد منه غورا فى النفاق صليبا

سيلقى غدا ما كان يسعى لأجلــه ويسقى صديدا فى لظى وصليبا[٥]

تجـددت الاتفـاقـات بين الصليبيين وبعض أمراء المسلمين لما تولى صلاح الدين قيادة حركة الجهاد ، فأبرم المواصلة معاهدة معهم ضد صلاح الدين سنة ١١٨٢م ، واتفق الطرفان على وضع خطة هجومية لإيقاع صلاح الدين بين طرفى

---

(١) أبو شامة ، جـ١ ، ص ٧٨ .

(٢) جيرون : اسم من أسماء دمشق . انظر معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ .

(٣) مطووس : أى جميل ، وأدرد : الذى ليس فى فمه أسنان .

(٤) أبو شامة ، جـ ١ ، ص ٨٧ ، ٧٩ .

(٥) كيلانى ، الحروب الصليبية ، ص ٥٥ .

الكماشة من الشمال والجنوب ، واستطاع صلاح الدين أن يقضى على تلك المعاهدة بعد أربع سنوات من إبرامها . واتهم الصليبيون ريمون صاحب طرابلس بصداقته لصلاح الدين وشككوا فى ولائه للفكرة الصليبية وخوفوا عامة الصليبيين منه [١]. وغلبت المصالح الشخصية الفكرة العدائية بين المسلمين والصليبيين أواخر أيام ملوك بنى أيوب ، فتعاقد بعضهم مع البقايا الصليبية بعكا ضد مصر وحكامها، وانتهزت البقايا الفرصة للإيقاع بين القاهرة ودمشق[٢].

ومما ينبغى أن يسجل لندرته هذا الشعر الذى يبتهج بهزيمة المسلمين ويشمت بما ينالهم من ضر ، ولا يروى لنا التاريخ من هذا النوع سوى بيتين قالهما شاعر لم يشأ التاريخ أن يحتفظ لنا باسمه ، بل ذكر فحسب أنه كان عند الصليبيين ، وأنه كان ينتجعهم ، ولست أدرى السبب الذى دفعه إلى انتجاع أعداء البلاد ، وفى أمراء البلاد الإسلامية ما كان يغنيه عن ذلك ، فهل احتفظ به الصليبيون وأغدقوا عليه ، ليكون داعيتهم وليتخذوا لسانه سلاحا لهم ، ينشر فى نفوس الملسمين الرعب من الصليبيين والرهبة لهم ؟ أما البيتان فقد قالهما الشاعر عقب هجوم غير ناجح للأفضل الوزير المصرى ، يقول هذا الشاعر مخاطبا ريمون السانجيلى :

نصرت بسيفك دين المسيح   فلله درك من صنجلى
وما سمع الناس فيما روى   بأقبح من كسرة الأفضل[٣]

وما لا شك فيه أن هذا الشاعر ندد بالمسلمين فى غير هذا الشعر ، وربما يكون الصليبيون قد قصدوا بشعره هذا أن يشيع بين المسلمين الذين بقوا تحت سيطرتهم. ومهما يكن الأمر فقد توصل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر[٤] .

ويسوق أسامة بن منقذ قصة مسلم آخر ، اسمه على بن عبد أبى الريداء ، انتقل إلى خدمة تيوفيل الصليبى صاحب كفر طاب ، وصار ينهض بالمسلمين ويبالغ فى أذاهم وأخذ مالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين . وله امرأة معه بكفر طاب تحت يدى العدو ، وتنكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهى فاستحضرت أخاها، وأخفته فى بيتها إلى الليل ، واجتمعت هى وهو على زوجها الغادر بدينه ، فقتلاه

---

(١) سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٧٩ .
(٢) أبو المحاسن ، جـ ٦ ، ص ٣٢٢ ؛ أبو الفدا ، جـ٣ ، ص ١٦٩ .
(٣) العليمى ، جـ ١ ، ص ٣٠٨ ؛ وقارن : بدوى ، *الحياة الأدبية* ، ص ٥٤٣ – ٥٤٤ .
(٤) نفسه : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

وهربا إلى شيرز ولسانها يردد «**غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر**» . وصح حكم أسامة على النساء بقوله «**وما ينكر للنساء الكرام والأنفة والنخوة والإصابة فى الرأى**»(١).

وعلى الرغم من العداء الذى كان سائداً بين المسلمين والصليبيين.. فإن الصلات الاجتماعية والروابط الإنسانية سادت فى كثير من الأحيان العلاقات بين الطرفين . وهناك إشارات عديدة فى المصادر المعاصرة توضح أن الفريقين كانت تغلب عليهم الطبيعة البشرية بعد أن يطول القتال ويشتد بينهما فيتبادلان الفكاهة، وربما «**أنس البعض بالبعض بحيث إن كانت الطائفتان تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنى البعض ورقص البعض ، لطول المعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة**»(٢) .

ويفهم مما كتبه أسامة بن منقذ أن الصليبيين لم يترددوا فى الاستعانة بجيرانهم المسلمين ، فأرسلوا إليهم يطلبون أطباء يداوون مرضاهم ، وكان المسلمون يلبون طلباتهم بروح إنسانية على الفور (٣) . ولعله لا حاجة بنا إلى التذكير بما فعله صلاح الدين نفسه عندما علم بمرض غريمه ريتشارد قلب الأسد ، إذ بادر بإرسال ما طلبه من كمثرى وخوخ وغيرهما من الفواكه ، فضلا عن الثلج والدواء والشراب حتى شفى خصمه ليستأنف القتال من جديد(٤).

ويتعجب ابن جبير من هذه العلاقات الاجتماعية، التى لمسها بين المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام، فيقول : «**ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن إنقطعوا إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم .. ومن أعجب ما يتحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . وتجار النصارى أيضًا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض .. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها فى بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال فى جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشغولون بحربهم ، والناس فى عافية ، والدنيا**

(١) ابن منقذ ، ص ١٢٨ .

(٢) ابن شداد ، ص ١٠٨ .

(٣) ابن منقذ ، ص ١٣٨ .

(٤) ابن واصل ، جـ ٢ ، ٣٥٨ .

لمن غلب»(١).

وقد دلل ابن جبير على تزايد الروابط الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين على عصر الحروب الصليبية بوصف عرس إفرنجى فى مدينة صور ، دعى إليه بعض أهل المدينة من المسلمين وشاركوا فيه ، وفى هذا يقول ابن جبير : «ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور فى أحد الأيام عند ميناثها . وقد احتفل جميع النصارى رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوى أرحامها، وهى فى أبهى زى وأفخر لباس ، تجر أذيال الحرير المذهب سحبًا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم ، وهى رافلة فى حليها وحللها تمشى فترا فى فتر ، مشى الحمامة ، أو سير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر ، وأمامها جلة رجالها من النصارى فى أفخر ملابسهم البهية ، وتسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى أنفس الملابس ، ويرفلن فى أرف الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم والمسلمون والنصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سماطين يتطلعون فيهن ، ولا ينكرون عليهم ذلك . فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها ، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة»(٢) .

وقد سادت المجاملة علاقات الفريقين حينا من الزمن . ولأنقل هنا مقتطفات من رسالتين أوردهما صاحب صبح الأعشى ، تبينان بجلاء مدى ما كان يسيطر على العلاقات أحيانا من هذه المجاملة ، كتب القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين إلى الملك بلدوين، وهو يومئذ مستول على بيت المقدس وما معه معزيا له فى موت أبيه ومهنئا بجلوسه فى الملك بعده : «أما بعد ، خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد ، والسعد الساعد ، والحظ الزائد ، والتوفيق الوارد ، وهنأه من ملك قومه ما ورثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدث ، فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق ، والنعى الذى وددنا أن قائله غير صادق ، بالملك العادل الأعز الذى لقاه الله خير ما لقى مثله ، وبلغ الابن سعادته كما بلغه مجلسه ، معز بما يجب فيه العزاء ، ومتأسف لفقده الذى عظمت

---

(١) ابن جبير ، ص ٢١٣ .

(٢) نفسه : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

به الأرزاء ، إلا أن سبحانه وتعالى قد هون هذا الحادث ، بأن جعل ولده الوارث ، وأنسى المصاب ، بأن حفظ به النصاب ، ووهبه النعمتين : الملك والشباب ، فهنيئا له ما حاز ، وسقيا لقبر والده ، الذى حق له الفداء لو جاز(١) .

ففى هذا الكتاب حديث عن مودة صافية ، ومحبة ثابتة بين الأب صلاح الدين وحديث عن رسول أوفده صلاح الدين ليقوم بتعزية الملك فى وفاة أبيه وطلب أن يثق وارث العرش فى صلاح الدين ، كما يثق الابن فى أبيه ، وصدر الكتاب دعاء للملك الجديد بالجد الصاعد والسعد والحظ والتوفيق ، وختامه دعاء كذلك ، ويضيف إليه الدعاء بطول العمر مصحوبا بإمارة محروسة .

وهناك كتاب آخر كتبه بعض كتاب الدولة الأيوبية عن الملك الجواد، أحد ملوكهم فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبو بكر ، رداً على رسالة لأحد ملوك الصليبيين أكدت ما بين الملكين من أسباب السلام ، ورغبة الملك الصليبى فى الإبقاء على مظاهر المودة ، وكان الرد استجابة لهذه الرغبة ، وتأكيدا لبقاء الصلة . ومما يلحظ فى هذا الكتاب الدعاء كذلك للملك الصليبى بدوام الملك ، وإشراق نور السعد والمجد ، كما أن فيه شكراً لله على انتظام المودة وبقاء شمل الألفة والمحبة الصادقة ، كما أكدت رسالة الملك الصليبى أن لا فرق بين المملكتين(٢) .

وهذه العلاقات التى قامت فى كثير من الأحيان بين الحكام الصليبيين والمسلمين جرى تصويرها على أنها جديرة بالإهتمام ؛ إذ لم تؤد السياسة فى بعض الأحيان إلى التحالف وحسب ، بل تميزت العلاقات الشخصية بينهم فى كثير من الأحيان بالمجاملة والصداقة . والكثير من الأمثلة الواردة فى هذا الصدد مستمدة من مذكرات أسامة بن منقذ ، وهى حقيقة تشكل بنفسها دليلا على محدودية النمط من الأدلة(٣) .

كان أسامة عضوا فى أسرة عربية حكمت بين عامى ١٠٨١ ، ١١٥٧م فى شيزر، وبوصفه شابا ينحدر من أسرة نبيلة، كان اثنان من الموضوعات الرئيسية فى تعليمه هما الصيد والحرب ، وكانت معظم ذكرياته تتعلق باحدى هاتين الممارستين، وكذلك كانت هاتان تشكلان الاهتمامين الرئيسين لنظراء أسامة من الطبقات

(١) القلقشندى ، جـ٧ ، ص ١١٥ .

(٢) نفسه ، ص ١١٧ .

(3) Smail, Crusading Warfare, P. 44.

الاجتماعية العليا بين الصليبيين . وأقصى ما يمكن استنتاجه من شهادته هو أن العلاقات الودية قامت فى كثير من الأحيان بين أعضاء من الطبقة العسكرية الحاكمة الصغيرة فى كل من الجانبين ، والذين اتفقت نظراتهم وميولهم فى كثير من الأمور بحكم مركزهم الممتاز فى المجتمع ، وما اشتركوا فيه من حماس تجاه الحرب والخيول والصيد .

وعلى الرغم أنه من الجائز من وجهات نظر متعددة أن تفسر أدلة أسامة ابن منقذ على أن الصليبيين استوعبوا بسرعة بعض عادات البلاد ، وأقاموا علاقات حسنة مع جيرانهم ورعاياهم من المسلمين ، إلا أنه من المعقول بالقدر نفسه على الأقل أن نرى فى كل من تأثر عادات الفرنج بالعادات الشرقية وصداقات حاكمهم مع نظرائهم من المسلمين ، عمليات سطحية بمقدار ما هى حتمية . ومن المحتمل أن بعض المؤرخين الذين عالجوا هذا الموضوع لم يدركوا محدودية الأدلة التى يستخدمونها ، وبناء عليه ، فقد تنتقد استنتاجاتهم لافتقارها إلى الحذر والتحفظ اللذين تتطلبهما تلك المحدودية . فجروسيه ، مثلا ، يبالغ فى مط أدلة أسامة تأكيدا لمفهومه الخاص حول المجتمع السورى الفرنجى ؛ إذ يكرر نادرة تتعلق بغارة قام بها تنكرد على الأراضى التابعة لشيزر فى خريف عام ١١٠٨م ، فبعد انتهاء القتال، تبادل القائدان المتحاربان رسائل ودية، وطلب تنكرد منحه هدية حصانا يخص عضوا فى أسرة ابن منقذ فأرسله إليه يمتطيه شاب كردى اسمه حسنون : **«وكان من الفرسان الشجعان وهو شاب مقبول الصورة دقيق ليسابق بالحصان بين يدى دنكرى، فسابق به ، فسبق الخيل المجراة كلها وحضر بين يدى دنكرى فصار الفرسان يكشفون سواعده ، ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرف أنه فارس شجاع، فخلع عليه دنكرى ، فقال له حسنون : يا مولاى ، أريدك أن تعطينى أمانك. إنك إن ظفرت بى فى القتال تصطنعنى ، فأعطاه أمانة على ما توهم حسنون إنهم لا يتكلمون إلا بالإفرنجى وما ندرى ما يقولون»**(١) .

ويعتبر جروسيه هذه القصة مثالا واضحا للعلاقات المتسمة بالشهامة بين الصليبيين والمسلمين (٢) . غير أنه كانت هناك بقية لهذه القصة . فبعد مضى سنة أو أكثر أسر الصليبيون حسنون : **«وعذبوه أشد أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه اليسرى فقال لهم دنكرى .. ، أقلعوا عينه اليمنى حتى إذا حمل الترس استترت**

---

(١) ابن منقذ ، ص ٦٥ – ٦٧ .

(2) Grousset, Histoire des Croisades, I, P. 247, N. 1.

عينه اليسرى فلا يبقى يبصر شيئا فأغلقوا عينه اليمنى كما أمرهم[١] . ويتضح من هذا أنه كان هناك جانب آخر للعلاقات الصليبية الإسلامية وهو ما لم يورده جروسيه .

إن مثل هذا الدليل يحتمل أحيانا تفسيرات متناقضة ، فهناك من يشدد على أهمية التزاوج فى حمل الصليبيين والمسلمين على التفاهم الأوثق الواحد مع الآخر[٢] ، وكذلك يوضح فكرته المؤثرة بالاستشهاد بأقوال أسامة بن منقذ ، ويكرر قصة الفتاة الفرنجية التى أصبحت عروسا لأمير جعبر المسلم فقد روى أسامة أن **،والده جعل عنده من الجوارى المسبيات ، فرأى منهم جارية مليحة شابة ، فأهداها إلى صاحب قلعة جعبر ، وكان صديقه . وكتب إليه يقول : غنما من الإفرنج غنيمة قد نفذت لك سهما منها ، فوافقته . وأعجبته واتخذها لنفسه ، فولدت له ولدا سماه بدران فجعله أبوه ولى عهده ، وكبر ، وتولى بدران البلد والرعية ، وأمه الآمرة الناهية ، فواعدت قوما ، وتدلت من القلعة بحبل ، ومضى بها أولئك إلى سروج ، وهى إذ ذاك للإفرنج فتزوجت بإفرنجى إسكافى ، وابنها صاحب قلعة جعبر**[٣] .

ولا شك أنه كان هناك تزاوج ، ومع ذلك ينبغى ملاحظة أن الفتاة الفرنجية التى تروى عنها القصة لم تذهب إلى أمير جعبر طوعا ، وإنما كجزء من غنائم الحرب ، وإنه رغم المركز الاجتماعى الرفيع الذى بلغته كأم للأمير الحاكم فى جعبر ، إلا أنها فرت إلى قومها الخاصين معرضة نفسها لمجازفة شديدة ، وعاشت حياة مستقرة كزوجة إسكافى إفرنجى . ومهما كان المبرر لاستخدام هذه النادرة ، فثمة مجال لاستخدامها بمبرر مماثل أو أشد لتأييد افتراض مناقض أنه كانت هناك فجوة واسعة بين الفرنج والمسلمين فى سوريا لم يمكن تجاوزها قط على نحو حاسم[٤] .

وكذلك جرى اعتبار ما ذكره ابن جبير من أن أكثر الفلاحين المسلمين فى الأراضى المحتلة كانوا يقدرون تقديرا عاليا ما تمتعوا به من أمن ورفاهية تحت حكم الصليبيين ، الذين أدركوا أنه أكثر إنصافا من حكم الأمراء المسلمين[٥] ، على

(١) ابن منقذ ، ص ٦٥ – ٦٧ .

(2) Smail, Crusading Warfare, P. 45 .

(٣) ابن منقذ ، ص ١٣٠ .

(4) Smail, Loc. Cit.

(٥) انظر ابن جبير ، ص ٢١١ .

أنه دليل قيم على وجه الخصوص على تضامن «الشعب السورى» ؛لأنه يثبت أن المسلمين كانوا أسعد بكونهم أعضاء فى ذلك «الشعب» ،مما أمكن أن يكونوا تحت الحكام المسلمين . وهنا أيضا لم تؤخذ محدودية الأدلة بما يكفى من الاعتبار . فقد جمعت نتيجة لملاحظة شخص واحد ضمن مساحة صغيرة وفترة قصيرة ، وكان بوسع مسلم آخر أن يجد أدلة على النقيض من ذلك(١) . ومن الإنصاف أن نستنتج مما قاله ابن جبير أن بعض الصليبيين لم يضطهدوا رعاياهم المسلمين ، وأن كثيراً من هؤلاء المسلمين رضوا بالحكم الصليبى وكانوا مخلصين له . غير أن فهم كلمات الرحالة حسب معناها الظاهرى واستنتاج أن كافة المسلمين فى الكيانات الصليبية كانوا يفضلون حكم الصليبيين على حكم أمرائهم المسلمين يدلان على التطرف والافتقار إلى البراعة فى النقد(٢) . فمن الطبيعى الافتراض أنه كان هناك عديد من المسلمين الذين لم ينسوا أن الصليبى أجنبى كافر ، فحافظوا على العلاقات مع الدول الإسلامية ، وتطلعوا إلى اليوم الذى ستعاد فيه سوريا إلى السيادة الإسلامية . ومن المحتمل أنه كان هناك عدد أكبر من ذلك بكثير رضوا بصورة سلبية بحكم الصليبيين، ولكنهم كانوا مستعدين لتذكر مطالب دينهم بدعوة من فاتح مسلم منتصر. فإذا كانت هذه هى الأحوال ، فمهما كان مقدار الأمن والعدل اللذين يميزان حكم الصليبيين كان العداء الخفى أو المكشوف من رعايهم المسلمين يشكل احتمالا دائما ، وعاملا يجب على الصليبيين أن يأخذوه بعين الاعتبار ، عند تقرير السياسة العسكرية(٣) .

إن استخدام الصليبيين للمسلمين فى مراكز المسئولية هو من بين الأدلة التى تورد لإثبات وجود شعب سورى إفرنجى واحد . غير أن هناك أيضاً دليلا يثبت أنه مهما أصبحت العلاقات وثيقة بين الصليبيين والمسلمين ، فلم يكن بوسع المسلمين أن ينسوا نداء الدين والحضارة ، وأنه بإمكانه أن يجتذبهم نحو المسلمين الذين كانوا يهاجمون الكيانات الصليبية من الخارج . فقاضى جبلة ، مثلا ، كان موظفا موثوقا به عند بوهيموند أمير أنطاكية ، ومع ذلك ففى حزيران عام ١١٨٨م أوصله حماسه للدين إلى السلطان صلاح الدين الذى كان قد بدا فتحا لمنطقة طرابلس، وعندما طمأنه القاضى بأن جبلة واللاذقية ومدنا أخرى فى الشمال عازمة على التسليم

---

(١) انظر ، ابن العديم فى (R.H.C., Hist. Or., P. 625) .

(2) Smail, Crusading Warfare, P. 55 .

(2)Ibid, P. 56 .

لجيشه ، قام صلاح الدين بمهاجمتها (١) . والحقيقة أن قصصا مثل هذه ، إذا نظرنا إليها بعين الاعتبار تثبت أن وجود الرعايا المسلمين ، وخاصة خلال هجوم إسلامى ناجح ، كان دائما يشكل خطرا ، وعاملا ذا أهمية من الدرجة الأولى فى الوضع العسكرى فى الكيانات الصليبية(٢) .

وبالإضافة إلى الرعايا المسلمين فى الأراضى المحتلة كانت تقيم هناك أقليات يهودية ، ويمكن الوقوف على كثير من أحوالها وعلاقتها بالصليبيين المحتلين بالرجوع إلى كتابات الحاخام بنيامين التطيلى(٣) . وهو رحالة سافر فى حدود سنتى ١١٦٥ ، ١١٧٣م . وقد مدنا هذا الرحالة بمعلومات عامة عن أحوال اليهود فى كل مدينة زارها ويذكر عددهم وأوضاعهم وطرق معيشتهم ومركزهم العلمى والاجتماعى وعلاقاتهم بالبيئة التى يعيشون فيها .

كانت لليهودية – فى بلاد الشام – طوائفها ، شأنها فى ذلك شأن الإسلام والنصرانية . فقد كانت السامرة(٤) يتمركزون حول نابلس وفى القرن الثامن

(١) انظر ، ابن شداد ، ص ٨٩ ؛ ابن الأثير ، ج ٩ ، ص ١٩٠ – ١٩١ ؛ ابن واصل ، ج٢ – ص ٢٥٦ ، ٢٦٠ .

(2) Smail, Crusading Warfare, P. 56 .

(3) The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela (Transl,. And edited by A. Asher, (London, 1840).

(٤) السامرة بالعبرية «**كوتيم**» فرقة دينية فى فلسطين بعد سقوط مملكة إسرائيل باستيلاء تغلث فلاسر ملك آشور على مدينة السامرة، عاصمتها سنة ٧٣٨ق.م فقد جرى هذا الملك على عادة كان ملوك الآشوريين يتبعونها فى غزاوتهم . فأجلى الإسرائيليين عن موطنهم إلى نواحى الخابور ، وشمالى إيران ، وأحل محلهم قبائل جاء بها من أطراف بابل وكوته وعوه وحماه وسفر وايم فسمى اليهود هؤلاء المهاجرين بالكوتيين وسماهم اليونان بالسامريين فغلب الاسم الأخير عليهم . والسامريين موحدون واعتقادهم راسخ فى أنهم من بنى إسرائيل من آل يوسف الصديق ، وهم لا يعترفون بغير أسفار موسى الخمسة من الكتاب المقدس ، يتبعون نصوصها ومنطوقها الحر، شأنهم فى ذلك شأن القرائين فى عدم اتباعهم أحكام التلمود ، فهو شديدو الحرص على حرمة السبت ويصومون يوم الكفارة مثل سائر اليهود ، ولكنم يتشددون به لايستثنون منه حتى الأطفال المرتضعين . والسامريون مثل سائر اليهود يؤمنون بيوم القيامة ، وبوجود الملائكة وظهور المسيح عليه السلام فى آخر الأيام ، ولكنم يزعمون أنه سيكون من آل يوسف، على حين يعتقد اليهود أنه من آل داود . وباعتقاد السامرية أن هذا المسيح =

رفضت طائفة القرائين(١) التى أسسها داود بن عنان قوانين المشنا والتلمود ،ولم

= المنتظر سيموت عندما يبلغ العشرين بعد المائة من عمره ، وبعد دفنه تقوم القيامة ويحل يوم الدين .

لمزيد من التفاصيل عن هذه الطائفة ، انظر : الكتاب المقدس ، سفر الملوك الثانى ، آية ١٧، رحلة بنيامين التطيلى ، ملحق رقم (١) ، ص ١٨٥ - ١٩٠ ، القلقشندى ، جـ١٣، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ؛ مراد فرج ، القراءون والربانون ، (القاهرة سنة ١٩١٨م) ، ص ١٣ - ١٨؛ حسن ظاظا ، الفكر الدينى الإسرائيلى ، أطواره ، ومذاهبه ، (القاهرة سنة ١٩٧١م) ، ص ٢٤٧، وما بعدها ؛ عبد الله حسين ، المسألة اليهودية، (القاهرة ، ١٩٤٦ - ١٩٤٧م) ؛ على عبد الواحد وافى ، اليهودية واليهود ، (القاهرة سنة ١٩٧٠)، ص ٩٧ - ١٠٢ ؛ قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(١) القراءون هم من يقتصرون على المقرأ بمعنى المقرأ، أى ما يقرأ فيه وهو التوراة دون المشنا ، وهو كتاب عبرى فقهى بمنزلة التفسير للتوراة تشتمل على سنة نبوية متواترة أوحى بها إلى موسى فى سيناء أثناء المدة التى قضاها كما أوحت التوراة . غير أن الله أمره بألا يكتبه ، ويبلغه شفاهة، فالمشنى عند الربانيين هى التوراة الشفوية أو الثانية ، فإن شنى بالعبرية تقابل ثني فى العربية فالمشنا يضارعها المثنيا ، والمشنى فى ستة أسفار لكل منها مباحثه . ١ - الزراعة ، ٢- الأعياد، ٣ - النساء ، ٤ - أرش الجنايات أو حماية الضرر ، ٥-الوقوف، ٦ - الطهارة . وبينما ينكر القراءون المشنا يعتقد الربانيون أنها سماوية كالتوراة ويتقيدون بما وضعه علماء التلمود من الترجيح والشرح والتفسير وهو الجمرا . والقراءون يعرفون بالعناية ، كذلك أسسها فى العراق عنان بن داود المتوفى حدود سنتى ٨٠٠ - ٨٩٠م نتيجة خلاف نشب حول تولية منصب رأس الجالون ، ومن أخص الأمور الدينية التى يخالف القراءون بها سائر اليهود تركهم قواعد التقويم اليهودى فى تعيين مراسم الأعياد ، ومنها تشددهم الصارم بحرمة السبت . أما الربانيون وبالعبرية فروسيم أى الفريسيون والكلمة معنيان أولهما الاعتزال أى أن الفريسيين قد اعتزلا الاسيم والصدوقيين ، ذلك أن الفريسيين حافظوا على التوراة والتلمود ، وتشددوا فى أمر الطهارة والنظافة والأطعمة غير مستهينين بأمر الحياة، أما ثانى المعنيين فهو العمل بالتفسير أى المشنا والتوفيق بينه وبين التوراة . هذا ويقال الربانيين وربانيون وهم من عدد القرائين .. وبالعبرية ربانيم جمع ربان بمعنى الإمام الخبير الفقيه . وفى العربية الربانى هو العالم ، أما ربيون فنسبة إلى الرب أى السيد العالم. وقد ورد فى سورة المائدة : آية ٤٤ «إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ=

تؤمن سوى بالكتب المقدسة . وقد انتشر ذلك فى الشرق وسرعان ما أخذ القراءون والربانييون فى تبادل الرسائل العنيفة .

وقد عانى ربانية وقرائين وسامرة ، إبان الحكم الصليبى ، إذ إن أنباء اقتراب قوات الحملة الصليبية الأولى سبقت وصول الجيوش نفسها ، وقد تركت هذه الأنباء التى رويت عن المذابح اليهودية فى أوروبا أسوأ الأثر فى النفوس(١) . وخشيت جماعات كثيرة فى الشرق أن يحدث لها ما هو أكثر سوءا مما حدث لإخوانهم فى الغرب . ولما استولى الصليبيون على بيت المقدس، حرقوا على اليهود معبدهم الذى اجتمعوا فيه(٢) ، فمات منهم عدد كبير وأسر من فر من النار وسيقوا ليباعوا فى أسواق النخاسة ، وروى أن ثلاثين يهوديا بيعوا بدينار واحد(٣) ، ولم يكتف الصليبيون بذلك ، وإنما حرموا على ماتبقى من اليهود بفلسطين دخول مدينة بيت المقدس غداة احتلالهم للمدينة . وفرضوا عليهم هذا الحظر الذى سبق أن فرضه عليه أباطرة الرومان تيتوس وهارديان(٤) . وفقد اليهود بذلك امتياز الحياة فى

= شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»، لمزيد من التفاصيل عن القرائين والربانيين ، انظر: القلقشندى ؛ جـ١٣، ص ٢٥٣ ، ٢٥٧ ؛ رحلة بنيامين التطيلى ملحق رقم (١) ، ص ١٩٢ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ٢، ص ٤٧٢، ٤٧٦، مراد فرج ، القراءون والربانون ، ص ٣٦ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٦، حسن ظاظا، الفكر الدينى الإسرائيلى ، ص ٩٥ ، ١٠٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٩٥ ، ٣٠٦ ؛ عبد الله حسن ، المسألة اليهودية، ص ١٨ – ١٩ ، قاسم عبد قاسم ، أهل الذمة ، ص ١٠٩ – ١١٣ وانظر أيضاً :

Universal Jewish Encyclopaesia, Art "Rabbia and Rabbinate", Vol. 9, PP. 48-51.

(١) عن هذا الموضوع ، انظر Edward Peters, (ed.), The First Crusade, PP. 94-104 يورد رواية كل من ألبرت الايكس .Algert d'Aix ، والأورى Ekkhard of Aura عن الاضطهادات التى نزلت باليهود أثناء حوادث الحملة الصليبية الأولى ، انظر أيضا : Runciman, A History of the Crusades, II, PP. 134-141; A.O.L., I, PP. 111-112. وكذلك قاسم عبده قاسم ، «**الاضطهادات الصليبية ليهود أوروبا من خلال حولية يهودية ، الظاهرة ومغزاها**» ، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط (المجلد الأول ، دار المعارف، ١٩٨٢) ، ص ١٣٥ – ١٦٥ .

(٢) ابن القلانسى ، ص ١٣٧ .

(3) David Ben-Gurion, the Jews in their Land, (London, 1966), P. 214.

(٤) فى سنة ٧٠م هدم الإمبراطور الرومانى تيتوس هيكل اليهود وقام بقتل =

المدينة المقدسة وحرية التنقل والمعيشة فى مدن فلسطين ، وهو الامتياز الذى حصلوا عليه من المسلمين غداة الفتح الإسلامى لبلاد الشام(١) .

ولقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبى فى كل مدن فلسطين تقريبا وشملهم القتل والأسر فى يافا والخليل وحيفا وجبل الكرمل وقيسارية(٢) . ونتيجة لهذه المذابح الصليبية هرب من تبقى من اليهود فى مدن فلسطين، ناجيا بحياته إلى أماكن أكثر أمانا ، حتى كادت مدن فلسطين أن تخلو تماماً من اليهود . وذكر الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى ، أنه رأى مدنا فى فلسطين خالية من اليهود أو تكاد . فذكر أنه لم ير فى يافا سوى يهودى واحد، شأنها فى ذلك شأن قاقون وزيدين، وكان فى بيت

=وطرد اليهود من فلسطين والقدس . كذلك تكرر الأمر مع اليهود فى سنة ١٣٥م حين فشلت الثورة التى قاموا بها فى فلسطين ضد الرومان فى عهد الإمبراطور هادريان فى الفترة ما بين (١٣٢ - ١٣٥م) ، وهى الثورة التى عرفت باسم ثورة باركوكبا (ابن النجوم) وكانت آخر ثوراتهم فى فلسطين . وبعد أن أخمد القائد يوليوس سيفروس قائد هاردريان هذه الثورة قام بهدم معبد اليهود وأقام مكانه معبدا وتمثالا للإلهه جيوبيتر . كما قام هاردريان بتغيير اسم مدينة القدس إلى إيليا كابتوليا . كذلك غير الأسماء العبرية فى المدينة إلى أسماء رومانية، وأصدر هاردريان قراراً يحرم على اليهود دخول مدينة القدس أو العيش فيها وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك، وظلت القدس وسائر مدن فلسطين محرمة على اليهود حتى الفتح الإسلامى ، انظر :

Eve Goldmann, a History of the Jewish People, (London, 1967), P. 72.

(١) ظل حظر دخول القدس على اليهود قائماً حتى استيلاء جيوش الخليفة عمر بن الخطاب على القدس سنة ٦٣٧م وكان زعماء النصارى قد اشترطوا على الخليفة شروطاً يسلمون بعدها المدينة منها شرط منع اليهود من دخول المدينة ، ولكن الخليفة المسلم قبل كل الشروط ما عدا هذا الشرط، معتذرا بأن القرآن الكريم حدد لأهل الكتاب مالهم وما عليهم وليس فيه شىء يسمح بهذا . وبذلك أصبح لليهود الحق فى العودة والعيش فى المدينة . ولم يجرؤ اليهود طوال أيام الخلفاء الراشدين وأوائل الأمويين على الاستيطان بالقدس ، ثم سمح لهم بعد ذلك منذ أيام الخليفة عبد الملك بن مروان . وحين أصبحت الشام فى أيدى الفاطميين واستولوا على القدس ازدهرت بها الطائفة اليهودية لعطفهم على أهل الكتاب وبخاصة اليهود. انظر ، حسن ظاظا ، القدس مدينة الله أم مدينة داود (الإسكندرية ، ١٩٧٠م) ، ص ٣٠ - ٣١ .

(2) Ben-Gurion, The Jews, P. 214.

النبى يهوديان ، وفى بيت جبرين وفيها ثلاثة من اليهود[١].

أما فى بيت المقدس فكان يوجد أربعة يهود . وإن كان قد ذكر فى موضع آخر من كتاب رحلته أنه شاهد مائتى يهودى عند برج داود فى أطراف القدس[٢]. ومع أن بنيامين يروى أنه مر على بعض مدن فلسطين، فلم يشاهد بها يهوديا واحدا، إلا أنه يذكر أن عدد اليهود فى عكا بلغ نحو مائتى يهودى[٣]، وقيسارية وبها نحو المئتين من الربانيين[٤] ، والرملة وفيها نحو ثلاثمائة يهودى ، وعسقلان وفيها نحو مائة يهودى من الربانيين ونحو الأربعين من اليهود القرائين[٥] ، وقلعة الحصن وفيها نحو ثلاثمائة يهودى[٦] ، وجوسن وفيها نحو عشرين يهوديا[٧]، وعلمة وفيها نحو خمسين يهوديا [٨] ، وفى بيت لحم أحد عشر يهوديا[٩]. وفى نابلس ألف عائلة من السامريين [١٠] ومنهم مائتا عائلة فى قيسارية[١١]، وثلاثمائة عائلة فى عسقلان[١٢]، وعندما خرج ابن جبير من دمشق يوم ٥ جمادى الآخر

---

(1) Benjamin, PP. 65, 79, 80

(2) Ibid., P. 69.

فى حين أن الحاخام بتاحيا الذى قام برحلته إلى الشرق الإسلامى ، بدأ فى حدود سنتى ١١٧٥ - ١١٨٥م ، عن طريق براغ وبولونيا وكييف والقرم فالقوقاز ، ومن ثم عرج على أرمينية والفرات والموصل فبغداد وإيران وسوريا وفلسطين ، لم يجد فى القدس إلا شخصا واحدا . انظر :

متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ١ ، ص ٤٩ .

(3) Benjamin. P. 64.

(4) Ibid, P. 65.

(5) Ibid, P. 80.

(6) Ibid, P. 78 .

(7) Ibid, P. 82 .

(8) Ibid .

(9) Ibid, P. 75.

(10) Ibid, P. 66.

(11) Ibid, P. 65 .

(12) Ibid, P. 80 .

سنة ٥٨٠هـ (١٣ سبتمبر ١١٨٤م) رأى السلطان صلاح الدين يهاجم حصن الكرك ويهزم الصليبيين ويأخذ عددا كبيرا منهم أسرى . وقد كان من بين هؤلاء الأسرى عدد من السامريين. وفى هذا الصدد يقول ابن جبير : «**وامتلأت أيدى المسلمين سبيا لايحصر عدده من الإفرنج ومن فرقة من اليهود تعرف بالسامرة منسوبة إلى السامرى**»[١] . ولا نعرف ، فى الحقيقة ، هل كان هؤلاء السامريون يساعدون الصليبيين فى قتالهم ضد المسلمين ، أم أنهم كانوا يعملون فى خدمتهم فقط .

ومما يستوجب الالتفات هنا ، وقد يدعو للعجب ، أن معظم اليهود فى الأراضى المحتلة كانوا يعملون فى مهنة الصباغة لأن اليهودى ولو كان واحدا فى بلد فإنه يعمل بهذه المهنة . ومن المعلوم أن الصباغة كان لها أهمية كبرى فى العصور الوسطى ، حيث تركزت فى حوض البحر المتوسط ، وكانت أوروبا تستورد من الشرق نوعاً من القماش المصنوع يعرف بالسقلاطون Siclaton ولعل هذا يفسر لنا سبب كثرة الصباغين من اليهود . وكان بأيديهم معظم صناعة الزجاج حيث عاشت على هذه الصناعة فى نابلس جالية صغيرة من السامرة .

وقد ظل تشتيت اليهود وتحريم سكناهم فى بيت المقدس قائما حتى فتح صلاح الدين لهذه المدينة .. فبعد أن حرر صلاح الدين القدس (يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ / ٢ أكتوبر ١١٨٧م) سمح لليهود بالعودة إليها ، وأظهر من التسامح والعفو مع أهل المدينة ما جعل المؤرخين يذكرونه بالثناء والتقدير . ولقد أمن سكان المدينة جميعهم على أرواحهم ووزع جنوده فى شوارع المدينة وأحيائها ليحفظوا الأمن والنظام بها ويحفظوا أرواح سكانها ، فلم يقع حادث واحد من حوادث السرقة والنهب التى تلازم الفتح عادة[٢] . ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل مع النصارى واليهود مثلما فعل الصليبيون الأول من ضروب التوحش والإبادة التى وقعت على سكان القدس[٣] .. فلقد كانت رحمته وعطفه على نقيض أفعال الغزاة الصليبيين فى الحملة الصليبية الأولى[٤] .

وحين شعر اليهود بسماحة أخلاق هذا الفاتح العظيم، وعدم تعصبه الدينى

(١) ابن جبير ، ص ٢٠٩ .

(٢) عارف العارف ، تاريخ القدس ، القاهرة ، ١٩٥١م ، ص ٧٨ – ٧٩ .

(٣) جوستاف ليبون ، حضارة العرب ، ص ٣٢٩ .

(4) Runciman, A History of the Crusades, III, P. 466 .

أخذوا فى العودة من مخابئهم إلى أرض فلسطين والقدس ابتداء من سنة ١١٩٠م. وكتب الشاعر الأديب اليهودى «يهودا الحريزى» الذى زار مدينة القدس بعد ربع قرن من عودتها إلى المسلمين على يد صلاح الدين (حوالى سنة ١٢١٦م) عن ذلك الأمر ، يقول : «.. **ولكن لماذا لم يسمح لليهود بالبقاء فى فلسطين حين كانت فى قبضة الصليبيين النصارى؟.. قيل إن السبب فى ذلك إننا المتسببون فى قتل إلههم. وأنذروا لذلك بأنهم سوف يأكلوننا أحياء إذا تمكنوا منا . لكن الله أرسل الملك العادل صلاح الدين وزوده بالحكمة والشجاعة، فسار بجيش من مصر وحاصر القدس وأسقط الله بعونه المدينة فى يده . وعندئذ أرسل السلطان مناديا ينادى فى أرجاء البلاد بأن يعود كل سليل من سلالة إبراهيم إلى القدس من العراق ومصر ومن كل الأماكن التى التجأوا إليها**»(١) وهكذا نجد اليهود فى العصور الوسطى لايكتفون بالشماتة فى النصارى ، وإنما يريدون أن يحققوا مكاسبهم دائمًا على حساب المسلمين والنصارى على السواء!

******

(١) القوصى ، «**صلاح الدين واليهود**» ، المجلة التاريخية المصرية ، مج٢٤ ، ١٩٧٧م ، ص ٤١ .

ثبت

المصادر والمراجع

بيان المختصرات

A.H.R. : American Historical Review.

A.O.L. : Les Archives de L'Orient Latin. 2 toms., Publiées sous le patronage de la Société de l'Orient Latin Paris, 1881-1884.

B.I.H.R. : Bulletin of the Institute of Historical Research.

C.M.H. : The Cambridge Medieval History.

E.H.R. : The Economic History Review.

J.R.C.A.S. : Journal of the Royal Central Asian Society.

P.P.T.S : Palestine Pilgrims, Text Society Library Committee of the Palestine Exploration Fund, 13 Vols., and General Index, London, 1887-79.

R.H.C. : Recueil des Historiena des Croisades, Pub. Academie des Insurptions et Belles Letters, Paris, 1841-1906.

Doc.Arem : Documents Armeniens, 2 tomes, 1869-1906.

Hist. Occ. : Hisotiens Occidentaux, 5 tomes, 1844-1095.

Hist. Or. : Historiens Orientaux, 5 tomes, 1872-1906.

R.O.L. : Revnede L'orient Latin.

أولاً: المصادر

المصادر العربية :

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبـى الكرم محمد بن محمد عبد الكـريم ابـن عبد الواحد الشيبانى ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤م) :

– الكامل فى التاريخ اثنا عشر جزءا ، بولاق ، ١٢٧٤ هـ .

– التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل ، نشره وحققه عبد القادر أحمد طليمات ، القاهرة ، ١٩٦٣م.

الأدريسى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس ، ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٦م) :

– نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (*)

الأصفهانى (عماد الدين الكاتب ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م) :

– سنا البـرق الشـامى ، ٥٦٢ هـ / ١١٦٦م : ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م ، اختصار الفتح بن على البندارى من كتاب البرق الشامى ، تحقيق فتحية النبراوى ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

– الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله ، ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) :

– تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، الطبعة الأولى ، بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ ، جزآن فى مجلد واحد .

بنيامين التطيلى (الرحالة الربى بنيامين بن يونة التطيلى النبارى الأندلسى):

– رحلة بنيامين ، ترجمها عن الأصل العبرى وعلق على حاشيتها وكتب ملحقاتها عزار حداد ، بغداد ، ١٩٤٥ م .

(*) اعتمدنا فى البحث على المخطوط الذي قام بتحقيقه F.Gaabrie II. وآخرون بعنوان :
Al -Idrisi, Opus Geographicvm Consilio et Avetoritate, Nepoli-Romae, A.D. McMLXXIV, Vol. V.

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى البلنسى ، ت ٦١٤ هـ - ١٢١٧م) :

- رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبنانى - دار الكتاب المصرى ، دون تاريخ .
- رحلة ابن جبير ، تحقيق د/ حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٥٥م.

ابن الجوزى (أبو المظفر شمس الدين يوسف ابن قزاؤغلى سبط ، ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧م) :

- مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، القسم الأول من الجزء الثانى ، (من ٤٩٥ - ٥٨٩هـ) ، الهند ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١م.

الحسن بن عبد الله :

- آثار الأول فى ترتيب الدول ، بولاق ، ١٢٩٥م.

ابن الساعاتى :

- ديوانه ، تحقيق ونشر أنيس المقدسى ، طبع فى بيروت بالمطبعة الأمريكانية ، سنة ١٩٣٨م.

أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين ، ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧م):

- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزآن فى مجلد واحد ، بيروت . د. ت .

ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم ، ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٩م) :

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية أو سيرة صلاح الدين ، تحقيق جمال الدين الشيال ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٤م.

الطرطوسى (مرضى بن على بن مرضى ، ت ٥٨٩هـ) :

- تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسوار ونشر أعلام الإعلام فى العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء ، عنى بتحقيقه ونشره كلود كاهن فى :

Bulletin D'etudes Orientaales, XII, Annees 1947-1948, Beyrouth, 1948.

ابن عبد الظاهر (محى الدين عبد الله بن نشوان بن عبد الظاهر المصرى ، ت ٧٩٣هـ / ١٢٩٢م) :

– تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل، مراجعة محمد على النجار ، القاهرة ، ١٩٦١م.

ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج الملطى ، ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦) :

– تاريخ مختصر الدول ، بيروت ، ١٩٨٥م.

العينى (بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى ، ت ٨٥٥هـ / ١٣٥١م) :

– منتخبات من عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان . انظر :

(R.H.C. Hist. Or., 111, PP. 181-250).

أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن على ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) :

– المختصر فى أخبار البشر ، الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية بمصر .

ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على ، ٦٠٧ هـ / ١٥٠١م) :

– تاريخه ، تحقيق أسد رستم وآخرين ، المطبعة الأمريكانية ، بيروت ، ١٤٩٢م.

ابن كثير القرشي (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر ، ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣م):

– البداية والنهاية فى التاريخ ، ١٤ جزء ، القاهرة ، ١٣٥١ – ١٣٦٨هـ.

القزوينى (أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود ، ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣م)

ـ آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

ابن القلانسى (أبى يعلى حمزة ، ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م) :

–ذيل تاريخ دمشق ، طبع فى بيروت ، بمطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨م.

القلقشندى (أحمد بن على بن أحمد عبد الله ، ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م) :

– صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزءً ، القاهرة ١٩١٣ – ١٩٢٠م).

ابن القيسرانى (محمد بن نصر بن صغير القيسرانى) :

- ديوانه ، مخطوط تحت رقم ١٤٨٣ ، أدب، بدار الكتب المصرية .

أبو المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) :

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٢٩م.

المقدسى (شمس الدين عبد الله المعروف بالبشارى، عاش فى القرن الرابع الهجرى/ القرن العاشر الميلادى) .

- كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٥٦م.

المقريزى (تقى الدين أبو العباس أحمد ، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) :

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا نشره وحققه وعلق حواشيه وقدم له ووضع فهارسه جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

- السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزآن الأول والثانى إلى سنة ٧٥٥ هـ نشره وعلق عليه محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٤ - ١٩٥٨م.

- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط وآثار ، جزءان ، القاهرة ، ١٢٧٠هـ.

ابن مماتى (أبو المكارم أسعد بن الخطير أبى سعد ، ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩) :

- كتاب قوانين الدواوين ، جمعه ونشره عزيز سوريال عطية ، القاهرة، ١٩٤٣م.

ابن منقذ (مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد ، ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م):

- كتاب الاعتبار ، حرره فيليب حتى ، د. ف. مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠م .

ناصر خسرو علوى (أبو معين الدين ، ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١م) :

- سفر نامة ، نقله إلى العربية وعلق عليه يحيى الخشاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥م .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد ، ت ٣٣٢ هـ / ٧٣٢م.
- نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القاهرة ، ١٩٣٨م .

ابن واصل (جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم ، ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨م) :
- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، نشره وحققه وعلق على حواشيه وقدم له جمال الدين الشيال فى جزأين ، القاهرة ، ١٩٥٧م) .

اليونينى (موسى بن محمد بن أحمد قطب الدين ، ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦م) :
- ذيل مرآة الزمان ، حيدر آباد ، الركن ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٤م.

المصادر الأفرنجية

Albertus Aquensis :

- Historia Hierosolymtana, R.H.C., Hist. Occ., IV, 271-713, Paris, 1879.

Anna Comnena :

- The Alexiad, translated from the Greek by E.R.A., Sewter, London, 1969.

Anonymous :

-Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitaiorum.

The deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusalemm edited and translated by Rosalind Hill, Thomas Nilron, London, 1962.

Anonymous Syriac Chronicle :

- The First and Second Creusades, Translated by A.S. Tritton, With notes by H.A.R. Gibb. J.R.AS., 1933, PP. 69-101 and PP. 273-305.

Burchard of Mount Sion :

-A Dexcibption of The Holy Land (A.D. 128), Translated from original Latin by A. Stewart with Geographical notes By C.R. Conder, London, 1896, P.P.T.S., XII, P. 1-136.

Daniel "The Russian Abbot" :

- His Pilgrimage in the Holy Land (1106-7 A.D.), Annotated by C.W. Wilson, P.P.T.S., IV, PP. 1-108.

Fretellus, Archdeacon of Antioch (C. 1130 A.D.), Translated from the original Latin and annotated by J.R. Macpherron. P.P.T.S., V, PP. 1-58.

Fulcher of Chartres :

- A history of the expedition to Jerusalem, 1095-1127, Translated by Frances Rita Ryan and edited by Harold S. Fink, Knoxville, 1969.

Jacques de Vitry :

- History of Jerusalem (1180-A.D.)

Translated from the original Latin by A. Stewart, P.P.T.S., XII, PP. 1-128 .

Joanes Phocas :

- His Pilgrimage (1185 A.D.)

Translated form original Greek by A. Stewart, P.P.T.S., V, PP. 1-36 .

John of Wurzburg :

- Description of the Holy Land (1160-70 A.D.), Translated from the original by A. Stewart, annoitated by C.W. Wilson, P.P.T.S., V., PP. 1-72 .

Joinville (Jean de) :

- Histoire de Saint Louis .Texte original du XIVe Siécle, accompagné d'une traduction en Francais Moderne par M. Natalis de Wailly, Paris, 1874,(*)

Godefory de Bouillon :

- "Godefory de Bouillon â quelques-uns des princews croisés en voute pour regagner l'occident : Les rappelle â son secours â la nouvelle de l'arrivée des troupes égyptiennes, A.O.L., I, PP. 199-200.
- "Godefory de Bouillon â Bohemond : Uns des princes voisés en route pour negagner l'occident : Les rappelle â son secours â la nouvelle de l'arrive des troupes Egyptiennes" A.O.L., I, PP. 199-200.

Godefory de Bouillon â Bohemond :

- Lui annonce la prise de Jérusalem et son élection, A.O.I, I, PP. 197-198 .

Jean d'Ibelin, R.H.C., Lois, Les Assises des Jerusalem, 1, 7-432.

Louis IX. (St. Louis):

-"St Louis nolise seize navires genois pour sa premiere Corisade" A.O.L., II, PP. 23-6.

(*) اعتمدنا فى هذا البحث على الترجمة العربية التى قام بها الدكتور حسن حبشى لهذا الكتاب، وهي بعنوان «القوليس ، حياته وحملاته على مصر والشام»، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

Matthieu d' Edesse :

- Chroinique de Matthieu d'Edesse (962-1136), avec continuation de Gregoire le pretre Jusqu' en 1162, traduites paar M. Edouard Dulaurier, Paris, 1858.

Raimundus de Aguilers :

-Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem, R.H.C., Hist. Occ., 111., 235-369, Paris, 1866.

Robert de Clari :

- La conquete de constantinople, Paris, 1924(*).

Saewulf :

- His pilgrimage (1103 A.D.), translated by W.R. Brounnlow, P.P.T.S., IV., PP. 1-55.

Theoderick :

- Description of the Holy Places (C. 1172 A.D.),

Translated from the original Latin by A. Stewart, P.P.T., V., PP. 1-86.

William of Tyre :

- A Hisrory Of The Deeds Done Beyond The Sea translated and annotated by E.A. Babacocle and A.C. Krey, 2 Vols., New York, 1943.
- Historia rerum ikn patrtibus transmarinis gestarum, R.H.C., Hist. Occ., 1, Paris, 1844.

(*) اعتمدنا فى هذا البحث على الترجمة العربية التي قام بها الدكتور حسن حبشي لهذا الكتاب، وهي بعنوان «فتح القسطنطينية على يد الصليبيين»، لقاهرة ، ١٩٦٤م .

ثانيا : المــراجـع

- المراجع العربية والمعرَّبة

إحسان عباس : العرب فى صقلية ، القاهرة ١٩٦١ م .

أحمد دراج : « عيذاب » ، مجلة نهضة أفريقيا ، أغسطس – يوليو ١٩٥٨ م .

أرشيبالد (ر . لويس) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

أرنولد (ت . و .) : الدعوة إلى الإسلام ، بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمه إلى العربية وعلق عليه حسن إبراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، وإسماعيل النحراوى ، الطبعة الثانية ، القاهرة، ١٩٥٧ م .

إسحاق تاوضروس عبيد : روما وبيزنطة ، من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ، ٨٦٩ – ١٢٠٤ م ، دار المعارف ، ١٩٧٠ م .

أسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٥٦ م .

باركر (أرنست) : الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية السيد الباز العرينى ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

بدوى (أحمد أحمد) : الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، الطبعة الثامنة ، القاهرة ١٩٧٩ م .

براور (يوشع) : عالم الصليبيين ، ترجمة وتقديم وتعقيب قاسم عبده قاسم ، محمد خليفة حسن ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨١ م .

بوغوليوبسكى (الكسيس) : «رحلة السائح الروسى دانيال إلى الأراضى المقدسة فى أول عهد الصليبيين » ، المشرق ، السنه الرابعة والعشرون العدد ٩ ، أيلول ١٩٢٦م ، ص ٦٤٢ – ٦٤٨ .

(جوزيف نسيم) : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، الإسكندرية ، ١٩٨٣م .

–العدوان الصليبى على بلاد الشام ، هزيمة لويس التاسع فى الأراضى

المقدسة ، الطبعة الرابعة ، الإسكندرية ١٩٨٤ م .

-العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ م .

(حسن) : الفكر الدينى الإسرائيلى ، أطواره ، ومذاهبه ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

حبشى (حسن) : الحرب الصليبية الأولى ، القاهرة ١٩٤٧ م .

-الشرق العربى بين شقى الرحى ، حملة القديس لويس على مصر والشام، القاهرة ، ١٩٤٩ م .

-نور الدين والصليبيون ، حركة الإفاقة والتجمع الإسلامى فى القرن السادس الهجرى ، القاهرة ١٩٤٨ م .

(حسين مؤنس) : ابن بطوطة ورحلاته ، تحقيق ودراسة وتحليل ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

ديل (شارل) : البندقية جمهورية أرستقراطية ، تعريب أحمد عزت عبد الكريم ، وتوفيق إسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ م .

(رأفت) : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٨ م .

التميمى (رفيق) : الحروب الصليبية ، الطبعة الأولى، القدس، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م.

رنسيمان (ستيفن) :تاريخ الحروب الصليبية ، ثلاثة أجزاء ، نقله إلى العربية السيد الباز العرينى، بيروت ، ١٩٦٧ م .

-الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، راجعه زكى على، القاهرة ١٩٦١ م .

رينالدى (لويجى) : **« المدينة العربية فى الغرب »** ، المقتطف ، مج ٥٩، القاهرة، ١٩٢١ م ، ص ٥٣٣ - ٥٣٩ .

ستيفنسون (و.ب) : **«الحروب الصليبية روحها وأثرها ، نتائج الاتصال بين المسيحين والمسلمين فى المملكة اللاتينية ببيت المقدس»** ، مقالة فى كتاب تاريخ العالم الذى نشره جون ا . هامرتن ، وأشرفت على ترجمته إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم ، مج ٥ ،القاهرة .

سعداوى (نظير حسان) :

- التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ، ١٩٥٧م.

– جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٩م.
– الحرب والسلام ، زمن العدوان الصليبى، القاهرة ، ١٩٨٦م.
– المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، القاهرة ، ١٩٦٢ م.

سمالى (بيريل) : المؤرخون فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، القاهرة، ١٩٢٩م.

سميل : (ر.س.) : الحروب الصليبية ، ترجمة سامى هاشم ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٨٢م.

بصيلى (الشاطر) : «**الكارمية**» المجلة التاريخية المصرية ، مج ١٣ ، القاهرة ، ١٩٧٥م.

لبيب (صبحى) :

– «**التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى**» ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٤ ، العدد الثانى ، القاهرة ، ١٩٥٢م.

– «**سياسة مصر التجارية فى عصرى الأيوبيين والمماليك**» ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٢٨ ، ٢٩ ، القاهرة ، ١٩٨١ – ١٩٨٢م.

عاشور (سعيد عبد الفتاح) :

– الحركة الصليبية ، جزءان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٣م .
– قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

– «**المجتمع الإسلامى فى بلاد الشام فى عصر الحروب الصليبية**» ، مقالة فى كتاب تاريخ بلاد الشام بين القرن السادس إلى القرن السابع عشر، وهو ثبت كامل لأعمال المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام المنعقد فى الجامعة الأردنية من ٢٨ ربيع أول – ٢ ربيع ثانى ١٣٩٤ / ٢٠ نيسان – ٢٥ نيسان ، الطبعة الأولى ، ١٠٧٤م .

عبادة (عبد الفتاح) : سفن الأسطول الإسلامى وأنواعها ومعداتها فى الإسلام ، القاهرة ، ١٩١٣م.

العبادى (أحمد مختار) ، سالم (السيد عبد العزيز) : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، بيروت ، ١٩٧٢م.

زكى (عبد الرحمن) :

– السلاح فى الإسلام ، دار المعارف ، ١٩٥١م.

- «**العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين**» ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٧ ، القاهرة ، ١٩٥٨م.
- «**القلاع فى الحروب الصليبية**» ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ١٥ ، القاهرة ، ١٩٦٩م.

فهمى (عبد الرحمن) : النقود العربية ، ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، ١٩٦٤م.

حسين (عبد الله) : المسألة اليهودية ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

العدوى (إبراهيم أحمد) :

- المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦١م.
- قوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٣م.

العرينى (السيد الباز) :

- الإقطاع الحربى عند الصليبيين بمملكة بيت المقدس فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
- «**نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس فى القرن الثانى عشر الميلادى**» ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مج ٢٠ ، العدد الثانى ، ديسمبر ١٩٥٨م.

عطية (عزيز سوريال) : العلاقات بين الشرق والغرب ، تجارية . ثقافية . صليبية، ترجمة فيليب صابر سيف ، راجعة الأستاذ أحمد خاكى ، القاهرة ، ١٩٧٢م.

العقاد (عباس محمود) : أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ، الطبعة الثامنة ، القاهرة، ١٩٧٣م.

الغمراوى (على) :

- دراسة فى المنهج التطبيقى لتاريخ الطب العربى ، الأصول المعجمية، مع شواهد من كتاب الحشائش والسموم نقل اصطفان ابن باسيل عن كتاب ديسقوريدس فى هيولى الطب ، القاهرة ، ١٩٧٩م.
- مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبى الوسيط ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٧م.

- ملحمة البطولة الجرمانية ، القاهرة ، ١٩٧٢م.
- موضوعات فى الثقافة الأوروبية فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٧٢م.

حتي (فيليب) :

- **«تحفة الشرق للغرب»** ، الكتاب الذهبى ليوبيل المقتطف الخمسينى ، القاهرة ، ١٩٢٦م.
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد ، عبد الكريم رافق ، بيروت ، ١٩٥٨م.
- لبنان فى التاريخ منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر ، ترجمة أنيس فريحة ، بيروت ، ١٩٥٩م.

قاسم عبده قاسم :

- أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، دراسة وثائقية ، الطبعة الثانية، القاهرة ، ١٠٧٩م.
- الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق ، بيروت ، ١٩٨٥م.
- الخليفة الأيديولوجية للحروب الصليبية ، دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥ - ١٠٩٩م ، الطبعة الأولى ، القاهرة .
- **«الدوافع الاجتماعية فى الحركة الصليبية»** ، ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، مج - ٢ ، القاهرة ١٩٨٣ م ، ص ١٨٧ - ٢٣٣ .
- رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٨٣م.
- **«صورة المقاتل الصليبى فى المصادر العربية»** المجلة التاريخية المصرية ، مج ٢٧ ، القاهرة ، ١٩٨١م، ص ١٠ - ٣٧ .
- **«الاضطهادات الصليبية ليهود أوروبا من خلال حولية يهودية. الظاهرة ومغزاها»** ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، مج١ ، القاهرة، ١٩٨٢م ص ١٣٥ - ١٦٦ .

القوصى (عطية) :

- **«أضواء جديدة على تجارة الكارم»** ، المجلة التاريخية ، مج ٢٢ ، القاهرة ، ١٩٧٥م.

- تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، القاهرة ، ١٩٧٦م.
- «**صلاح الدين واليهود**» ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٢٤ ، القاهرة، ١٩٧٧م ، ص ٣٩ - ٥٤ .

كانتور (ن . ف) : التاريخ والوسيط ، قصة حضارة : البداية والنهاية ، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٨٣م.

الكنانى (مصطفى حسن محمد) : العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى ٥٦٧ - ٦٩٠هـ / ١١٧١ - ١٢٩١م، الإسكندرية ، ١٩٨١م.

كويلاند (ج.و.) ، فيذوجرادف (ب.) : الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ، ١٩٥٨م.

فهمى (نعيم زكى) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٧٣٣م.

النقاش (زكى) : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية ، بيروت ، ١٩٥٨م.

زيادة (نقولا) :

- «**رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى**» ، هدية المقتطف السنوية ، القاهرة، ١٩٤٣م.
- «**سوريا فى الرحلات الإسلامية**» ، المقتطف ، العدد الثانى من المجلد بعد المائة ، القاهرة ، فبراير ١٩٤٣م ، ص ١٧١ - ١٧٦ .
- «**سوريا فى زمن الصليبيين**» ، المقتطف ، مج ٨٧ ، يوليو - ديسمبر ، ١٩٣٥م ، ص ١٦ - ٢٢ .

الهرفى (محمد على) : شعر الجهاد فى الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م.

محمد ماهر حمادة : وثائق الحروب الصليبية ، والغزو المغولى للعالم الإسلامى ، بيروت ، ١٩٧٩م.

مراد فرج : القراءون والربانيون ، القاهرة ، ١٩١٨م.

مورينو (مارتينو ماريو) : المسلمون فى صقلية ، بيروت ، ١٩٥٧م.

مونروند (مكسيموس) : تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب، نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة ، جزءان ، القاهرة، ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م.

النبراوى (رأفت) : «**عملات صليبية بكتابة عربية فى بلاد الشام**» ، مجلة القدس ، العدد ٥٢، صفر ١٤ - ٥هـ / نوفمبر ١٩٨٤م.

كيلانى (محمد سيد) : الحروب الصليبية ، وأثرها فى الأدب العربى بمصر والشام ، دار الفرجانى (القاهرة - طرابلس - لندن) ، ١٩٨٤م،

لانجر (وليم) : موسوعة تاريخ العالم ، أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٥٩م.

لوبون (جوستاف) : حضارة العرب ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، الطبعة الثالثة، القاهرة ، ١٩٥٦م.

لوبير (ر.) : «**التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب**» ، بحوث فى التاريخ الإقتصادى ، ترجمة توفيق إسكندر ، القاهرة ، ١٩٦١م.

لويس (شيخو) : «**جبيل : تاريخها . أديانها . آثارها**» ، المشرق ، السنة الثانية والعشرون ، العدد ٥ ، آيار ١٩٢٤م.

هس (ج.م) : العالم البيزنطى ، ترجمة وتقديم وتعليق رأفت عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٧٧م.

هنرى لامنس : «**الفلاحة والأحراج اللبنانية**»، المشرق ، السنة الثامنة ، ١٩٠٥م.

هونكة (زيغريد) : شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة العربية فى أوروبا ، نقله عن الألمانية فاروق بيضون ، وكمال دسوقى ، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى خورى ، الطبعة السادسة ، بيروت ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

وافى (على عبد الواحد) : اليهودية واليهود ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

- المراجع الإفرنجية :

Archer, (T.A.) : The Crusades, the story of the Latin Kingdom, London, 1962 .

Arnold, T.A. Guillaume, A. (ed.) : The legacy of Islam, Oxford, 1940.

Ashtor, (E.) : The Karimi merchants, commerce aand culture, London, 1962.

Atiya, (A.S.) :

- The Crusades historigraphy and bibliography, Indiana University Press, 1962.
- Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.

Baldwin (M.W.) :

- **"The Latin States under Baldwin III and Amarlic I, 1143-1174"** in Setton (Ed.), A History of the Crusades, I. PP. 536-563.
- **"The decline and fall of Jerusalem, 1174-1189"**, in Setton (Ed.), A history of the Crusades I, PP. 590-621.

Barker, (E.), The Crusades, in the Legacy of Islam, PP. 40-78.

Ben Gurion, (D.) : The Jews in their land, London, 1966.

Berry (V.G)., "The Second Crusade" in Setton (ed.), A. History of the Crusades

Boase (T.S.R.) Kingdoms and Strongholds of the Crusaders, London, 1971

Bradford, (E) . The Sword and the scimitar, the saga of the Crusades, London, 1947.

Brooke(Z.N.) : A History of Europe, 911 to 1198, 2nd ed ., London, 1947.

Bryce, (J) : The Holy Roman Empire, London, 1950 .

Campbell, (G.A.),: The Kinghts templars, their rise and fall, (AMS Press, New York, 1980.

Cantor, (N.F.) : Medival History, The life and death of civization, 2nd. Ed., London, 1969 .

Cate (J.L.),: "The Crusades of 1101, " in Setton (ed.), A history of the Crusades,1, PP. 343 - 367 .

Conder (C.R.),: The Latin Kingdom of Jerusalem, 1099 to 1291 A.D., London, 1897.

Diehl (Ch.),: "Les monuments de L'Orient Latin", R.O.L., V, PP. 293-310.

Duggan, (A.) : The story of the Crusades, with drawing by C. Water Hodges, London, 1963 .

Dury (V.) : The history of the Middle Ages, New York, 1904 .

Faris, N.A., (ed.) : The Arab Heritage, Princeton, 1944.

Feddan, (R.), : Crusader Castles, London, 1950 .

Fink (H.S.),: "The foundation of the Latin States, (1099 - 1118, in Setton., ed) A history of the Crusades 1, PP.

Ganshof, (F.L.) : Feudalism, 3rd ed., Longman, 1970.

Goiten : "New lights on the beginning of the Karimi Merchants", J.R.A.S., 1, 11, 1928.

Goldmann, (E.) : A history of the Jewish people, London, 1967.

Grousset, (R.) : Histoire des Croisades et du royaume France de Jerusalem, 3 Vols., Paris, 1934.

Hagenmeyer, (H.) :

- **"Chronologie de la Premiere Croisade, 1094-1100",** R.O.L., VI. PP. 214-293, 490-540, VII, PP. 275-503.

- Chronologie de l "hisroire du Royaume de Jerusalem, Regne de Baudouin I, 1101-1118" , R.O.L. IX, PP. 384-465, X, PP. 372-405, XI, P. 145 .

Heyed (W.),: Historie du commerce du Levant au Moyen Age, Leipzig, 1885-86.

Hill (J.H.), "Raymond of Saint Gilles in Urban's plan of Greek and Latin friendship", Speculum XXVI, April, 1951, PP. 265-276.

Hill (J.H.), Hill (L.L.) : **"The Convention of Alexius comnenus and Raymond of Saint Gilles"**, A.H.R., L VIII, (Jan. 1, 1952), PP. 322-327 .

Johns, (C.N.) : "The attempt to colonize Palestine and Syria in the twelfth and thirteenth centures", J.R.C.A.S., XXI, 1934, PP. 288-300.

Keer, (A.J.C.) : The Crusades, London 1966 .

King (E.J), : The Kinghts Hospitallers in the Holy Land, London, 1931.

Kohler, Ch. (ed.),: "Chartes de l'Abbaye de Notre-Dam de la Vallée de Josaphaten Terrs-Sainte (1108-1291), R.O.L., VII, PP. 108-197.

Lamb, (h.) : The Crusades, London, 1931.

La Monte, (J.L.) :

- Feudal monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, 1100 to 129, Cambridge, Mass, 1932.
- "Crusades and Jihad", in the Arab heritage, P. 159.
- "The Viscounts of Naplous in the twelfth Century", Syria, XIX, Paris, 1938.

Lane-Poole (S.):

-A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901.
- Saladin and The fall of the Kingdom of Jerusaaleem, Beirut, 1964.

Mayer, (H.E.) : The Crusades, translated form German by Hoihn Gillingam, Oxford University Press, 1972.

Michaud, (M.) : Histoire des Croisades, cinguieme édition, (Paris, 1838).

Munro (D.C.),: "The Speech of Pope Urban II at Clermont" A.H.R., II, (905), PP. 231-242.

Oman, (C.) : A History of the Art of War, the Middle Ages from fourth to fourteenth century, London, 1898.

Paetow, (L.J.) : A Guide to the Study of Medieval History, New York, 1959 .

Painter (S.) : A History of the Middle Ages, 284-1500, New York, 1953 .

Peter E., (ed.,): The First Crusade - the chronicle of Fulcher of Charters and other sources, materials, Pennsylvania 1971.

Pirenne, (H.),: Economic and Social History of Medieval Europe London, 1953.

Prawer, (J.) :

- **"The Assise de tenture and the assise de vente : A study of Landed property in the Latin Kingdom",** E.H.R., 2nd Series III, Nos, 1,2, 1950-1951.
- The Latin Kingdom of Jerusalem, European Colonialism in the Middle Ages, London, 1973.
- **"The settlement of the Latins in Jerusalem"** , Speculum, XXVII, (1952), PP. 490-503.

Rey (E.) ,: "Les seigneurs De Beirut", R.O.L., IV, Paris, 1896.

-**"Les Seigneurs de Mont - Réal de la Terre d'Outre le Jourdain",** R.O.L., IV, Paris, 1896

Riley - Smith, (J.S.C.) :

- **" A note on confraterniities in the Latin Kingdom of Jerusalem"** B.I.H.R., XLIV, Nov., 1971.
- **"Government in Latin Syria and the commercial privileges of foreign merchants",** in the Relations between East and West.

By Dr. Barker, Edinburgh, 1973.

- The feudal nobility and the Kingdom of Jerusalem, 1174-1277, London, 1972.

Runciman,(S.):

-A History of the Crusades, 4 Vols., Cambridge.

- "The First Crusaaade : Constantinople to Antioch" in Setton. (ed.), A History of the Crusades, 1, PP. 28-307.

Smail, (R.C.) :

- Crusading Warfare, 1097-1193, Cambridge, 1956.

- The Crusaders in Syria and the Holy Land , London, 1974.

Stevenson, (W.B.) : The Crusades in the East, Beirut, 1968.

Thatcher, O.J., & McNeal, E.H., (ed.): A source book; for Medieval History, New York.

Thompson, (J.W.) : Economic and social history of the Middle Ages, New York, 1959 .

Tierney (B.) & Painter, (S.) : Western Europe.

Unden, (G.) : A Dictionry of Chivalry.

Ullmann, (W.) : The Growth of Papal Government in the Middle Ages, London, 1974 .

Universl Jeurish Encylopedia : Arts "**Karaites**", Vol. 6, PP. 314-18; **"Rabbia and Rabbinate"**, Vol. 9, PP. 48-51 .